شرح الحكم

للعالم العلامة محمد بن ابراهيم

المعروف بابن عباد النفزي الرندي

على متن الحكم

للإمام المحقق أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم

ابن عطاء الله السكندري

تغمدهما الله بالرحمة والرضوان

وبهامشه شرح المحقق

الشيخ عبد الله الشرقاوي تغمده الله برحمته

١ - ٢

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع



قال العبد الفقير إلى الله تعالى المعتمد في غفران ذنوبه على الله محمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي لطف الله به: الحمد لله المنفرد بالعظمة والجلال، المتوحد باستحقاق نعوت الكمال، المتنزه عن الشركاء والنظراء والأمثال، المقدس عن سمات الحدوث من التغير والانتقال والاتصال والانفصال، عالِمُ الغيب والشهادة، الكبير المتعال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي من الضلال وعلى آله وأصحابه الذين خلصت لهم الأعمال وصفت منهم الأحوال وعلى جميع من اتبعهم فيما لهم من محامد الصفات ومحاسن الخلال **(أما بعد)** فإنّا لما رأينا كتاب الحكم المنسوب إلى الشيخ الإمام المحقق العارف المكاشف الولي الرباني أبي الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، رضي الله عنه، ونفعنا به من أفضل ما صنف في علم التوحيد وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد لكونه صغير الجرم عظيم العلم ذا عبارات رائقة ومعانٍ حسنة فائقة قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين وإبانة مناهج السالكين والمتجردين، أخذنا في وضع تنبيهٍ يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب وما تضمنه من لباب اللّباب، لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطوٍ على أسرار مصونة وجواهر حكم مكنونة لا يكشفها إلاّ هم ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقي عنهم ونحن في هذه الكلمات التي نوردها والمناحي التي نعتمدها غير مدّعين لشرح كلام المؤلف ولا أن ما نذكره فيه هو حقيقة مذهبهم حسبما يفعله كل مصنف فإنا إن ادّعينا ذلك كان منا إساءة أدبٍ تؤولُ بنا، والعياذ بالله، إلى العطب وكنا قد تعرضنا للخطر والضرر في تعاطي ما لا يليق بنا من شرح كلام السادة من أهل الله تعالى من غير خوفٍ ولا حذر وإنما نورد ذلك على حسب ما فهمناه من كلامهم وما انتهى إلينا علمه من مذاهبهم، فإن وافقنا فيه حقيقة الأمر وعثرنا على مكنون السر، كان ذلك من النعم التي لا نحصي لها شكراً ولا نقدر لها قدراً وإن خالفنا ذلك ولم نهتد إلى تلك المسالك، أحلناه على نقصنا وجهلنا وانتفى عنّا التغرير بقولنا وفعلنا واقتصر الأمر في ذلك علينا وكانوا مبرئين مما قلنا ونوينا، فلا جرم إذا كان هذا مقصدنا لوجود السَّلامة التي جعلناها معتمدنا فينبغي لنا أن نقدم، أولاً، كلام المؤلف رحمه الله تعالى مستوفى، ثم نتبعُهُ كلامنا بصيغة الخبر والدعوى، ونأتي فيه بعبارة أبسط من عبارته وإشارة أجلى من إشارته ليفهم بذلك ما عندنا في تفسير ما ذكره، لا أنه تفسيره حقيقته مقررة، ونذكر في أثناء ذلك كثيراً مما ناسب عندي من الكلام المنبه عليه لتتم بذلك الفائدة في الغرض المتوجه إليه وما ظهر لنا في كلامه، من تكرار معانٍ، وتداخل فروع ومبان، رأينا التنبيه عليه كالفرض، وأحلنا بعضه على بعض وعلى الناسخ لهذا المجموع أن يتبع فيه ما رسمناه، ويكتب نص كلامِ المؤلف بصبغ يخالف لونه لون ما يكتب به سواه أو يكتبهما بقلمين مختلفين في الغلظ والرقة ويوفي من ذلك كلاً منهما حقه ليكون ذلك أقرب إلى حصول المرام في استخراج فائدة ترتيب الكلام والله الموفق لا ربّ غيره ولا خير إلاّ خيره. والذي حملني على وضعه وتكلف تصنيفه وجمعه، بعد تقدم إرادة الله تعالى التي لا تغلب وتقديره الذي ليس للعبد منه منجى ولا مهرب، ثم الرأي الذي رأيناه من المطالب والمقاصد المعظمة ونبهنا عليه في صدر

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(أما بعد) فيقول: المرتجي غفر المساوىء عبد الله بن حجازي الخلوتي المشهور بالشرقاوي. هذه تقييدات لطيفة على حكم العارف بالله سيدي أحمد بن عطاء الله قُدّس سِرُه وقصده بها في الغالب خطاب المريدين الصادقين وترقيهم إلى

هذه المقدمة إلحاح بعض الأصحاب في ذلك عليَّ وترادهم بالمسألة إليَّ لكونهم على اعتقاد صحيح في هذه الطريقة، ومحبةٍ خالصة لأهل الحقيقة، فأسعفتهم بما طلبوه، وحققت لهم الأمل فيما رغبوه كما شاء الله تعالى وحكم وقضى به علينا وحتّم نفعنا الله وإياهم بما يجري منه على يدينا ولا جعله حجة عليهم ولا علينا، ونحن نستغفر الله تعالى مما تعاطيناه من الأمر العظيم واقتحمنا من الخطر الجسيم ونستعيذ به من الوقوع في حبائل العدوّ الرَّجيم، ونسأله توفيقاً يقفُ بنا على جادّة الاستقامة، ويصرفنا عن العمل بما يعقب ملامة أو ندامة، ونرجوه مع هذا إذ منَّ علينا بالانتماء إلى مذاهبهم، والانتساب إلى كريم مناسبهم، والتعليق بأذيالهم، ومحاولة النسج على منوالهم، ورزقنا شيئاً من تعظيمهم وحبهم وقسطاً من تكريمهم وبرّهم، أن لا يحرمنا من شفاعتهم، ولا يخرجنا من كنف ولايتهم ولا يطردنا عن بابهم الكريم ولا يصرفنا عن منهجهم القويم فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم:

لـي سـادةٌ مـن عـزِّهِـمْ أقـدامُـهُـم فـوقَ الـجـبـاه

إنْ لـم أكُـنْ مِـنْـهُـم فـلـي فـي حُـبِّـهـم عِـزٌّ وَجَـاه

اللهم، إنّا نتوسل إليك بحبهم، فإنهم أحبوك، ولم يحبوك حتى أحببتهم، فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك إلا بحظنا منك، فتمم لنا ذلك حتى نلقاك، يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم عليهم تسليماً كثيراً وهذا حين ابتدئ وبالله التوفيق ومنه الهداية إلى سواء الطريق.

قال المؤلف قدس الله سره: **(من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزّلل)**.

أقول: الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين والاعتماد على غيره وصف الجاهلين الغافلين كائناً ما كان ذلك الغير حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم. أما العارفون الموحدون، فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلى ربهم، فانون عن أنفسهم فإذا وقعوا في زلة، أو أصابتهم غفلة، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم وجريان قضائه عليهم أنهم إذا صدرت عنهم طاعة أو لاح عليهم لائح من يقظة لم يشهدوا في ذلك أنفسهم ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره، ولا فرق عندهم بين الحالين، لأنهم غرقى في بحار التوحيد، قد استوى خوفهم ورجاؤهم، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان ولا يزيد في رجائهم ما يأتون به من الإحسان.

قال شارح المجالس: العارفون قائمون بالله قد تولى الله أمرهم فإذا ظهرت منهم طاعة، لم يرجوا عليها ثواباً لأنهم لم يروا أنفسهم عمالاً لها، وإن ظهرت منهم زلة، فالدّية على القاتل لم يشاهدوا غيره في الشدة والرخاء قيامهم بالله ونظرهم إليه وخوفهم هيبته ورجاؤهم الإنس به اهـ وأما غيرهم، فبقوا مع نفوسهم في نسبة الأعمال

مقام العرفان، فينبغي لنا أن نقتصر على بيان مقصوده بحسب الإمكان * قال رضي الله عنه: **(من علامات الاعتماد على العمل)** أي عمل الجوارح من صلوات وأذكار وغيرها والمعتمد على ذلك العباد والمريدون، فالأولون يعتمدون عليها في دخول الجنة والتنعم فيها والنجاة من عذاب الله تعالى، والآخرون يعتمدون عليها في الوصول إلى الله تعالى وكشف الأستار عن القلوب وحصول الأحوال القائمة بها، والمكاشفات والأسرار كلاهما مذموم وناشئ من رؤية النفس ونسبة الأعمال إليها، حتى ينتج ما ذكر أما العارفون فلا يرون لأنفسهم شيئاً حتى يعتمدوا عليه، بل يشاهدون أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى، وأنهم محل لظهور ذلك فقط. * وأشار المصنّف رحمه الله تعالى إلى علامة يعرف بها العبد نفسه فمن علامة كونه من القسمين الأولين **(نقصان الرجاء)** أي رجائه في الله تعالى أن يدخله الجنة، وينجيه من العذاب إن كان من العباد، وأن يوصله إلى مطلوبه المتقدم إن كان من المريدين **(عند وجود الزلل)** بأن تصدر منه معصية كزنى وغفلة عن الله تعالى، وترك أوراد ومن علامة كونه من العارفين فناؤه عن نفسه، فإذا وقع في زلة أو أصابه غفلة شهد تصريف الحق فيه وجريان قضائه عليه، كما أنه إذا صدر منه طاعة، أو لاح له مشاهدة قلبية لم ير في ذلك حوله وقوته، فلا فرق عنده بين الحالين، لأنه غارق في بحار التوحيد قد استوى خوفه ورجاؤه، فلا ينقص العصيان خوفه ولا يزيد الإحسان رجاءه، فمن لم يجد هذه العلامة فيه فليجاهد نفسه بالرياضات والأذكار حتى يصل إلى مقام العرفان، ومراد المصنف بهذه الحكمة تنشيط السالك ورفع همته عن الاعتماد على شيء سوى مولاه لا التزهيد في الأعمال، لأنها سبب عادي في الوصول إلى

والأفعال إليها، وطلبوا الحظَّ لها وعليها فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا إلى أحوالهم فإذا وقعوا في زلة. نقص بذلك رجاؤهم، كما أنهم إذا عملوا طاعة، جعلوها من أعظم عددهم وأقوى معتمدهم فتعلقوا بالأسباب وحجبوا بتفرقهم بها عن ربِّ الأرباب فمن وجد هذه العلامة في نفسه، فليعرف منزلته وقدره ولا يتعدَّ طوره فيدّعي مقامات الخاصة من المقربين وإنما هو من عامة أصحاب اليمين وستأتي إشارات إلى هذا المعنى في مواضع من كلام المؤلف، قدس الله سره وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي والحافظ أبو نعيم الأصفهاني عن يوسف بن الحسين الرازي، رضي الله عنهم، قال: عارضني بعض الناس في كلام وقال لي: لا تستدرك مرادك من عملك إلا أن تتوب فقلت مجيباً: لو أن التوبة تطرق بابي، ما أذنت لها، على أني أنجو بها من ربي. ولو أن الصدق والإخلاص كانا عبدين لي لبعتهما، زهداً مني فيهما لأني إن كنت عند الله في علم الغيب سعيداً مقبولاً لم أتخلف باقتراف الذنوب والمآثم وإن كنت عنده شقياً مخذولاً، لم تسعدني توبتي وإخلاصي وصدقي وإن الله خلقني إنساناً بلا عمل ولا شفيع كان لي إليه وهداني لدينه الذي ارتضاه لنفسه فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] فاعتمادي على فضله وكرمه أولى بي إن كنت حراً عاقلاً من اعتمادي على أفعالي المدخولة وصفاتي المعلولة لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة معرفتنا بالكريم المتفضل قلت: وهذه الحكاية وأمثالها ربما تقرع سمع من لا حقيقة عنده من طريق القوم فينكر معناها ولا يعتقده أو يسلمه ويدعيه مقاماً لنفسه وكلتا الحالتين مؤدية بصاحبها إلى ضررٍ وخطر فليتق الله تعالى عبدٌ ليس له بصرٌ في هذه الطريقة أن ينكر ما ذكرناه فيقع في الاعتراض على السادة والأولياء وفي ذلك بعده من الله تعالى أو يدعيه مقاماً لنفسه من غير أن يستظهر عليها ويتوثق منها ويزنها بالمعيار الذي نبهنا عليه ومحل وجود ذلك ممن لم يصحح مقام الفناء عن النفس فيرتكب حينئذ مساخط الله تعالى ويتعدى حدوده ويجعل ذلك حجة لنفسه غلطاً وجهلاً وهذا باب من الزندقة والعياذ بالله سبحانه وتعالى:

(إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية).

الأسباب هاهنا عبارة عما يتوصل به إلى غرض ما ينال في الدنيا والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب لأجل ذلك فمن أقامه الحق تعالى في الأسباب وأراد هو الخروج منها فذلك من شهوته الخفية وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به وإرادته هو خلاف ذلك وإنما كانت خفية لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل وإنما قصد بذلك التقرب إلى الله تعالى بكونه على حال هي أعلى بزعمه لكن فإنه الأدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من إقامته إياه فيما أقامه فيه وتطلعه إلى مقام رفيع لا يليق به في الوقت وعلامة إقامته إياه في الأسباب أن يدوم له ذلك، وأن تحصل له ثمرته ونتيجته، وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامة في دينه، وقطعاً لمطمعه

الله تعالى ولا تحقير ما تنتجه من الأحوال وغيرها، لأن ذلك منَّة من الله تعالى لا ينبغي رده * **(إرادتك التجريد)** أي ميل نفسك أيها المريد الصادق إلى التجريد عن الأسباب الظاهرية، أي خروجك عنها وعدم معاناتها **(مع إقامة الله إياك في الأسباب)** وعلامة ذلك أن يهيئها لك، وأن تجد السلامة في دينك عند معاناتها وينقطع بها طمعك عما بأيدي الناس ولا يشغلك عما أنت فيه من وظائف العبادات الظاهرة والأحوال الباطنة **(من الشهوة)** أي من شهوات النفوس التي تدعو إليها **(الخفية)** وكانت شهوة لعدم وقوفك على مراد سيدك، وموافقتك مراد نفسك وخفية، لأن ظاهر ذلك أن مرادك بالتجرد الانقطاع إلى الله تعالى والتقرب إليه، وباطنه أن مرادك الشهرة بالولاية لتقصدك الناس بالاعتقاد والتقرب إليك، فتقطع عما أنت بصدده فقد قال العارفون: إقبال الناس على المريد قبل كماله سم قاتل، وربما انقطعت بذلك عن وظائفك، وأورادك وصرت تتطلع لما بأيدي الناس **(وإرادتك الأسباب)** أي التسبب والاكتساب **(مع إقامة الله إياك في التجريد)** أي بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب، وجعل نفسك مطمئنة عند تعذره متعلقة بمولاها، ودمت على الاشتغال بوظائف العبادات **(انحطاط عن الهمة العلية)** لإرادتك الرجوع إلى الخلق بعد التعلق بالحق، ولو لم يكن إلا مخالطة أبناء الدنيا فيما هم فيه، لكان كافياً في دناءة الهمة فالواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الحق فيه، ويرضى به حتى يتولى الله إخراجه منه، ولا يخرج بنفسه وإرادته وتسويل الشيطان، فيقع في بحر القطيعة والعياذ بالله تعالى.

عن غيره، وحسن نيته في صلة الرَّحم، أو إعانة فقير معدم، إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ومن أقامه الحق تعالى في التجريد وأراد الخروج منه إلى الأسباب فذلك من انحطاط همَّته وسوء أدبه وكان واقفاً مع شهوته الخبيثة لأن التجريد مقامٌ رفيع أقام الحق تعالى فيه خواصَّ عباده من الموحدين والعارفين فإذا أقامه الحق تعالى في مقام الخواص، فلم ينحط عن رتبتهم إلى منازل أهل الانتقاص.

قال الشيخ أبو عبد اللّه القرشي رضي الله عنه: من لم يأنف من مشاركة الأضداد في الأسباب فهو خسيس الهمة وعلامة إقامته إياه في التجريد ما ذكرناه من الدَّوام ووجدان الثمرة ومن ثمرات ذلك طيب وقت المتجرد وصفاء قلبه ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم والهمة حالة للقلب وهي قوة إرادة وغلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما وتكون عالية إن تعلقت بمعالي الأمور وسافلة إن تعلقت بأدانيها.

قال الشاعر وأجاد:

وقائلة لِمْ علَتْكَ الهمُومُ ... وأمرُكَ ممتثلٌ في الأمَمْ
فقلْتُ ذَريني على حالَتِي ... فإنَّ الهمومَ بقدْرِ الهِمَمْ

وقال الآخر:

إذا أعطشتكَ أكفُّ اللئام ... كفتك القناعةُ شبعاً وريّا
فكنْ رَجُلاً رِجلُهُ في الثَّرى ... وهامَةُ هِمَّتِهِ في الثريا
فإنَّ إراقةَ ماءِ الحيا ... ةِ دونَ إراقةِ ماءِ المحيّا

وما ذكرته من معاني الإقامة في نوعي الأسباب والتجريد هو شيء فهمته مما يقوله بعد هذا من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج والله أعلم. وقد ذكر في التنوير هذه المسألة بنصها حاكياً عن هذا الكتاب وقال بأثره: وافهم، رحمك الله، أنَّ من شأن العدو أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله فيحقره عندك لتطلب غير ما أقامك الله فيه فيشوش عليك قلبك ويكدر وقتك وذلك أنه يأتي للمتسببين فيقول لهم: لو تركتم الأسباب وتجردتم لأشرقَتْ لكم الأنوار ولَصَفَتْ منكم القلوبُ والأسرار قائلاً: وكذلك صنع فلان وفلان ويكون هذا العبد ليس مقصوداً بالتجريد ولا طاقة له به، إنما صلاحه في الأسباب، فيتركها، فيتزلزل إيمانهُ ويذهب إيقانُهُ، ويتوجه إلى الطلب من الخلق وإلى الاهتمام بأمر الرزق فيرمي في بحر القطيعة وذلك قصد العدو منه لأنه إنما يأتيك في صورة ناصح كما أتي أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وقالَ مَا نَهَاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ وقاسَمَهُما إنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠ـ ٢١] كما تقدم بيانه، وكذلك يأتي المتجردين ويقول لهم: إلى متى تتركون الأسباب؟ ألم تعلموا أن ترك الأسباب تتطلع معه القلوب إلى ما في أيدي الناس، ويفتح باب الطمع ولا يمكنكم الإسعاف والإيثار ولا القيام بالحقوق، وعوض ما تكون منتظراً ما يفتح به عليك من الخلق فلو دخلت في الأسباب، بقي غيرك منتظراً ما يفتح به عليه منك إلى غير ذلك ويكون هذا العبد قد طاب وقته وانبسط نوره ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق، فلا يزال به، حتى يعود إلى الأسباب، فتصيبه كدورتُها وتغشاه ظلمتها ويعود الدائم في سببه أحسن حالاً منه لأنَّ ذلك ما سلك طريقاً ثم رجع عنها ولا قصد مقصداً ثم انعطف عنه فافهم واعتصم بالله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم وإنما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله تعالى فيما هم فيه وأن يخرجهم عن مختار الله لهم إلى مختارهم لأنفسهم، وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٨٠] فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك والمخرج الصدق أيضاً كذلك فافهم والذي يقتضيه الحق منك، أن تمكث حيث أقامَك حتى يكون الحق سبحانه، هو الذي يتولى إخراجك كما تولى إدخالك وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب.

قال بعضهم: تركت السبب كذا كذا مرة فعدت إليه، ثم تركني السبب فلم أعد إليه. ودخلت على الشيخ رضي الله عنه وفي نفسي العزم على التجريد قائلاً في نفسي: إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة بعيد من

الاشتغال بالعلوم الظاهرة ووجود المخالطة للناس، فقال لي من غير أن أسأله: صحبني إنسانٌ مشتغلٌ بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذه الطريق شيئاً فجاء إليَّ فقال: يا سيدي أخرج عما أنا فيه وأتجرد لصحبتك فقلت له: ما ليس الشأن ذا ولكن امكث فيما أنت فيه وما قسم الله لك على أيدينا فهو إليك واصل ثم قال الشيخ ونظر إليّ: وهكذا الشأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى إخراجهم فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى ولكنهم، كما قال رسول الله ﷺ: «هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُم» اهـ كلامه في التنوير في هذا المعنى وهو كلامٌ حسن وإنما أثبتناه هاهنا على طوله لأنه تولى فيه بيان مسألته التي ذكرها في هذه الكتاب بنفسه بياناً شافياً فنقلناه بلفظه وودِدنا لو أن جميع مسائله تكون هكذا.

(سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار) الهمم السوابق هي قوى النفس التي تنفعل عنها بعض الموجودات، بإذن الله تعالى، وتسميها الصوفية همة فيقولون أحال فلان همته على أمر ما فافعل له ذلك وهذه الهمم السابقة لا تنفعل الأشياء عنها إلا بالقضاء والقدر وهو معنى قولنا بإذن الله تعالى، فهي على حال سبقيتها ونفوذها، لا تخرق أسوار الأقدار ولا تنفذها وهذه الهمم قد تكون للأولياء كرامات وقد تكون لغيرهم استدراجاً ومكراً كما تكون للعائن والساحر وقد ثبت أن العين حق والسحر حق ومعناه ما ذكرناه.

وحاصل ذلك، أنه يجب أن يعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ولا فاعلية وأن الفاعل هو الله تعالى وحده، وعندها لا بها وكأن المؤلف رحمه الله إنما أورد هذه المسألة بين يديّ كلامه في التدبير ليعرِّفك بذلك أن وجود التدبير لا جدوى له ولا فائدة، لأن الهمّة الفعالة إذا لم تفد في خرق أسوار الأقدار شيئاً، كيف يفيد في ذلك التدبير؟ وما لا فائدة فيه فضول لا ينبغي أن يتشاغل به ويتعب فيه ذوو العقول ولذلك قال: **(أرح نَفْسَكَ مِنَ التَّدبيرِ فما قامَ به غيرك عنك لا تقم به لنفسكَ)** تدبير الخلق لأمور دنياهم على الوجه الذي نقوله مذموم، لأن الله تعالى قد تكفل لهم بذلك وقام به عنهم، وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه ويقوموا بحق عبوديته ووظائف تكليفاته فقط، وهو أن يقدر العبد لنفسه شؤوناً يكون عليها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال ويستعد لذلك ويهتم لأجله، وهذا تعب عظيمٌ استعجله لنفسه، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع فيخيب ظنه ويبطل سعيه ثم فيه من ترك العبودية، ومضادة أحكام الربوبية، ومنازعة القدر، وإضاعة العمر، ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه وقطع مواده وأسبابه.

(سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار) هذه الحكمة كالتعليل لما قبلها وتصلح أيضاً لما بعدها كأنه قال: إرادتك أيها المريد خلاف ما أراده مولاك لا تجدي نفعاً، لأنه إذا كانت سوابق الهمم، أي الهمم السوابق أي سريعة التأثير في الأشياء، وهي قوى النفس التي تنفعل عنها الأشياء، وتكون للولي كرامة يقال فعل كذا بهمته إذا وجهها إليه فوجده ولغيره كالساحر والعائن إهانة لا تنفعل عنها الأشياء إلا بتقدير الله تعالى، أي بإذنه سبحانه فالهمم غير السوابق كهمتك أيها المريد لا أثر لها من باب أولى، ففي هذا تريد نار الحرص المشتعلة في قلبه حتى يخيل له أن ذلك الشيء طوع يده، وأنه يدركه لا محالة، والإضافة في قوله سوابق الهمم من إضافة الصفة إلى الموصوف كما تقرر وفي قوله: أسوار الأقدار من إضافة المشبه به للمشبه ثم قال: **(أرح نفسك)** أيها المريد **(من التدبير)** لأمر دنياك وهو أن يقدر الشخص في نفسه أحوالاً يكون عليها على ما تقتضيه شهوته، ويدبر لها ما يليق بها مِنْ أحوال وأعمال ويهتم لأجل ذلك، وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع فيخيب ظنه، وفي تعبيره بأرح إشارة إلى أن المطلوب تركه للمريد هو ما فيه تعب ومعاناة إما تدبير أمور معاشه على وجه سهل يستعين به على مطلوبه، فلا بأس به ولذا ورد التدبير نصف المعيشة **(فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك)** يعني أن الأمر مفروغ منه إذ قد قام به غيرك، وهو الله تعالى وما قام به غيرك لا فائدة في قيامك به، فيكون قيامك فضولاً لا ينبغي أن يتلبس به ذوو العقول وأيضاً فيه ترك العبودية ومضادة لأحكام الربوبية ومنازعة القدر، وإنما خاطب المريد بذلك، لأنه إذا توجه لحضرة الرب واشتغل بأوراد الطريق وأعماله تعطلت عليه أسباب معاشه في الغالب فيأتيه الشيطان ويوسوس له، ويصير يدبر في نفسه أموراً لا يقع أكثرها وذلك يشغله عما هو بصدده، فيرجع عما هو متوجه له ودواء ذلك كثرة الذكر والرياضة حتى يرجع عنه الشيطان، وتحصل له الراحة من تعب التدبير ولذا قال:

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي: إن كان ولا بدَّ أن تدبروا فدبروا أن لا تدبروا وهذه المسألة أساس طريق القوم بل هي جملته وكيته والكلام فيها طويل عريض وإنما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه، لأن المؤلف رحمه الله، أفرد في هذا المعنى كتاباً سماه [التنوير في إسقاط التدبير] أحسن فيه غاية الإحسان وقرَّبَ الأمر فيه بحيث يستغني به عما صنف في هذه الطريقة من ديوان فتحصيله متعيِّنٌ على كل مريدٍ مجيب **(اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك)** الشيء المضمون للعبد هو: رزقه الذي يحصل له به قوام وجوده في دنياه ومعنى كونه مضموناً، أن الله تعالى تكفل بذلك، وفرغ العباد عنه، ولم يطلب منهم الاجتهاد في السعي فيه ولا الاهتمام له والشيء المطلوب من العبد، هو العمل الذي يتوصل به إلى سعادة الآخرة، والقرب من الله تعالى من عبادات وطاعات. ومعنى كونه مطلوباً، أنه موكول إلى اكتساب العبد له واجتهاده فيه ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته، بهذا جرت سنة الله تعالى في عباده.

قال الله عزّ وجلّ في المعنى الأول الذي ضمنه للعبد ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَها الله يرزقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠] وقال تعالى في المعنى الثاني، الذي طلبه منه ﴿وأن ليس للإنسانِ إلاّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] وقد روي في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: عبدي أطعني فيما أمرتك ولا تعلمني بما يصلحك وذكر في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما بَالُ أقوامٍ يُشَرِّفُونَ المُتْرَفِينَ وَيَسْتَخِفُّونَ بالعابِدِينَ وَيَعْمَلُونَ بالقُرْآنِ ما وافَقَ أهوَاءَهُمْ، وَمَا خالَفَ أهواءَهُمْ تَرَكُوهُ فعندَ ذلِكَ يؤْمِنُونَ ببعضِ الكتابِ وَيَكْفِرُونَ ببعضٍ يَسْعونَ فيما يدرك بغيرِ سَعْيٍ مِنَ القَدَرِ المَقْدُورِ وَالأَجَلِ المَكْتُوبِ والرِّزْقِ المَقْسُوم وَلاَ يَسْعَونَ فيما لا يُدركُ إلاَّ بالسَّعْيِ مِنَ الجَزَاءِ المَوْفُورِ وَالسَّعْيِ المَشْكُورِ والتِّجَارَةِ الَّتِي لا تَبُور» وقال إبراهيم: الخواص العلم كله في كلمتين: لا تتكلف ما كفيت ولا تضيع ما استكفيت فمن قام بهذا الأمر على ما ينبغي له من الوجه الذي ذكرناه من الاجتهاد في الأمر المطلوب منه وتفريغ القلب عن الأمر المضمون له فقد انفتحت بصيرته وأشرق نور الحق في قلبه وحصل على غاية المقصود، ومن عكس هذا الأمر، فهو مطموس البصيرة، أعمى القلب، وفعله دليل على ذلك.

والبصيرة: ناظر القلب كما أن البصر ناظر العين، وناظر القلب، إنما ينظر إلى العاقبة، والعاقبة للمتقين، فالتقوى هي التي يجب على العبد أن يجتهد فيها ولا يتوانى ويقصر عما يمنع منها وتعبير المؤلف رحمه الله بالاجتهاد إشعار بأن طلب الرزق من غير اجتهاد فيه غير مقصود بالكلام وهو كذلك لأنه مباح ومأذون فيه فلا يدل ذلك على انطماس بصيرة صاحبه إلاّ إن اقترن به تقصير فيما أمر به.

قال في التنوير في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيها لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] أي، قم بخدمتنا ونحن نقوم لك بقسمتنا وهما شيئان شيء ضمنه الله لك فلا تتهمه وشيء طلبه منك فلا تهمله فمن اشتغل بما ضمن له عما طلب منه، فقد عظم جهله واتسعت غفلته، وقلَّ أن يتنبه لمن يوقظه، بل حقيق على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن له إذا كان الله سبحانه وتعالى قد رزق أهل الجحود كيف لا يرزق أهل الشهود وإذا كان سبحانه قد أجرى رزقه على أهل الكفران، كيف لا يجري رزقه على أهل الإيمان، فقد علمت أيها العبد، أن الدنيا مضمونة لك أي مضمون لك منها ما يقوم بأودك، والآخرة مطلوبة منك، أي العمل لها، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما ضمن لك

(اجتهادك فيما ضمن لك) أي تكفل الله لك به وهو الرزق تفضلاً منه وإحساناً قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠] إلى غير ذلك من الآيات **(وتقصيرك فيما طلب منك)** وهو العمل الذي تتوصل به عادة إلى مولاك من أذكار وصلوات، وأوراد وغير ذلك من أنواع الطاعات قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالمطلوب من المريد السعي في قوت الأرواح وهو ذكر المولى وفعل ما يقرب إليه لا قوت الأشباح لأنه قائم به غيره وهو مولاه **(دليل على انطماس)** أي عمى **(البصيرة منك)** وهي عين في القلب تدرك الأمور المعنوية كما أن البصر يدرك الأمور المحسوسة وفي تعبيره بالاجتهاد إشارة إلى أن طلب الرزق من غير اجتهاد لا بأس به

'قتطعك عن اهتمامك بما طلب منك من أمر الآخرة حتى قال بعضهم: إن الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منّا الآخرة فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا **(لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدّعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختار لنفسك وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد)** حكم العبد أن لا يتخير شيئاً على مولاه ولا يجزم بصلاحية حال من الأحوال له لأنه جاهل من كل وجهٍ قد يكره الشيء وهو خير له ويحبُ الشَّيْءَ وهو شر له.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لا تختر من أمرك شيئاً واختر أن لا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله عزّ وجلّ وربك يخلق ما يشاء ويختار.

ودخل رجل على سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه، وهو يتألم لما به فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدي فسكت ولم يجاوبه ثم سكت ذلك الرجل ساعة وقال: الله يعافيك يا سيدي. فقال له الشيخ أبو العباس: وأنا ما سألت الله العافية فقد سألته العافية والذي أنا فيه هو العافية هذا رسول الله ﷺ قد سأل الله العافية وقد قال: ما زالت أكلة خيبر تعاودني والآن قد قطعت أبهري، وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مسموماً وسيدنا عمر رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مطعوناً، وسيدنا عثمان رضي الله عنه سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مذبوحاً وسيدنا علي رضي الله عنه سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مقتولاً، فإذا سألت الله تعالى العافية فاسأله من حيث يعلم أنها لك عافية اهـ.

فعلى العبد أن يسلم نفسه إلى مولاه ويعلم أن الخيرة له في جميع ما به يتولاه وإن خالف ذلك مراده وهواه فإذا دعا وطلب من مولاه شيئاً يرى أن له فيه مصلحة، أيقن بالإجابة لا محالة قال الله عزّ وجلّ: ﴿وقال ربكم ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿وإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنّي فإنّي قَرِيب أجيبُ دعوةَ الدَّاع إذا دعان﴾ [البقرة: ١٨٦] وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعاءٍ إلّا آتاه الله ما سَأَلَ أو كف عنه من السُّوءِ مثله مَا لَمْ يَدعُ بإثم أو قطيعةِ رَحِم» وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ داع يدعو إلا استجابَ الله له دعوتَهُ أو صرَفَ عنه مثلها سوءاً أو حط من ذنوبه بقدرها ما لم يدعُ بإثم أو قطيعةِ رَحِم» فإذا الإجابة المطلقة صلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق إلا أن الإجابة أمرها إلى الله تعالى يجعلها متى شاء وقد يكون المنع وتأخر العطاء إجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى ذلك فلا ييأس العبد من فضل الله تعالى إذا رأى منعاً أو تأخيراً وإن ألح في دعائه وسؤاله وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيراً له فقد جاء في بعض الأخبار: يبعث عبد فيقول الله تعالى له: ألم آمرك برفع حوائجك إليّ؟ فيقول: نعم وقد رفعتها إليك فيقول الله تعالى: ما سألت شيئاً إلا أجبتك فيه ولكن نجزت لك البعض في الدنيا وما لم أنجزه في الدنيا فهو مدخر لك فخذه الآن حتى يقول ذلك العبد: ليته لم يقضِ لي حاجة في الدنيا.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ معنى النهي عن الاستعجال في إجابة الدعاء في قوله: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ

للمريد، ولا يدل على انطماس بصيرته ثم قال: * **(لا يكن تأخر أمد)** أي زمن **(العطاء)** بتأخر ما يقع فيه **(مع الإلحاح في الدعاء)** بزوال أوصاف بشريتك ورفع الحجاب عنك ووصولك إلى مولاك **(موجباً ليأسك)** أي من إجابة الدعاء **(فهو ضمن لك الإجابة)** بنحو قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ **(فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد)** فقد يكون الحجاب على المريد خيراً له ليجتهد في الأعمال، ويدوم خوفه من مولاه لكن الشيطان ربما أتى له. وقال له: لو كنت من أهل الإرادة لأجابك مولاك وأزال أوصاف بشريتك، وحصل لك مقصودك وجهل أن عدم إجابته قد يكون خيراً له، وقد تكون بشريته غليظة، فلا تنقطع إلا بعد مدة طويلة وما أتى به من المجاهدات والرياضات لا يفيد ذلك في تلك المدة، وقد شبه بعض العارفين الطبيعة بأرض ذات شوك فقد يكون الشوك غليظاً كثيراً لا ينقطع إلا بعد مدة ومعاناة تامة، وقد يكون قليلاً ضعيفاً أدنى شيء يزيله، وكذلك أوصاف النفوس قَدْ تكون خبيثة كثيرة، فتحتاج إلى مدة طويلة وشدة معاناة في قطعها فإذا حصل المقصود، ولو في آخر نفس من عمره كان هو الغاية القصوى وكان ما تعب فيه حقيراً بالنسبة لذلك، وقد تكون غير ذلك، فلا تحتاج إلى طول مدة وكثرة معاناة.

يعجل فيقولُ قَدْ دَعَوْتُ فلم يُسْتَجَبْ لِي» وقد دعا موسى وهارون عليهما السّلام عَلَى فرعون فِيما أَخْبَرَ اللّهُ بِهِ عَنْهُما حيث قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] قالوا وكان بين قول الله تعالى لهما قد أجيبت دعوتكما وهلاك فرعون أربعون سنة. قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيما﴾ أي على عدم استعجال ما طلبتما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون هم الذين يستعجلون الإجابة وناهيك شرفاً وحظاً ما يتحصل له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه. فقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله يُحِبُّ الملحِّين في الدُّعاءِ» وقد جاء في الحديث: قال جبريل عليه السلام يا رب عبدك فلان اقض له حاجته فيقول دعوا عبدي فإني أحب أن أسمع صوته رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ. ومقتضى هذا أن مِنَ الناس مَنْ يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته وقد روي هذا المعنى أيضاً منصوصاً فليكن العبد خائفاً من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه قال أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: كل من لم يكن في دعائه تاركاً لاختياره وراضياً باختيار الحقّ، فهو مستدرجٌ وهو ممن قيل له اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته، فإذا كان في دعائه، مع اختيار الحق تعالى لا مع اختيار نفسه، كان مجاباً وإن لم يعط والأعمال بخواتيمها اهـ.

وقد تكون الإجابة مرتبةً على شروط لا علم للداعي بها، فتؤخر لعدم وقوع ذلك أو بعضه وذلك مثل وجود الاضطرار قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فرتب الإجابة على الاضطرار. وقال بعض العارفين: إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبدٍ رزقه الاضطرار في الدعاء والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه في جميع حالاته.

قال بعضهم: المضطر الذي إذا رفع إلى الله تعالى يده لم يرَ لنفسه عملاً وهذا حالٌ شريفٌ ومقامٌ منيف يعسر على أكثر الناس الوصول إليه فكيف يتحقق ما ينبني عليه وفي المسألة التي بأثر هذا تنبيه على هذا المعنى **(لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه لئلا يكون ذلك قَدْحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك)** الحق سبحانه لا يخلف الميعاد فمن وعده مولاه شيئاً وإن كان معين الزمن ثم لم يقع ذلك الموعود فلا ينبغي أن يشككنه ذلك في صدق وعذر به لجواز أن يكون وقوع ذلك الوعد معلقاً على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد فعلى العبد أن يعرف قدره ويتأدب مع ربه ويسكن إليه فيما وعده به ويطمئن إليه ولا يتشكك في ذلك ولا يتزلزل اعتقاده فيه، فمن كان على هذا الوصف، فهو عارف بالله تعالى، سالم البصيرة منور السريرة وإلا فعلى العكس **(إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قلَّ عملك فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف**

(لا يشككنك في الوعد) الذي وعدك به مولاك في منام أو على لسان ملك أو بإلهام رحماني **(عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه)** أي وإن كان زمنه معيناً بأن ألهمت أنه يحصل لك في الوقت الفلاني فتح أو يحصل في العام رخاء أو غير ذلك **(لئلا يكون ذلك)** الشك **(قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك)** فمن وعده مولاه شيئاً وإن كان معين الزمان ثم لم يقع ذلك الموعود فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعد ربه لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقاً على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد لحكمة يريدها ومن هذا القسم ما يقع لبعض الأولياء أن يخبر بأنه يحصل في هذا العام كذا ثم لا يحصل فيقع بعض الناس في أعراضهم ومنه ما وقع له ﷺ عام الحديبية من إخباره للصحابة بالفتح ثم لم يحصل في ذلك العام بل في عام بعده فإذا خطر للمريد خاطر رحماني أو ملكي ثم لم يحصل مقتضاه لا ينبغي أن يشك في حصول الموعود بل ينبغي أن يعرف قدره ويتأدب مع ربه ويسكن إليه فيما وعده به ولا يتشكك في ذلك ولا يتزلزل اعتقاده فمن كان كذلك فهو عارف بالله سالم البصيرة منور السريرة وإلا فعلى العكس من ذلك **(إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قل)** بفتح الهمزة **(عملك)** أي بقلة عملك اعلم أن السالك لا بد له في سلوكه من كثرة الأعمال ليقطع عقبات النفوس ويصل إلى حضرة الرب فإذا شرع في المجاهدة وطالت عليه المدة ربما كسل عن بعض أنواع العبادات والأوراد التي رتبت عليه فيحصل عنده شدة الهم والغم وربما تسول له نفسه الترك بالكلية مع كونه قد حصل عنده نوع من معرفة الله تعالى فأرشده الشيخ رضي الله عنه إلى أنه إذا فتح له وجهة من التعرف أي نوعاً من المعرفة كأن عرف

إليك. ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والأعمال أنت مهديها إليه وأين ما تهديه إليه مما هو موردُهُ عليك) معرفة الله تعالى هي غاية المطالب ونهاية الآمال والمآرب، فإذا واجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها وفتح له باب التعرف له منها وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها، فذلك من النعم الجزيلة عليه، فينبغي أن لا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر وما يترتب عليها من جزيل الأجر. وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقربين المؤدي إلى حقائق التوحيد واليقين من غير اكتسابٍ من العبد ولا بعمل والأعمال التي من شأنه أن يتلبس بها وهي باكتسابه وبعمله فلا تسلم من دخول الآفات عليها والمطالبة بوجود الإخلاص فيها وقد لا يحصل له ما يريد من الثواب عند مناقشة الحاسب، وأين أحدهما من الآخر، ومثاله ما يصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التي تنغص عليه لذات الدنيا وتمنعه من تكثير أعمال البر، فإن مراده أن يستمر بقاؤه في دنياه طيب العيش ناعم البال ويكون حاله في طلب سعادة الآخرة حال المترفين المتورعين فلا تستخف نفسه إلا بالأعمال الظاهرة التي لا كبيرَ مؤنةٍ عليه فيها ولا مشقة ولا تقطع عليه لذته ولا تفوته شهوته ومراد الله منه، أن يطهره من أخلاقه اللئيمة، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة، ويخرجه من أسر وجوده إلى متسع شهوده ولا سبيل له إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام إلا بما يضاد مراده ويشوش عليه معتاده ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة، فإذا فهم هذا، علم أن اختيار الله له ومراده منه خيرٌ له من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه أنزلت بعبدي بلاء فدعاني فماطلته بالإجابة فشكاني فقلت: عبدي كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟ وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي المؤمِنَ فَلَمْ يُشْكُنِي إلى عُوَّادِهِ أنشطتُهُ مِنْ عِقالِي وَبَدَّلْتُه لحماً خيراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خيراً مِنْ دَمِهِ وَيَسْتأنِفُ العَمَلَ».

وروي عن سعيد المقبري قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال الله تبارك وتعالى: إني أبتلي عبدي المؤمن فإذا لم يشكُ إلى عوّاده، حللت عنه عقدي، وبدلت له لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم قلت له: استأنف العمل.

قال أبو عبد اللّه محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: ولقد مرضت في سالف أيامي مرضةً، فلما شفاني الله تعالى منها، مثلت في نفسي ما دبر الله تعالى من هذه العلة في مقدار هذه المدة وبين عبادة الثقلين في قدر أيام علتي فقلت: لو خيرت بين هذه العلة وبين أن تكون لي عبادة الثقلين في مقدار مدتها إلى أيهما يميل اختياري؟ فصح عزمي ودام يقيني ووقفت بصيرتي أن مختار الله تعالى أكثر شرفاً وأعظم خطراً وأنفع عاقبةً وهي العلة التي دبرها لي ولا شوب فيه إذا كان فعله، فشتان بين فعله بك لتنجو به، وبين فعلك لتنجو به فلما رأيت ذلك دق في عيني عبادة الثقلين في مقدار تلك المدة في جنب ما آتاني، فصارت العلة عندي نعمة، وصارت النعمة منّة، وصارت المنة أملاً وصار الأمل عطفاً فقلت في نفسي بهذا كانوا يستمرون في البلاء على طيب النفوس مع الحق وبهذا الذي انكشف كانوا يفرحون بالبلاء اهـ.

بطريق الذوق أن الله تعالى حاضر معه مطلع على حاله أو عرف ذوقاً أنه لا فاعل إلا الله بأن حصل له تجلي الأفعال الذي هو أول التجليات عندهم فلا يبال حينئذ بقلة العمل لأن القصد من العمل القرب من حضرة الرب وفتح تلك الوجهة دليل على ذلك وعلى أنه معتنى به وأنه سيصير من أهل وده وقد تكون قلة العمل بسبب مرض يعوقه عنه فإذا حصل عنده نوع من المعرفة بأن عرف أن نزول المرض به خير من الصحة لما فيه من ترقيه وأن الله يفعل به ما يريد فلا يبال حينئذ بقلة العمل **(فإنه ما فتحها)** أي تلك الوجهة **(لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك)** أي يواجهك بفضله ويقرب منك ويتجلى عليك بصفاته وأسمائه ولا شك أن ذلك أعظم من كثرة الأعمال الظاهرة **(ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك)** أي محصله لك بطريق التفضل **(والأعمال أنت مهديها إليه وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك)** فإن هدية العبيد وإن كانت جليلة هي حقيرة بالنسبة إلى هدية السيد وإن كانت قليلة على أن هدية العبد هنا نفعها عائد عليه لا على السيد وحاصل ما ذكر أن قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بدونها فإذا حصل للسالك بعض المعرفة ينبغي له أن يوجه قلبه إلى حضرة مولاه ليزيد من معرفته وقربه ويهتم بذلك أكثر من اهتمامه بالأعمال الظاهرة ولذا كانت أعمال العارفين الظاهرة القليلة في أواخر أمرهم وما زالوا يحنون إلى البداية لما فيها من كثرة الأنوار بسبب كثرة الأعمال ثم قال:

فهذه هي وجهة التعرف التي فتحها الله تعالى له وحصلت له الغبطة بها وآثرها على عبادة الثقلين والله أعلم. وإذ أنزل الله تعالى على العبد شيئاً من البلايا، فليستشعر ما ذكرناه، وليجعله نصب عينيه، وليجدد تذكاره على نفسه، حتى يحصل له من السكون والطمأنينة ما يحمل عنه أثقال ذلك ويزيل عنه مرارته ويوجده حلاوته، وعند ذلك، يكون حاله في بلائه، حال الشاكرين من الفرح والاغتباط به، فيرى من حق شكره أن يأتي بما يمكنه من أعمال بره واعتبر جميع ما قلناه في هذه المسألة بالحكاية التي ذكرها أبو العباس بن العريف رحمه الله في كتابه: متفاح السعادة ومنهاج سلوك طريق الإرادة. قال فيه: كان بالمغرب، عمره الله بالإسلام، رجلٌ يدعى أبا الخيار رحمه الله ونفعنا بذكره، أصله من صقلية وموطنه بغداد وجاوز سنة التسعين وهو في الرق لم يعتقه مولاه وذلك منه عن قصد واختيار، وعمَّ جسده الجذامُ ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة قال الذي حدثني: رأيته يصلّي على الماء ثم لقيت بعده محمداً الإسفنجي فإذا هو الأبرص فقلت له: يا سيدي كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلاً من أعدائه حتى أنزله بكم وأنتم خاصة أوليائه قال: فقال لي: اسكت لا تقل ذلك إنه لما أشرفنا على خزائن العطاء لم نجد عند الله شيئاً أشرف ولا أقرب إليه من البلاء، فسألناه إياه فكيف بك لو رأيت سيد الزهاد وقطب العباد وإمام الأولياء الأوتاد بغار في أرض طرسوس وجبالها لحمه يتناثر وجلده يسيل قيحاً وصديداً وقد أحاط به الذباب والنمل فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة وأسكن جسده من العافية حتى يشد نفسه بالحديد ويستقبل القبلة عامة ليله حتى يطلع الفجر اهـ وسيأتي شيء من كلام المؤلف رحمه الله، في هذا المعنى والتنبيه عليه والله ولي التوفيق.

(تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال) واردات الأحوال هي ما يرد على القلوب من المعارف الربانية والأسرار الروحانية وهي التي توجب لها أحوالاً حميدة فمنها وارد يوجب هيبة ومنها وارد يوجب أنساً ومنها وارد يوجب قبضاً ومنها وارد يوجب بسطاً إلى غير ذلك من مختلفات الأحوال ولما كانت هذه الواردات أيضاً متنوعة، كانت أجناس الأعمال التي تقتضيها هذه الواردات أيضاً متنوعة والأعمال الظاهرة أبداً تبع لأحوال القلوب الباطنة كما سيقوله المؤلف بعد هذا في قوله حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال **(الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها)** إخلاصُ كُلِّ عبد في أعماله على حسب رتبته ومقامه فأما من كان منهم من الأبرار، فمنتهى درجة إخلاصه، أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلي والخفي وقصد موافقة أهواء النفس طلباً لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب وحسن المآب وهرباً عما أوعد به المخلطين من أليم العذاب وسوء الحساب وهذا من التحقق بمعنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي لا نعبد إلا إياك ولا نشركُ في عبادتنا غيرك وحاصل أمره خروج الخلق عن نظره في أعمال بره مع بقاء رؤيته لنفسه في النسبة إليها والاعتماد عليها وأما من كان منهم من المقربين فقد جاوز هذا إلى عدم رؤيته لنفسه في عمله فإخلاصه إنما هو في شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه في ذلك حولاً ولا قوة ويعبر عن هذا المقام بالصدق الذي به يصح مقام الإخلاص وصاحب هذا

(تنوعت أجناس الأَعمال) على العاملين **(لتنوع واردات الأحوال)** أي الواردات التي تنتج أحوالاً قائمة بقلوبهم تقتضي ميلهم إلى تلك الأعمال أو واردات هي الأحوال فإن الوارد قد يسمى حالاً كما سيأتي يعني أن بعض المريدين تجده متنعماً بالصلاة وبعضهم بالصيام وهكذا وسبب ذلك وارد إلهي اقتضى ميل هذا إلى كذا وهذا إلى كذا وينبغي لكل أحد أن يعمل بمقتضى ميله المذكور إن لم يكن تحت تربية شيخ وإلا فلا يشتغل بشيء إلا بإذنه وإرادته ❋ وحاصل ذلك أن تنوع الأوراد في حق المريدين الصادقين ناشئ عن تنوع الواردات على قلوبهم فينبغي لكل مريد أن يعمل بمقتضى وارده بالشرط المتقدم ولا يعمل بمقتضى وارد غيره ولا يعترض على ذلك الغير في عدم اشتغاله بما اشتغل به هو ثم قال: **(الأعمال)** الظاهرة **(صور قائمة)** أي كالأشخاص التي ليس فيها أرواح فلا نفع بها **(وأرواحها)** التي بها حياتها ونفعها **(وجود سر الإخلاص)** أي سر هو الإخلاص **(فيها)** والإخلاص يختلف باختلاف الناس فإخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلي والخفي وكل ما فيه حق للنفس فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلباً للثواب وهرباً من العقاب مع نسبة العمل إليهم والاعتماد عليه في تحصيل ما ذكر وإخلاص المحبين هو العمل لله إجلالاً وتعظيماً لأنه تعالى أهل لذلك لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب ولذا قالت رابعة العدوية: ما عبدتك خوفاً من نارِكَ ولا طمعاً في جنتك فنسبت العبادة إليها وإخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم في ذلك حولاً ولا قوة فلا يعملون العملَ إلا

مسلوك به سبيل التوحيد واليقين وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي لا نستعين إلا بك لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا فعمل الأول، هو العمل لله تعالى، وعمل الثاني، هو العمل بالله فالعمل لله يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب تحقيق العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، والعمل لله نعت كل عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، والعمل لله قيام بأحكام الظواهر، والعمل بالله قيام بالضمائر وهذه العبارات للإمام أبي القاسم القشيري، رضي الله عنه، وبهذا يتبين الفرق بين المقامين وتباينهما في الشرف والجلالة.

فإخلاص كل عبد، هو روح أعماله، فبوجود ذلك تكون حياتها وصلاحيتها للتقرب بها ويكون فيها أهلية وجود القبول لها وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار وتكون إذ ذاك أشباحاً بلا أرواح وصوراً بلا معانٍ.

قال بعض المشايخ: صحح عملك بالإخلاص، وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة. ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى الحالة التي إذا كان العبد عليها كان مخلصاً بالمعنيين فقال (**ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه**) لا شيء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت لأن ذلك من أعظم حظوظه التي هو مأمورٌ بتركها، ومجاهدة النفس فيها، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ ومحبة الجاه، وإيثار الاشتهار مناقضٌ للعبودية التي هو مطالب بها قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: ما صدق الله مَنْ أحب الشهرة.

وقال بعضهم: طريقتنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل.

وقال أيوب السختياني رضي الله عنه: والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه.

وقال رجل لبشر بن الحارث رضي الله عنه: أوصني. فقال: أخمل ذكرك وأطب مطعمك وقال بعضهم رضي الله عنه: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح. وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة مَنْ أَحَبَّ أن يعرفه الناس. وقال الفضيل رضي الله عنه: بلغني أن الله عزّ وجلّ يقول في بعض ما يمن به على عبده: ألم أنعم عليك ألم أسترك ألم أخمل ذكرك ثم إن تلك الأشياء الراجعة إلى محبة الاشتهار والاستعلاء مما يقدح في إخلاص العبد على اختلاف مراتبه لأنه إما بسقوط الناس عن النظر إليهم أو بسقوط النفس عن النظر إليها ولا يثبت للمريد جميع ذلك إلا بالخمول وسقوط المنزلة عند نفسه وعند الناس لأنه إن لم يكن بهذه المثابة، لم ينفك عن الأغراض التي تبعثه على استمالة قلوب الخلق لما يرى لنفسه عليهم من الحق فتدعوه نفسه إلى ذلك دعاءً خفياً فينصبغ عمله بالرياء انصباغاً لا يفطن له كما سيأتي عند قوله؛ ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك، وبقدر تحققك بوصف الخمول يتحقق لك مقام الإخلاص حتى تتخلص بذلك من رؤية إخلاصك. وبهذا، يتبين لك إفلاس جميع الناس إلا من رحم الله تعالى، وأن الإخلاص في غاية الصعوبة على النفس، وأنه أعز الأشياء في الوجود.

وقيل لسهل بن عبد اللّه رضي الله عنه: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص لأنها ليس لها فيه نصيب.

وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه: أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه يثبت فيه على لون آخر. قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: والإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق عن معاملة الخالق وأول الخلق النفس والإخلاص عند المحبين أن لا يعمل عملاً لأجل النفس وإلا دخل عليه مطابقة

بالله لا بحولهم ولا قوتهم وهذا أرفع مما قبله * ثم ذكر رحمه الله ما يعين على الإخلاص ويحصله بقوله: (**ادفن وجودك في أرض الخمول**) أي في الخمول وهو عدم الشهرة الشبيه بالأرض ودفن وجودك فيه أن لا تتعاطى أسباب الشهرة بأن تعرض نفسك للمناصب وغيرها مما فيه انتشار الصيت فإن سلكت الطريق بعد شهرتك فالواجب عليك التواضع وأن لا ترى لنفسك مقاماً ولا ترى ما أنت فيه من المناصب وغيرها شيئاً عظيماً بل ترى أن الخير في تركه لكن لا تتركه إلا بإشارة أستاذك أو بإذن إلهي ثم ضرب لذلك مثلاً بقوله: (**فما نبت**) من الحب (**مما لم يدفن لا يتم نتاجه**) بل يخرج ضعيفاً مصفراً لا ينتفع به الانتفاع التام وإذا لم ينبت فالغالب أن يلتقطه الطائر فلا ينتفع به أيضاً وكذلك السالك إذا تعاطى أسباب الشهرة في بدايته قل أن يفلح في نهايته وبقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الإخلاص فمبنى أمره في الابتداء على الفرار من الخلق وإخمال الذكر وعدم حب الشهرة حتى إذا فنيت أوصافه وبقي بر به كان مع مولاه إن شاء أظهره وإن شاء أخفاه. قال سيدي أبو العباس قدس الله سره: من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه اهـ.

نعوت أو تشوف إلى حظ طبع والإخلاص عند الموحدين خروج الخلق عن النظر إليهم في الأفعال وترك السكون والاستراحة بهم في الأحوال اهـ فإذا أخمل العبد نفسه، وألزمها التواضع والمذلة، واستمر على ذلك حتى صار له حنفاً وجبلة بحيث لا يجد لضعته ألماً ولا لمذلته طعماً، فحينئذ تتزكى نفسه ويستنير بنور الإخلاص قلبه وينال من رفيع درجات الخصوصية، ويحصل على أوفر نصيب من المحبة الحقيقية. قال الشيخ أبو طالب: ومتى ذل في نفسه وتضع عند نفسه فلم يجد لذلته طعماً ولا لضعته حساً فقد صار الذل والتواضع كونه فهذا لا يكره الذم من تحقق وجود النقص في نفسه ولا يحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة في نفسه فصارت الذلة والضعة صفة له لا تفارقه لازمة لزوم الزبالة للزبال والكساحة للكساح وهما صنعتان له كسائر الصنائع وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما فهذه ولاية عظيمة له من ربه قد ولاه على نفسه وملّكه عليها فقهرها بعزه، وهذا مقام محمود محبوب وبعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب. ثم قال: ومن كان حاله مع الله تعالى الذل، طلبه واستحلاه كما يطلب المستكبر العز ويستحليه إذا وجده فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إذا فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه لأن ذلك حياة نفسه اهـ فإذاً لا بد للمريد من إسقاط جاهه وإخمال ذكره وفراره عن مواضع اشتهاره وتعاطيه أموراً مباحة تسقطه من أعين الناس كقصة السائح الذي سمع به ملك زمانه فجاء إليه فلما علم بذلك السائح استدعى بقلاً وجعل يأكله أكلاً عنيفاً بمرأى من الملك، فلما رآه على تلك الحالة، استحقره واستصغره وانصرف عنه ذا ماله وسيأتي نص هذه القصة بعد هذا عند قوله: ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك. وقد بالغ أئمة الصوفية رضي الله عنهم، في مداواة علة الجاه الذي علق بالقلوب حتى استعملوا في ذلك أشياء منكرة في ظاهر الشرع ورأوا ذلك جائزاً لهم أن يفعلوه ويأمروا به وذلك مثل قصة الرجل الذي دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث تظهر ومشى بذلك متحيراً بحيث يُرى ويُظَنُّ به السرقة فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه ونزعوا الثياب عنه واشتهر عندهم بالسرقة حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام فحينئذ وجد قلبه.

ومثله ما يروى عن أبي يزيد رضي الله عنه، في قصة الشاهد الذي أمره بحلق رأسه ولحيته وتعليق مخلاة الجوز في عنقه وإعطائه لمن يصفعه من الصبيان وطوافه عن تلك الحالة في المحافل والمحاضر. والحكايتان مشهورتان ذكرهما الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه، وغيره. وقال بعض المصنفين: وإذا جاز لمن غص بلقمة من طعام حلال أن يسيغها بجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره مع أن تحريمه مقطوع به ولا يفوته إلا حياة فانية، فلأن يجوز مثل هذا إذا تعين أولى إذ يفوته بذلك الحياة الباقية والقرب من الله تعالى، فإذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات، ماتت نفسه وحيي قلبه وقَرُبَ من حضرة ربه واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام، وتلك الثمرة أخلاق الإيمان التي تكيفت بها نفسه وصارت كصفات ذاتية له وهي نتيجة الحكمة التي أنبتها الله في قلوب عباده المتواضعين ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

قال عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب مثل الأرض. قلت وقد ورد عن النبي ﷺ في مدح الخمول وذم الشهرة أحاديث كثيرة منها ما روى أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلاَةِ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضاً في النَّاسِ لاَ يُشَارُ إلَيهِ بالأَصَابع وكان رِزْقُهُ كَفَافاً فَصَبرَ على ذلك ثُمَّ نَفَضَ يَدَهُ فقال: عَجِلَت مَنِيَّتُهُ قَلَّتْ بَوَاكِيهِ قَلَّ عَزَاؤُهُ» وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَر ذِي طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ على اللَّهِ لأَبَرَّهُ» وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ يَسِيراً مِنَ الرِّياء شِرْكٌ، وإنَّ مَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ بارَزَ اللَّهَ بالمحارَبَةِ، وإنَّ اللَّهُ يُحِبُّ الأَتْقِياءِ الأَخْفِياء الَّذِينَ إذا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإذا حَضَرُوا لَمْ يَدْعُوا وَلَمْ يُعْرَفُوا، قُلوبُهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَىٰ يَخرجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمةٍ» وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حديثه الذي نوه فيه باسم أويس القرني وأشاد بذكره ونبه على عظيم أمره رضي الله عنه أنه قال:

بينا نحن عند رسول الله ﷺ في حلقة من أصحابه إذا قال: «لَيُصَلِّيَنَّ معكم غداً رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» قال أبو هريرة: فطمعت أن أكون ذلك الرجل فغدوت فصليت خلف النبي ﷺ فأقمت بالمسجد حتى انصرف الناس فبقيت أنا وهو ﷺ فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود متزر بخرقة مرتد بمرقعة فجاء حتى وضع يده في يد رسول الله ﷺ ثم قال: يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة فدعا النبي ﷺ له بالشهادة وأنا لنجد منه ريح المسك الأذفر فقلت: يا رسول الله أهو هو قال: «نَعَمْ إِنَّهُ لَمَمْلُوك بني فلانٍ» قلت: أفلا تشتريه فتعتقه يا نبي الله؟ فقال: «وأنّى لي بذلك إن كَانَ اللّهُ تعالى يُرِيدُ أن يَجْعَلَهُ مِنْ مُلوكِ الجَنَّةِ يا أَبا هريرة إنَّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ مُلوكاً وسادة وإنَّ هذا الأَسْوَدَ أَصْبَحَ مِنْ مُلوكِ الجَنَّةِ وَسَاداتِهِم يا أبا هُرَيْرَةَ إِنَّ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مِن خَلْقِهِ الأَصْفِياءَ الأَخْفِياءَ الأَبْرِياءَ الشَّعِثَةَ رؤُوسُهُمْ المُغْبَرَّةَ وُجُوهُهُمْ الخمصَةَ بُطُونَهُمْ مِنْ كَسْبِ الحَلالِ الَّذِينَ إذا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الأُمَرَاءِ لَمْ يؤذَنْ لَهُمْ وإنْ خَطَبُوا المُتَنَعِّمَاتِ لم يُنْكَحُوا وإنْ غَابُوا لم يُفْتَقَدُوا وإنْ حَضَرُوا لم يُدْعَوا وإنْ طَلَعُوا لَمْ يُفْرَحْ بِطَلْعَتِهِمْ وأَنْ مَرِضُوا لم يُعَادُوا وإنْ مَاتُوا لَمْ يُشْهَدُوا» قالوا: يا رسول الله كيف لنا برجل منهم؟ قال: «ذلكَ أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ» قالوا: وما أويس القرني؟ قال: «أَشْهَلُ ذو صُهُوبَةٍ بَعيدُ ما بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ مُعْتَدِلُ القَامَةِ آدَمُ شَدِيدُ الأُدْمَةِ ضاربٌ بِذَقْنِهِ إلى صَدْرِهِ رَامٍ بِنَظَرِهِ إلى مَوْضِعِ سُجُودِهِ وَاضِعٌ يَمِينُهُ عَلى شِمَالِهِ يَتْلو القرآنَ يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ ذُو طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ مُتَزِرٌ إزارَ صُوفٍ وَرِدَاءَ صُوفٍ مَجهولٌ في أَهْلِ الأَرْضِ مَعْرُوفٌ في أَهْلِ السَّماءِ لَوْ أَقْسَمَ عَلى اللّهِ لأَبرَّ قَسَمَهُ أَلاَ وإنَّ تَحْتَ مَنْكِبِهِ الأَيْسَر لَمْعَةً بَيْضَاءَ أَلا وَإِنَّهُ إذا كَانَ يومُ القِيَامَةِ قِيلَ للعِبَادِ ادْخُلُوا الجَنَّةَ وَيُقالُ لأُوَيْسٍ القَرنِيِّ قِفْ فاشْفَعْ فَيُشَفِّعُهُ اللّهُ فِي مِثْلِ عَدَدِ رَبِيْعَةِ ومضرَ يا عُمَرَ ويا عَلِيُّ إذا أَنْتُما لَقِيتُمَاهُ فَاطْلُبا إِلَيْهِ يَسْتَغْفِرْ لَكُما يَغْفِرِ اللّهُ لَكُما» وذكر باقي الحديث وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: «يَكُونُ في أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ القَرَنِيّ يَدْخُلُ في شَفَاعَتِهِ عَدَدُ رَبيعةَ وَمُضَرَ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ فَمَنَ لَقِيَهُ بَعْدِي فَلْيُقرِئْه مِني السَّلامُ ثُمَّ سُئِلَ عَنْ عَلامَتِهِ فقال: هُوَ رَجُلٌ أَصْهَبُ أَشْهَلُ ذُو طِمْرَيْنِ أَبْيَضَيْنِ لَهُ أم وقد كانَ بِهِ بياضٌ فَدَعا اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ إلا مِقْدَارَ الدِّينارِ أو الدِّرْهَم لاَ يُؤْبَهُ لَهُ مَجْهُولٌ فِي الأَرْضِ مَعْرُوفٌ في السَّماءِ» وكان قد بلغ من شدة خموله ونهاية ضعفه أن الناس كانوا يسخرون منه ويستهزئون به ويؤذونه ويرون فيه أهلية الخداع والتلصص وينسبونه إلى ذلك فقد روي في ذلك أنه دفع إليه بعض فقهاء الكوفة ثوبين وكان يجالسه فانقطع عن مجلسه لأجل العري فردهما عليه بعد أن أخذهما منه وقال: إن الناس يقولون من أين له هذان الثوبان، ترى مَنْ خدع عليهما، وكان في ذلك الوقت يجالس الفقهاء ويظهر للناس وذلك قبل أن يُعْرَفَ برفعة القدر وجلالة الخطر وتنويه عمر رضي الله عنه به على المنبر فلما رأى أن الناس عرفوا حاله، هرب عنهم واستخفى منهم ولبس أمره عليهم برعاية الإبل وغير ذلك. وقيل لعمر رضي الله عنه، لما سأل عنه قومه ما فينا أخمل منه ذكراً فلما لقيه هو وعلي رضي الله عنهما وسأله من هو فقال له: راعي غنم وأجير قوم وستر ذكر أويس فلما سأله عن اسمه قال له عبد اللّه فلما سأله عن اسمه الذي سمته به أمه امتنع أن يجيبه عن ذلك فلما أخبراه بوصف النبي ﷺ له وأنهما عرفاه بذلك قال لهما: عسى أن يكون ذلك غيري. فلما قالا له أخبرنا رسول الله ﷺ أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء وطلبا منه أن يوضحها لهما لم يجد بداً من أن يوضحها لهما وذلك والله أعلم ليريهما رؤية عين صحة قول النبي ﷺ وصدقه في إخباره بالغيب وذلك أمر واجب عليه وإلا فلعله كان يتعلل لهما كما فعله في كل ما سئل عنه ثم بعد ذلك لما سأله عمر رضي الله عنه أن يلتقي معه ويجعل ذلك الموضع ميعاداً بينه وبينه قال له: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك ولا أعرفك ولا تعرفني بعد اليوم، ثم دفع الإبل إلى أصحابها، وخلا عن الرعاية وكذلك فعل مع هرم بن حيان رضي الله عنه، لما لقيه بشاطئ الفرات ووقع بينهما التعرف قال له: حدثني بحديث عن رسول الله ﷺ أحفظه عنك فقال له: لا أحب أن أفتح هذا الباب على نفسي لا أحب أن أكون محدثاً ولا مفتياً ولا قاضياً فلما فرغا من الكلام، الذي كانا بصدده، سأله مداومة الاجتماع به، فأبى وامتنع وقال له: لا أراك بعد اليوم تطلبني ولا تسأل عني انطلق أنت هاهنا حتى أنطلق أنا هاهنا، ثم بعد ذلك اجتهد في طلبه والبحث عنه فلم يقع له على خبر.

ومن عجيب أمره أن حقق الله تعالى له هذا الحال من التخفي والتستر وأتمه له بعد موته مع ما أظهره بسببه من

الآيات والعبر حينئذ قال عبد الله بن سلمة: غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعنا أويس القرني رضي الله عنه، فلما رجعنا مرض فمات فنزلنا فإذا قبر محفور وماء مسكوب وحنوط فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه فقال بعضنا لبعض: لو رجعنا فعلمنا قبره فرجعنا. فإذا لا قبر ولا أثر.

قلت: والحكايات والآثار في مدح الخمول وذم الاشتهار أكثر من أن يأتي عليها انحصار وقد أورد كثيراً منها الأئمة المصنفون في هذا العلم فليطالع ذلك المريد مستمداً من الله تعالى أحسن التوفيق والتأييد وتعبير المؤلف رحمه الله تعالى هاهنا بالدفن والأرض والنبات والنتاج من ملح الاستعارات **(ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة)** مداواة أمراض القلب واجبة على المريد وأمراضه إنما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه من صحبته للأضداد ووقوفه مع المعتاد وانقياده إلى هوى النفس وأنسه بعالم الحس ومداواة هذا المرض تأتي من وجوه كثيرة وأبلغها في ذلك وأنفعها: العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة، فبالعزلة، يتقيد الظاهر عن مخالطة مَنْ لا تصلح مخالطته ولا مَنْ لا يؤمن دخول الآفات عليه بصحبته فيتخلص بذلك المعتزل من المعاصي التي تُعْرَض له بالمخالطة مثل الغيبة والمداهنة والرياء والتصنع ويتحصل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة ويستفيد بذلك أيضاً صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشرور والفتن، فإن للنفس تولعاً وتسارعاً إلى الخوض في مثل هذا، فواجب على المعتزل أن يكف لسانه عن السؤال عن أخبار الناس وما هم مشغولون به ومنهمكون فيه ومنكبون عليه ويصون سمعه عن الإصغاء إلى أراجيف البلدان وما اشتملت عليه من الأحوال التي ذكرناها وليحرص على أن لا يغشاه في خلوته وعزلته من شأنه التطلع لذلك والبحث عنه وليجتنب صحبة من لا يتورع في منطقه ولا يضبط لسانه عن الاسترسال في دقائق الغيبة والوقيعة والتعريض بالطعن على الناس والقدح فيهم فإن ذلك مما يكدر صفاء القلب ويؤديه إلى ارتكاب مساخط الرب فليهجره المعتزل وليفر منه فراره من الأسد ولا يجتمع معه في مكان البتة وليتنكر إلى كل من يتعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين إلى الدين فضلاً عن غيرهم كما قال بعضهم: أنكر مَنْ تعرف ولا تتعرف إلى مَنْ لا تعرف.

وفي الخبر: مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقْكَ بشرره علق بك من ريحه.

وفي الأخبار السالفة أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليك السلام، يا ابن عمران كن يقظاناً وارتد لنفسك إخواناً وكل أخ أو صاحب لا يوازرك على مبرتي فهو لك عدوٌّ وأوحى الله تعالى إلى داود، عليه السلام، فقال له: يا داود مالي أَرَاكَ منتبذاً وحدانياً؟ فقال: إلهي قليت الخلق من أجلك. فقال: يا داود كُنْ يقظاناً وارتد لنفسك أخداناً وكل خدنٍ لا يوافقك على مبرتي فلا تصحبه فإنه لك عدو ويقسي قلبك ويباعدك مني وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري في هذا المعنى:

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ   كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ والسَّبَنْتَى

(ما نفع القلب) أي قلب المريد في التطهير من غفلاته والقرب إلى حضرة مولاه **(شيء مثل عزلة)** أي اعتزال عن الناس **(يدخل بها ميدان فكرة)** أي فكرة شبيهة بالميدان لتردد القلب فيها كتردد الخيول في الميدان فالمريد إذا كان مخالطاً للناس اشتغل نظره بالمحسوسات فلا يتفكر قلبه إلا فيها ولا يزال ناظراً إلا لعالم الشهادة فإذا اعتز لهم انعكس الحال وحال قلبه في عالم الغيب وقد جاء في الخبر تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة، وقيل لأم الدرداء: ما كان أفضل أعمال أبي الدرداء؟ قالت: التفكر وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء وإلى تعظيم الله وتعظيم كل ما يرضيه فيفعله وتحقير كل ما يسخطه فيجتنبه ويطلع به على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويتعرف به وجوه الحيل في التباعد عنها ويسلم به من الآفات الناشئة عن مخالطة أهلها وبالعزلة المذكورة يحصل التمرن على الخلوة التي هي أحد أركان الطريق الأربعة بالنسبة للمريدين وباقيها الصمت والجوع والسهر وبهذه الأربعة تصير الأبدال أبدالاً وهذا كله في حق المريد الذي يسلك بنفسه فإن كان تحت تربية شيخ فلا بد من مخالطته ومخالطة الإخوان الذين يعينونه على سلوك الطريق فإذا ذهبت رعونات نفسه وصار من العارفين فلا تضره مخالطة الخلق أجمعين لأنه حينئذ لا يرى غير الله تعالى واعلم أن الفكرة هي المقصودة والعزلة وسيلة لها ومعينة عليها ثم، بين الأمور التي تصيب القلب

وَخَـالِـطْـهُـمْ وَزَايِـلْـهُـمْ حـذاراً وَكُـنْ كـالـسَّـامِـرِيِّ إذا لَـمَـمْـتَـا

وبالعزلة أيضاً يجتمع همه ويقوى في ذات الله عزمه بخلاف الخلطة فإنها تفرق الهم وتضعف العزم فقد قيل: إن العبد ليعقد في خلوته على خصال من الخير يعملها فإذا خرج إلى الناس حللوا عليه ذلك عقدة عقدة حتى يرجع إلى بيته وقد انحلت العقد كلها.

وروي عن عيسى عليه السلام: لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قيل: ومن الموتى؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها. وفي الخبر المروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَخْوَفُ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ضُعْفُ اليقينِ وَضُعْفُ اليَقِينِ إنَّما يَكُونُ من رُؤيةِ أَهْلِ الغَفْلَةِ وَمُخَالَطَةِ أَرْبَابِ البَطَالةِ والقسْوَةِ» قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: وأضر ما ابتلي به العبد وأدخله وأعمله في هلاكه وأشده لحجبه وإبعاده ضعف يقينه لما وعد من الغيب وتوعد عليه بالشهادة وقوة اليقين أصل كل عمل صالح وقال بعض هذه الطائفة: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى المخلوقات فإن النظر إليهم ظلمة. قلت: لا بد لي منهم. قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة. قلت: لا بد لي منهم. قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران ووحشة. قلت: أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم. قال: فلا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة. قلت: هذه العلة. قال: يا هذا تنظر إلى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله عزّ وجلّ هيهات هذا لا يكون أبداً! وبالعزلة أيضاً ينكفّ بصره عن النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها وينصرف خاطره عن الاستحسان إلى ما ذمه الله تعالى من زخرفها فتمتنع بذلك النفس عن التطلع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها فيها. قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] الآية ولا ينبغي لأحدٍ أن يستحقِرَ هذا فإنه يؤدي إلى أمراض عظيمة في القلب ومن اعتزل الناس سلم بإذن الله تعالى منها.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: فأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضات اهـ.

وقال محمد بن سيرين رضي الله عنه: إياك وفضول النظر فإنه يؤدي إلى فضول الشهوة. وقال بعض الأدباء: مَنْ كثرت لحظاته دامت حسراته. وقال: إن العين سبب الحين ومن أرسل طرفه اقتنص حتفه، وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلب.

وقد أنشدوا في هذا المعنى:

وَإِنَّـكَ إِنْ أَرْسَـلْـتَ طَـرْفَـكَ رَائِـداً لِـقَـلْـبِـكَ يَـوْماً أنعـمـتـكَ الـمَـنَـاظِـرُ
رَأَيْـتُ الَّـذي لا كـلّـه أَنْـتَ قـادِرٌ عَـلَـيْـهِ وَلاَ عَـنْ بَـعْـضِـهِ أَنْـتَ قـاصِـرُ

وبذلك ينقطع طمعه عن الناس ويحصل له منهم الإياس وذلك من أعظم فوائد العزلة عند العقلاء الأكياس.

ولا تتم له منفعة العزلة إلا باشتغال القلب بالفكرة وهي المقصودة هاهنا وكانت العزلة مقدمة لها ومعينة عليها وذلك بعد تقديم ما يحتاج إليه من علوم الشرع الظاهرة والقيام بمراعاة آدابه الباطنة وقد ذكر منها الشيخ أبو حامد الغزالي إلى جملة شافية في كتاب العزلة من الأحياء فلينظر هناك. وقد جاء في الخبر: تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة. وكذا هو والله أعلم وكان عيسى ابن مريم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، يقول: طوبى لمن كان قوله ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرةً إن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

وقال كعبٌ: من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر. وقيل لأم الدرداء ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء وتبين الحق من الباطل والنافع من الضار ويطلع به أيضاً على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويتعرف به وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها. قال الحسن البصري رضي الله عنه: الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك ويطلع أيضاً بها على عظمة الله تعالى وجلاله إذا تفكر في آياته ومصنوعاته ويطلع بها أيضاً على آلائه الجلية والخفية فتستفيد بذلك أحوالاً سنية يزول بها مرض قلبه

ويستقيم بسببها على طاعة ربه قلت: والعزلة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، تتضمن وجود الخلوة وهي أحد الأركان الأربعة التي هي أساس المريدين ويلزم عنها من الثلاثة الباقية الصمت إذ لا يتأتى من أكثر الناس إلا بالخلوة والعزلة، فإن أضاف إليها المريد الركنين الباقيين، وهما الجوع، والسهر، فقد حصل على كلية الدواء والتحق بزمرة الأولياء والبدلاء.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: اجتمع الخير كله في هذه الأربع خصال وبها صار الأبدال أبدالاً إخماص البطون والصمت والخلوة والسهر. وقال الشاعر وجمعها في نظمه:

يَا مَنْ يَرُومُ مَنَازِلَ الأَبْدَالِ ... مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ لِلأَعْمَالِ

لا تطمَعَنْ فيها فَلَسْتَ مِنَ اَهْلِهَا ... إِنْ لَمْ تزاحِمْهُمْ عَلَى الأَحْوَالِ

بيتُ الولايةِ قُسِّمَتْ أَرْكَانُهُ ... ساداتنا فيهِ من الأَبْدَالِ

ما بَيْنَ صَمْتٍ واعْتِزالٍ دَائِمٍ ... والجُوعِ والسَّهَرِ النَزِيهِ العالِي

(كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته)

الجمع بين الضدين محال كاجتماع الحركة والسكون والنور والظلمة وهذه الأشياء التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، أضدادٌ لا تجتمع، فإن إشراق القلب بنور الإيمان واليقين مضادٌ للظلمة التي استولت عليه من ركونه إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال في حبس الهوى والشهوات ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة غفلاته التي مقتضاها الأقصاء والأبعاد وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى مضاد للإصرار على المعاصي والهفوات، وإليه الإشارة بقوله عزّ من قائل: ﴿واتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وبما روي في بعض الأخبار: من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم. قال يحيى بن معين، رحمه الله تعالى: التقى أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحواري فقال ابن حنبل لابن أبي الحواري: يا أحمد حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان. فقال: يا أحمد قل سبحان الله بلا عجب. فقال ابن حنبل: سبحان الله وطولها بلا عجب فقال ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً. قال: فقام أحمد بن حنبل ثلاثاً وجلس ثلاثاً وقال: ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إليَّ من هذه، ثم ذكر الحديث الذي ذكرناه: من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم، ثم قال لأحمد بن أبي الحواري: صدقت يا أحمد وصدق شيخك. ولأجل كون هذه الأشياء أضداداً عجب المؤلف رحمه الله تعالى ممن يعتقد صحة اجتماعها

إذا لم يحصل له تطهير بعزلة ولا فكرة بقوله: **(كيف يشرق قلب صور الأكوان)** أي المكونات من الآدميين وغيرهم **(منطبعة في مرآته)** باعتقاده أنها تضر وتنفع وتطلعه لها في حصول أمر ما من الأمور وتعلقه بها **(أم كيف يرحل)** أي يسير **(إلى الله وهو مكبل)** أي مقيد **(بشهواته)** النفسية والمقيد لا يمكنه السير **(أم كيف يطمع أن يدخله)** ذلك القلب **(حضرة الله)** بأن يشاهده **(وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته)** أي من غفلاته الشبيهة بالجنابة فكما يمنع الجنب من دخوله المسجد كذلك يمنع مَنْ استولت عليه الغفلة من دخول حضرة الربّ **(أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار)** وهي العلوم الدقيقة التي ترد على قلوب العارفين **(وهو لم يتب من هفواته)** وهي ما يصدر منه من المعاصي لا عن قصد وإنما تعجب المصنف من ذلك لما فيه من الجمع بين الأضداد وهو محال. وهذه الأشياء المذكورة متضادة فإن إشراق القلب بنور الإيمان واليقين مضاد للظلمة التي استولت عليه بالركون إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال في حبس الهوى والشهوات ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة القلب ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات التي مقتضاها الإبعاد وفهم دقائق الأسرار المستفادة من التقوى مضاد للإصرار على المعاصي والهفوات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وبما روي في بعض الأخبار: من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم، وكل واحد من هذه الأربعة سبب فيما بعده فانطباع صور الأكوان في مرآة القلب سبب في تكبله

وممن طمع في نيل مراتب الرجال مع كونه على أقبح الخلال (**الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار**) العدم ظلمة والوجود نور فالكون بالنظر إلى ذاته عدم مظلم وباعتبار تجلي نور الحق عليه وظهوره فيه وجود مستتر ثم اختلف أحوال الناس هاهنا فمنهم من لم يشاهد إلا الأكوان وحجب بذلك عن رؤية المكون، فهذا تائه في الظلمات محجوب بسحب آثار الكائنات، ومنهم مَن لم يحجب بالأكوان عن المكون، ثم هم في مشاهدتهم إياه فرق فمنهم من شاهد المكون قبل الأكوان وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار، ومنهم من شاهده بعد الأكوان وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر ومنهم من شاهده مع الأكوان والمعية هاهنا، إما معية اتصال، وهو شهوده في الأكوان، وإما معية انفصال، وهو شهوده عند الأكوان، وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا مكانية لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يفهم من معانيهما فإنهما أيضاً من جملة الأكوان ومعرفة تفصيل هذه الأمور والتفرقة بين هذه الحقائق على ما هي عليه موكول إلى أربابه فلتقصر على ما ذكرناه فهاهنا زلت أقدام كثيرة من الناس فتكلموا بكلمات موهمة وعبروا بعبارات منكرة في الشرع فكفروا بذلك وبدعوا فاعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه وتمسك بقوله عزّ وجلّ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير سبحانه لا إله غيره (**مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه**) اتفقت مقالات العارفين والمحققين وإشاراتهم ومواجيدهم على ما ذكرناه قبيل هذا من أنَّ ما سوى الله تعالى عدمٌ محض من حيث ذاته لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى، إذ لو وصف به، لكان ذلك شركة واثنينية وهو مناقض لإخلاص التوحيد قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وقال رسول الله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قالها الشَّاعِر:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلُ ... وَكُلُّ نعيمٍ لا مُحَالَةَ زائِلُ»

قال بعض العارفين: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الديمومية. وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إننا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان ونستدل به على الخلق هل في الوجود شيء سوى الواحد الحق فلا نراهم وإن كان ولا بد، فنراهم كالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً وقال أيضاً رضي الله عنه: قوي على الشهود مرة فسألته أن يستر ذلك عني فقيل لي: لو سألته بما سأله موسى كليمه وعيسى روحه ومحمد صفيه، صلوات الله عليهم أجمعين، لم يفعل ولكن سله

بالشهوات والتكبل بها سبب في الغفلة وهي السبب في كل هفوة والهفوة سبب في عمى القلب * ثم شرع رحمه الله يتكلم على شيء من المعارف لنشط المريد حتى يدرك ذلك ذوقاً فتكلم على وحدة الوجود التي أفردت بالتأليف فقال: (**الكون**) أي المكونات أي الموجودات بأسرها (**كله ظلمة**) أي عدم محض لا وجود له في نظر أرباب الشهود (**وإنما أناره**) أي أوجده (**ظهور الحق**) أي الله (**فيه**) كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج فليس هناك إلا وجود واحدٌ وهو وجود الحق وبظهوره في الأشياء وجدت على حسب ما تقتضيه طبائعها وليس لها وجود في ذاتها وإذا كان كذلك (**فمن رأى الكون**) أي شيئاً منه (**ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه**) أي فاته (**وجود الأنوار**) الإلهية التي يدرك بها مشاهدة الله على أي وجه من الوجوه المذكورة (**وحجبت عنه شموس المعارف**) أي المعارف التي كالشموس (**بسحب الآثار**) أي بالآثار وهي الأكوان التي كالسحب جمع سحاب بجامع أن كلاً يحجب ما وراءه وأشار المصنف رحمه الله بذلك إلى اختلاف أحوال أرباب المشاهدة في شهودهم فمنهم مَنْ يشاهد المكون قبل الأكوان فإذا وقع بصره على شيء كحيوان شاهد قيام الحق به وظهوره فيه وأنه المحرك والمسكن له قبل أن يخطر له كونه آدمياً أو شاة طويلاً أو قصيراً إلى غير ذلك ومنهم مَنْ يشاهد ذلك بعد كونه حيواناً ومِنْهمْ مَنْ يشاهده معه ومنهم من يشاهده فيه وهو ظرفٌ متسع وهذا تقريب للأفهام وإلا فهذا أمر لا يدرك إلا بالذوق وما كان كذلك تقصر عنه العبارة (**مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه**) خطاب لعامة الناس (**بما ليس بموجود معه**) اتفقت مقالات العارفين وإشاراتهم ومواجيدهم على ما ذكر من أن ما سوى الله عدم محض من حيث ذاته لا يوصف بوجود مع الله تعالى. قال بعض العارفين: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الديمومية اهـ.

ن يقويك فسألته فقواني. قال ابن عطاء في التنوير: فما سوى الله تعالى عند أهل المعرفة لا يوصف بوجود ولا فقد إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحديته ولا فقد لغيره لأنه لا يفقد إلا ما وجدوا لو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان وهذا الكلام هو بسط ما ذكره في هذه الكتاب. وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فإنه لاغير معه حتى أشهده معه.

وقال الشاعر:

مُذْ عرفتُ الإلٰهَ لَمْ أَرَ غيراً ... وَكَذَا الغيرُ عندنا ممنوعُ
مُذْ تجمَّعْتُ ما خشِيتُ افترا ... قاً وأنا اليومَ واصلٌ مجموعُ

وقال الآخر:

اللّه قلِ وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلوغَ كمالِ
فالكلُّ دونَ اللّهِ إن حققته ... عدم على التَّفْصيل والإجمالِ
واعلم بأنَّك والعوالِم كلّها ... لولاه في محوٍ وفي اضمحلالِ
مَنْ لا وجودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذاتِهِ ... فوجودُهُ لولاه عينُ مُحالِ
فالعارفون فنوا بأن لم يشهدوا ... شيئاً سوى المتكبرِ المتعالِي
ورأوا سواه على الحقيقةِ هَالِكاً ... في الحالِ والمَاضي والاسْتِقْبالِ

وقد صنفوا في بيان هذا الأمر تصانيف وتفننوا في الكلام في هذا المعنى نظماً ونثراً وكل عبر على حسب شربه وذوقه، جزاهم عنا خيراً فإذا تقرر هذا، وجدنا أكثر الناس قد حجبوا عن الله تعالى بشهواتهم الدنيوية ودرجاتهم الأخروية ومقاماتهم العلوية، فكل ذلك من الأغيار العدمية والوجودات الوهمية علمنا بذلك وجود قهره إذ من أسمائه تعالى القهار، ولو ارتفع الحجاب عنهم، لفنوا عن أنفسهم وإراداتهم وبقوا بربهم وكانوا عباد الله حقاً. وقد سئل أبو سعيد بن الأعرابي رضي الله عنه، عن الفناء فقال: الفناء إن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق في التعظيم عقله اهـ قالوا: والفناء على ثلاثة أوجه: فناء في الأفعال، ومنه قولهم: لا فعل إلا الله، وفناء في الصفات، أي لا حي ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله، وفناء في الذات أي؛ لا موجود على الإطلاق إلا الله وأنشدوا في ذلك:

فَيَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى ... فَكَانَ فَنَاؤُهُ عَيْنَ البَقَاءِ

وقال سيدي محيي الدين: من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز ومن شهدهم لا حياة لهم فقد جاز ومن شهدهم عين العدم فقد وصل وأنشدوا في هذا المعنى:

مَنْ أَبْصَرَ الخَلْقَ كالسَّرابِ ... فَقَدْ تَرَقَّى عَنِ الحِجَابِ
إلى وجودٍ يَراهُ رَتْقاً ... بلا ابتعادٍ وَلاَ اقترابِ
وَلَمْ يشاهِدْ بِهِ سِواهُ ... هناكَ يُهْدَى إلى الصَّوابِ
فلا خِطابِ بِهِ إليهِ ... ولا مشيرٌ إلى الخِطابِ

(كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء) بما أشرق عليه من نور الوجود وقد كان في ظلمة

ومع كون ما ذكر عدماً فهو حجاب عن الله تعالى فإن الناس لا يشهدون عند نظرهم للأكوان إلا هي ولا يشاهدون مكونها مع أنها لا وجود لها والوجود إنما هو له سبحانه فهذا مما يقضى منه العجب ثم ذكر أدلة تدل على أنه لا ينبغي أن يحتجب بتلك الأكوان وأن الاحتجاب بها إنما هو للعوام فقال: **(كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء)** بما أشرق عليه من نور الوجود وقد كان في ظلمة العدم كما تقدم فبظهوره في الأشياء ظهرت وإذا كان ظهور الأشياء متوقفاً عليه فيستحيل أن تحجبه حتى يكون خفياً غير ظاهر فإن الإظهار إنما يفيد ظهور المظهر لا خفاءه **(كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء)** حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ وذلك لأن الأثر يدل على المؤثر ويعرف به فهذا مقام المستدلين الضعفاء **(كيف يتصور**

العدم كما تقدم (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء**) حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء**) إذ هو المتجلي فيها بمحاسن صفاته وأسمائه (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء**) في طور ذلك ولذلك كان ساجداً له ومسبحاً بحمده ولكن لا نفقه ذلك (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء**) لتحقق هذا الاسم له أزلاً وأبداً (**كيف يتصور أن يحجبه وهو أظهر من كل شيء**) لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء**) إذ كل ما سواه عدم لا وجود له على التحقيق (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء**) لثبوت إحاطته بك ووجود قيوميته عليك (**كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء**) حتى استدل به الشاهدون على الأشياء كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] (**يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم**) لأن العدم ظلمة والوجود نور وهما ضدان لا يجتمعان (**أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم**) لأن الباطل لا يثبت ظهور الحق كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] وقال عزّ من قائل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فإذا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] قلت وهذا الفصل من قوله الكون كله ظلمة إلى هنا أبدع فيه المؤلف غاية الإبداع وأتى فيه بما تقرُّ به الأعين وتلذ به الأسماع فإنه رضي الله عنه، ذكر جميع متعلقات الظهور وأبطل حجابية كل ظلام ونور وأراك فيه الحق رؤية عيان وبرهان ورفعك من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان كل ذلك في أوجز لفظ وأفصح عبارة وأتم تصريح وألطف إشارة فلو لم يكن في

أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء) بذاته كما يقوله أهل الشهود أو بمحاسن صفاته وأسمائه كما يقوله أهل الحجاب فالأشياء كلها مجالي ومظاهر لظهور معاني أسمائه التي هي تفاصيل معاني صفاته فيظهر في أهل العزة كونه معزاً وفي أهل الذلة كونه مذلاً وفي الأحياء معنى اسمه المحيي وعند سلب الأرواح معنى اسمه المميت وعند العطاء معنى اسمه المعطي وعند المنع معنى اسمه المانع وعند إفاضة الفضل معنى اسمه الكريم وعند إجابة الدعاء معنى اسمه المجيب وعند تسليطه المضار وجلب المنافع معنى اسمه الضار النافع إلى غير ذلك (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء**) أي تجلى لكل شيء حتى عرفه ولذا كان ساجداً له ومسبحاً بحمده ولكن لا نفقه ذلك فكل شيء عارف به على قدر تجليه له وإن كان في الأشياء من لا يقدر الله حق قدره لنقص معرفته وقصورها لا لانتفاء أصلها (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء**) لتحقق هذا الاسم له أزلاً وأبداً فظهوره تعالى ذاتي له غير مكتسب ولا مستفاد ولا معلول وظهور الأكوان ناشئ من تجليه عليها بصفة الظهور فكيف تكون حاجبةً له (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء**) لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال ولأن الظهور الذاتي أقوى من العرضي والظهور المطلق أقوى من المقيد والدائم أقوى من المنصرم وإنما لم يدرك للعقول مع شدة ظهوره لأن شدة الظهور لا يطيقها الضعفاء كالخفاش يبصر بالليل دون النهار لا لخفاء النهار واستنارته بل لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فيكون شدة ظهور النهار مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره فكذلك العقول ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في غاية الإشراق والاستنارة فصارت شدة ظهوره سبباً لخفائه (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء**) إذ كل شيء سواه عدم لا وجود له على التحقيق فليس ثم شيء يحجبه إذ الوجود الحقيقي كله له ولا شيء منه لغيره (**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء**) لثبوت إحاطته بك وقيوميته عليك قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فهو قريب لنا بذاته عند أهل الشهود وأما أهل الحجاب فيقولون هو قريب بعلمه، وقدرته إلى غير ذلك (**كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء**) حتى استدل به المشاهدون على الأشياء قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] ولو أسقط لفظ كل لكان أظهر في إفادة العموم والقصد بهذا الكلام المبالغة في نفي الحجاب، فلا يضر كون هذا الوجه بمعنى الوجه الأول وبعضهم أثبت التغاير بينهما بما فيه كلفة (**يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم**) لأن العدم ظلمة والوجود نور وهما ضدان لا يجتمعان (**أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم**) لأن الحادث باطل والله تعالى حق، والباطل لا يثبت مع ظهور الحق قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] فالظاهر والثابت هو

بعد الكتاب إلا هذا الفصل لكان كافياً شافياً فجزاه الله عنا خيراً ثم قال رضي الله عنه: **(ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه)** إذا أقام الله تعالى العبد في حال من الأحوال التي لا يذمها الشرع فيلزمه حسن الأدب في اختيار بقائه عليها ورضاه بها وليراقب الله تعالى في مراعاة آدابها وليوافق مراد الله تعالى في ذلك حتى يكون هو الذي ينقله عنها.

قال أبو عثمان رضي الله عنه، لي منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ولا نقلني إلى غيره فسخطته. وقد تقدمت حكاية المؤلف رحمه الله تعالى مع شيخه أبي العباس المرسي حين عزم على التجرد وترك ما كان عليه من الاشتغال بالعلم الظاهر وما أجابه به الشيخ رضي الله تعالى عنه وهذا من نتائج العلم بالله تعالى ومعرفة ربوبيته فإن سخط تلك الحال وتشوف إلى الانتقال عنها بنفسه وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى فقد بلغ غاية الجهل بربه وأساء الأدب في حضرة مولاه عزّ وجلّ وهذا من معارضة حكم الوقت الذي تشير إليه الصوفية وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى في ذلك الوقت، فهو أدب العبودية ومقتضى العلم بالله تعالى، وهذا هو أحد معاني لفظ الوقت في اصطلاحهم. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: وقد يريدون بالوقت ما يصادمهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم ويقولون فلان بحكم الوقت أي إنه مستسلم لما يبدو من الغيب من اختيار وهذا فيما ليس لله عزّ وجلّ عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع إذ التضييع لما أمرت به وإحالة الأمر فيه على التقدير وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين ومن كلامهم: الوقت سيفٌ أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يقتضيه الحق ويجريه غالب وقيل: السيف لين مسه قاطع حده فمن لاينه سلم ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم الحكمة نجا ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردّى وأنشدوا:

وكالسَّيْفِ إنْ لايَنْتَهُ لانَ مَسُّهُ ... وَحَدُّهُ وَإنْ خاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت هذا كلام الإمام أبي القاسم وهو موافق لما ذكره صاحب الكتاب والله الموافق **(إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس)** إذا كان العبد متبساً بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال وقال: إذا تفرغت عملت فذلك من رعونة نفسه والرعونة ضرب من الحماقة وحماقته من وجوه الأول إيثار الدنيا على الآخرة وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ما طلب منه قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنيا والآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] والثاني تسويفه بالعمل إلى أوان فراغه وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض كما قيل:

الحق تعالى لا الكون، وما بدا إلاّ وجه الحق فهو المظهر والظاهر، والموجود دون كل المظاهر والتعجب المذكور ناشئ من غلبة الشهود، فإنه إذا قوي على العبد اضمحلت الأكوان في نظره وفني عنها بالمرة **(ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه)** فإذا كان المريد في حال بدني أو قلبي لا يذمه الشرع لزمه حسن الأدب في اختيار بقائه عليه ورضاه به حتى ينقله الله عنه، فإذا كان متجرداً وتعلق قلبه بالتكسب أو كان في صنعة وأراد الانتقال عنها لغيرها كان قليل الأدب مع مولاه جاهلاً بما يناسب حضرته، وكذا إن كان في حال قبض، وأراد الانتقال عنه إلى البسط قال بعضهم لي منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته وهذا من نتائج العلم بالله ومعرفة ربوبيته، فإن سخط تلك الحال وتشوف إلى الانتقال عنها بنفسه، وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربه، وإساءة الأدب في حضرته، وهذا من معارضة حكم الوقت الذي تشير إليه الصوفية، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة **(أحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس)** فإذا كان المريد مشتغلاً بحال من أحوال دنياه، وكان ذلك يمنعه من الأعمال التي يتوصل بها إلى حضرة مولاه، وأحال ذلك على فراغه من تلك الأشغال فقال: إذا تفرغت عملت كان ذلك دليلاً على رعونة نفسه، والرعونة ضرب من الحماقة وذلك لتسويفه العمل إلى فراغ أوانه وقد لا يجد مهلة، بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله، لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض، ولو فرض أنه تفرغ منها فقد يتبدل عزمه وتضعف نيته، فالواجب عليه النهوض إلى ما يوصله إلى مولاه قبل الفوات ولذا قيل: الوقت كالسيف

فَمَا قَضَى أَحَدٌ منها لبانَتَهُ ولا انتهى أَرَبٌ إلاَّ إِلَى أَرَبِ

والثالث، أن يفرغ منها ما الذي يرضيه من تبدل عزمه وضعف نيته ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة في جميع الأحوال ما يستحقر في جنبه جميع هذا بل الواجب عليه أن يبادر إلى الأعمال على أي حال كان، وأن ينتهز فرصة الإمكان قبل مفاجأة الموت وحلول الفوت، وأن يتوكل على الله تعالى في تيسرها عليه وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه، وما أحسن قول ابن الفارض في هذا المعنى:

وَعد من قريب فاسْتَجِبْ واجتنب غداً وَشمِّرْ عَنِ السّاقِ اجتهاداً بِنَهْضَةِ
وَكُنْ صَارِماً كالوقتِ فالمقتُ في عَسَى وإِيَّاكَ مهلاً فهيَ أخطرُ عِلَّةِ
وَسِرْ زمناً وانْهَضْ كسيراً فحظُّكَ الـ بطالةُ ما أخَّرْتُ عزماً لصِحَّةِ
وَجُدْ بسيفِ العَزْمِ سَوْفَ فإنْ تَجِدْ تجدْ نَفساً فالنَّفْسُ إنْ جدت جَدَّتِ

(لا تطلب منه أن يخرجك منَ حالة لسيتعملك فيما سواها فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج) كما أنه إذا كان المرء على حالة لا توافق غرضه، كانت متعلقة بالدين أو بالدنيا، لا ينبغي أن يروم الخروج منها بنفسه ويعارض حكم وقته فيحدث فيه غير ما أظهره الله فيه كما تقدم في قوله ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه مع الشرط المتقدم وهو أن لا يكون في ذلك مخالفة أمر أو ارتكاب نهي فينبغي له أيضاً أن لا يعارض حكم الوقت ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ويستعمله فيما سواها لأن هذا من التخيير على الله تعالى ولا خيرة له في ذلك بل ينبغي له حسن الأدب معه وإيثار مراده به على اختياره هو وحينئذ يتحقق بحال يتعرف فيها محبة الله تعالى وإرادته له فيستعمله استعمالاً محبوباً عنده مع بقائه على حالته التي هو عليها فيكون إذ ذاك بمراد الله تعالى لا بمراده لنفسه وهو خير مما اختاره. قال في التنوير: يحكى عن بعضهم أنه كان يقول: وددت لو أنني تركت كل الأسباب وأعطيت كل يوم رغيفين يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب قال: فسجنت ثم كنت في السجن يؤتى إليَّ كل يوم برغيفين فطال ذلك عليَّ حتى ضجرت ففكرت يوماً في أمري فقيل لي: إنك طلبت منّا كل يوم رغيفين ولم تطلب منا العافية فأعطيناك ما طلبت، فاستغفرت من ذلك، ورجعت إلى الله تعالى، فإذا بباب السجن يقرع فتخلصت وخرجت قال فيه: فتأدب بهذا أيها المؤمن ولا تطلب أن يخرجك من أمر ويدخلك فيما سواه إذا كان ما أنت فيه مما يوافق لسان العلم فإن ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك فتُعْطى ما طلبت وتُمْنَع الراحة فيه فرب تارك شيئاً وداخل في غيره ليجد الثروة والراحة فيتعب وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار اهـ كلامه في التنوير وهو كالتفسير لما ذكره هاهنا فلذلك أوردته.

(ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة الذي تطلب أمامك ولا تبرجت

إن لم تقطعه قطعك **(لا تطلب منه أن يخرجك من حالة)** دنيوية كصناعة أو دينية كطلب علم **(ليستعملك فيما سواها)** لتوهمك أن ما أنت فيه عائق عن نهوضك لحضرته **(فلو أرادك)** أي أحبك وكنت من أهل الإرادة **(لاستعملك)** استعمالاً محبوباً عنده بأن يوفقك للأفعال الصالحة ويشغل قلبك به **(من غير إخراج)** أي مع بقائك على حالتك التي أنت عليها، فإذا كان المريد على حالة لا توافق غرضه، وكانت مباحة في الشرع لا ينبغي له أن يروم الخروج منها بنفسه، ويعارض حكم الوقت كما مر في قوله ماترك من الجهل شيئاً الخ وكذا لا ينبغي له أن يعارض حكم الوقت، ويطلب من مولاه أن يخرجه منها، ويستعمله فيما سواها لأن هذا من التخيير على الله ولا حيرة له في ذلك، بل ينبغي أن يطلب حسن الأدب معه، وإيثار مراده على اختياره، فإذا علم منه مولاه ذلك استعمله استعمالاً محبوباً عنده مع بقائه على ما هو عليه، فيكون إذ ذاك بمراد الله له لا بمراده لنفسه، وهو خير له مما اختاره، ولو قال لحصل لك المطلوب من غير إخراج لكان أولى، أما لو كان على حالة لا توافق الشرع، فيجب عليه المسارعة إلى الانتقال والطلب من مولاه أن ينقله إلى ما يرضيه

(ما أرادت همة سالك) أي سائر إلى الله تعالى **(أن تقف عندما كشف لها)** في أثناء السلوك من المعارف والأسرار والأنوار، بأن يرى أن ما وصل إليه من المعرفة وذوق الأحوال ومنازلة المقامات هو الغاية القصوى والنهاية، فتقف همته عنده ويتعشقه ويحبه، أو يرى أن ما فوقه أعظم منه لكنه يقنع بذلك، ويرى أن فيه الكفاية، فلا يرقى بهمته أو يرى قصور همته عن الرقي لما فوقه **(إلا ونادته هواتف الحقيقة)** أي الهواتف التي تهتف على قلبه من جهة الحقيقة الإلهية، ويحتمل أن

ظواهر المكونات إلا ونادتك حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر) السائر إلى الله تعالى يتجلى له في أثناء سلوكه أنوار وتبدو له أسرار فإن أرادت همته أن تقف عندما كشف لها من ذلك لاعتقاده أنه وصل إلى الغاية القصوى والنهاية من المعرفة، نادته هواتف الحقيقة المطلوب الذي تطلب أمامك فجد في السير ولا تقف فإن تبرجت له ظواهر المكونات بزينتها فمال إلى حسنها وجمالها نادته حقائقها الباطنة إنما نحن فتنة فلا تكفر وغمض عينيك عن ذلك ولا تلتفت إليه ودم على سلوكك وسيرك واعلم أنه ما دامت لك همة وإرادة فأنت بعد في الطريق لم تصل فلو فنيت عنهما لوصلت وما أحسن قول الشيخ أبي الحسن التستري في هذا المعنى

ولا تَلْتَفِتْ فِي السَّيْرِ غَيْراً فَكُلُّ مَا ... سِوَى اللّه غيرُ فاتخذ ذِكْرَهُ حِصْنَا
وكـلُّ مـقـام لا تـقـمْ فـيـه إنَّـه ... حجابٌ فجد السيرَ واسْتَنْجِدِ العوْنَا
ومهما ترى كلَّ المراتِبِ تجتلي ... عليك فَحِلْ عنها فَعَنْ مثلِها حِلْنا
وقلْ لَيْسَ لي في غيرِ ذاتِكَ مطلبٌ ... فلا صورةٌ تُجْلَى ولا طرفَةٌ تُجْنَى

وقد رأيت لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، كلاماً حسناً مناسباً لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى هاهنا من الترقي في الأحوال وظهور النقص في رؤية الكمال، فرأيت أن أذكره هاهنا بنصه لما فيه من سني الفوائد وشريف المقاصد.

قال رضي الله عنه: اعلم أنك إذا أردت أن يكون لك نصيبٌ مما لأولياء الله تعالى، فعليك برفض الناس جملة إلا من يدلك على الله تعالى بإشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة، وأعرِضْ عن الدنيا بالكلية ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطي شيئاً على ذلك بل كن في ذلك عبد اللّه أمرك أن ترفض عدوه فإن أتيت بهاتين الخصلتين: الإعراض عن الناس، والزهد في الدنيا، فأقم مع الله بالمراقبة والتزام التوبة بالرعاية والاستغفار والإنابة والخضوع للأحكام بالاستقامة. وتفسير هذه الوجوه الأربعة، أن تقوم عبداً لله فيما تأتي وما تذر، وتراقب قلبك أن لا يرى قلبك في المملكة شيئاً لغيره فإن أتيت بهذا، نادتك هواتف الحق من أنوار العز أنك قد عميت عن طريق الرشد من أين لك القيام مع الله تعالى بالمراقبة وأنت تسمع قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ [الأحزاب: ٥٢] فهنالك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك أن لا يشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه فإن صحت هذه منك، نادتك الهواتف أيضاً من قبل الحق تعالى. التوبة منه بدت والإنابة منه تتبعها واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مراد. فهناك تظهر أوصافك فتستعيذ بالله منها وتأخذ في الاستغفار والإنابة والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه فإن كنت بهذه الصفة، أعني الاستغفار والإنابة، ناداك عن قريب اخضع لأحكامي ودع عنك منازعتي واستقم مع إرادتي برفض إرادتك وإنما هي ربوبية تولت عبودية وكن عبداً مملوكاً لا تقدر على شيء فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شيء عليم فإن صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هناك على أسرار لا تكاد تسمع من أحد من العالمين.

(طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة منك عنه وطلبك لغيره لقلة حيائك منه وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه)

المعنى إلا ناداه لسان حال الحقيقة التي كشفت له سر وجد في السير لا تقف **(فإن الذي تطلبه)** وهو وصولك إلى المولى وعدم ركون قلبك إلى شيء سواه **(أمامك)** فلا تقف عند ما كشف لك **(ولا تبرجت)** أي أظهرت لك محاسنها **(ظواهر المكونات)** كتسخير الخلق لك وإقبالهم عليك والتوسعة في الدنيا وظهور خوارق العادات كتسخير الحيوانات والمشي على الماء والتربع في الهواء والاطّلاع على أسرار الخلائق وخواص الوجود، وتكثير القليل من الطعام وطيّ الأرض ونحو ذلك مما تميل النفس له **(إلا ونادتك حقائقها)** أي بواطنها نداء معنوياً وإن لم تشعر به **(إنما نحن فتنة)** أي ابتلاء واختيار **(فلا تكفر)** أي فلا تفتن بنا ولاتقف عندنا ولاتجعل نفسك رقاً لنا فتحتجب بنا عن الله لأن ذلك كفر لحق المنعم وشكر النعم بالإقبال على المنعم، فالإعراض عنه بالوقوف مع النعم عكس المطلوب **(طلبك منه اتهام له)** يعني أن المريد ينبغي له أن يشتغل في حال سلوكه بما يقربه من مولاه من الأعمال الصالحة، ولا يشغل قلبه بالطلب لشيء من الأشياء، لأن ذلك مذموم قاطع عن الله، فإن طلبك منه أن يرزقك بالقوت الذي يعينك على سيرك، وأن يوسع عليك الرزق تهمة منك له بأنه لا يرزقك إذ لو وثقت به في إيصال منافعه إليك من غير سؤال وتيقنت أنه عالم بحاجتك قادرٌ على إيصالها لك لما طلبت

الطلب الذي يُتَصور من العبد على أربعة أوجه، وكلها مدخولة معلولة: طلبه من الله، وطلبه له، وطلبه لغيره، وطلبه من غيره. فطلبه من الله، تهمة له إذ لو وثق به في إيصال منافعه إليه من غير سؤال لما طلب منه شيئاً، وطلبه له غيبة عنه إذ الحاضر لا يطلب، وطلبه لغيره، قلة حياء منه إذ لو استحيا منه انقبض عما يكرهه له من طلبه لغيره ومن حق الحياء منه أن لا يذكر معه غيره ولا يؤثر عليه سواه وطلبه من غيره لوجود بعده عنه إذ لو كان قريباً منه لكان غيره بعيداً عنه فلا يطلب منه فالطلب كله عند الموحدين العارفين معلول سواء كان الطلب متعلقاً بالحق أو بالخلق إلا ما كان من الطلب على وجه التأدب والتعبد واتباع الأمر وإظهار الفاقة والفقر فحينئذ تزول العلة عنه **(ما من نَفَس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه)** الأنفاس أزمنةٌ دقيقة تتعاقب على العبد ما دام حياً فكل نفس يبدو منه ظرف لقدر من أقدار الحق تعالى ينفذ فيه كائناً ماكان فإذا كانت جزئيات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام الله تعالى وأقداره، وكان جميع ذلك يقتضي منه حقوقاً لازمة من حقوق الله تعالى يقوم بها، وهو مطالب بذلك ومسؤول عنه، وعن أنفاسه التي هي أمانة للحق عنده، لم يبقَ له إذ ذاك مجال لتدبير أمور دنياه ولا محل لمتابعة شهوته وهواه **(لا تترقب فروغ الأغيار فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه)** إذا أقام الله تعالى عبداً في سبب من الأسباب، فالواجب عليه أن يوفيه حقه ويلتزم فيه الأدب ولا يترقب وقتاً ثانياً يكون فيه فارغاً منه، فإن تأميله للوقت الثاني يمنعه من القيام بحق الوقت الأول فيما أقيم فيه وتوفيته بما يجب له وهو خلاف الأمر المطلوب منه فليجتنب ذلك المريد.

قال أبو حفص رضي الله عنه: الفقير الصادق هو الذي يكون في كل وقت بحكمه فإذا ورد عليه وارد يشغله عن حكم وقته يستوحش منه ويتقيه. وقال سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: إذا جَنَّك الليل فلا تؤمل النهار حتى تسلم ليلتك تلك وتؤدي حق الله فيها وتنصح فيها لنفسك وإذا أصبحت فكذلك. وسئل سهل رضي الله عنه: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم يرَ وقتاً غير الوقت الذي هو فيه. قال البغوي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ونَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] الشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر. وقيل: بما تحبون وما تكرهون لننظر شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون **(لا تستغرب وقوع الأكدار ما دامت في هذه الدار فإنها ما**

منه شيئاً **(وطلبك له)** بأنْ تطلب قربك منه بزوال الحجاب عنك حتى تشاهده بعين قلبك **(غيبة منك عنه)** إذ الحاضر لا يطلب **(وطلبك لغيره)** من الأعراض الدنيوية وزخارفها ومناصبها ومن المكاشفات والكرامات والأحوال والمقامات **(لقلة حيائك منه)** إذ لو حصلَ لكَ حياءٌ منه لما التفتّ إلى غيره وطلبت شيئاً سواه **(وطلبك من غيره)** بأن توجهت إلى بعض الناس لتطلب منه شيئاً من أعراض الدنيا غافلاً في حال الطلب عن مولاك **(لوجود بعدك عنه)** إذ لو كنت قريباً منه لكان غيره بعيداً عنك ولو كنت مشاهداً لقربه منك لاكتفيت به عن سائر خلقه، لكن وجود البعد قضى عليك بالشعور بالغير حتى توجهت إليه، وطلبت منه فالطلب كله من المريدين معلول سواء كان متعلقاً بالحق أو الخلق إلا ما كان على وجه التعبد والتأدب واتباع الأمر وإظهار الفاقة، أما العارفون فلا يرون غير الله تعالى فطلبهم، ليس من المخلوق في الحقيقة، وإن كان منه بحسب الظاهر **(ما من نَفَس)** بفتح الفاء وهو جزء من الهواء يخرج من باطن البدن في جزء من الزمن أي من أنفاسك **(تبديه)** أي تظهره بقدرة الله تعالى لا تبديه **(إلا وله)** تعالى **(فيك قدر)** أي والمعنى أن كل نفس مر مقدر عليك فيه طاعة أو معصية أو نعمة أو بلية **(يمضيه)** أي يبرزه بقدرته في ذلك النفس، فكل نفس يبدو منك ظرف لقدر من أقدار الحق، ينفذ فيك كائناً ما كان، فينبغي لك الأدب معه ومراقبته في كل نفس من أنفاسك، فتكون في كل نفس سالكاً طريقاً إلى الحق سبحانه وتعالى، وهو معنى قولهم الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق **(لا تترقب)** أيها المريد **(فروغ الأغيار)** الواردة على قلبك، وهي ظلمات تحدث فيه **(تحول بينه وبين شهود المولى والحضور معه فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه)** من الأعمال التي تتوصل بها إليه فالمطلوب منك المواظبة على ما أنت فيه، ومراقبة المولى في ذلك ولا تشتغل بما يورده على قلبك من ظلمة أو نور، ولو قال فإن ذلك يقطعك عما هو مقيمك فيه لكان أولى، ووجه كونه قاطعاً أن نفسك تسول لك وتقول لو كنت من أهل الإرادة لما وردت هذه الأغيار عليك مع كثرة عبادتك، فيشتغل قلبك بهذه الوساوس وربما سولت لك الرجوع عما أنت قاصده وترك الأعمال الصالحة، وسبب هذه الأغيار غالباً ما يرد عليك من أكدار الدنيا، وذلك أمر لا بد منه ولذا قال: **(لا تستغرب وقوع الأكدار)** الموجبة للأغيار بل الأغيار في ذاتها أكدار **(ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها)** أي وصفها المستحق

أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها) جعل الله تعالى الدنيا دار فتنة وابتلاء ليعمل كل أحد فيها على مقتضى ما سبق له ويوفي جزاءه في الدار الآخرة قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَة﴾ وعمل كل واحد فيها إنما هو مخالفة شهوات نفسه أو موافقتها وذلك لا محالة يستدعي وجود محبوب أو مكروه بفعل أو بترك فمن ضروريات الدنيا وجد أن المكاره والمشاق فيها فتقع الأكدار بسبب ذلك أيضاً فحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباع الناس إليها وهي لا تفي بجميع مطالبهم لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها ونقلتها فتجاذبوها بينهم فتكدر عيشهم ولم يحصلوا على كلية أغراضهم كما قيل في المعنى:

أَرَى أشقياءَ النَّاسِ لا يَسْأمُونَها عَلَى أَنَّهُمْ فيها عراةٌ وجوَّعُ
أَرَاها وإنْ كانَتْ تحبُّ كأنَّها سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تَقَشَّعُ

فلا يستغرب وقوع أمثال هذا فإنه ما ظهر منها إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها من وجدان المكاره التي هي ذاتية لها. قال بعض الحكماء: لولا أن الدنيا مبنية على المكاره، لجعلت منفعة الأهليلج في اللوزنيج. وسيأتي التنبيه على الحكمة في هذا عند قوله إنما جعلها محلاً للأغيار ومعدناً لوجود الأكدار تزهيداً لك فيها. وفي بعض الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه، أنه قال: من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق. فقيل له: وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا. وفي معناه أنشدوا:

تَطْلُبُ الرَّاحَةَ في دَارِ العَنَا خَابَ مَنْ يطلبُ شيئاً لا يَكُونُ

وقال بعض البلغاء: ملتمس السلامة في دار المتالف والمعاطب كالمتمرغ على مزاحف الحيات ومداب العقارب. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: الدنيا كلها غموم فما كان منها في سرور فهو ربح. وقال الإمام الجنيد رضي الله تعالى عنه: لست أستبشع ما يرد عليَّ من العالم لأني قد أصلت أصلاً وهو أن الدنيا دار هَمّ وغم وبلاء وفتنة وأن العالم كله شر ومن حكمه أن يتلقاني بكل ما أكره فإن تلقاني بكل ما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول. وقال أبو تراب رضي الله تعالى عنه: يا أيها الناس أنتم تحبون ثلاثة أشياء وليس هي لكم، تحبون النفس وهي لهواها، وتحبون الروح والروح لله، وتحبون المال والمال للورثة، وتطلبون اثنين ولا تجدونهما: الراحة، والفرح، وهما في الجنة، فالواجب على العبد أن لا يوطن على الراحة في الدنيا نفساً ولا يركن فيها إلى ما يقتضي فرحاً وأنساً وأن يعمل على قول النبي ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ» فتوطين العبد على المحن في دنياه يهون عليه ما يلقاه ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه كما قيل في المعنى:

يمثل ذو اللُّبِ في لُبِّهِ شدائدَ قَبْلَ أَنْ تنزلا
فإن نَزلَتْ بغتةً لَمْ تَرُعْهُ لما كان في نَفْسِهِ مثلا
رأى الأمر يفضي إلى آخر فصيَّر آخرَهُ أوّلا
وذو الجَهْلِ يأمَنُ أيامَهُ وينسى مصارع مَنْ قَدْ خَلا
فإن دَهَمَتْهُ صروفُ الزَّمانِ ببعض مصائبهِ أعْوَلا
وَلَوْ قَدَّمَ الحزمَ في نفسهِ لعلَّمَهُ الصبرَ عِنْدَ البَلا

فليتلقَّ المريد ما يرد عليه من ذلك بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضا فعن قريب، إن شاء الله، ينجلي الأمر ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر والله تعالى ولي التوفيق.

قال أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه: قال لي أبو سليمان الداراني: جوعٌ قليل وعريٌ قليل وذلٌ قليل وصبرٌ قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا واعلم أن ما ذكرنا من الصبر هو جماع كل فضيلة وملاك كل فائدة

ونعتها الواجب أي اللازم فمن ضرورياتها وجود المكاره والمشاق فيها، وسيأتي التنبيه على حكمة ذلك بقوله، وإنما جعلها محلاًّ للأغيار ومعدناً لوقوع الأكدار تزهيداً لك فيها، ومن كلام جعفر الصادق رضي الله عنه: من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه، ولم يرزق قيل له: وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا، فينبغي للمريد الصادق أن لا يلتفت لذلك، ويجد في السير حتى تطلع عليه شمس المعرفة فينمحي عنه وجود الأغيار، وتزول عنه الأكدار بمشاهدة العزيز الغفار. ثم قال: **(ما**

جزيلة ومكرمة نبيلة قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لما صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال عزّ من قائل: ﴿إنَّما يُوَفى الصَّابرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وفي وصية رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «إن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لله بالرِّضا في اليقينِ فافْعَلْ وإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فاصبرْ فإنَّ في الصَّبْرِ عَلَى ما تكْرَهُهُ خيراً كَثِيراً واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ والفَرَجَ مَعَ الكَربِ واليُسْرَ مع العُسْرِ» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لرجل: إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجوراً، وإن جزعت قضى أمر الله وكنت مأزوراً. وقال علي رضي الله عنه: الصبر مطية لاتكبو وسيف لا ينبو. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل العدة الصبر عند الشدة. وفي بعض الأخبار: انتظار الفرج بالصبر عبادة. وقد قال الشاعر:

إنَّ الأمورَ إذَا انْسَدَّتْ مَسَالِكُهَا ... فالصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ ما ارْتَتَجا
لا تَيْأَسَنَّ وإنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ ... إذَا اسْتَعَنْتَ بصبرٍ أَنْ تَرَى فَرَجا
أَخْلِقْ بذي الصَّبْرِ أن يحظى بحاجَتِهِ ... ومدمن القَرْعِ للأَبْوابِ أنْ يَلِجَا

فمن جعل الصبر معتمده في نوازله واعتده من أعظم عدده ووسائله فهو مصيبٌ في رأيه منجح في سعيه، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب، كان عاملاً فيما يزيده ضراً ويكسبه وزراً ويفوته أجراً وناهيك به خسراً كما قيل:

وإذا تُصِبْكَ مصيبةٌ فاصبِرْ لَهَا ... عَظُمَتْ مُصيبةُ مُبْتَلًى لا يَصْبِرُ

وكما قيل أيضاً:

وَعُوِّضْت أجراً من فقيد فلا تكن ... فقيدُكَ لا يأتي وأجرُكَ يَذْهَبُ

(ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك) من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ إليه وتوكل في أمره كله عليه، كفاه كل مؤنة وقرَّب عليه كلَّ بعيد ويسَّر عليه كل عسير ومن سكن إلى علمه وعقله واعتمد على قوته وحوله وكله الله إلى نفسه وخذله وحرمه توفيقه وأهمله فلم تنجح مطالبه ولم تتيسر مآربه، وهذا معلوم على القطع من نصوص الشريعة وأنواع التجارب قلت: وكلام المؤلف، رحمه الله تعالى في هذه المسألة عام يتناول كل مطلب من المطالب الدينية والدنيوية التي مآل أمرها إلى الدين وأشرف تلك المطالب وأكثرها قواطع ومعاطب أخذ المريد في سلوك سبيل التوحيد ففيه التعلق بالله تعالى أحق وأصوب وفي جميع جزئياته الرجوع إلى الله تعالى أولى وأوجب فلا جرم كان من الرأي السديد والأمر الأكيد أن يخصصه من ذلك العام وأن يفرده عقيب هذه المسألة بمزيد من الكلام فلذلك قال **(من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله تعالى في البدايات)** للمريد بداية ونهاية فبدايته حال سلوكه ونهايته حال وصوله فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والتوكل عليه والاستعانة به كما ذكرنا أفلح وأنجح في نهايته وكان وصوله إلى الله تعالى فأمن عليه من الرجوع والانقطاع.

قال بعض المشايخ: ما رجع من رجع إلاّ من الطريق ولو وصلوا ما رجعوا من لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلقه بالحق وفراره إليه من نفسه والخلق انقطع ورجع من حيث جاء قال بعض العلماء: مَنْ ظنَّ أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قُطِعَ به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه، وكل إلى نفسه. فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره

توقف) أي تعسر **(مطلب)** من مطالب الدنيا والآخرة **(أنت طالبه بربك)** أي ملاحظاً في حال طلبه ربك حاضر القلب معه، معتمداً عليه في تيسير ذلك المطلب **(ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك)** بأن كنت غافلاً عنه معتمداً على حولك وقوتك، فمن أنزل حوائجه بالله والتجأ إليه وتوكل في أمره كله عليه كفاه كل مؤنة وقرب عليه كل بعيد، ويسر له كل عسير ومن سكن إلى علمه وعقله، واعتمد على حوله وقوته وكله الله تعالى إلى نفسه وخذله، فلم تنجح مطالبه، ولم تتيسر مآربه ولما كان من أشرف المطالب وأقربها للقواطع والمعاطب أخذ المريد حال سلوكه ونهايته في سلوك الطريق خصصه بالاعتناء به فقال: **(من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات)** بداية المريد من العموم لزيادة حال وصوله، فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله والتوكل عليه والاستعانة به أن يوصله إليه لا على أعماله المعلولة نجح في نهايته، أي حصل له الوصول، وأمن عليه من الرجوع من الطريق، ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه انقطع ورجع من حيث جاء قال بعض العارفين: من ظن أنه يصل إلى الله بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله بنفسه، وكل إلى نفسه ثم

الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله ولا يرى حول نفسه ولا قوتها في كثير من عمله ولا قليله فهذا هو أساس السلوك الذي يبني عليه قواعده **(من أشرقت بدايته أشرقت نهايته)** هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما تقدم فإشراق بداية المريد برجوعه إلى الله تعالى في مهماته وثقته به في ملماته وإشراق نهايته الوصل إلى قربته والحصول في حضرته.

(ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر) هذا بيان علامة يعرف بها حال المريد السالك وما تعمر به باطنه من المزيد المتدارك، لأن الظاهر مرآة الباطن كما قيل: الأسرة تدل على السريرة، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره، فما استودعه الله القلوب والأسرار من المعارف والأنوار لا بد وأن تظهر آثار ذلك على الجوارح فيستدل بشاهد العبد على غائبه من أراد صحبته والوصلة به وما أشبه هذا من الأغراض والمقاصد. قال أبو حفص رضي الله عنه: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن، فإن النبي ﷺ قال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ» وقيل لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبي حفص وقوفاً على رأسه يأتمرون بأمره لا يخطئ أحد منهم فقال: يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك. فقال: لا يا أبا القاسم ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان أدب الباطن.

قلت: وآكد من ذلك أن يعرف المريد نفسه ويكون من أمرها على بصيرة ولا ينخدع بما يتوهمه من صلاح سريرته دون علانيته، فمن ادعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبته، ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك وآثاره. من اللهج بذكره، والمسارعة إلى اتباع أمره، والاغتباط بوجوده، والاستبشار عند يقين شهوده، والفرار من القواطع الشاغلة عنه، والإضراب عن الوسائط المبعدة منه، فهو كذاب في دعواه متخذ إلهه هواه فإن كان موصوفاً بأضداد هذه الخصال، منحرفاً بظاهره عن جادة الاعتدال، فهو في دعواه أكذب وحاله للنفاق والشرك أقرب.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: قد جعل الله تعالى وصف الكافرين أنهم إذا ذكر الله وحده في شيء انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر غيره في شيء فرحوا وجعل من نعوتهم أنهم إذا ذكر الله تعالى بتوحيده وإفراده بشيء غمطوا ذلك وكرهوه وإذا أشرك غيره في ذلك صدقوا به فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وقال أيضاً: ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إذا دُعِي اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢] والكفر التغطية والشرك الخلط أي أنه يخلط بذكره ذكر سواه ثم قال: فالحكم لله العلي الكبير يعني لا يشركه خلق في حكمه لأنه العلي في عظمته الكبير في سلطانه لا شريك له في ملكه وعطائه ولا نظير له من عباده. ففي دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب، أن المؤمنين، إذا ذكر الله بالتوحيد والإفراد في شيء، انشرحت صدورهم واتسعت قلوبهم واستبشروا بذكره وتوحيده، وإذا ذكرت الوسائط والأسباب التي دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك لتستدل بها على حقيقة التوحيد في القلب أو وجود خفي الشرك في السر إن كنت عارفاً اهـ قلت: وهذه المسألة التي تضمنها كلام الشيخ أبي طالب المكي رضي الله عنه، من أعظم المسائل على صدق الصادق وكذب الكاذب ومن أوضح الدلائل. ولما كان قصدنا في هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد العجيبة والحرص على رسم المقاصد الغريبة، لغربة الدين في هذا الزمان الرذل واستيلاء الغرة والجهل على المنسوبين إلى العلم والفضل، حَسُنَ منا إيراد هذه الكلمات على جهة ضرب المثل والاكتفاء بالنهل عن العلل ليعمل بمقتضى ذلك مريد سالك ولينتهج من مناصحة ربه في دينه وقلبه أوضح المسالك وأحمل على هذا الأسلوب كل كلام لم تظهر لك مطابقته ولم يتم في نظرك مناسبته لتسلم بذلك من الاعتراض وتعلو همتك عما تولع به أصحاب القلوب المراض عافانا الله من ذلك بمنه وفضله.

قال: **(من أشرقت بدايته)** بأن عمر أوقاته بأنواع الطاعات والأوراد وثابر على ذلك كل المثابرة **(أشرقت نهايته)** بإفاضة الأنوار والمعارف عليه، وزوال كدورات النفس الحائلة بينه وبين مولاه على وجه أتم، وعكسه بعكسه، فمن كان قليل الاجتهاد في بدايته لم يحصل له إشراق في نهايته، ولو فرض أنه فتح عليه كان على وجه أضعف من غيره، ويحتمل أن المعنى من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والالتجاء إليه أشرقت نهايته بحصول الوصول إليه، فتكون هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما قبلها وما قلناه أولاً أولى وأظهر **(ما استودع في غيب السرائر)** أي القلوب الغائبة أي غير المشاهدة بالأبصار من المعارف والأنوار الإلهية **(ظهر في شهادة الظواهر)** أي في الظواهر الشاهدة أي الحاضرة فما استودعه الله تعالى في القلوب والسرائر من المعارف والأنوار، لا بد أن يظهر أثره على الوجه والجوارح، وهذه علامة يعرف بها

(شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه) بنو آدم في أول نشأتهم ومبدأ خلقتهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شيئاً﴾ [النحل: ٧٨] ثم إن الله تعالى اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختارهم من أهله لولايته وما ذاك إلا لحصول العلم الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨] الذي يحقق لهم النسبة ويوجب لهم الزلفى والقربة المشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢ وغيرها] وجعلهم على قسمين: مرادين، ومريدين، وإن شئت قلت: محذوبين، وسالكين، وكلاهما مرادٌ ومجذوب على التحقيق قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] فالمريدون السالكون إلى الله تعالى في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار والأكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم والحق تعالى غيب عنهم فلم يروه فهم يستدلون بها عليه في حال ترقيهم والمرادون المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم الأكرم وتعرف إليهم فعرفوه به فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الأغيار عنهم فلم يروها فهم يستدلون به عليها في حال تدليهم فهذا هو حال الفريقين وشتان ما بينهما أي بعد ما بينهما وذلك أن المستدل به على غيره عرف الحق الذي هو الوجود الواجب لأهله وهو المختص بوصف القِدَم وأثبت الأمر المُشار به إلى الآثار العدمية من وجود أصله المشار به إلى المؤثر المتحقق وجوده والمستدل بغيره عليه على عكس ما ذكرناه، لأنه استدل بالمجهول على المعلوم وبالمعدوم على الموجود بالأمر الخفي على الظاهر الجلي، وذلك لوجود الحجاب، ووقوفه مع الأسباب وعدم احتظائه بالوصول والإقراب وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه بالأشياء الحاضرة ومتى بعد حتى تكون الآثار القريبة هي التي توصل إليه أو فقد حتى تكون الآثار الموجودة هي التي تدل عليه وأنشد:

عَجِبْتُ لِمَنْ يبغِي عَلَيْكَ شهادةً   وأَنْتَ الَّذِي أشهدْتَهُ كُلَّ مَشْهَدِ

قال في لطائف المنن: واعلم أن الأدلة إنما تنصب لمن يطلب الحق لا لمن يشهده لأن الشاهد غنيٌّ بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود إلى نهايتها ضرورية وإذا كان

حال المريد السالك، لأن الظاهر مرآة الباطن، فيستدل بذلك من أراد صحبته والاجتماع به لينتفع به **(شتان)** أي بعد ما **(بين من يستدل به)** على الأشياء وهم المرادون المجذوبون إليه الذين هم من أهل الشهود إما ابتداء وإما بعد السلوك وهم العارفون، فإنهم لا يشهدون غير مولاهم ويستدلون به على الأشياء **(أو)** بمعنى الواو **(يستدل عليه)** وهم المريدون السالكون إلى الله تعالى فأهل الله تعالى على قسمين: مرادين ومريدين. وإن شئت قلت محذوفين وهم أهل الشهود وسالكين، فالمريدون السالكون في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار والأكوان ظاهرة لهم موجودة لديهم، والحق غيب عنهم فلم يروه فهم يستدلون بها عليه في حال ترقيتهم والمرادون وهم المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم، وتعرف إليهم فعرفوه وانحجبت عنهم الأغيار، فهم يستدلون به عليها في حال تدليهم إن جذبوا ابتداء أو بعد سلوكهم إن كانوا من أهله، وهم العارفون فإنهم من أهل الجذب أيضاً، لكن لشدة تمكنهم في أحوالهم لا يظهر عليهم، ولذا قيل: نهاية السالك بداية المجذوب، وورد: أعظم الناس جذباً الأنبياء والمرسلون، فهذا هو حال الفريقين وشتان ما بينهما، أي بعد ما بينهما وذلك أن **(المستدل به)** على غيره **(عرف الحق)** وهو الوجود الواجب **(لأهله)** وهو الله تعالى أي لم يثبت الوجود إلا له سبحانه وتعالى وأما الحوادث فهم عدم محض **(فأثبت الأمر)** وهم الحوادث العدمية **(من وجود أصله)** وهو الله تعالى أي جعل وجودهم مستفاداً من وجود الله تعالى الذي قابلهم، وظهر فيهم فوجدوا وإلا فهم عدم محض في نظر أرباب الشهود **(والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه)** فالمستدل بغيره عليه على العكس مما ذكر، لأنه استدل بالمجهول على المعلوم وبالعدم على الوجود وبالأمر الخفي على الظاهر الجلي، وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب **(وإلا)** نقل أنه من عدم الوصول **(فمتى غاب)** أي فلا يصح لأنه متى غاب **(حتى يستدل عليه)** بالأشياء الحاضرة **(ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه)** أي يستدل بها عليه لأنها لا وجود لها معه عند أهل الشهود حتى توصل إليه أما المحجوبون، فلا يرون إلا الأكوان ويستدلون بها عليه، وهم قسمان: عامة وسالكون لم يصلوا إلى مقام الشهود، والمراد باستدلال المجذوب الذي حصلت له إفاقة أنه حينئذ يلاحظ الغير، فيثبت وجوده بوجوده سبحانه وثبوته بإثباته،

من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن إقامة دليل فالمكون أولى بغناه عن دليل منها قال: ومن أعجب العجب، أن تكون الكائنات موصلة إليه فليت شعري، هل لها وجود معه حتى توصل إليه أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له؟ وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس لها ذلك من حيث ذاتها لكن هو الذي ولاها رتبة التوصيل فوصلت فما وصل إليه غير إلهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهي لمن وقف عندها ولم تنفذ قدرته عين الحجاب.

(لينفق ذو سعة من سعته الواصلون إليه ومن قدر عليه رزقه السائرون إليه) هذه إشارة مليحة إلى حال الفريقين فالواصلون إلى الله تعالى لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد وكمال الاستبصار، اتسعت مسافة نظرهم فأنفقوا من سعتهم وتصرفوا في عوالمهم كيف شاؤوا، والسالكون إليه مقدور عليهم في أرزاق العلوم والفهوم محبوسون في مضيق الخيالات والرسوم ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المعلوم المقدر المضيق **(اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأولون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم لأنهم لله لا لشيء دونه ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾)** أنوار التوجه هو ما صدر منهم إلى الله تعالى من عباداتٍ ومعاملاتٍ ومكابداتٍ ومجاهداتٍ وأنوار المواجهة هو ما صدر من الله لهم من تعرف وتقرب وتودد وتحبب، فالأولون، عبيد الأنوار لوجود حاجتهم إليها في الوصول إلى مقصودهم، والآخرون الأنوار لهم لوجود غناهم عنها بربهم فهم لله لا لشيء دونه وسيأتي هذا المعنى عند قوله: أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون فإذا شهدته كانت الأكوان معك. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] إفراد التوحيد بعدم ملاحظة الأغيار هو حق اليقين ورؤية ما سوى الله خوض ولعب وهما من صفات الكاذبين والمنافقين. قال الله عزّ وجلّ إخباراً عنهم ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥] وقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩] وقال رضي الله تعالى عنه: **(تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)** حكم المريد أن يتشوف إلى معرفة ما غاب عنه من معايب نفسه ويتطلبها ويبحث عنها، فإن ذلك هو حق الحق تعالى منه، فينبغي أن يحرص عليه ويصرف عنان اعتنائه إليه ليحصل له صفاء أعماله من الآفات ونقاء أحواله من الكدورات وينتفي عنه الجهل والغرور وتنقطع من باطنه مواد الشرور. وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالي، رضي الله تعالى عنه، في كتابه:

وليس المراد أنه يستدل حينئذ بالدليل العقلي والنظر الفكري **(لينفق ذو سعة من سعته الواصلون إليه)** أي إشارة إلى حال الواصلين إليه تعالى، فإنهم لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد، وكمال الاستبصار اتسعت مسافة نظرهم، وأفيض عليهم علوم وأسرار إلهية، فصاروا يمدون الغير ويتصرفون في عوالمهم الباطنية كيف شاؤوا.

(ومن قدر عليه رزقه السائرون إليه) أي إشارة إلى حال السائرين إليه فهم مقدور عليهم في أرزاق العلوم والفهوم محبوسون في مضيق الخيالات، والرسوم ينفقون مما آتاهم الله من فضله من الرزق المقدر الضيق على غيرهم ويتصرفون في عوالمهم على قدر ما أعطاهم **الله** عز وجل **(اهتدى الراحلون)** أي السائرون **(إليه بأنوار التوجه)** أي الأنوار الحاصلة من العبادات والرياضات التي توجهوا بها إلى حضرة الرب فإن المجاهدة بحسب العادة يحصل منها أنوار في القلوب يهتدون بها إلى الله تعالى حتى يصلون إليه **(والواصلون لهم أنوار المواجهة)** أي الأنوار التي واجهتهم من حضرة الرب أي أفيضت عليهم حتى عرفوه سبحانه وتعالى **(فالأولون للأنوار)** أي عبيد لها ومحتاجون إليها للتوسل بها إلى مطلوبهم **(وهؤلاء)** أي الواصلون **(الأنوار لهم)** أي ثابتة لهم من غير معاناة ومشقة مع فنائهم عنها بربهم **(لأنهم لله لا لشيء دونه)** قال الله تعالى: **(قل الله)** أي توجه إليه ولا تمل إلى أنوار ولا غيرها **(ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)** فإفراد التوحيد بعد فناء الأغيار هو حق اليقين ورؤية ما سوى الله خوض ولعب، وذلك من صفات المحجوبين **(تشوفك)** أيها المريد **(إلى ما بطن فيك من العيوب)** النفسانية كالرياء وسوء الخلق والمداهنة وحب الرياسة والجاه، أي توجه همتك إلى زوال ذلك بالرياضة والمجاهدة وطلب التخلص منه، ولا يكون في الغالب إلا على يد شيخ كامل ناصح **(خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)** من خفايا القدر ولطائف العبر والأسرار الإلهية والمعارف اللدنية والكرامات الكونية، لأن ذلك حظ نفسك، وليس لمولاك شيء معه فلا تقصدها بأعمالك، ولا تشغل قلبك بها ولا تركن إلى ما ظهر لك منها، فإن ذلك يقدح في عبوديتك، ولذا قالوا كن طالب الاستقامة، ولا تكن طالب الكرامة، فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة ومولاك يطلبك بالاستقامة، ولأن تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك.

رياضة النفس، فصلاً في الطريق الذي به يتعرف الإنسان عيوب نفسه، فلينظر فيه المريد. وقد جعل حاصله أربعة أوجه: أحدها، أن يجلس بين يدي شيخ بصير بالعيوب والآفات فيحكمه في نفسه ويتبع إشارته فيما يشير به عليه. والثاني، مصاحبة صديق صدوق يجعله رقيباً على أحواله وأعماله لينبهه على ما يخفى عليه من مذام خلاله. والثالث، أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه إذ لا بد من جريان ذلك على ألسنتهم عند تلبسهم وغيبتهم والرابع، أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس إذ يطلع بذلك على مساويهم عند تلبسهم وغيبتهم. والرابع، أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس إذ يطلع بذلك على مساويهم فإذا اطلع عليها منهم علم أنه لا ينفك هو عن شيء منها لأن الطباع البشرية في ذلك متقاربة وقد يظهر له في نفسه ما هو أعظم مما يراه في غيره فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها والتنزه عنها فهذا تلخيص ما ذكره ثم قال: وهذه كلها حيل من فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشغولاً بتهذيب عباد الله ناصحاً لهم فمن وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده اهـ وأما طلبه للغيوب المحجوبة عنه، من خفايا القدر، ولطائف العبر، فإنه حظ نفسه لا حق عليه فيه للحق تعالى فليطب عنها نفساً ولا يشغل بها عقلاً ولا حساً وما ظهر له منها لا يسكن إليه ولا يعول عليه، فإن ذلك من المعايب القادحة في عبوديته ولهذا قالوا: كن طالباً للاستقامة ولا تكن طالباً للكرامة فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة ولأن تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك.

ومن الحكايات في هذا المعنى، الذي ذكرناه، ما روي في الإسرائيليات عن وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه، أن رجلاً من بني إسرائيل صَامَ سبعين سنة يفطر في كل سنة ستة أيام فسأل الله تبارك وتعالى أن يريه كيف تقوى الشياطين على الناس فلما طال ذلك عليه ولم يُجَبْ قال: لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيراً لي من هذا الأمر الذي طلبته فأرسل الله إليه ملكاً فقال له: إن الله تعالى أرسلني إليك وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحبُّ إليَّ مما مضى من عبادتك وقد فتح الله بصرك فانظر. فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذباب فقال: أي رب من ينجو من هذا؟ قال: الورعُ اللَّينُ. وسيأتي بيان أن الكرامات غير مطلوبة التحصيل ولا مغتبط بوجودها لدى كل عالم نبيل عند قوله ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه **(الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ولو كان ساتر لكان لوجوده حاصر وكل حاصر لشيء فهو له قاهر وهو القاهر فوق عباده)** الحجاب على الحق تعالى محال واستدل المؤلف على ذلك بما ذكره هنا وهو بيِّن لا إشكَال فيه والحجاب على العبد واجبٌ من حيث ذاته إذ هو عدم كما تقدم ولا نسبة بين العدم والوجود فإن أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمن شاء كيف شاء متى شاء رأى من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وهذا مما يجب اعتقاده **(أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض**

ثم قال: **(الحق)** تعالى **(ليس بمحجوب)** أي ليس الحجاب وصفاً له سبحانه **(وإنما المحجوب)** أي المتصف بالحجاب **(أنت)** بصفاتك النفسانية **(عن النظر إليه)** فإن أردت الوصول إليه، والدخول في حضرته فابحث عن عيوب نفسك، وعالجها تصل إليه وتشاهده ببصيرتك، ثم استدل على نفي الحجاب عن الرب بقوله: **(إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه)** ودفع بذلك ما يتوهم من عدم استحالة الحجاب في حقه تعالى، لأن الحجاب إنما يتخذه العظماء والرؤساء فهو ينبئ عن الرفعة ويشعر بالعظمة فمن أين جاءه النقص، وحاصل الدفع أنه لو حجبه شيء كما هو شأن العظماء لستره **(ولو كان له ساتر لكان لوجوده)** أي ذاته **(حاصر)** لاستلزام الستر انحصار المستور فيه **(وكل حاصر لشيء فهو له قاهر)** لأنه يمنعه مما وراءه ويقصره على محله، ويجعله في أسر قبضته وتحت حكمه، وذلك لا يصح في حقه تعالى لقوله في كتابه: **(وهو القاهر فوق عباده)** فوقية مكانة وجلالة لا مكان إن قلت كيف جعل الحجب ملزوماً والستر لازماً مع أن الحجب هو الستر قلت معنى الحجب إنما يشعر في العرف مما تقدم من الرفعة والعظمة، ولا يشعر بحصر المحجوب ومعنى الستر على العكس، فهو الذي يلزمه مع انحصار المحجوب فجعل لازماً في الشرطية الأولى ليجعل ملزوماً في الثانية. والمعنى أنا لو نظرنا ما تقتضيه عظمته سبحانه من ثبوت الحجاب، لكان له ساتر فتغاير المقدم والتالي بهذا التأويل **(اخرج)** بالرياضة والمجاهدة **(من أوصاف بشريتك)** المذمومة سواء كانت تلك الأوصاف ظاهرة، وهي القائمة بالجوارح كغيبة ونميمة وقتل وسلب أو باطنة، وهي القائمة بالقلب ككبر وعجب ورياء وسمعة وحقد وحسد وحب جاه ومال إلى غير ذلك، ولما كانت

لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً) أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان أحدهما: ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهي الأعمال، والثاني: ما يتعلق بباطنه وقلبه وهي العقود. فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه، فينقسم قسمين: أحدهما، ما وافق الأمر ويسمى طاعة، والثاني: ما خالفه ويسمى معصيةً. وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه فينقسم أيضاً إلى قسمين: أحدهما: ما وافق الحقيقة ويسمى إيماناً وعلماً. والثاني: ما خالفها ويسمى نفاقاً وجهلاً. والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد يسمى في الاصطلاح: تفقهاً، والنظر فيما يتعلق بباطنه يسمى في الاصطلاح: تصوفاً فهذان الأمران هما كلية العبد وظاهره تبع لباطنه بالضرورة لأن القلب هو الملك والجوارح جنوده ورعيته ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به وينهي عنه وقد نبه على هذا المعنى رسول الله ﷺ حيث قال: «إن في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلّه ألا وهِي القلبُ» وصلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها وهذه هي الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التي أشار إليها المؤلف، رحمه الله تعالى، وهي التي تسم صاحبها بسِمة النفاق والفسوق وهي كثيرة مثل: الكبر، والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد، والحسد، وحب الجاه والمال، ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من: العداوة، والبغضاء، والتذلل للأغنياء، واستحقار الفقراء، وترك الثقة بمجيء الرزق، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق، والشح، والبخل، وطول الأمل، والأشر، والبطر، والغل، والغش، والمباهاة، والتصنع، والمداهنة، والقسوة، والفظاظة، والغلظة، والغفلة، والجفاء، والطيش، والعجلة، والحدة، والحمية، وضيق الصدر، وقلة الرحمة، وقلة الحياء، وترك القناعة، وحب الرياسة، وطلب العلو والانتصار للنفس إذا نالها الذل، وذهاب ملك النفس، إذا رد عليه قوله إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة وأصل فروعها وعنصر ينابيعها إنما هو: رؤية النفس، والرضا عنا، وتعظيم قدرها، وترفيع أمرها، فبهذه الأمور كفر من كفر ونافق مَنْ نافق وعصى مَنْ عصى وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عزّ وجلّ من خلع حسبما يقوله المؤلف رحمه الله تعالى بأثر هذا وشأن الصوفي، إنما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات وقد بينوا طرق ذلك في كتبهم.

قال الشيخ أبو طالب رضي الله تعالى عنه: فلا يكون المريد بدلاً حتى يبدل بمعاني صفات الربوبية صفات العبودية وأخلاق الشياطين بأوصاف المؤمنين وطبائع البهائم بأوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم فعندها يكون بدلاً مقرباً قال: والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فبملكها تسخر له ويسلط عليها فإن أردت أن تملك نفسك، فلا تملكها وضيِّقْ عليها، ولا توسع لها فإن ملكتها ملكتك وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك وإن أردت الظفر بها، فلا تعرضها لهواها واحبسها عن معتاد ملائمها فإن لم تمسكها انطلقت بك وإن أردت أن تقوى عليها، فأضعفها بقطع أسبابها وحبس موادها وإلا قويت عليك فصرعتك اهـ.

فإذا قام بذلك المريد على الوجه الذي رسموه له والتزم الوظائف التي أمروه، بها طهر قلبه وتركت نفسه واتصفت بمحاسن الصفات التي تزينه بين العباد وينال بها من قرب ربه غاية المراد فيظهر حينئذ عليه آثار حميدة من التواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لأمره والحفظ لحدوده والهيبة له والخوف منه والتذلل لربوبيته والإخلاص في عبوديته والرضا بقضائه ورؤية المنة له عليه في منعه وإعطائه ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر والحلم والاحتمال والصيانة والنزاهة والأمانة والثقة والعطف والتأني والوقار والسخاء والجود

أوصاف البشرية شاملة للأوصاف المحمودة كالطاعة والإيمان، وهي غير مرادة أبدل منها قوله: **(عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً)** لأنك إذا خرجت عن تلك الأوصاف المذمومة اتصفت بمحاسن الصفات كالتواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده والخوف منه والإخلاص في عبوديته، فحينئذ يناديك نداء معنوياً باسم العبد فيقول لك: يا عبدي فتجيبه بقولك: لبيك يا رب، وتكون صادقاً في إجابتك لفقد الصفات منك التي تنافي العبودية وتقتضي الربوبية (و) تكون أيضاً **(من حضرته قريباً)** فتحفظ من الأوزار، وتتيسر لك الأعمال، وتتلذذ بها والفرق بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يلم بذنب ألبتة والمحفوظ قد تحصل به زلات، ولكن لا يكون منه إصرار بل يتوب من قريب، واعلم أن التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل هو حقيقة السلوك عندهم ولا يتم ذلك إلا لمن وفقه الله لمعرفة نفسه، وما ركبت عليه من مذام الصفات، لأن من عرف ذلك منها لا يزال متهماً لها مسيئاً ظنه بها آخذاً حذره

والحياء والبشاشة والنصيحة وسلامة الصدر إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان التي ينال بها العبد غاية السعادة والحسنى والزيادة قلت: وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية رضي الله تعالى عنهم بالتحلي والتخلي أي التخلي عن الصفات المذمومة والتحلي بالصفات المحمودة ويعبرون عنهما أيضاً بالتزكية والتحلية وهما حقيقة السلوك الذي يعبرون عنه أيضاً وستأتي الإشارة إلى كيفية ذلك عند قوله: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين فإذا صح للمريد هذا السفر وانقلب منه إلى أفضل مستقر تحققت عبوديته لربه عزّ وجلّ فلم يملكه غيره ولم يسترقه سواه وارتقى في القرب من ربه إلى أشرف محل فيكون هناك منزله ومثواه فيكون حينئذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى لنداء الحق مجيباً لأنه إذ ذاك مناديه باسم العبد فيقول له: يا عبدي، فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب فيقول له: لبيك يا رب. فيكون صادقاً في إجابته، متحققاً في نسبته، فيكون أيضاً من حضرته قريباً لوجود بعده عن نفسه التي من شأنها النفور عنها والفرار منها فإذا أقامه الحق تعالى مقام العبودية وجاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية كان محفوظاً من اقتحام الأوزار ميسراً عليه أعمال الأخيار متحلياً في الظاهر والباطن بأشرف الحلى محتظياً بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ـ ٢٠] وقد قال الله تعالى: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونهُ وله يسجدون﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقال عزّ من قائل: ﴿لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]فرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية وكذلك من تشبه بهم في محاسن صفاتهم من الصفوة الصوفية إلا أن هؤلاء محفوظون لا معصومون على ما اصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة والفرق بينهما هو ما قاله الامام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه أن المعصوم لا يلم بذنب ألبته والمحفوظ قد تحصل منه همات وقد يكون له في الندرة زلات ولكن لا يكون له إصرار أولئك الذين يتوبون إلى الله من قريب وقد وصف الله تعالى عباده ذوي التخصيص أولي التطهير والتمحيص في آيات كريمة بصفات جليلة عظيمة وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى قوله: ﴿خَالِدِينَ فيها حَسُنَتْ مُسْتَقَراً ومقاماً﴾ [الفرقان: ٧٦] وعليك بالنظر فيما قاله فيها أهل التفسير وما استنبطه منها أرباب الإشارات والتذكير وأما من عدا هؤلاء، فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ومسترقو حظوظهم الدنيوية قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال النبي ﷺ فيما روي عنه: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ» الحديث وهؤلاء هم من عبيد العدد المعنيين بقوله عزّ وجلّ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ واعلم أنه لا يتهيأ هذا السلوك إلى حضرة ملك الملوك إلا لمن وفقه الله تعالى لمعرفة نفسه وما ركبت عليه من مذامّ الصفات ومن عرف ذلك من نفسه، لا يزال متهماً لها، مسيئاً ظنه بها، آخذاً حذره منها وإلاّ وقع في المعاصي والذنوب من حيث لا يشعر وقد نبه المؤلف رحمه الله تعالى على هذا بقوله **(أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها)** الرّضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة وقد اتفق على هذا جميع العارفين وأرباب القلوب وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ويصير قبيحها حسناً كما قيل:

منها، وإلا وقع فيما يسخط مولاه من حيث لا يشعر، ولذا قال: **(أصل كل معصية)** أي مخالفة لما أمر الله به ونهى عنه **(وغفلة)** للقلب عن حضرة الرب **(وشهوة)** نفسانية وهي التعلق بما يشغل عن الله تعالى **(الرضا عن النفس)** بإجماع العارفين وأرباب القلوب، لأن الرضا عنها يوجب تغطية عيوبها ومساويها ويصير قبيحها حسناً، فمن رضي عن نفسه استحسن حالها، وسكن إليها ومن استحسن كل حال نفسه، وسكن إليها استولت عليه الغفلة عن الله وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور عليه حينئذ دواعي الشهوات وتغلبه إذ ليس عنده من المراقبة ما يدفعها، ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة **(وأصل كل طاعة)** أي موافقة للأمر والنهي **(ويقظة)** أي دخول في حضرة الرب وتنبه لما يرضيه **(وعفة)** أي علو الهمة عن الشهوات **(عدم الرضا منك عنها)** فإن من لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها ومن كان بهذا الوصف كان متنبهاً متيقظاً للطوارق والعوارض، وبالتيقظ يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا، لأنَّ العبد إذْ ذاك يتهم نفسه ويتطلب عيوبها ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد كما قيل في الشطر الأخير:

كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

فمن رضي عن نفسه، استحسن حالها وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها، استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها به ويقهرها فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك ومن غلبته شهوته، وقع في المعاصي لا محالة، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه ومن لم يرض عن نفسه، لم يستحسن حالها ولم يسكن إليها، ومن كان بهذا الوصف، كان متيقظاً متنبهاً للطوارق والعوارض، وبالتيقظ والتنبه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة فيتصف العبد حينئذ بصفة العفة، فإذا صار عفيفاً، كان مجتنباً لكل ما نهاه الله عنه محافظاً على جميع ما أمره به وهذا هو معنى الطاعة لله عزّ وجلّ وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه فإذاً لا شيء أوجب على العبد من المعرفة بنفسه، ويلزم من ذلك عدمِ الرضا عنها وبقدر تحقق العبد في معرفة نفسه يصلح له حاله ويعلو مقامه وقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكَلِمَاتِ المتضمنة لعيبهم لنفوسهم والتهمة منهم لها وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى، ولذلك قال أبو حفص رضي الله تعالى عنه: مَنْ لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومَنْ نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها. وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم يقول: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» وقال أيضاً أبو حفص رضي الله تعالى عنه: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إليّ نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك. وقال الجنيد رضي الله تعالى عنه: لا تسكن إلى نفسك وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: ما رضيت عن نفسي طرفة عين. ويحكى عن سري السقطي رضي الله تعالى عنه أنه قال: إني لأنظر إلى وجهي في اليوم كذا كذا مرة مخافة أن يكون قد اسودَّ لما أخافه من العقوبة. وقال أيضاً رضي الله تعالى عنه: من الناس ناسٌ لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر ولا أحسبني إلا منهم. إلى غير هذا من العبارات الصادرة من المشايخ رضي الله تعالى عنهم، في هذا المعنى وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله تعالى عنه، جزءاً صغير الجرم عظيم الفوائد في عيوب النفس وكيفية مداواتها فلينظر في المريد، وكذلك ألَّف قبله الإمام أبو عبد اللّه الحارث المحاسبي كتاباً سماه: النصائح، جمع فيه من معايب النفس، وخدعها، وغرورها، وشرورها جملةٌ شافية ونبه فيه على سنن دارسة عافية مما كان عليه سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم من التفتيش والتفقد والنظر فيما تصلح به أعمالهم وأحوالهم وأنفسهم والمحافظة على تطهير الأسرار والقلوب والمبالغة في الحذر من محقرات الذنوب. وقد نقل الإمام أبو حامد الغزالي، قدس الله روحه، منه فصلاً في كتابه واعتمد فيه ذكره بلفظه ونص خطابه بعد أن أثنى على مؤلفه بما هو أهله فبان للجاهل به علمه وفضله فقال في حقه: والمحاسبي رحمه الله تعالى، حبر الأمة في علم المعاملة وله السَّبْقُ على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغرار العبادات وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه ثم ذكره وقد كان أوحد زمانه علماً وعبادةً ونخبة أوانه ورعاً وزهادة سيدي الحاج أبو العباس بن عامر رحمة الله تعالى عليه ورضوانه يكثر من التحريض على مطالعة ذلك الكتاب والعمل بما تضمنه من حق وصواب وأظنني سمعته ذات يوم يقول: لا يعمل بما فيه الأولى أو كلاماً هذا معناه فليتخذ المريد مطالعته ورداً وليحرص على العمل بما تضمنه مستعيناً بالله تعالى وسائلاً منه توفيقاً ورشداً لينصح لمولاه في مراعاة إصلاح باطنه والقيام على قدم الصدق في مواطنه وليجعل هجيراه مطالعة كتب التصوف وموالاة أهله بالتألف والتعرف فبذلك تتقوى أنوار إيمانه ويقينه وتنتفي عنه الغرة في عمله بوظائف دينه

ذلك تخمد نيران الشهوة، فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة، فيتصف حينئذ بالعفة وإذا اتصف بذلك كان متجنباً لكل ما نهى الله عنه محافظاً على جميع ما أمر الله به، وذلك معنى طاعة الله سبحانه، ولما كان الرضا عن النفس شأن من يتعاطى

ولا يقدم على ذلك إلا فرض العين وما يستجم به نفسه من مكابدة التعب والأين ولا يشغل نفسه بعلم يعبر على وجه مقصوده ويوجب له انتكاث مواثيقه وعهوده وما أكب الناس عليه اليوم وحادوا به عن سنن القوم حتى أكسبهم ذلك من رذائل الصفات وعظائم الآفات ما صار بهم إلى الهلاك والشقاء وأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم اللقاء وسجل عليهم بالكذب في دعواهم أنهم قاصدون بعلمهم رضا مولاهم فإياك وإياهم وأنشدوا:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حيّاً وَلٰكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

ولذلك قال المؤلف **(ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه فأي علم لعالم يرضى عن نفسه وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه)** فائدة الصحبة إنما هي الزيادة في الحال وعدم النقصان فيها حسبما يأتي الكلام عليه عند قوله: ولا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فصحبة مَنْ يرضى عن نفسه، وإن كان عالماً، شرٌّ محض ولا فائدة فيها لأن علمه غير نافع له وجهله الذي أوجب رضاه عن نفسه صار غاية الضرر وكأنه إذ فاته هذا العلم الذي يريه عيبه حتى لا يرضى عن نفسه لا علم عنده وصحبة من لا يرضى عن نفسه وإن كان جاهلاً خير محض فيها كل الفائدة لأن جهله غير ضار وعلمه الذي أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع غاية النفع وكأنه إذ حصل له هذا العلم، لا جهل عنده.

(شعاع البصيرة يشهدك قربه منك وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك) شعاعُ البصيرة، نور العقل، وعين البصيرة، نور العلم، وحق البصيرة، نور الحق، فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم وشاهدوا ربهم قريباً منهم أي، بالعلم والإحاطة والعلماء بنور علمهم شهدوا أنفسهم عدماً في وجود ربهم والمتحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه.

العلوم الظاهرية التي لا تدل على عيوب النفس، نهى المصنف عن صحبتهم ومخالطتهم فقال: **(ولأن)** أي والله لأن **(تصحب)** أيها المريد **(جاهلاً)** بالعلوم الظاهرية **(لا يرضى عن نفسه)** بأن يسخط عليها ويعتقد نقصها **(خير لك من أن تصحب عالماً)** بذلك **(يرضى عن نفسه)** لأن صحبة من يرضى عن نفسه وإن كان عالماً شر محض لك، لأن الصحبة تؤثر، فتكتسب منه هذا الوصف الخبيث، فصار علمه غير نافع لك في تهذيب نفسك وجهله الذي أوجب رضاءه عن نفسه، ضار لك غاية الإضرار وكأنه إن فاته العلم بعيوب نفسه حتى يرضى عنها لا علم عنده فلذا قال: **(فأي علم لعالم يرضى عن نفسه)** وصحبة من لم يرض عن نفسه وإن كان جاهلاً خير محض، وفيها كل الفائدة، لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله، فصار جهله غير ضار لك وعلمه الذي أوجب عدم رضائه عن نفسه نافعاً لك غاية النفع، وكأنه إذا علم بعيوب نفسه حتى لم يرض عنها لا جهل عنده، ولذا قال: **(وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه)** لأنه إذا حصل له هذا العلم صار لا جهل عنده حتى يتضرر به مخالطه، فتكون صحبته خيراً محضاً، فالتنوين في قوله علم وجهل للتنويع، أي فأي علم نافع وأي جهل ضار.

ثم قال: **(شعاع البصيرة)** ويعبر عنه بنور العقل وبعلم اليقين **(يشهدك قربه منك وعين البصيرة)** ويعبر عنه بنور العلم وبعين اليقين **(يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة)** ويعبر عنه بنور الحق وبحق اليقين **(يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك)**.

والحاصل أن السالك يهتف على قلبه أنوار إلهية يعبر عنها بهذه العبارات، ويترتب على كل واحد ثمرات وفوائد قال بعضهم ولا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها، وسكون وهجها وغبارها، وبين المصنف أن الذي ينكشف بالنور الأول قرب الله منك، وثمرة ذلك ونتيجته مراقبته تعالى والاستحياء منه، حتى لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك والذي ينكشف بالثاني عدمية كل موجود في وجود الحق تعالى، فيشهد الأكوان عدماً فلا يعبأ بها، ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية، والوجود الحقيقي له سبحانه وتعالى، وثمرة ذلك أن لا يبقى في نظرك ما تستند إليه، ولا ما تستأنس به، فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام، والذي ينكشف بالثالث الذات المقدسة، وثمرة ذلك الفناء الكامل الذي هو دهليز البقاء فيفني عن فنائه وعدمه استهلاكاً في وجود سيده، وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الإلهية، فإذا ترقى عن ذلك حل في مقام البقاء. قال صاحب العوارف والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق والفاني محجوب بالحق عن الخلق اهـ.

(كان اللّهُ ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان) الأزمنة هاهنا أمور وهمية لا وجود لها على التحقيق والمقصود أن الله تعالى لا شيء معه لثبوت أحديته:

فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الحَقّ لَمْ يَبْقَ كَائِنٌ فما ثَمَّ موصولٌ وما ثَمَّ بائنُ
بِذا جاءَ بُرْهانُ العِيَانِ فَمَا أَرَى بِعَيْنِي إلاَ عينَهُ إذْ أُعايِنُ

وسيأتي من كلام المؤلف رحمه الله تعالى، الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته. وقال قدس الله سره: **(لا تتعد نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال)** الهمة العلية تأنف من رفع حوائجها إلى غير الكريم ولا كريم على الحقيقة سوى الله تعالى.

قال الجنيد رضي الله تعالى عنه: الكريم الذي لا يحوجك إلى مسألة وقال الحارث المحاسبي رضي الله تعالى عنه: الكريم الذي لا يبالي من أعطى. وقيل: الكريم الذي لا يخيب رجاء المؤملين. وأجمع العبارات في معنى وصف الكريم ما قيل: الكريم الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا، ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفا عاتب وما استقصى ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعا فإذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحد سوى الله تعالى فينبغي إذاً أن لا تتخطاه آمال المؤملين إلى غيره كما قال بعضهم:

حَرامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَ الله ربه وأَفرَدَهُ أن يجتدي أحداً رفدا
وَيَا صاحِبِي قِفْ بي مَعَ الحَقِّ وَقْفَةً أَمُوتُ بها وَجْداً وأَحْيا بها وَجْدَا
وَقُلْ لِمُلوكِ الأَرْضِ تَجْهَدْ جهدَها فَذَا الملك ملكٌ لا يُباعُ ولا يُهدَى

(لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً) إذا أورد الله تعالى عليك حاجة، أو أنزل بك نازلة، فاعلم أنه لا رافع لها سواه، إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعاً لثبوت توحيده في أن لا فاعل سواه، وإذ هو غالب على أمره لا يغالبه أحد ويستحيل أيضاً أن يرفعها عنك من لا يستطيع أن يرفعها عن نفسه لو نزلت به لثبوت عجزه وضعفه ومن المحال تعلقك في حاجتك بمن هو محتاج مثلك قال بعضهم: من اعتمد على غير الله فهو في غرور مما لا يدوم ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم الذي لم يزل ولا يزال وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على مَنْ يدوم عليك منه الفضل والعطاء في كل نفس وحين وأوان وزمان.

(كان الله ولا شيء معه) يعني أن هذا حال من هو متحقق بمقام الفناء، وهو عدم رؤيته غير مولاه **(وهو الآن على ما عليه كان)** أي إن الأمر الذي حصل لذلك المشاهد وهو أن الوجود الحقيقي له سبحانه وتعالى وغيره لا وجود له هو الوصف المتحقق له سبحانه في الواقع، وعدم إدراك ذلك له قبل ذلك إنما هو لوجود الحجاب فقوله وهو الآن، أي عند مشاهدة هذا السالك له على هذا الوصف على ما عليه كان أي هو متصف به في الواقع وقبل إدراك هذا المشاهد له لكن عدم إدراكه ذلك إنما هو للحجاب القائم به ثم قال: **(لا تتعدنيه همتك)** أيها السالك **(إلى غيره)** بأن تتوجه إلى غيره لتحصيل حاجتك بل اطلب حوائجك منه **(فالكريم لا تتخطاه الآمال)** فالهمة العلية تأنف من رفع حوائجك إلى غير كريم ولا كريم على الحقيقة إلا الله إذ الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى وإذا جفا عاتب، وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجا ويغنيه عن الوسائل والشفعا، وهذه الصفات لا يستحقها حقيقة إلا الله سبحانه وتعالى، فينبغي أن لا تتخطاه آمال المؤملين إلى غيره.

واعلم أن الطلب من الخلق المنافي للعبودية هو الطلب منهم على وجه الاعتماد عليهم والاستناد إليهم والغفلة في حال الطلب عن الله تعالى أما الطلب منهم من حيث كونهم أسباباً ووسائط مع الاعتماد في نيل المطلوب على الله ورؤية أنه المعطي، فليس منافياً للعبودية * ثم قال: **(لا ترفعن)** أيها المريد **(إلى غيره حاجة)** أي فاقة أو نازلة نزلت بك، أي لا تتوجه في زوالها إلى غيره، وتطلب منه أن يرفعها عنك، فإن تلك الفاقة أو النازلة **(هو موردها عليك)** أي منزلها بك **(فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً)** إذ هو الغالب الذي لا يغلبه شيء وأيضاً **(من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه)** إذا نزلت به **(فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً)** أي فيستحيل ذلك لثبوت عجزه وضعفه. وحاصله أن للمرفوع

قال عطاء الخراساني رضي الله تعالى عنه: لقيت وهب بن منبه في الطريق فقلت: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي وأوجز قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود أما وعزتي وجلالي لا يستنصر بي عبد من عبادي دون خلقي أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له منهن فرجاً ومخرجاً أما وعزتي وجلالي وعظمتي، لا يستعصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات السبع من دونه وأسخت الأرض من تحته ولا أبالي في أي وادٍ هلك.

قال محمد بن الحسين بن حمدان: كنتُ في مسجد يزيد بن هارون وكان إلى جانبي رجلٌ قلت له: ما اسمك؟ فقال: سعيد. فقلت: ما كنيتك؟ قال: أبو عثمان فسألته عن قصته وخبره فقال: نفدت نفقتي. فقلت: ومن تؤمل لما قد نزل بك؟ فقال: يزيد فقلت: إذاً لا يسعفك بحاجتك ولا ينجح طلبك ولا يبلغك أملك. فقال: وما علمك بهذا رحمك الله؟ قلت: إني قرأت في بعض الكتب أن الله عزّ وجلّ يقول: وعزتي وجلالي وجودي وكرمي وارتفاعي فوق عرشي في علوّ مكاني لأقطعنَّ أمل كُلِّ مؤملٍ لغيري بالإياس، ولأكسونَّهُ ثوب المذلَّةِ عند النَّاسِ ولأنحيَنَّه مِنْ قربي ولأقطعنه من وصلي. أيؤمل غيري في النوائب والشدائد بيدي وأنا أنجي ويرجى غيري؟ وتطرق الفكر أبواب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني؟ من ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به دونها؟ ومن ذا الذي رجاني لعظيم جرمه فقطعت رجاءه مني؟ أم مَنْ ذا الذي قرع بابي فلم أفتحه له؟ جعلت آمال خلقي بيني وبينهم متصلة فتعلقت بغيري وجعلت رجاءهم مدخراً لهم عندي فلم يرضوا بحفظي وملأت سمواتي ممن لا يملون تسبيحي من ملائكتي وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي: ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي، أنه لا يملك كشفها أحد غيري، فما لي أراه بآماله معرضاً عني وما لي أراه لاهياً بسواي؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته منه فلم يسألني رده، وسأله غيري، أفتراني أبدأ بالعطية قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيلٌ أنا فيبخلني عبدي؟ أليس الدنيا والآخرة لي؟ أوليس الرحمة والفضل بيدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس أنا محل الآمال؟ فمن ذا الذي يقطعها دوني وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لأهل سماواتي وأهل أرضي أملوني ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع ما نقص ذلك من ملكي عضو ذرة كيف ينقص ملك كامل أنا قيمه، فيا بؤس القانطين من رحمتي، ويا بؤس من عصاني ولم يراقبني وثبت على محارمي ولم يستحي مني. قال: رحمك الله أملِ هذا الحديث عليّ فكتبه ثم قال: والله لا أكتب حديثاً بعده.

قلت: والأصل الذي ينبني عليه هذا المعنى، هو تحقق العبد في مقام حسن الظن بالله تعالى ولذلك أخذ المؤلف رحمه الله تعالى في ذكره بأثره فقال: **(إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه فحسن ظنك به لوجود معاملته معك فهل عودك إلاّ حسناً وهل أسدى إليك إلاّ مِنناً)** حسنُ الظنِّ بالله تعالى أحد مقامات اليقين والناس فيه على قسمين: خاصة، وعامة، فالخاصة، حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية، والعامة، حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم والتفاوت بين المقامين ظاهر ولذلك لا يخاف من التغير والانقلاب في أحدهما ما يخاف في الآخر لأن أرباب المقام الأول لما تحققوا في المعرفة بالله تعالى واحتظوا بأنوار

إليه حوائج لم يتوصل إليها ولو كان ملكاً، ولا شك أن نفسه أحب إليه من غيره، فلو كان له قدرة على نفع غير لنفع نفسه، فلزم عجزه عن نفع غيره إذ ما بعد العجز عن نفع النفس عجز، فيكون من قلة العقل تعلقك في حاجتك بمن هو محتاج مثلك **(إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه)** أي لأجل ما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية، فإن من كان متصفاً بأسنى الصفات لا يصدر منه إلا الجميل سيما لمن ظن به الجميل **(فحسن ظنك به لوجود معاملته معك)** من إسباغ النعم وشمول الفضل والكرم **(فهل عودك إلا حسناً وهل أسدى إليك إلا مِنناً)** أي نعماً وأشار بذلك إلى أن الناس في حسن الظن على قسمين: خاصة وعامة، فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية. والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم، والتفاوت بين المقامين ظاهر، فكأنه قال: ينبغي لك أيها المريد أن تحسن ظنك به مطلقاً في إيصال المنافع، ودفع المضار وعدم الالتفات لغيره، فإن لم تقدر على حسن الظن الذي هو مقام الخاصة، فتلبس بمقام العامة، وحسن الظن به لوصفه ينتج لك محبته، وصحة الاعتماد والتوكل عليه، وحسن الظن به لوجود معاملته معك ينتج لك شكر نعمته، والتشوف لورود فضله ورحمته.

اليقين به اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمه ولا مجال لسوء ظن وأرباب المقام الثاني، لم يرتقوا عن نظرهم إلى الأفعال وهي متلونة عليهم في كل حال وعند وقوع بعض ما لا يلائمهم منها بهم ربما تضعف عن تحمل مكارهها قوى قلوبهم فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله وتحدث النفس بما يقتضي وجود هلع وجزع فليكن العبد عند ذلك مشاهداً معنى قوله عزّ وجلّ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وما أشبهه وليقس النادر على الغالب.

قال أبو محمد بن عبد العزيز المهدوي رضي الله تعالى عنه: حُسْنُ الظن عبارة عن قطع الوهم أن يكون أو لا يكون لأن الوهم قاتل وهو لوقت ثانٍ فمتى أعطيت أذنك للوهم هلكت وحدك وكذلك الإصغاء بالأذن إلى الشيطان والنفس جنس واحد.

قلت: وحسن الظن يطلب من العبد في أمر دنياه وفي أمر آخرته. أما أمر دنياه، فأن يكون واثقاً بالله تعالى في إيصال المنافع والمرافق إليه من غير كدٍّ ولا سعيٍ فيه أو سعي خفيف مأذون فيه ومأجور عليه بحيث لا يفوته ذلك شيئاً من نفل ولا فرض فيوجب له ذلك سكوناً وراحةً في قلبه وبدنه فلا يستفزه طلبٌ ولا يزعجه سببٌ. وأما أمر آخرته، فأن يكون قويَّ الرَّجاء في قبول أعماله الصالحة وتوفية أجوره عليها في دار الثواب والجزاء فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الأمر والتكثير من أعمال البر بوجود حلاوةٍ واغتباط ولذاذة ونشاط. وقد قال يحيى بن معاذ: أوثق الرَّجاءِ رجاءُ العبد لربه، وأصدق الظنون حُسْنُ الظن بالله تعالى ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التي لا ينبغي للعبد أن يفارقه فيها، أوقات الشدائد والمحن، وحلول المصائب في الأهل والمال والبدن، لئلا يقع بسبب عدم ذلك في الجزع والسخط، وسيأتي هذا المعنى في كلام المؤلف رحمه الله، وهو قوله: من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت وقد جاء في الخبر: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى. وفي حديث جابر: من استطاع منكم أن لا يموت إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى فليفعل. ثم تلا هذه الآية ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ ولأنه تعالى قال فيما يروى عنه: أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء.

قال أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه وكان ابن مسعود يحلف بالله، ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى إلا أعطاه الله عزّ وجلّ ذلك، لأن الخير كله بيده فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه لأن الذي حسن ظنه به هو الذي أراد أن يحققه له اهـ وقد روي عن أبي النصر بن حيان قال: خرجت عائداً ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع وهو يريد عبادته قال: فدخلنا عليه وهو في فراشه، فلما رأى واثلة بسط يده وطفق يشير إليه فأقبل واثلة حتى جلس على الفراش، وأخذ يزيد بن الأسود بكفي واثلة حتى جعلهما على وجهه فقال له واثلة أسألك عن شيء تخبرنيه قال: لا تسألني عن شيء أعلمه إلا أخبرتك به قال له واثلة: كيف ظنك بالله عزّ وجلّ؟ قال: ظني والله بالله حسن قال: فأبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تَبَارَكَ وتَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إنْ ظَنَّ خَيْراً وإنْ ظَنَّ شَرّاً» وروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: عاد رسول الله ﷺ مريضاً فقال له رسول الله ﷺ: «كَيْفَ ظَنُّكَ بِرَبِّكَ؟» قال: يا رسول الله حَسَنُ الظنِّ قال: «فَظُنَّ بِهِ ما شِئْتَ فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ ظَنِّ المُؤْمِنِ بِهِ» وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللّهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللّهِ» قلت: والأخبار والآثار في الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته أكثر من أن تحصى ومطالعتها مما يزيد المريد قوة في هذا المقام، فمن أراد الشفاء في ذلك، عليه بمطالعة كتاب الرجاء من قوت القلوب وكتاب الإحياء.

قال بعضهم:

وَمَا زِلْتُ أَرْجُو اللّهَ حتَّى كَأَنَّنِي ... أَرَى بِجَمِيلِ الصُّنْعِ مَا هُوَ صَانِعُ

ثم بيَّنَ رحمه الله تعالى، الحالة التي بمنازلتها يتحقق العبد في مقام حسن الظن بالله تعالى وهو عكوف العبد بباب الله، وتعلق قلبه بوحدانيته، وأشار إلى أن ذلك هو غاية النعيم ومنتهى الأماني لا ما تتوهمه النفس وتطلبه من النعيم المعقول والأمنيات التي تفنى وتزول، وحكم بأن خلاف هذا من عمي القلب ومما يستحق أن يتعجب منه كل ذي لب فقال **(العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه ويطلب ما لا بقاء له معه فإنها لا تعمي الأبصار**

(العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه) وهو الله تعالى بأن لا يفعل ما يقر به إليه **(ويطلب ما لا بقاء**

الآية) هرب العبد من مولاه بإقباله على شهواته ومتابعته هواه وذلك نتيجة عمى قلبه وجهله بربّه لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وآثر الفاني الذي لا بقاء له على الباقي الذي لا انفكاك له عنه ولو كانت له بصيرة لآثر الباقي على الفاني ولفعل ما فعله سحرة فرعون لما آمنوا بربهم إذ لم يحفلوا بما وعدهم به فرعون من الإحسان والإنعام والتقريب والإكرام، ولم يكترثوا بما توعَّدهم به من العذاب والقتل والصلب على جذوع النخل بل قالوا: ﴿لَن نُّؤثِرَكَ عَلَى ما جَاءَنَا﴾ [طه: ٧٢] من البينات ﴿والَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢] الآية ثم قالوا: ﴿واللَّهُ خَيْرٌ وأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣] فهؤلاء استنارت قلوبهم وشهدوا محبوبهم فكان منهم ما كان **(لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحا يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون وأنَّ إلى ربك المنتهى)** العمل على طلب الجزاء والدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات نقصان في الحال وشَوْبٌ في إخلاص الأعمال وهو معنى الرحيل من كون إلى كون وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس في أن تحصل لها رتبة أو تنال بسعيها موهبة وهذه كلها من الأكوان والأكوان كلها متساوية في كونها أغياراً وإن كان بعضها أنواراً وتمثيله بحمار الرحا مبالغة في تقبيح حال العاملين على رؤية الأغيار وتلطف في دعائهم إلى حسن الأدب بين يديّ الواحد القهار حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢] فيكون انتهاء سيرهم إليه وعكوف قلوبهم عليه وتكون أعمالهم إذ ذاك وفاءً بمقتضى العبودية وقياماً بحقوق الربوبية فقط من غير التفات إلى النفس على أي حالة تكون فهذا هو تحقيق الإخلاص الكائن عن مشاهدة التوحيد الخاص جعلنا الله من أهله بمنه وفضله إنَّه على كل شيء قدير **(وانظر إلى قوله ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى دُنْيا يُصِيبُها أَو امرَأةٍ يتزوَّجُها فَهِجْرَتُهُ إِلى ما هَاجَرَ إِلَيْهِ» فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم)** في هذا الحديث النبوي تنبيهٌ على المعنى الذي ذكره وموضع الاعتبار والتأمل هو والله أعلم قوله في القسم الثاني: فهجرته إلى ما هاجر إليه، أي ولا نصيب له من الوصول والقرب الذي حظي به مَنْ هاجر إلى الله ورسوله وهو قوله فهجرته إلى الله ورسوله وهذا من باب حصر المبتدأ في الخبر كما تقول: زيد صديقي. أي: لا صديق له غيري. وكأنه ﷺ

له معه) وهو الدنيا وكل شيء سوى المولى، بأن يقبل على شهواته ويتبع هواه **(فإنها لا تعمي الأبصار الآية)** أي إن ذلك ناشئ من عمى قلبه، ووجود جهله بربه، لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الفاني الذي لا بقاء له على الباقي الذي لا انفكاك له عنه، ولو كانت له بصيرة لعكس الأمر ثم قال: **(لا ترحل من كون إلى كون)** يعني أن العمل المصاحب للرياء ونحوه مذموم غير معتد به شرعاً، فإذا جاهد المريد نفسه حتى خلص من ذلك، ولكن قصد به الجزاء والدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات، لم يزل مذموماً أيضاً عند العارفين، والمحمود أن يقصد به وجه الله تعالى ثم شبه المصنف الرحيل من كون إلى كون بقوله: **(فتكون كحمار الرحا)** أي الطاحون **(يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه)** وكذلك العمل لطلب الجزاء فيه رحيل من كون، وهو الرياء ونحوه إلى كون، وهو ما ذكر من طلب الجزاء، وسببه بقايا النفوس، فتطلب بعملها رتبة عند الله، وكل ذلك من الأكوان، والأكوان كلها متساوية في كونها أغياراً **(ولكن أرحل من الأكوان إلى المكون)** بأن تخلص عملك لمولاك وحده دون حظ عاجل أو آجل، فمن عمل لأجل الدرجات أو المقامات، فهو عبد لها، ومن عمل لله فهو عبد الله، وهو راحل من الأكوان إلى المكون **(وأن إلى ربك المنتهى)** أي فقد انتهى سيره إلى الله وصار متحققاً بمعنى هذه الآية بخلاف المرتحل من كون إلى كون، فإنه غير منته له، ولا واصل إليه **(وانظر إلى قوله ﷺ: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله)** أي بالقصد والنية **(فهجرته إلى الله ورسوله)** في الواقع ونفس الأمر فهي محمودة معتد بها **(ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم)** يعني أن في هذا الحديث تنبيهاً على المعنى المذكور، وموضع الاعتبار، والتأمل هو الشق الثاني أعني فهجرته إلى ما هاجر إليه، فإن معناه أنه لا نصيب له من الوصول والقرب الذي حظي به من هاجر إلى الله ورسوله، وكأنه ﷺ نبه بالدنيا والمرأة على حظوظ النفس بالوقوف معها كائنة ما كانت فقوله: فهجرته إلى الله ورسوله هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون الذي هو مطلوب من العبد، وهو مصرح به، وقوله فهجرته إلى ما هاجر إليه هو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها، وهو مشار به غير مصرح * ولما كان حاصل ما تقدم طلب رفع الهمة عن الخلق وتعلقها بالملك الحق، وأبلغ ما يوصل إلى هذه المرتبة صحبة العارفين بالله تعالى أمر بها في

نبَّه في القسم الثاني بالدنيا التي يريد أن يصيبها والمرأة التي يريد أن يتزوجها على حظوظ النفس والوقوف معها والعمل عليها كائنةً ما كانت وإن كان ظاهرها طلب الحظ العاجل فقوله فهجرته إلى الله ورسوله هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون وهو المطلوب من العبد وهو مصرح به غاية التصريح وقوله: فهجرته إلى ما هاجر إليه، هو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها وهو الذي نهى عنه وهو مشار به غير مصرح فليكن المريد عالي الهمة والنية حتى لا يكون له التفات إلى غير ولا كون ألبتة ولقد أحسن الشاعر في قوله:

وَكُلُّ ما قَدْ خَلَقَ اللّهُ وَمَا لَمْ يَخْلقِ مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتي كَشَعْرَةٍ فِي مِفْرَقِي

قال رجل لأبي يزيد رضي الله تعالى عنه: أوصني. فقال له: إن أعطاك من العرش إلى الفرش فقل له لا أنت أريد. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: لو خيرتُ بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت ركعتين لأني في الفردوس بحظي وفي الركعتين بربي. وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: احذر مكره ولو في قوله: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا﴾ [الطور: ١٩ وغيرها] يريد لا تستغرق في الحظ ولتكن في كل شيء به لا بنفسك فقوله تعالى: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا﴾ وإن كان ظاهره إكراماً وإنعاماً فإنَّ في باطنه ابتلاءً واختباراً حتى ينظر من هو معه ومن هو مع الحظ قال رضي الله تعالى عنه **(لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله)** تكلم هاهنا في الصحبة وهي أصلٌ كبير من أصول القوم وفيها منافع وفوائد ولذلك استمر عليها شأنهم قديماً وحديثاً وقد نبه المؤلف رحمه الله على فائدتها في قوله: لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله، فإنهاض الحال ودلالة المقال على الله تعالى هو فائدة الصحبة ومعنى الحال المنهضة هاهنا، هو أن تكون همته متعلقة بالله تعالى، مرتفعة عن المخلوقين لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى ولا يتوكل في أموره إلا على الله قد سخط اعتبار الناس من عينه فلا يرى منهم ضراً ولا نفعاً وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلاً ولا يقتضي لها حظًّا ويكون في أعماله كلها جارياً على مقتضى الشرع من غير إفراطٍ ولا تفريط وهذه صفة العارفين الموحدين فصحبة مَنْ هذه حاله، وإن قلَّتْ عباداته ونوافله، مأمونة الغائلة محمودة العاقبة جالبةٌ لكل فائدة دينية ودنيوية لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله ولا يشترط في المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام فإن ذلك متعذر وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه به فقط بحيث يكون أعلى منه حالاً وأصوب منه مقالاً، ومن لم يكن على هذا الوصف، وكان شأنه المعاملة بالظاهر لا غير، فليس له فائدة في صحبته بل ربما زادته شراً لأن خلطته تدعوه إلى التصنع له والتزين ويؤديه ذلك إلى كبائر معاصي القلوب وهي أشد عليه من معاصي الجوارح بكثير.

قال يوسف بن الحسين الرازي رضي الله تعالى عنه: لأن ألقى الله بجميع المعاصي أحبُّ إليَّ من ألقاه بذرة من التصنع فيدخل بذلك عليه النقص في حاله من حيث رجاء الزيادة فيها. قال بعض الصوفية: لا تعاشر من الناس إلا مَنْ لا تزيد عنده ببر ولا تنقص عنده بأثر يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء وقال بعضهم: كن مع أبناء الدنيا بالأب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارفين كيف شئت. وقيل لبعض الصالحين: إن فلاناً يحبك ويكثر ذكرك فقال: إنه لحبيب إليَّ وأجلُّه وأعرف قدره ولكن يهون عليّ أن ألقى الشيطان ألف مرة ولا ألقاه مرة واحدة. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: أخشى أن أتزين له ويتزين لي. قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه: وكانت هذه الطائفة من الصوفية لا يصطحبون إلا على استواء أربعة معان لا يترجح بعضها على بعض ولا يكون فيها اعتراض من بعض على بعض، إن أكل صاحبه الدهر كله لم يقل له صاحبه صُمْ، وإن صام الدهر كله لم يقل له صاحبه أفطِرْ،

ضمن قوله: **(لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله)** بأن لا يكون حاله وهمته متعلقة بالله، ومقاله لا يدل عليه، وإن كان من العباد والزهاد فصحبته للمريد منهي عنها بخلاف صحبة من ينهضك حاله، ويدلك على الله مقاله بأن تكون همته متعلقة بالله، مرتفعة عن المخلوقين، لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى، ولا يتوكل في أموره إلا عليه سبحانه وتعالى، قد سقط الناس من عينه فلا يرى منهم ضراً ولا نفعاً، وسقطت نفسه من عينه، فلا يشاهد لها فعلاً ولا يقضي لها حظاً، ويكون في جميع أعماله جارياً على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط، وهذه صفات العارفين بالله تعالى، فصحبة من هذه حاله وإن قلت عبادته ونوافله مأمور بها للمريد، لأنها جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية إذ الطبع يسرق من الطبع، بخلاف من لم يكن على هذا الوصف، وكان شأنه المعاملة الظاهرة لا غير، فلا فائدة في صحبته ثم لا يخلو

وإن نام الليل كله لم يقل له صاحبه قم فصلِّ، وإن صلّى الليل لم يقل له صاحبه نَمْ بعضه، وتستوي أحواله عنده فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه. قالوا: وإذا كان يزيد عنده بالعمل وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين وأبعد من المراءاة من قبل أن النفس مجبولة على حب المدح وكراهة الذم ومبتلاة بأن يرى حالها التي عرفت به وأن تظهر أحسن ما يحسن عند الناس منها وأن تجتلب ما يوجب المدح منهم وتجتنب ما يوقع الذم عندهم فإذا صحب من يعمل معه هذا، فليس ذلك طريق الصادقين ولا بغية المخلصين، فمجانبة هؤلاء الناس أصلح للقلوب وأسلم للدين وفي معاشرة أمثالهم فساد القلوب ونقصان الإيمان وضعف اليقين، لأن هذه الأسباب الرياء، وفي الرياء حبط الأعمال وخسران رأس المال والسقوط من عين ذي الجلال وكان الثوري رضي الله تعالى عنه يقول: من عاشر الناس داراهم ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا.

وكان بعض الحكماء يقول: لا تؤاخ من الناس من يتغير عليك في أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه، وهواه، لأن هذه المعاني تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس وفقد الانتفاع. وقال في موضع آخر: مَنْ كان ناظراً في أخوة أخيه أو في صحبته لكثرة أعماله أو وافقاً مع أكمل أحواله دل على جهله بهذه الطريق التي تنفذ إلى التحقيق لأنها تحول وإنما العمل على حقائق القلوب لأنها ثابتة في الوصول فإن اقترن إلى جهله نقص معرفة الأخوة دخل عليه التزين والتصنع عنده لتعلو منزلته ويحسن عنده أثره فيدخله ذلك في الشرك ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد فتزل قدم بعد ثبوتها ويسقط من عين مولاه فلا يتولاه لأن النفس مبتلاة بحب الثناء والمدح وإثبات المنزلة بإظهار الوصف فيكون هذا الصاحب حينئذ من أشأم الناس عليه وأضرهم له ويصير أحدهما بلاء على صاحبه فليفارقه حينئذ لأنه جاهل فلا يصحبه لأنه يجد النقصان بصحبته وتدخل عليه الآفات بمقاربته ولينفرد بنفسه ويصدق في حاله عالية كانت أو دنيئة وضيعة كانت أو رفيعة من غير مقاربة أحد ولا مباينته فهو خير له وأحمد عاقبة اهـ ويدل على إرادة صاحب الكتاب لهذا المعنى الذي ذكرناه في التنبيه على قوله لا تصحب من لا ينهضك حاله ما أعقبه به من قوله ولا يدلك على الله مقاله فيكون الحال والمقال متناسبين في كون كل واحد منهما متعلقاً بالله تعالى عبودية ودلالة.

قال سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين. وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله تعالى: قلت لذي النون المصري رضي الله تعالى عنه: من أصحب؟ فقال: من لا تكتمه شيئاً مما يعلمه الله منك. وقال حمدون القصار رضي الله تعالى عنه: اصحب الصوفية فإن للقبيح وجوهاً من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به إشارة إلى أن العجب بالعمل منفي عندهم في صحبتهم. وقال الجنيد رضي الله تعالى عنه: إذا أراد الله بالمريد خيراً أرفقه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء. وقال علي رضي الله تعالى عنه: شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة وألجأك إلى الاعتذار. وقال مرة: شر الأصدقاء من يتكلف له وأنشدوا ليوسف بن الحسين الرازي رضي الله تعالى عنه.

أَحِبُّ مِنَ الإِخْوَانِ كُلَّ مواتي ... وكل غضيضِ الطَّرْفِ عن عَثَراتي
يوافقني في كُلِّ أمرٍ أحبُّه ... ويحفظني حيّاً وبَعْدَ مَمَاتِي
فمن لي بهذا ليتني قَدْ وَجَدْتُهُ ... فَقَاسَمْتُهُ ما لي مِنَ الحَسَنَاتِ

والحاصل من هذا، أن صحبة الصوفية التي يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها غيرهم وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب فقد قيل: من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة هذا في الحضور والمجالسة، فما ظنك في الصحبة والمؤانسة؟ وقد وصفهم بعض العلماء فقال الصوفي: من لا يعرف في الدارين أحداً غير الله ولا يشهد مع الله سوى الله قد سخر له كل شيء، ولم يسخر هو لشيء، وسلط على كل شيء، ولم يسلط عليه شيء، يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منه شيئاً، يصفو به كدر كل شيء ولا يكدر صفوه شيء. قد شغله واحد عن كل شيء وكفاه واحد من كل

شيء، فانظر رحمك الله، هذه الصفات ما أعظمها وأجلها وما أشرف حال من اتصف بها وما أعزه في هذا الوجود نفعنا الله بهم ورزقنا من بركاتهم وفي صحبة أمثال هؤلاء، يحصل للمريد من المزيد ما لا يحصل له بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات حتى يبلغوا من ذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل ولا يحيط به علم عالم ناقل.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه: ماذا أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقواماً يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها فتثمر رماناً للوقت فمن صحب مثل هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء؟ وقال أيضاً رضي الله تعالى عنه: والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف إلا حتى يلقوا واحداً مثلنا فإذا لقوه كان بغيتهم. وقال أيضاً رضي الله تعالى عنه: الولي إذا أراد أغنى. وقال أيضاً رضي الله تعالى عنه: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته وقال فيه شيخه أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: أبو العباس هو الرجل الكامل والله أنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله وسيأتي طرف من ذكر حال المؤلف رحمه الله تعالى في صحبته وما أوصله إليه ببركة رؤيته عند قوله: كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز **(ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحتك من هو أسوأ حال منك)** هذه أعظم آفة تدخل على من خالف ما ذكره وصحب من هو دونه في الحال وهي استحسانه لما هو عليه فيؤديه ذلك إلى رضاه عن نفسه ورؤيته لإحسانها وهو أصل شر كما تقدم **(ما قل عملٌ برز من قلب زاهد ولا كثر عملٌ برز من قلب راغب)** مقادير الأعمال على حسب قلوب العمال فما صدر عن الزاهدين في الدنيا من عمل طاعة وإن كان قليلاً في الحس فهو كثير على التحقيق وما صدر عن الراغبين فيها من عمل بر وإن كان كثيراً في الحس فهو قليل على التحقيق وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التي تقدح في إخلاص أعمالهم من مراءاة الناس والتصنع لهم وطلب الأعراض الدنيوية عليها منهم لأنهم زهدوا فيها فيتحصل لهم قبول أعمالهم فيتوفر لهم قليلها بحسب ذلك ويكثر والراغبون تعتريهم الآفات المبطلة لأعمالهم القادحة في إخلاصهم بسبب رغبتهم في الدنيا فلا تقبل منهم فيقل الكثير من أعمالهم لوجود النقصان فيها وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: كونوا لقبول الله أشد اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لا يقل عمل مع التقوى وكيف يقل عمل يتقبل وقد وصف الله تعالى إلى ذكر المؤمنين بالكثرة لما تضمنه من وجود الإخلاص وعدم رياء الناس فقيل في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٤١] قيل يعني خالصاً فسمى الخالص كثيراً وهو ما أخلصت فيه النية لوجه الله العظيم ووصف ذكر المنافقين بالقلة لما اشتمل عليه من عدم الإخلاص ووجود رياء الناس فقال تعالى: ﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢] يعني غير خالص روي عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً. وقال بعض الصحابة لصدر التابعين: أنتم

إما أن يكون مثلك فلا يحصل لك من صحبته ضرر، وإما أن يكون دونك، وهو ما أشار إليه بقوله: **(ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك من هو أسوأ حالاً منك)** يعني أن صحبة من هو دونك ضرر محض، لأنها تغطي عنك عيوبك، وتبين لك كمالك فتوجب لك حسن الظن بنفسك، فتعجب بأعمالك وتقنع بأحوالك والرضا عن النفس ورؤية إحسانها أصل كل شرفان أردت، ولا بد أن تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله فاصحب مثلك حتى تكون في صحبته لا لك ولا عليك، ثم علم أن صحبته العارفين فيّ على قسمين: صحبة إرادة وصحبة تبرك. فصحبة الإرادة هي التي يشترط لها الشروط المعروفة التي حاصلها أن يكون المريد مع الشيخ، كالميت بين يدي الغاسل. وصحبة التبرك هي التي يكون القصد بها الدخول مع القوم والتزيي بزيهم، والانتظام في سلك عقدهم، وهذا لا يلزم بشروط الصحبة، وإنما يؤمر بلزوم حدود الشرع، ولعله بمخالطة الطائفة تعود عليه بركتهم، ويصل إلى ما وصلوا إليه **(ما قل عمل برز من قلب زاهد)** أي غير متعلق بالدنيا بل هو وإن كان قليلاً في الحس كثير في المعنى لسلامته من الآفات القادحة في قبول الأعمال من الرياء والتصنع للناس، وطلب الأعراض الدنيوية، وعدم حضور القلب مع المولى في حال فعله لقلة الوساوس الشيطانية الناشئة من حب الدنيا **(ولا كثر عمل برز من قلب راعب)** في الدنيا، بل هو وإن كان كثيراً في الحس قليل في المعنى لعدم سلامته مما ذكر، وقد روي عن ابن مسعود أنه قال: ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً.

أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيراً منكم. قيل: ولِمَ ذلك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وعن بعض الصحابة أيضاً قال تابعنا: الأعمال كلها فلم نَرَ في أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد في الدنيا. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: سألت معروفاً الكرخي رضي الله تعالى عنه، عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعة؟ فقال: بإخراج الدنيا من قلوبهم ولو كان شيء منها في قلوبهم ما صحت لهم سجدة. وقال الشيخ أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولا يجد حلاوة في قلبه فقال: لأن عندك بنت إبليس، وهي الدنيا، ولا بد للأب أن يزور ابنته في بيتها وهو قلبك ولا يؤثر دخوله إلا فساداً.

وكان أبو محمد بن سهل رضي الله تعالى عنه يقول: يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله قال: ولا يرى في القيامة أحد أفضل من ذي زهد عالم ورع **(حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال وحسن الأحوال من التحقق في مقامات الإنزال)** حسن الأعمال توفيتها بما يجب لها من شروط وآداب عبودية لله تعالى لا لطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل وحسن الأحوال أن تكون سالمة من العلل والدعاوى موسومة بسمة الصدق والتحقق في مقامات الإنزال هو ارتواء القلب بما ينزله الحق تعالى فيه من مقامات العلوم والمعارف بحيث ينتفي عنه كل شك وريب وهذه الثلاثة المذكورة مرتب بعضها على بعض وهو معنى ما يقوله الإمام أبو حامد رضي الله تعالى عنه لا بد في كل مقام من مقامات اليقين من علم وحال وعمل فالعلم ينتج الحال والحال ينتج العمل وهذا الكلام الذي ذكره المؤلف رحمه الله تعالى نوع استدلال على ما قاله في الزاهد والراغب **(لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز)** الذكر أقرب الطرق إلى الله تعالى وهو علم على وجود ولايته كما قيل: الذكر منشور الولاية فمن وفق للذكر فقط أعطي المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل.

قال الشاعر:

والذِّكرُ أعظَمُ بابٍ أَنْتَ داخِلُهُ ... لله فاجعل لَهُ الأنفاسُ حُرّاسا

(حسن الأعمال) بخلوها عما يعوقها عن القبول من الرياء وغيره، وحضور القلب مع الله في حال فعلها، وعدم اشتغاله بغيره من الوساوس الشيطانية **(نتائج حسن الأحوال)** القائمة بالقلوب من الزهد في الدنيا والإخلاص لله، بأن يقصد بعمله عبودية الله تعالى لا لطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل **(وحسن الأحوال)** ناشئ **(من التحقق)** أي التمكن **(في مقامات الإنزال)** أي في المقامات التي تنزل في قلوب العارفين، وهي معارف إلٰهية يوردها الله تعالى على القلوب، تكون سبباً في ترك الدعوى، وعدم الالتفات إلى جنة أو هرب من نار، فإن المريد إذا حصل له ذلك راقب مولاه بقلبه، فلا يقصد بعمله غيره، وإذا حصل ذلك تخلص العمل مما يعوقه عن القبول، وهذه الحكمة كالدليل لما قبلها، ولما كانت الخصال المحمودة لا تنشأ غالباً إلا من كثرة الذكر والمداومة عليه ذكره بقوله: **(لا تترك)** أيها المريد **(الذكر)** بل لازمه وداوم عليه، فإنه أقرب الطرق إلى الله تعالى وعلامة على وجود ولايته، فمن وفق للذكر فقد أعطى منشور الولاية، فلا تتركه **(لعدم حضورك)** أي حضور قلبك **(مع الله فيه)** بأن كان مشتغلاً بالوساوس الشيطانية والأغراض الدنيوية **(لأن غفلتك عن وجود ذكره)** بأن تتركه **(أشد من غفلتك)** الحاصلة **(في وجود ذكره)** لأن ترك الذكر فيه بعد عن الله تعالى بالقلب واللسان بخلاف الذكر، فإنك إن بعدت عنه بقلبك فأنت قريب بلسانك، فعليك أن تذكر الله به وإن كان قلبك غافلاً حال الذكر **(فعسى أن يرفعك)** أي يرقيك **(من ذكر مع وجود غفلة)** عن المولى **(إلى ذكر مع وجود يقظة)** أي تيقظ لما يناسب حضرته سبحانه من الأدب، وعدم الاشتغال عنه بغيره **(ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور)** بأن يدخل القلب حضرة الرب فيراقبه حال ذكره، ولا يغفل عنه **(ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور)** وهو الله بأن يفنى حتى عن الذكر فيصير يخرج منه الذكر من غير قصد، وحينئذ يكون الحق لسانه الذي ينطق به، فإن بطش هذا الذاكر كان يده التي يبطش بها، وإن سمع كان سمعه الذي يسمع به، وهذه المعالم والمراقي لا يعرف حقيقتها إلا السالكون وجداناً والعلماء إيماناً وتصديقاً، فإياك والتكذيب بشيء من ذلك فتهلك مع الهالكين. ولما كان المريد ربما يستبعد الوصول إلى ذلك نهاه بقوله: **(وما ذلك على الله بعزيز)** لأنه قادر على كل شيء فعلى المريد القيام بالأسباب، ومن الله الوصول ورفع الحجاب.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الذكر عنوان الولاية ومنار الوصلة وتحقيق الإرادة وعلامة صحة البداية ودلالة صفاء النهاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ومنشؤها عن الذكر وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقوله عزّ وجلّ فيما يرويه عنه رسول الله ﷺ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي ملإٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً وإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»، لكان في ذلك اكتفاء وغنية وهذا الحديث متفق على صحته. قالوا: ومن خصائصه أنه غير مؤقت بوقت فما من وقت إلا والعبد مطلوب به إما وجوباً وإما ندباً بخلاف غيره من الطاعات قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله وأمرهم بذكره في الأحوال كلها فقال عزّ من قائل: ﴿فاذْكُروا اللّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّهَ ذِكْراً كثيراً﴾ [الأحزاب: ٤١] أي بالليل والنهار وفي البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر وفي الصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال وقال مجاهد رضي الله تعالى عنه: الذكر الكثير أن لا ينساه أبداً. وروي عن رسول الله ﷺ «أَكْثِرْ واذْكُرِ اللّهَ حَتَّى يقولوا مجنونٌ» فينبغي للعبد أن يستكثر منه في كل حالاته ويستغرق فيه جميع أوقاته ولا يغفل عنه وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه فإن تركه له وغفلته عنه أشد من غفلته فيه فعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه وإن كان غافلاً فيه، فلعل ذكره مع وجود الغفلة يرفعه إلى الذكر مع وجود اليقظة وهذا نعت العقلاء ولعل ذكره مع وجود اليقظة يرفعه إلى الذكر مع وجود الحضور وهذه صفة العلماء، ولعل ذكره مع وجود الحضور يرفعه إلى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور وهي مرتبة العارفين المحققين من الأولياء قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] أي إذا نسيت ما دون الله عند ذلك تكون ذاكر الله وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويكون العبد محواً في وجود العيان وفي هذا المعنى أنشدوا:

ما إنْ ذكرتكَ الأهم يفلقني	سرِّي وقلبي وروحي عند ذكرَاكَ
حتى كأنَّ رقيباً مِنْكَ يهتفُ بي	إياكَ ويحكَ والتذكارُ إيّاكَ
أَمَا تَرَى الحَقَّ قَدْ لاَحَتْ شَوَاهِدُهُ	وَوَاصَلَ الكلُّ مِنْ معناهُ مَعناكَ

وقال الواسطي مشيراً إلى هذا المقام: الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه وقال أبو العباس بن البناء في كلام ذكره على مقدمة كتاب أبي العزتقي الدين بن المظفر الشافعي وهو كتاب الأسرار العقلية في الكلمات النبوية: ورأيت هذا الكلام بخطه رحمه الله ومن أحسن الذكر ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جل ذكره وهذا هو الذكر الخفي عند المتصوفة على الاستمرار والتمكن في الأسرار وأما قولهم حتى يتمكن الذاكر إلى حالة يستغرق بها عن الذكر فليس ذلك تمكن حلول ولا اتحاد، بل حكمة وقدرة من عزيز حكيم. وبيان ذلك أن يكون القلب عند الذكر في الذكر فارغاً من الكل، فلا يبقى فيه غير الله جلّ ذكره فيصير القلب بيت الحق ويمتلئ منه فيخرج الذكر من غير قصد ولا تدبير وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذي ينطق به فإن بطش هذا الذاكر كان يده التي يبطش بها وإن سمع كان سمعه الذي يسمع به قد استولى المذكور العلي على الفؤاد فامتلكه وعلى الجوارح فصرفها فيما يرضيه وعلى الصفات من هذا العبد فقلبها كيف شاء في مرضاته فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف وتنبعث الأعمال بالطاعات نشاطاً ولذةً من غير كلال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقد وصف الله قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك في قوله: الحق. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً أي فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فكادت أن تبدي به من غير قصد منها لذكره ولا تدبير بل كان تركها للتصريح بذكره صبراً بما ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين بما أوحي إليها من قبل في شأن موسى وبأنه من المرسلين، وبذلك يندفع الإشكال الذي ذكره أبو العز ووصفه بالعظم وهو اجتماع الضدين في بادئ

الرأي وهما: الذكر والغفلة عن الذكر. وهذه المعالم والمراقي، لا يعرف حقائقها إلا السالكون وجداناً والعلماء إيماناً وتصديقاً فإياك والتكذيب بآيات الله فتكون من الصُّمِّ البُكْمِ في الظلمات ولما كان المذكور لا يجوز عليه وصف الفقد والعدم ولا يمنعه حجاب ولا يحويه مكان ولا يشتمل عليه زمانٌ ولا يجوز عليه الغيبة بوجهٍ ولا يتصف بحوادث المحدثين ولا يجري عليه صفات المخلوقين فهو حاضر عيناً ومعنًى وشاهد سراً ونجوى إذ هو القريب مِنْ كُلِّ شيءٍ وأقرب إلى الذاكر له من نفسه من حيث الإيجاد له والعلم به والمشيئة فيه والقدرة والتدبير له والقيام عليه خلق الخليقة فلا تلحقه أوصافها، وأوجد الأعداد، فلا تحصره معانيها سبحانه هو العلي الكبير انتهى كلام الشيخ أبي العباس رحمه الله في معنى المقام الثالث من مقامات الذكر وهو في غاية الحسن والتحقيق مشيراً إلى توحيد الخواص من أهل هذا الطريق فلا ينبغي أن يستبعد العبد الوصول إلى هذا المقام الكريم فليس ذلك بعزيز على الفتَّاح العليم فعلى العبد القيام بحق الأسباب ومن الله تعالى رفع الحجاب.

وقال رضي الله عنه **(من علامات مَوْتِ القلب عدمُ الحزن على ما فاتك من الموافقات وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات)** القلب إذا كان حيّاً بالإيمان حزن على ما فاته من الطاعات وندم على ما فعله من الزلات ومقتضى هذا، وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطاعات ويوفق له من اجتناب المعاصي والسيئات. وقد جاء في الخبر: مَنْ سرَّتْه حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن فإن لم يكن العبد بهذا الوصف وعدم الحزن على ما فاته والندم على ما أتاه فهو ميت القلب وإنما كان ذلك من قبل أن أعمال العبد الحسنة والسيئة علامتان على وجود رضا الله تعالى عن العبد وسخطه عليه فإذا وَفَّقَ الله تعالى عبده للصالحاتِ، سرَّهُ ذلك لأنه علامة على رضاه عنه وغلب حينئذ رجاؤه وإذا خَذَلَهُ ولم يعصمه فعمل بالمعاصي، ساءه ذلك وأحزنه لأنه علامة على سخطه عليه وغلب حينئذ خوفه والرَّجاء يبعث على الاجتهاد في الطاعات وليس من مقتضاه تركها وعدم الحزن على ما فاته منها أمناً واغتراراً والخوف يبعث على المبالغة في اجتناب المعاصي والسيئات وليس من مقتضاه فعلها وترك الندم عليها إياساً وقنوطاً وفي حديث عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أتاه آتٍ، فلما حاذانا ورأى جماعتنا، أناخ راحلته ثم مشى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوضعت راحلتي من مسيرة تسع فسيرتها إليك ستاً وأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وأنصبت راحلتي لأسألك عن اثنتين أسهرتاني فقال له النبي ﷺ: «مَنْ أَنْتَ»؟ قال: زيد الخيل قال: «بَلْ أَنْتَ زَيْدُ الخَيْرِ سَلْ فَرُبَّ مُعْضِلَةٍ قَدْ سئلت عَنْها» قال: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال له النبي ﷺ: «بخ بخ كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا زيد»؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله وأحب أن يعمل به وإذا فاتني حننت إليه وإذا عملت عملاً قلَّ أو كثر أيقنت بثوابه قال: «هي هيَ بِعَيْنِها يا زَيْدُ ولو أرادك الله للأخرى هَيَّأَكَ لَهَا ثُمَّ لا يبالي في أي وادٍ هلكت» فقال زيد: حسبي حسبي ثم ارتحل ولم يثبت **(لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه)** عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين أحدهما أن يعظم عند عظمة تحمله على التوبة منه والإقلاع عنه وصدق العزم على أن لا يعود إلى مثله فهذه عظمة محمودة وهي من علامات إيمان العبد كما قلنا قال عبد اللّه بن مسعود رضي الله تعالى عنه: إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ وقع على أنفه قال به هكذا فأطاره ويقال: إن الطاعة كلما استُصْغِرَتْ كَبُرَتْ عند الله وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند اللّه تعالى والثاني أن

(من علامات موت القلب) أي قلب المريد **(عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات)** أي الطاعات **(وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات)** أي من الزلات التي توجد منك وعلامة حياته بالأنوار الإلهية، وإن لم تدركها لغلظ حجابك حزنك على ما فاتك من الطاعات، وندمك على ما فعلت من الزلات، فتفرح بصدور الأعمال منك فرحاً شديداً، وتغتم على صدور المخالفات، وذلك دليل على أنك من أهل الإرادة المحبوبين لله فجد في السير لا تكسل **(لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله)** بأن توقعك في اليأس والقنوط، فهذه عظمة مذمومة قادحة في الإيمان، وهي شر عليك من ذنوبك وسببها جهلك بصفات مولاك، ووقوفك مع نفسك **(فإنه من عرف ربه)** معرفة حقيقية **(استصغر في جنب كرمه ذنبه)** فأي ذنب لا يسعه عفوه سبحانه أما عظمة الذنب التي تحمل مرتكبه على التوبة منه والإقلاع عنه، وصدق العزم على أن لا يعود إلى مثله فهي عظمة محمودة، وهي من علامات إيمان العبد قال ابن مسعود: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها

يعظم عنده عظمة توقعه في اليأس والقنوط وتؤديه إلى سوء الظن بالله تعالى فهذه عظمة مذمومة قادحة في الإيمان وهي شرٌّ عليه من ذنوبه وسبب ذلك جهله بصفات مولاه المحسن الجواد الكريم ووقوفه مع نفسه وقياسه بعقله وحدسه ولو كان عارفاً بالله حقَّ المعرفة لاستحقر ذنوبه في جنب كرمه وفضله فأي قدر للعبد أو قيمة حتى يقع في ذنب لا يسعه غفور به ويكبر عليه أن يغفره قال في التنوير واعلم أنه لا بد في مملكته من عبادهم نصب الحلم ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ووقوع الشفاعة وافهم قوله ﷺ: «والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ وَلَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرونَ الله تعالى فيغفر لَهُمْ» وقوله ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» وجاء رجل إلى الأستاذ أبي الحسن، قدس الله سره العزيز، فقال: يا سيدي كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا فقال: يا هذا كأنك تريد أن لا يُعصى الله تعالى في مملكته: مَنْ أحب أن لا يعصي الله تعالى في مملكته فقد أحب أن لا تظهر مغفرته وأن لا تكون شفاعة رسول الله ﷺ له وكم من مذنب كثرت إساءته ومخالفته وجبت له الرحمة من ربه فكان له راحماً بقدر إيمانه وإن عصى عالماً اهـ فلا ينبغي للعبد أن يستعظم ذنبه استعظاماً يؤديه إلى أن يلقى بيديه إياساً من روحه وقنوطاً من رحمته وسوء ظن به عليه أن يتوب إلى ربه منه ويرجع إليه عنه ويعلم حكمة الله تعالى في تسليطه عليه وتخليته بينه وبينه وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «لَوْلاَ أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ العَجَبِ ما خَلّى اللّهُ تعالى بين مُؤْمِنٍ وَبَيْنَ ذَنْبٍ أبداً» فنبهك بهذا على أن الذنب مانع من وجود العجب الذي هو أعظم حجاب بين العبد وبين مولاه لأن صاحبه ناظر إلى نفسه لا إلى ربه مستعظم لطاعته وعبادته ملاحظٌ لذلك ومساكن له بخلاف ذلك الذنب لأنه يوجب له الخوف والحذر واللجأ إلى الله تعالى والفرار إليه من نفسه والعجب يصرف العبد عن الله تعالى والذنب يصرفه إليه والعجب يقبل به على نفسه والذنب يقبل به على ربه والعجب يؤديه إلى الاستغناء والذنب يؤديه إلى الافتقار وأحب أوصاف العبد إلى الله عزّ وجلّ افتقاره إلى مولاه وأشرف أحوال المؤمن ما يرده إليه ويقبل به عليه **(لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله)** إذا ظهرت الصفات العلية بطلت أعمال العاملين فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر وإذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: إن وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة وإن نالهم فضله لم تبق لهم سيئة ومن دعائه رضي الله تعالى عنه: إلهي إن أحببتني غفرت سيئاتي وإن مقتني لم تقبل حسناتي. وما أحسن قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، في دعائه ومناجاته: واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت فالإحسان لا ينفع مع البغض منك والإساءة لا تضر مع الحب منك وسيأتي من مناجاة المؤلف رحمه الله، في مثل هذا المعنى قوله: إلهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك **(لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده)** في النسخ الموجودة بأيدينا: لا عمل أرجى للقلوب ومعناه عى هذا الوجه أن العمل الموصوف بهذه الصفة لا يلتفت إليه القلب ولا يعتبره وفي عدم التفاته واعتباره صلاحه وتحرره من رق رؤيته فيبقى حينئذ مع ربه لا مع عمله ويكون ذلك على حذف مضاف تقديره لا عمل أرجى لصلاح القلوب أو ما في معناه وسيأتي من كلام المؤلف ما يناسب هذا المعنى وهو قوله: قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم إلى آخره والغالب على الظن أن الذي قصده

في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا، فأطاره ويقال إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله، وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله **(لا صغيرة)** من ذنوبك بل كلها كبائر **(إذا قابلك عدله)** وهو تصرفه في ملكه من غير حجر عليه فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه الله تعالى ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر **(ولا كبيرة إذا وجهك فضله)** وهو إعطاء الشيء بغير عوض، بل جميع ذنوبك حينئذ صغائر، فإذا ظهرت صفة الفضل لمن أحبه اضمحلت سيئاته، ورجعت كبائره صغائر، ولذا قال الشاذلي: قدس الله سره واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت **(لا عمل أرجى للقبول)** أي لقبول الله له **(من عمل يغيب عنك شهوده)** بأن تشهد أن الذي وفقك له هو الله تعالى، ولولاه ما صدر منك ذلك العمل **(ويحتقر عندك وجوده)** بأن لا تعتمد عليه في تحصيل أمر من الأمور، كالوصول إلى الله تعالى والقرب منه ونيل الدرجات والمقامات لرؤيتك التقصير فيه،

المؤلف رحمه الله وذكره إنما هو لفظ القبول فغلط الناسخ فقلب حروفه ولا يحتاج في هذا إلى حذف وتقريره على هذا الوجه أن تقول: سلامة العمل من الآفات شرط في قبوله لأن صاحبه متق لله تعالى وقد قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وإنما يسلم العمل من الآفات باتهام النفس في القيام بحقه ورؤية تقصيره فيه فيغيب عنه إذ ذاك شهوده ويحتقر عنده وجوده فلا يساكنه ولا يعتمد عليه فإن لم يكن على هذا الوصف بل كان ناظراً إليه ومستعظماً له غائباً عن شهود منة الله تعالى عليه في توفيقه له أوقعه ذلك في العجب فحبط لذلك عمله وخاب سعيه.

قال أبو سليمان رضي الله تعالى عنه: ما استحسنت من نفسي عملاً فاحتسبته. وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه: كل شيء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لا يقبل منك لأن القبول مرفوع مغيب عنك وما انقطعت عنه رؤيتك فذلك دليل على القبول. وقد سئل بعض العارفين ما علامة قبول العمل؟ قال: نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية بدلالة قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] قال فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل أن لا يبقى عندك منه شيء فإنه إذا بقي في نظرك منه شيء لم يرتفع إليه لبينونة بين عنديتك وعنديته فينبغي للعبد إذا عمل عملاً أن يكون عنده نسياً منسياً بما ذكرناه من اتهام النفس ورؤية التقصير حتى يحصل له قبوله **(إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً)** الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته لأن الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار فإذاً إنما أورده عليك لتكون به وارداً **(أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار)** الآثار والأغيار غاصبة ومسترقة لك وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليها واعتمادك عليها فإنما أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك وليحررك من ملكية من استرقّك والإشارة إلى هذا المعنى بما ضرب الله تعالى من المثل للكافر في قوله ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً فمن سلم من يد الأغيار وحرر من رق الآثار لا يكون لمخلوق فيه نصيب ولا شركة وكان سلماً لله عزّ وجلّ **(أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك)** سجن وجوده هو شهوده لنفسه ومراعاته لحظه وفضاء شهوده أن يغيب عن ذلك بشهوده عظمة الله تعالى وجلاله ورؤية قيام حركاته وسكناته قال أبو القاسم النصر أبادي رضي الله تعالى عنه: سجنك نفسك إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد. وسيأتي من كلام المؤلف في معنى قوله: سجن وجودك الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون

وعدم سلامته من الآفات المانعة من قبوله، وفي بعض النسخ أرجى للقلوب، أي لصلاحها **(إنما أورد عليك)** أيها المريد **(الوارد)** يطلق الوارد على ما يتحف الله به عبده من العلوم الوهبية والأنوار العرفانية التي ينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه، فيرى الحق حقاً والباطل باطلاً، ويطلق على تجل إلهي يرد على القلب، وإن لم يشعر به العبد لغلظ بشريته، وقد يعبر عنه بالحال وهذا هو المراد هنا **(لتكون به عليه وارداً)** أي مقبلاً على الدخول في حضرته ومعلوم أن الدخول في تلك الحضرة لا يكون إلا لقلب خالص مما يكدره ولذا قال: **(أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار ويحررك من رق الآثار)** الأغيار والآثار هي الأغراض الدنيوية، وشهوات النفوس، فهي غاصبة لك لحبك لها وسكونك إليها، واعتمادك عليها، فأورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك ويحررك من ملكية من استرقك، فلا يكون للمخلوق فيك نصيب ولا شركة، وتكون سالماً لله عز وجل، فتصلح للحضور معه ولذا قال: **(أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك)** أي صفاتك القائمة بك المانعة لك من شهود مولاك كالسجن المانع للمسجون من الخروج **(إلى فضاء شهودك)** أي شهودك للمولى الشبيه بالفضاء لعدم وجود شيء يحولك عن الرؤية قال بعضهم: سجنك نفسك إذا خرجت منها، وقعت في راحة الأبد ومقتضى هذا التقدير إن الوارد واحد، وثمرته واحدة، وهي الدخول في حضرة الرب، ويصح أن يكون المعنى أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً، أي مقبلاً عليك بالاشتغال بالطاعات، وأنواع المجاهدات، فتشتغل بذلك مع بقائك بأوصاف نفسك وشهواتها المقتضية عدم الإخلاص في العبادة، فيرد عليك وارد آخر ليخلصك من ذلك، ويحصل لك الإخلاص، فإذا حصل لك ربما تركن إليه، وتعتمد عليه في قبول أعمالك، ووصولك بها إلى حضرة قربه، وذلك باطل فيرد عليك وارد ثالث تغيب به عن رؤية نفسك،

بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته (**الأنوار مطايا القلوب والأسرار**) أنوار الإيمان واليقين مطايا حاملة لأسرار القلوب إلى حضرة علام الغيوب وتلك هي الواردات المذكورات (**النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار وقطع عند مدد الظلم والأغيار**) نور التوحيد واليقين وظلمة الشرك والشك جندان للقلب والنفس والحرب بينهما سجال فإذا أراد الله نصرة عبده أمد قلبه بجنوده وقطع عن نفسه مدد جنودها وإذا أراد خذلان عبده فعلى العكس، فإذا مال القلب إلى العمل بأمر محمودٍ مؤلم في الحال ملتذ به في المآل ومالت النفس إلى العمل بأمر مذموم ملتذ به في الحال مؤلم في المآل وتنازعا وتقاتلا، سارع النور الذي هو من أمر الله تعالى ورحمته إلى نصرة القلبّ وبادرت الظلمة التي هي من وساوس الشيطان ولمته إلى نصرة النفس وقام صف القتال بينهما، فإن سبقت للعبد من الله تعالى سابقة السعادة، اهتدى القلب بنور الله تعالى واستهان بالعاجلة ورغب في الآجلة وعمل القلب بما مال إليه، وإن آلمه في الحال لما يرجوه من التنعم به في المآل وإن سبقت له من الله الشقاوة، والعياذة بالله، ذهل القلب عن النور وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل واغتر بلذة العاجل وعمل بما مالت إليه نفسه، وإن آلمه في المآل لما يحصل لها من لذة الحال وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين، لا سبيل للعبد إلا فزعه إلى الله تعالى ولياذه به وكثرة ذكره وصدق توكله واستعاذته من الشيطان الرجيم وهذه العبارات الخمس من قوله إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليك وارداً إلى هنا تفنن فيها صاحب الكتاب وكررها بألفاظ مختلفة والمعاني فيها متقاربة وهذه عادته في مواضع كثيرة من هذا الكتاب رضي الله تعالى عنه (**النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الإقبال والإدبار**) هذه ألفاظٌ مختلفةٌ لمعانٍ متغايرة فالنور يفيد كشف المعاني المغيبات حتى تتضح وتشاهد والبصيرة التي هي ناظر القلب تفيد الحكم وهو صحة ما شاهدته والقلب له الإقبال عملاً بمقتضى ما شاهدته البصيرة وله أيضاً الإدبار تركاً للعمل بمقتضى ما شاهدته البصيرة (**لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك**

وتشاهد به مولاك بسرك ثم قال: (**الأنوار**) الإلٰهية التي ترد على قلب المريد من حضرة الرب، وتحصل غالباً من الأذكار والرياضات (**مطايا القلوب**) لوصلها إلى مطلوبها التي هي متوجهة له، وهو دخولها حضرة الرب، والقرب منه كتوصيل المطية راكبها إلى مطلوبه (**والأسرار**) أي ومطايا الأسرار أيضاً جمع سر، وهو باطن القلب عند الصوفية، ولا التفات لمن جعله عين القلب، لأنه خلاف اصطلاحهم (**النور جند القلب**) أي يتوصل به إلى ما يقصده ويتوجه إليه، وهو حضرة الرب كما يتوصل الأمير بجنده إلى ما يقصد من غلبة عدوه، وهذا مستفاد مما قبله، وإنما أتى به توطئة لقوله: (**كما أن الظلمة**) وهي طبيعة للعبد (**جند النفس**) تتوصل بها إلى مقصودها وهو الشهوات والأغراض العاجلة، وما زال الحرب واقعاً بين القلب والنفس (**فإذا أراد الله أن ينصر عبده**) أي يعينه عى نفسه وقمع شهواتها (**أمده**) أي أمد قلبه (**بجنود الأنوار**) أي بجنود هي الأنوار أو بالأنوار الشبيهة بالجنود، فإنها إذا حصلت له أدرك بها قبح الشهوات العائقة عن الوصول إلى الله تعالى: (**وقطع عنه مدد الظلم والأغيار**) أي مدداً هو الظلم والأغيار، وهما بمعنى واحد، وإذا أراد خذلانه فعلى العكس من ذلك، فإذا مال القلب إلى عمل صالح كصوم غد ومالت النفس إلى شهوة كالفطر، وتنازعا وتقاتلا سارع النور الذي هو من الله تعالى ورحمته إلى نصرة القلب، والظلمة إلى نصرة النفس، وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين لا سبيل للعبد إلا فزعه إلى الله وتوكله عليه، وهكذا في كل عمل صالح إلى أن يصل إلى الله تعالى، فينقطع حينئذ حكم النفس وتصير مقهورة مغلوبة. * ثم قال: (**النور**) الذي يفيضه الله على قلب المريد (**له الكشف**) أي كشف المعاني والمغيبات كحسن الطاعة، وقبح المعصية (**والبصيرة**) التي هي ناظر القلب (**لها الحكم**) أي إدراك ذلك ومشاهدته فكما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات إلا بالأنوار الظاهرية كسراج وشمس، لا يمكن إدراك البصيرة لشيء من المعاني إلا بالأنوار الباطنية (**والقلب له الإقبال والإدبار**) على ما كشف للبصيرة فإذا كشف لها عن حسن الطاعة وقبح المعصية أقبل القلب على الطاعة، وأحبها فتتبعه الجوارح، وأدبر عن المعصية فلا تتلبس بها الجوارح، هذا ويحتمل أن المعنى أن النور له الكشف عن المغيبات كأسرار القدر، وأنه يحصل في العالم كذا، والبصيرة لها الحكم، أي إدراك ذلك ثم هذا الكشف والإدراك قد لا يكونان تامين، فينبغي للمكاشف أن يتثبت في كشفه، ولا يعمل بمقتضى ما كشف له، فلا يخبر بشيء حتى يستفتي قلبه، إما أن يقبل وإما أن يدبر، ولذا تجد بعض الأولياء يخبر عن أمور لا تقع، وذلك لعدم تثبته في كشفه (**لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك**) أي من حيث صدورها عنك باختيارك وحولك وقوتك، فهذا فرح مذموم منهي عنه محبط لها (**و**) لكن (**افرح بها لأنها برزت من الله**

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) الفرح بالطاعة على وجهين: فرح بها من حيث شهودها من الله تعالى نعمةً منه وفضلاً، فهذا هو الفرح المحمود وهو الذي طلب من العبد وذلك هو مقتضى شكرها، وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وإرادته وحوله وقوته، فهذا هو فرح مذموم منهي عنه وهو كفران النعمة وهو من العجب المحبط للعمل فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شيء وسيأتي في آخر الكتاب أنواع الفرح بالنعم وما يحمد منها وما يذم تامة مستوفاة **(قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها)** لقد أسبغ الله نعمته على الفريقين حيث فعل معهم ذلك لأنه أبقاهم معه ولم يدعهم لسواه فالواصلون فعل ذلك بهم طوعاً منهم والسالكون فعل ذلك بهم كرهاً ولله يسجد مَنْ في السموات والأرض طوعاً وكرهاً فالواصلون قطعهم عن ذلك لشهودهم له في حضرة قربه ومن شاهده لم يشهد معه غيره إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه والسالكون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق أو البراءة من الدعوى فهم أبداً متهمون لأنفسهم في توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم.

قال النهرجوري رضي الله تعالى عنه: من علامات من تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره والنقصان في صدقه والفتور في مجاهداته وقلة المراعاة في فقره فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقراً إلى الله في قصده وسيره حتى يفنى عن كل ما دونه. وقال أبو عمر وإسماعيل بن نجيد رضي الله تعالى عنه: لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى. وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: لو صفت لي تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشيء وإلى هذين المقامين تشير الحكاية التي تروى عن الواسطي رضي الله تعالى عنه، وذلك أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان رضي الله تعالى عنه: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها فقال: أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشئها.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: وإنما أراد الواسطي بهذا صيانتهم عن مخل الإعجاب لا تعريجاً في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب. وقال رضي الله تعالى عنه **(ما بسقت أغصان ذل إلاّ على بذر طمع)** البُسُوقُ: الطول. بسقت النخلة بسوقاً إذا طالت قال الله تعالى: ﴿والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ والأَغْصَان﴾

إليك) أي من حيث شهودها من الله نعمة منه وفضلاً، فهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد، وهو مقتضى شكرها ثم استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هوخير مما يجمعون﴾ فإيصال تلك الطاعة إليه، وإظهارها على يده اعتناء من الله سبحانه وتعالى به فينبغي أن يفرح بها من تلك الحيثية لا من حيثية صدورها منه وفعله لها **(قطع)** أي حجب ومنع **(السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم)** الظاهرة **(وشهود أحوالهم)** القلبية، لكن السبب في انقطاع الطائفتين عن ذلك مختلف **(أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها)** وذلك لرؤيتهم نقصاً بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها، فهم دائماً متهمون نفوسهم في توفية أعمالهم حقها، وفي صفاء أحوال قلوبهم، فكان ذلك سبباً في البراءة من رؤيتها وشهودها **(وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها)** أي أنهم نسبوها إليه تبرياً من حولهم وقوتهم، فقطعهم عن ذلك شهودهم له في حضرة قربه، ومن شاهده لم يشهد معه غيره، وقد أسبغ الله النعمة على الفريقين، حيث عافاهم من التعلق بأعمالهم وأحوالهم، إلا أنه فعل ذلك بالسالكين كرهاً وبالواصلين طوعاً، ولا شك أن هذا المقام أرقى من الأول، ولهذا لما سأل الواسطي أصحاب أبي عثمان بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها فقال لهم: أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود منشئها ومجريها، يريد بذلك ترقي همتهم إلى مقام العرفان لا تحقير ما هم عليه فإنه من الإحسان **(ما بسقت)** يقال: بسقت النحلة بسوقاً إذا طالت أي ما طالت **(أغصان ذل الأعلى بذر طمع)** شبه الذل بشجره ذات أغصان وفروع استعارة بالكناية، والأغصان تخييل باق على حقيقته أو مستعار لأنواع الذل، بسقت ترشيح باق على حقيقته، أو بمعنى وجدت وحصلت وشبه الطمع بالنواة التي تنشأ عنها الشجرة، فإضافة بذر له من إضافة المشبه به للمشبه، أي طمع شبيه بالبذر، أي المبذور الذي تنشأ عنه الشجرة ذات الأغصان فكأنه يقول: لا تغرس بذر الطمع في قلبك، فتخرج منه شجرة الذل، وتتشعب أغصانها وفروعها، ولو قال ما بسقت شجرة الذل

[ق: ١٠] جمع غصن وهو ما تشعب عن سوق الشجر ويجمع أيضاً على غصون ولبذر الحب الذي يزرع وهذه كلها استعارات مليحة والطمع، من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة في عبوديتها بل هو أصل جميع الآفات لأنه مُحْضُ تعلُّقٍ بالناس والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه والطمع مضادٌ لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزة والعزة التي اتصف بها المؤمنون إنما تكون برفع هممهم إلى مولاهم وطمأنينة قلوبهم إليه وثقتهم به دون من سواه فهذه هي العزة التي منحها الله عبده المؤمن قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وكما أن العزة من صفات المؤمنين كذلك المذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الأَذَلِّين﴾ [المجادلة: ٢٠] قال أبو بكر الوراق الحكيم رضي الله تعالى عنه: لو قيل للطمع من أبوك؟ قال الشك في المقدور. ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل. ولو قيل: ما غايتك قال: الحرمان. وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري رضي الله تعالى عنه: من أشعر في نفسه محبة شيء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ومن طمع في شيء ذل وبذله هلك وقد قيل في ذلك مفرد.

أَتَطْمَعُ فِي لَيْلَى وَتَعْلَمُ أَنَّما تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجالِ المطامعُ

فالطامع لا محالة فاسدُ الدين مفلسٌ من أنوار اليقين. قال في التنوير وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه وتطهر من الطمع في الخلق فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم قال: وقد قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه البصرة فدخل جامعها فوجد القصّاص يقصون فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصري رضي الله تعالى عنه، فقال: يا فتى إني سائلك عن أمر فإن أجبتني عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتاً وهدياً فقال الحسن: سل عما شئت! قال: ما ملاك الدين؟ قال الورع. قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع. قال: اجلس. فمثلك من يتكلم على الناس.

قال: وسمعت شيخنا رضي الله عنه، يقول: كنت في ابتداء أمري بثغر الاسكندرية جئت إلى بعض مَنْ يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ثم قلت في نفسي: لعله لا يأخذه مني فهتف بي هاتف السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين قال: وسمعته يقول: صاحب الطمع لا يشبع أبداً. ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة الطاء والميم والعين ثم قال بعد هذا فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم فقد سبقت قسمتك وجودك وتقدم ثبوته ظهورك واسمع ما قاله بعض المشايخ أيها الرجل ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه فكله ويحك بعز ولا تأكله بذل قلت تقدم الآن من كلامه في التنوير ذكر الورع في مقابلة الطمع وكذلك في جواب الحسن لعلي رضي الله عنهما لما سأله مستخبراً له عن صلاح الدين وفساده في الكلام الذي حكاه عنهما ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس وهو ترك الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات لا يقابل الطمع كل المقابلة وقد ذكرنا الطمع ما هو وإنما يقابله ورع الخاصة وهو عندهم صحة اليقين وكما التعلق برب العالمين ووجود السكون إليه وعكوف

لكان أولى، لأن الذي يتصف بالطول، وينشأ عن البذر هو أصل الشجرة، ووصف الأغصان بذلك لطريق التبع، فالطمع من أعظم العيوب القادحة في العبودية، بل هو أصل جميع الآفات، لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم، واعتماد عليهم وعبودية لهم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه وسببه الشك في المقدور، ولذا قال بعضهم لو قيل للطمع من أبوك لقال: الشك في المقدور. ولو قيل ما حرفتك قال: اكتساب الذل. ولو قيل ما غايتك قال: الحرمان، فالطمع لا محالة فاسد الدين، ولذا دخل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه جامع البصرة، فوجد القصاص يقضون، فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصري فقال: يا فتى إني سائلك عن أمر، فإن أجبتني فيه أبقيتك، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتاً وهدياً فقال الحسن: سل عما شئت. قال: ما ملاك الدين؟ قال الورع: قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع. قال: اجلس، فمثلك من يتكلم على الناس، والورع الذي يقابل الطمع هو ورع الخاصة، وهو صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وطمأنينة القلب به لا ورع العامة، وهو ترك الشبهات، وعلى هذا فيقال قياساً على ما قاله المصنف، ما بسقت أغصان عز إلا على بذور ورع

لهمم عليه وطمأنينة القلب به ولا يكون له ركون إلى غيره ولا انتساب إلى خلق ولا كون فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع المفسد وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد كما نبه عليه الحسن رضي الله عنه في جوابه المذكور.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: الورع على وجهين، وَرَعٌ في الظاهر أن لا يتحرك إلا لله، وورعٌ في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك إلا الله.

ذكر أن بعضهم كان حريصاً على أن يرى أحداً ممن هذه صفته فجعل يجتهد في طلبه ويحتال على التوصل إليه بأن يأخذ الشيء بعد الشيء من ماله ويقصد به الفقراء والمساكين ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة خذ لا لك فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جواباً مطابقاً لما أراده بكلامه إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته وذلك أنه قال لأحدهم: خذ لا لك. فقال له: آخذه لا منك. فإن كان للعبد استشرافٌ إلى خلق أو سبقية نظر إليهم قبل مجيء الرزق أو بعده فمقتضى هذا الورع والواجب في حق الأدب أن لا ينيل نفسه شيئاً مما يأتيه على هذه الحال عقوبة لنفسه في نظره إلى أبناء جنسه كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن حنبل رضي الله عنهما وهي معروفة. وكما روي عن الشيخ أبي مدين رضي الله عنه، أنه أتاه حمّال بقمح فنازعته نفسه وقالت له: يا ترى من أين هذا؟ فقال لها: أنا أعرف من أين هو يا عدوة الله وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبةً لها لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى. وقد قيل: أحل الحلال ما لا يخطر لك على بال. ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال. وقد صرح بهذا المعنى الذي ذكرناه وأوضح الغرض الذي قصدناه شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة من المتأخرين أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه، فإنه قال: اعلم أن الورع أن لا يكون بينك وبين الخلق نسبة في أخذ أو عطاء أو قبول أو رد وأن يكون السبق لله تعالى وهو أن يأتي إليه طاهراً من جميع الأشياء والعلم والعمل. كما قال: ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة. وقال أيضاً: الورع أن لا يخطر الرزق بالبال ولا يكون بينه وبينه نسبة لا في التحصيل ولا عند المباشرة لأنه لا يدري أيأكل أم لا. وقال أيضاً: الورع أن لا تتحرك ولا تسكن. ألا وترى الله في الحركة والسكون، فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقي مع الله فالحركة ظرف لما فيها كما قال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه فإذا رأى الله ذهبت الأشياء وقال أيضاً: أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط وهذا مقام التوكل ولهذا قال بعضهم: الحلال هو الذي لا ينسى الله فيه إلى غير هذا من العبارات التي عبر بها في هذا المعنى. وقال بعض هذه الطائفة: العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم ثم يفترقون في المشاهدات فمنهم من يأكل رزقه بذلٍ ومنهم من يأكل رزقه بامتهانٍ ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ومنهم من يأكل رزقه بعز بلا مهنة ولا انتظار ولا ذلة، فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذلٍ فالسؤال يشهدون أيدي الخلق فيذلون لهم، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنة وكد، وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظارٍ فالتجار ينتظر أحدهم نفاق سلعته فهو متعذب القلب معذب، بانتظاره وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مهنة ولا انتظار ولا ذل فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمتهم من يده بعزة. قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ليس مع الإيمان أسباب إنما الأسباب في الإسلام. قال الشيخ أبو طالب، رضي الله عنه: معناه ليس في حقيقة الإيمان رؤية الأسباب والسكون إليها إنما رؤيتها والطمع في الخلق يوجد في مقام الإسلام وقد عقد المؤلف رحمه الله تعالى في لطائف المنن فصلاً في هذا المعنى وجعله لجميع وظائف الآداب الدينية أصلاً ومبنًى فرأينا نقله في هذا الموضع من صواب العمل المتكفل إن شاء الله بنجاح الأمل.

قال رضي الله عنه: اعلم رحمك الله، أن ورع الخصوص لا يفهمه إلاً قليل، فإن من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم في غير فضله وخيره ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون إلى أنوار التجليات ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو ترفعهم الآخرة تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء. قال الشيخ عثمان بن عاشوراء: خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا أنا بالدنيا قد عرضت عليَّ بعزِّها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها فأعرضت عنها فعرضت علي الجنة

بحورها وقصورها وأنهارها وأثمارها فلم أشتغل بها فقيل لي: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنها فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك وقال الشيخ عبد الرحمن المغربي وكان مقيماً بشرقي الاسكندرية: حججت سنة من السنين فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الاسكندرية فإذا العلي يقول لي: إنك في العام القابل عندنا فقلت في نفسي: إذا كنت في العام القابل هاهنا فلا أعود إلى الاسكندرية، فخطر لي الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن فأنا يوماً على ساحلها وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ثم نظرت فإذا رجل فرش سجادته على البحر ومشى على الماء فقلت في نفسي لم أصلح للدنيا ولا للآخرة فإذا العلي يقول لي: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله تعالى عنه: الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجمعون في عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى، وأما أدنى الأدنى، فالله يوزعهم عنه ثواباً لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزانٌ فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى وميراثه التعزز لخلقه والاستكبار على مثله والدالة على الله بعمله فهذا هو الخسران المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون منه ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقاراً لنفسه وافتقاراً إلى ربه وتواضعاً لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدهم فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

قال: فانظر، فهمك الله، سبيل أوليائه ومنَّ عليك بمتابعة أحبائه هذا الورع الذي ذكره الشيخ رضي الله عنه هل كان يصل فهمك إلى مثل هذا النوع من الورع ألا ترى قوله قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله، وبالله، على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المنقطعين الذي نشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم انتهى وإنما أوردنا هذه المعاني هاهنا تتميماً للفائدة المتعلقة بكلام صاحب التنوير من كون الورع مقابلاً للطمع وسيأتي مزيد بيان فيها في موضع أنسب من هذا عند قوله: لا تمدنَّ يدك إلى الأخذ من الخلائق إلى آخره فانظر فيه **(ما قادك شيء مثل الوهم)** الوهم أمر عدمي وهو ضد الحقيقة الوجودية والنفس الناقصة انقيادها إلى الأمور الوهمية الباطلة أشد من انقيادها إلى الحقائق الثابتة لوجود المناسبة بينهما والطمع في الناس انقياد إلى الأوهام الباطلة لأن الطمع تصديق للظن الكاذب والطمع فيهم طمع في غير مطمع وأرباب الحقائق بمعزلٍ عن هذا فلا تتعلق هممهم إلا بالله ولا يتوكلون إلا عليه ولا يثقون إلا به قد سقط اعتبار الأوهام والخيالات التي هي متعلقة بالأغيار عن قلوبهم فزال عنهم الطمع فاتصفوا بصفة القناعة والورع فكانت لهم الحياة الطيبة والعيشة الراضية والقناعة مقام عظيم من مقامات اليقين وهي من بدايات أحوال الراضين قال بعض العارفين: لا يكون العبد قانعاً حتى لو جاء إلى باب منزله جميع ما يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة فعرض عليه لم ينظر إلى ذلك ولم يفتح بابه قناعة منه بحاله وقد روي عن النبي ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: «هِيَ القَنَاعَةُ» **(أنت حر مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع)** الطمع في الشيء دليل على الحب له وفرط الاحتياج إلى نيله وذلك عبودية له كما أن اليأس من الشيء دليل على فراغ القلب منه وغناه عنه

(ما قادك شيء مثل الوهم) يعني أن الوهم هو السبب في الطمع في الناس، وذلك كاف في قبحه، لأن الوهم الذي هو أصله أمر عدمي إذ هو عبارة عن التخيل والحسبان التقديري، لكن النفوس منقادة له أتم من انقيادها إلى العقل، ألا ترى أن الطبع ينفر من الحية، لتوهمه الضرر فيها بل من الحبل المبرقش لكونه على صورتها، ولو انقادت للعقل لم تنفر، لأن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، فلا يسلم من الطمع في الخلق والرغبة فيما بأيديهم، إلا أهل الورع الخاص، وهم أهل القناعة والتوكل الذين سقط من قلوبهم علاقات الخلق، فلا يهتمون للرزق **(أنت حر مما أنت عنه آيس)** أي من كل ما أنت آيس منه **(وعبد لما أنت له طامع)** أي لكل ما أنت طامع فيه، فعن بمعنى من ولام له بمعنى في، وهذا دليل آخر لقبح الطمع ومدح الإياس من الخلق، والقناعة بالرزق المقسوم، وبيانه أن الطمع في الشيء عبودية له كما أن اليأس من الشيء

وذلك حرية منه فالطامع عبد واليائس حر ولهذا قيل:

الـعَـبْـدُ حُـرٌّ مَـا قَـنِـعْ   والـحُـرُّ عَـبْـدٌ مـا طَـمِـعْ
فـاقْـنَـعْ وَلاَ تَـطْـمَـعْ فَـمَـا   شَـيْءٌ يَـشِـيـنُ سِـوَى الـطَّـمَـعْ

وقيل: لولا الأطماع الكاذبة لما استعبد الأحرار بكل شيء لا خطر له. وقيل: إن العقاب يطير في فضاء عزه بحيث لا يرتقي طرف إلى مطاره ولا تسمو همة إلى الوصول إليه فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبي يلعب به. وقيل: إن فتحاً الموصلي رضي الله عنه، كان قاعداً فسئل عمن تابع الشهوات كيف صفته، وكان بقربه صبيّان مع أحدهما خبز بلا أدم ومع الآخر خبز مع كامخ، فقال الذي لم يكن معه كامخ لصاحبه: أطعمني من الكامخ، فقال له: بشرط أن تكون كلبي. فقال: نعم فجعل في رقبته خيطاً وجعل يجره كما يقاد الكلب. فقال فتح للسائل: أما إنه لو رضي بخبزه ولم يطمع في كامخ صاحبه لم يصر كلباً لصاحبه، وحكي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ إليه خبزاً قفاراً ولم يكن له أدم فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له أدم يقدمه إلى أستاذه فقام الأستاذ وقال: تعال معي، فحمله إلى باب السجن فرأى الناس يضرب واحد ويقطع آخر ويعذب كل واحد بأنواع العذاب فقال الأستاذ للتلميذ: ترى هؤلاء هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار. وقيل: إن رجلاً أخرج من السجن وفي رجله قيد يسأل الناس فقال لإنسان: أعطني كسرة. فقال: لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك. ورأى رجل رجلاً من الحكماء يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء فقال: لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا. فقال الحكيم: وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان وقد أردت أن أذكر هنا حكاية مناسبة لما نحن فيه لتعرف بها كيف تكون الهمة السنية والآداب المرضية في أخذ البلاغ من الدنيا والقناعة باليسير من الأشياء ورؤية منة الله تعالى في تيسير القليل والشكر له على ذلك قال بعضهم: خرجنا من المدينة حجاجاً فلما كنا بالزاوية نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة وله منظر وهيبة وصورة حسنة ومروءة فقال من يبغي خادماً؟ من يبغي ساقياً؟ فقلت دونك هذه القربة فأخذها وانطلق فلم يلبث إلا يسيراً حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طيناً وأثرت القربة في كتفيه فوضعها وهو كالمسرور الضاحك ثم قال ألكم غيرها قلنا لا وأطعمناه قرصاً بارداً فأخذه وحمد الله سبحانه وشكره كثيراً ثم اعتزل وقعد يأكل أكل جائع فأدركتني عليه الشفقة فقمت إليه بطعام طيب كان معنا وأكثرت له منه فقلت قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع فدونك هذا الطعام فنظر في وجهي وتبسم وقال يا عبد اللّه إنما هي فورة جوع فلا أبالي بأي شيء رددتها عني فرجعت عنه فقال لي رجل إلى جنبي أتعرفه قلت لا قال: إنه رجل من بني هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب هذا من ولد سليمان بن أبي جعفر المنصور كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها ففقد فما عرف له أثر فأعجبني قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له يا فتى أنا رجل من إخوانك وقد بلغني موضعك فأحببت الاتصال بك فهل لك أن تعادلني فإن معي فضلاً من راحلتي فجزاني خيراً وقال لو أردت هذا لكان لي معداً ثم أنس إلي وجعل يحدثني فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد وتجبر وبذخ وإني أمرت خادماً لي أن يحشو لي فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير فبينما أنا نائم إذا بقمع وردة قد غفلت عنه الخادمة فقمت إليها فأوجعتها ضرباً ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة فهزني وقال لي أفق من غشيتك وأبصر من حيرتك ثم أنشأ يقول:

يـا خَـدُّ إنَّـكَ إنْ تُـوَسَّـدْ لَـيِّـنـاً   وُسِّدْتَ بعدَ الموتِ صُمَّ الجندلِ
فامْهَدْ لنفسكَ صالحاً تَسْعَدْ بِهِ   فَـلَـتَـنْـدَمَـنَّ غـداً إذا لـم تـفـعـلِ

قال فانتبهت فزعاً فخرجت من ساعتي إلى ربي هارباً فهذا خبري قال الراوي فلما قضى حديثه هذا انخنس عني ومضى **(من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان)** النفوس الكريمة تقبل على الله تعالى

حرية منه، لأنه يدل على فراغ القلب منه وغناه عنه، فالطامع عبد واليائس حر ولذلك قيل:

الـعـبـدُ حُـرٌّ مـا قَـنِـعْ   وَالـحـرُّ عـبـدٌ مـا طَـمِـعْ

والقناعة هي السكون عند عدم المألوفات، وهي أول الزهد **(من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان)** أي بملاطفاته إياه بأنواع الإحسان **(قيد إليه بسلاسل الامتحان)** أي بالامتحانات والمصائب الشبيهة بالسلاسل، يعني أن المقتضى لإقبال

بملاطفات إحسانه وموالاة فضله وامتنانه والنفوس اللئيمة لا تنقاد إلا بسلاسل الامتحان ووقوع المصائب في الأموال والأبدان والقود بالسلاسل استعارة حسنة قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: سنة الله عزّ وجلّ استدعاء العباد لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون لأن مراده عزّ وجلّ رجوع العبد إليه طوعاً أو كرهاً **(من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)** شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها وانفصالها قال الله تعالى ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وقال الله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أي إذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات وهي شكر النعم غير الله تعالى ما منه إليهم من الإحسان والكرم واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا: الشكر قيد النعم وقالوا الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود وكان يقال: النعم إذا روعيت بالشكر فهي أطواق وإذا روعيت بالكفر فهي أغلال والشكر على ثلاثة أوجه شكر بالقلب وشكر باللسان وشكر بسائر الجوارح فشكر القلب أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى قال الله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله وشكر اللسان الثناء على الله تعالى وكثرة الحمد والمدح له ويدخل فيه التحدث بالنعم وإظهارها ونشرها قال الله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا النعم فإن تذكرها شكر ومن شكر اللسان أيضاً شكر الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ أشكر الناس لله أشكرهم للناس وسيأتي الكلام على هذا المعنى في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى عند كلام المؤلف عليه وشكر سائر الجوارح أن يعمل بها العمل الصالح قال الله تعالى ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ فجعل العمل شكراً وروي عن النبي ﷺ أنه قام حتى انتفخت قدماه فقيل له يا رسول الله أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً» وسأل رجل أبا حازم رضي الله عنه فقال له ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً أعلنته وإذا رأيت بهما شراً سترته. قال فما شكر الأذنين؟ قال إذا سمعت بهما خيراً أوعيته وإذا سمعت بهما شراً دفنته قال فما شكر اليدين؟ قال لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حقاً هو لله فيهما. قال فما شكر البطن؟ قال أن يكون أسفله صبراً وأعلاه علماً. قال فما شكر الفرج؟ قال كما قال الله تعالى ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ قال فما شكر الرجلين؟ قال إن رأيت شيئاً غبطته استعملتهما فيه وإن رأيت شيئاً مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله تعالى فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر وأجمع العبارات للشكر قول من قال: الشكر معرفة بالجنان وذكر باللسان وعمل بالأركان والقدر اللازم من شكر النعم ما قاله الجنيد رضي الله عنه حين سأله السري رضي الله عنه قال الجنيد رضي الله عنه كنت بين يدي السري رضي الله عنه وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي يا غلام ما الشكر؟ فقلت أن لا يعصى الله بنعمه فقال يوشك أن يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكي على هذه الكلمة **(خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً لك**

المريد وغيره على الرب بأنواع الطاعات والتضرع إليه، وجمعية القلب عليه أمران: الأول إيراد النعم عليه، فيشكر الله عليها، ويقبل على خدمته. والثاني إنزال المصائب في بدنه أو ماله، فيرجع إلى الرب ويتضرع إليه برفعها، وربما كان ذلك سبباً في ترك الاشتغال بالدنيا، والتعلق به سبحانه. ومراد الرب من العبد رجوعه إليه طوعاً أو كرهاً **(من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)** يعني أن شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧] وكفرانهاوعدم شكرها موجب لزوالها قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١] أي إذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات، وهي شكر النعم غير الله ما منه من الإحسان والكرم والشكر إما بالقلب بأن تعلم أن النعم كلها من الله تعالى. قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل: ٥٣] وإما باللسان بأن تتحدث بنعمة الله قال تعالى: ﴿أما بنعمة ربك فحدث﴾ [الضحى: ١١] وإما بالجوارح بأن تصرفها في طاعة الله، وتكفها عما لا يرضيه **(خف من وجود إحسانه إليك ودوام)** أي مع دوام **(إساءتك معه)** أي مخالفتك له **(أن يكون ذلك**

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾) الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين يقال من أمارات الاستدراج ركوب السيئة والاغترار بزمن المهلة وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة وهذا من المكر الخفي قال الله تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي لا يشعرون بذلك وهو أن يلقي في أوهامهم أنهم على شيء وليسوا كذلك يستدرجهم في ذلك شيئاً فشيئاً حتى يأخذهم بغتة كما قال تعالى ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم فتحنا عليهم أبواب كل شيء أي فتحنا عليهم أسباب العافية وأبواب الرفاهية حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الحظوظ الدنيوية ولم يشكروا عليها برجوعهم عنها إلينا أخذناهم بغتة أي فجأة فإذا هم مبلسون أي آيسون قانطون من الرحمة قال سهل بن عبد اللّه رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا وقال ابن عطاء الله كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة (**من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد وقد يقام مقام البعد وهو لا يدري ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد**) هذا نوع من الاستدراج الذي تقدم ذكره وسوء أدب المريد موجب لعقوبته ولكن العقوبات مختلفة فمنها معجلة ومنها مؤجلة ومنها جلية، ومنها خفية، فالعقوبة الجلية العقوبة بالعذاب، والعقوبة الخفية العقوبة بوجود الحجاب، فالعقوبة بالعذاب، لأهل الخطايا والذنوب، والعقوبة بالحجاب، لأهل إساءة الأدب بين يدي علام الغيوب. وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجلة أشد على المريد من العقوبة الجلية والمعجلة ومثال تلك العقوبة الخفية ما ذكره من قطع المدد عنه وإقامته مقام البعد منه وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب الذي ذكرناه فإذا ابتلي به المريد، ولم تتداركه

استدراجاً) أي تدريجاً لك شيئاً فشيئاً حتى يأخذك بغتة، وهذا جواب سؤال ناشئ مما قبله، حاصله أنا نرى كثيراً من الناس لا يشكر النعم، ولا تزول عنه فأجاب بأن ذلك ربما كان استدراجاً ومكراً من الله به قال تعالى: ﴿**سنستدرجهم**﴾ أي ندرجهم في ذلك شيئاً فشيئاً حتى نأخذهم بغتة ﴿**من حيث لا يعلمون**﴾ أنه استدراج ومكر، أي لا يشعرون بذلك، لأنه يأخذهم بغتة وقيل نمدهم بالنعم، وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعم وحجبوا عن المنعم أخذوا وقيل: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة، ومن أنواع الاستدراج ما ذكره بقوله: (**من جهل المريد أن يسيء الأدب**) إما مع الله تعالى كالاعتراض عليه، وتعاطي التدبير معه، والتضرر بأحكامه المؤلمة له في نفسه أو غيره، وتصريح لسانه بالشكوى إلى الخلق أو مع المشايخ كالاعتراض عليهم، وعدم قبول إشارتهم فيما يشيرون به عليه، فقد قالوا عقوق الأستاذين لا توبة له. وقالوا أيضاً: من قال لأستاذه لِمَ فإنه لا يفلح. وقال القشيري: من صحب شيخاً من الشيوخ، ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة، وإن بقي من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده، فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته، فإن الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين اهـ. وأما مع بعض الناس بالاعتراض عليهم، كما وقع للجنيد أنه رأى فقيراً يسأل فقال في نفسه: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه، لكان أجمل فثقلت عليه أوراده في تلك الليلة، ورأى جماعة أتوا له بذلك الفقير على خوان، وقالوا له: كل من لحمه فقد اغتبته، فأصبح يفتش عليه حتى وجده، فسلم عليه فقال له تعود يا أبا القاسم فقال: لا. فقال: غفر الله لك، وأما مع نفسه كأن يتعاطى شهواتها المباحة، ولا ينهض إلى ما يقر بها من مولاه (**فتؤخر العقوبة عنه**) بأن لا يعاقب في ظاهره بالأسقام، ولا في باطنه بحسب زعمه.

(**فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الأمداد**) الوارد على من حضرة الحق سبحانه (**وأوجب الأبعاد**) أي بعدي عنه بعدم حضوري معه، وهذا لازم لما قبله (**فقد**) أي إنما كان ذلك من الجهل، لأنه قد (**يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن**) من قطع المدد عنه (**إلا منع المزيد**) أي الزيادة من المدد لكان ذلك كافياً في قطع الأمداد، وقطعه مبدأ الحجاب، فإذا ابتدئ به المريد، ولم تتداركه رحمة الله تعالى في الحال كان ذلك موجباً لسقوطه من عين الله، ووقوع الحجاب على قلبه، وتبدل الإنس بالوحشة (**وقد يقام مقام**) أي في مقام (**البعد وهو لا يدري ولو لم يكن**) من إقامته مقام البعد (**إلا أن يخليك وما تريد**) بأن يسلط نفسك عليك، ويمنع نصرتك عليها لكان ذلك كافياً في البعد، فإن ذلك مبدأ الحجاب ومانع للقلب عن الدخول في حضرة الرب سبحانه، ومن إساءة الأدب مع

رحمة الله تعالى في الحال العتيد، كان ذلك موجباً لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه وتبدل الإنس بالوحشة وانتساخ الضياء بالظلمة، ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال الأولى لأنه، إذ ذاك، تنقطع عنه الإمدادات المتصلة والواردات المتحصلة فتنكسف عنه حينئذ شمس العرفان وتستتر عنه الكشوفات والبيان وهذه جنود الله تعالى في قلب العبد فإذا فقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع في الخذلان واستحوذ عليه الشيطان فأنساه الذكر وحاق به سيىء المكر ورجع إلى متابعة هوى نفسه الأمارة وخرج من دائرة الصفوة المختارة فنعوذ بالله من سوء المقدور وعدم التوفيق إلى مراعاة أوائل الأمور وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذي ذكره المؤلف رحمه الله يقتضي توجه هذه العقوبة إليه ضرب لازب لأن قوله: لو كان هذا سوء أدب إلى آخره دليل على رضاه بحاله واستحسانه لأعماله وهذا هو الموجب له عدم المزيد الذي اقتضاه قطع المدد عنه ولو كان متواصلاً إليه لازداد عند ما يقع منه سوء الأدب تواضعاً لربه وافتقاراً إليه وخوفاً من مكره ولم يستحسن حال نفسه ولم يرضها.

قال سيدي أبو العباس رضي الله عنه: كل سوء أدب يثمر لك أدباً مع الله تعالى فهو أدبٌ وهو الذي أوجب له أيضاً النخلية بينه وبين ما يريد الذي اقتضى له إقامته مقام البعد إذ لو كان مقاماً في القرب لبعد عن رؤية نفسه وكان متهماً لها في إرادتها وكان واقفاً مع مراد الله به فإن أقدم على أمر بإرادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة وعوق عليه ما أراده وسدَّ عليه مسالكه ولم يخله وما أراد من ذلك.

ويقال من علامة التوفيق ثلاث: دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك إليها، وصرف المعاصي عنك مع السعي فيها، وفتح باب اللجأ والافتقار إلى الله تعالى في كل الأحوال. ومن علامة الخذلان ثلاث: تعسر الطاعات عليك مع السعي فيها، ودخول المعاصي عليك مع الهرب منها، وغلق باب اللجأ إلى الله تعالى، وترك الدعاء في الأحوال والأدب له موقع عظيم في التصوف ولذلك قال أبو حفص رضي الله عنه: التصوف كله لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الأداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يظن القبول. وقال أبو عبد اللّه بن خفيف: قال لي رويم يا بني اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً. وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً فما أساء أحد الأدب ظاهراً إلاّ عوقب ظاهراً وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً. وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: إذا خرج المريد عن حد الأدب، فإنه يرجع من حيث جاء. وقال الثوري رضي الله عنه: مَنْ لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ابن المبارك رضي الله عنه: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم. وقيل لبعضهم: يا سيىء الأدب. فقال: لست بسيىء الأدب فقيل له: ومن أدبك؟ فقال الصوفية والآداب اللازمة للمريد عامة في ظاهره وباطنه وآداب الظاهر تبع آداب الباطن هي: التحلي بمحاسن الأخلاق كلها وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي ثُمَّ أَمَرَنِي بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ فَقَالَ خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ» ولا يحصل لك ذلك بعد توفيق الله تعالى وتأييده إلا بالرِياضة والمجاهدة.

قال ابن عطاء رضي الله عنه: النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها في فسادها. ويختلف ما ذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الأشخاص فربَّ شخص زكي الفطرة كريم السجية سهل المقادة لا يحتاج في ذلك إلى كثير معاناة ولا تعب ورب شخص يكون حاله على عكس هذا فلا جرم يحتاج إلى زيادة تعب وقوة ممارسة وشدة مجاهدة لرداءة فطرته ونقصان غريزته وبين هذين درجات لا تحصى ولهذا كله يحتاج المريد إلى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم واتباع أوامرهم ونواهيهم لأنه إن لم تجر أفعاله على مراد غيره، لا يصح له الانتقال عن الهوى ولو بلغ فن الرياضة والمجاهدة كل مبلغ وذلك لكثافة حجاب نفسه وقد سئل الدقاق رضي الله عنه: بماذا يقوّم الرجل اعوجاجه فقال: بالتأدب بإمام، فإن من لم يتأدب بإمام بقي بطالاً، فإذا دام العبد على ذلك تزكت نفسه وطهر قلبه وتهذبت أخلاقه وظهر على ظاهره أنوار ذلك فتكون حركات ظاهره وباطنه مزمومة بزمام الأدب حتى تنتهي به إلى المحافظة على اجتناب أمور غير مستنكرة في ظاهر العلم ويكون ترك محافظته عليها ذنباً من مثله وقد يعاتب عليه وقد يعاقب من أجله.

قال السري رضي الله عنه: صليت العشاء، واشتغلت بوردي ليلة من الليالي، ومددت رجلي في المحراب، فنوديت يا سري هكذا تجالس الملوك؟ فضممت رجلي ثم قلت: وعزتك وجلالك لا مددت رجلي أبداً.

قال الجنيد رضي الله عنه: فبقي ستين سنة ما مدَّ رجله ليلاً ولا نهاراً. وقال أبو القاسم القشيري رضي الله عنه كان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه لا يستند إلى شيء فكان يوماً في مجمع، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأني رأيته غير مستند فتنحى عن الوسادة قليلاً، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة ولا سجادة فقال: لا أريد الاستناد. فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء أبداً. وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: كنت جالساً في مسجد الشونيزية أنتظر جنازة أُصلِّي عليها، وأهل بغداد على طبقاتهم جلوسٌ ينتظرون الجنازة، فرأيت فقيراً عليه أثر النسك يسأل الناس فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل به فلما انصرفت إلى منزلي، وكان لي شيء من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغير ذلك، ثقل علي جميع أورادي فسهرت وأنا قاعدٌ فغلبتني عيني فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خوان ممدود وقالوا لي: كُلْ لحمه فقد اغتبته. وكشف لي عن الحال فقلت: ما اغتبته وإنما قلت في نفسي شيئاً فقيل لي: ما أنت ممن يُرضى منك بمثله اذهب واستحله فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته في موضع يلتقط من الماء عند ترداد الماء أوراقاً من البقل مما تساقط من غسل البقل فسلمت عليه فقال: أتعود يا أبا القاسم؟ فقلت: لا. فقال: غفر الله لنا ولك إلى غير ذلك من آدابهم رضي الله عنهم أجمعين والظاهر أن مراد المؤلف رحمه الله، بإساءة الأدب، ما كان فيه نوع من الرعونة وإظهار الدعوى واتصاف العبد بصفة المولى وانبساطه وإدلاله في موقف الهيبة والحياء وما أشبه ذلك مما يخاف على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به ولكن ينبغي للمريد أن لا يتهاون بشيء من الآداب ولا يستحقرها فإن التَّهاون بذلك والاستحقار له من مخامرة الجهل وعدم المعرفة بالله تعالى وهذا أقبح أنواع سوء الأدب فإن وقعت منه إساءة أدب، فليكن خائفاً من ذلك، مستعظماً للأمر فيه وليبادر إلى التوبة والاعتذار والتنصل منها خشية أن توجه إليه العقوبة من حيث لا يشعر وآكد ما ينبغي أن يجتنبه المريد من مقتضيات هذه الجملة التي ظهر لنا أنها مراد المؤلف رحمه الله تعالى من أنواع سوء الأدب أن يوطن خاطره على شيء من الاعتراض على الله تعالى وتعاطي التدبير معه والتبرم بأحكامه المؤلمة في نفسه أو غيره وأن يسرح لسانه بالشكوى إلى الخلق والعيب لما يوافق هواه أو نقص في نظره مما يراه من الحق فإن خطر بباله أو جرى على لسانه شيء من ذلك، فليبادر إلى الاستغفار منه والتقضّي عنه وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم الحسنات وأفضل القربات وذلك يدخله في مقامات الرضا ويوصله إلى غاية النعيم والعطا كما أن توطينه عليه وتهاونه به من أعظم خطاياه وأكبر ذنوبه ويؤديه ذلك إلى تسخط الأقدار والوقوع في دركات النار نعوذ بالله من ذلك.

ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فلم يعرف له خبراً ثلاثة أيام فقيل له: لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال: اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي وقال بعض السادة: أذنبت ذنباً فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له: وما ذلك الذنب؟ قال: قلت مرة لشيء ليته كان.

وقال بعض السلف: لو قرض جسمي بالمقاريض، كان أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه ليته لم يقضه وقال بعضهم مرض الجنيد رضي الله عنه، فقال: اللهم عافني فسمع هاتفاً يقول: ما لك والدخول بيني وبين ملكي؟ ومن مقتضياتها أيضاً أن يعلق بقلبه شيء من الاعتراض على المشايخ والأولياء وأن يترك تعظيمهم واحترامهم وأن لا يقبل إشارتهم فيما يشيرون به عليه فقد قالوا: عقوق الأستاذين لا توبة له وقالوا أيضاً: من قال لأستاذه لمه لا يفلح.

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: مَنْ صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة وإن بقي من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته فإن الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين قال: وفي الخبر أن الشيخ في أهله كالنبي في أمته وكذلك من سوء أدبه تصدره للتعليم والهداية، وتصديه للأمر والولاية، ومحبته للاستتباع والرياسة، وتربيته للجاه والحشمة، والقبول بين الناس، واستدعاؤه بسره أن يكرم ويعظم ويتبرك به وتقبل يده، ويسارع في قضاء حوائجه، وذلك من أضر الأشياء به وهو نتيجة استحسانه لما هو عليه وعدم تفقده لعيوبه

واتهام نفسه في كل حال من أحواله وذلك مذموم منه. وقال أبو عثمان رضي الله عنه: لا يرى عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئاً وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال.

وقال أبو عبد اللّه السجزي رضي الله عنه: من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلى ابتدائه ويروض نفسه ثانياً وقال أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه سمعت جدي يقول: آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه فإن استشعر المريد من نفسه شيئاً مما ذكرناه فليبادر إلى قطع مواده واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويرسخ فيه فبدايات الأمور هي التي ينبغي أن تراعى كثيراً.

ومن أنواع سوء أدب المريد المفضي إلى عطبه، نزوله عن مقتضيات الحقيقة إلى رخص الشريعة فقد عدّوا هذا من الجنايات العظيمة الموجبة لانحطاط الرتبة والبعد عن محل القرب ولهذا قالوا: إذا رأيت المريد انحطَّ عن رتبة الحقيقة إلى رخص الشريعة، فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله، وفسخ عقده بينه وبين الله. وقال ابن خفيف رضي الله عنه: الإرادة استدامة الكد وترك الراحة وليس شيء أضر على المريدين من مسامحة النفس في قبول الرخص والتأويلات.

وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء. وقال أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان: مَنْ أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص. ويعني بالرخصة هاهنا، ما كان مضاد الحال المريد من تناول الشهوات واللذات، والميل إلى المألوفات والمعتادات، والركون إلى الدعة والراحات، وارتكاب الشبهات والتأويلات، فإن حال المريد يقتضي مباينته لهذا كله وإن كان بعض ذلك مباحاً في رخص الشرع لعامة الناس وكان إبراهيم الخواص رضي الله عنه، يقول: ألا إن هذه الشهوات التي أظلمت قلوب المتعبدين بعد صفاء نورها وفترت أبدانهم بعد اجتهادها وحجبت قلوبهم بعد قربها وأطالت آمالهم بعد قصرها وأنسوا بالمخلوقين بعد الهرب منهم وتوطؤوا الفرش بعد الترك فسقتهم الدنيا بكأس سمها فنظروا إلى ظاهرها بعد باطنها فناموا بعد السهر وشبعوا بعد الجوع واكتسوا بعد العري. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أني إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقي فإياك أن تعلق قلبك منها بشيء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك.

وفي أخبار داود عليه السلام: يا داود تمسك بكلامي، وخذ من نفسك لنفسك، لا تؤتين منها فأحجب محبتي عنك اقطع شهوتك إليّ فإني إنما أبحت الشهوات لِضَعَفَةِ خلقي. ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات؟ فإنها تنقص حلاوة مناجاتي فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها. يا داود لا تجعل بيني وبينك عالماً سكران بحبها يحجبك بسكره عن محبتي. أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم يا داود تحبب إليّ بمعاداة نفسك وأمنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة.

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات أولاها: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل، والثانية: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، والثالثة: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد، والرابعة: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر، والخامسة: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر، والسادسة: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت. وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: كنت في جبل لبنان فرأيت رماناً فاشتهيته فدنوت منه فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك. فقال: وعليك السلام يا إبراهيم. فقلت: كيف عرفتني؟ فقال من عرف الله تعالى لم يخف عليه شيء. فقلت: أرى لك حالاً مع الله فلو سألته أن يحميك ويقيك من هذه الزنابير فقال: وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك ويقيك من شهوة الرمان فإن لذع الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولذع الزنابير يجد ألمه في الدنيا.

وقال السري رضي الله عنه: إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أغمس جزرة في دبس فما طعمتها فلما كان ترك الشهوات والتنعمات من شأن المريد ومن مقتضى حاله لزمه الوفاء به وكان حاله على خلافه نقضاً وفسخاً كما تقدم. قال جعفر بن نصير رضي الله عنه: دفع إلى الجنيد درهماً وقال اشتر به التين الوزيري فاشتريته فلما أفطر، أخذ واحدة ووضعها في فيه ثم ألقاها وبكى وقال: احمله. فقلت له: في ذلك فقال: هتف بين هاتف أما تستحي شهوة تركتها من أجلي ثم تعود إليها؟.

وعن شقيق بن إبراهيم قال: لقيت إبراهيم بن أدهم، رضي الله عنه، بمكة في سوق الليل عند مولد رسول الله ﷺ وهو جالس في ناحية من الطريق يبكي فعدلت إليه وجلست عنده وقلت له: أي شيء هذا البكاء يا أبا إسحاق؟ فقال: خير وعافية فعاودته مرة واثنتين وثلاثة فلما أكثرت عليه قال: يا شقيق استر عليّ فقلت يا أخي قل ما شئت قال لي اشتهت نفسي سكباجاً فمنعتها جهدي فلما كان البارحة، كنت جالساً وقد غلبني النعاس، فإذا أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج قال فاجتمعت همتي عليه فقرب مني وقال: يا إبراهيم كُلْ. فقلت: ما آكل شيئاً قد تركته لله تعالى. فقال لي: فإذا أطعمك الله تأكل؟ فما كان لي جواب إلا أن بكيت فقال لي: يرحمك الله كُلْ قال إبراهيم: فقلت له: قد أُمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم. فقال لي: كُلْ يرحمك الله فإنما أعطيتهُ وقد قيل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعم نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها اعلم يا إبراهيم أني سمعت الملائكة يقولون: من أُعْطِيَ فلم يأخذ طلب فلم يُعْطَ فقلت: فإن كان كذلك فها أنا بين يديك لا أحل العقد مع الله عزّ وجلّ ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئاً وقال له يا خضر لقمه أنت فلم يزل يلقمني حتى شبعت فانتبهت وحلاوته في فمي.

قال شقيق رضي الله عنه: فقلت أرني كفك فأخذت كفه بكفي فقبلتها وقلت: يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع يا من يقدح في الضمير اليقين يا من سقى قلوبهم من محبته أترى لشقيق عندك حالاً؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء فقلت: إلهي، بقدر هذه الكف وبقدر صاحبها، وبالجود الذي وجد منك جُدْ على عبدك الفقير بفضلك وإحسانك ورحمتك، وإن لم يستحق ذلك. قال: فقام إبراهيم رضي الله عنه، ومشى حتى دخل المسجد الحرام وقال عتبة الغلام لعبد الواحد بن زيد رضي الله عنهما: إن فلاناً يصف من قلبه منزلة ما أعرفها قال: لأنك تأكل مع خبزك تمراً وهو لا يزيد على الخبز شيئاً. فقلت: إن تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة؟ قال: نعم وغيرها فأخذ يبكي فقال له بعض أصحابه: لا أبكى الله عينيك أعلى التمر تبكي؟ فقال عبد الواحد: دعه فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك هو إذا ترك شيئاً لم يعاود فيه أبداً.

وقال أحمد بن أبي الحواري اشتهى أبو سليمان الداراني رضي الله عنه، رغيفاً حاراً بملح فجئت به إليه فعض منه عضةً ثم طرح الرغيف وقال: عجلت لي شهوتي بعد إطالة جهدي وشقوتي قد عزمت على التوبة فاقبلني قال أحمد فما لقيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى. وقال أبو بكر بن الجلاء رضي الله عنه: أعرف إنساناً تقول له نفسه أنا أصبر لك على طي عشرة أيام وأطعمني بعد ذلك شهوة اشتهيتها فيقول لها: لا أريد أن أطوي عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة. وقال أبو سليمان رضي الله عنه: وترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها. وقال أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه: وقد اشتد خوف السلف رضي الله عنهم من تناول لذائذ الأطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا أن منع الله منه غاية السعادة حتى روي أن وهب بن منبه رضي الله عنه، قال: التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر: من أين؟ فقال أمرت بسوق حوتٍ من البحر اشتهاه فلانٌ اليهودي وقال الآخر: أمرت بإهراق زيتٍ اشتهاه فلان العابد. وقال: وهذا تنبيه على أن تيسير الشهوات ليس من علامات الخير. قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسباب ذلك ويكون ذلك من الله ابتلاءً واختباراً فينبغي أن يصبر ويستمر فإنه إن عوَّد نفسه كسر العزم ألفت ذلك وفسدت وإذا اتفق منه كسر عزم، فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس من كتاب المراقبة فإذا لم تخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة وتفسد الرياضة عليه بالكلية هذا كلام أبي حامد وهو حسن ومعناه صحيح مجرب، فلتعتمد عليه أيها المريد.

وقد يعجل الله تعالى لبعض هؤلاء العقوبة رحمة له ومنة عليه قال أبو تراب النخشبي رضي الله عنه: ما تمنت نفسي شهوة من الشهوات إلا مرة واحدة تمنيت خبزاً وبيضاً وأنا في سفر، فعدلت إلى قرية فقام واحدٌ وتعلق بي وقال: هذا كان مع اللصوص فضربوني سبعين درة ثم عرفني رجل منهم فقال: هذا أبو تراب النخشي، فاعتذروا لي فحملني رجل منهم إلى منزله وقدم لي خبزاً وبيضاً فقلت في نفسي: كلي بعد سبعين درة وقال بعضهم: اشتهى أبو

الخير العسقلاني رضي الله عنه، السمك سنين ثم ظهر له ذلك من موضع حلال فلما مد يده إليه ليأكل دخلت شوكة من عظامه أصبعه فذهبت في ذلك يده فقال: يا رب هذا لمن مد يده بشهوة إلى حلال فكيف، بمن مد يده بشهوة إلى حرام؟ وقال أبراهيم الخواص رضي الله عنه: كنت جائعاً في الطريق فوافيت الري. فخطر ببالي أن لي بها معارف فإذا دخلتها أضافوني وأطعموني، فلما دخلت البلد، رأيت فيه منكراً احتجت أن آمر فيه بالمعروف فأخذوني وضربوني فقلت في نفسي: من أين أصابني هذا الضرب على جوعي؟ فنوديت في سري: إنما أصابك ذلك لأنك سكنت إلى معارفك بقلبك وقلت إنهم يطعمونني إذا دخلت البلد وحكي عن إبراهيم بن سفيان رضي الله عنه، أنه قال: كنت بحلب واشتهيت شبعة من الخبز والعدس فاتفق ذلك فأكلت حتى شبعت فرأيت على باب المسجد قوارير معلقة شبه نموذجات فتوهمتها خلاً فقال لي قائل: أما تنظر إليها إنها خمر. فقلت: لزمني فرض فدخلت الحانوت فلم أزل أصب دناً دناً حتى أتيت على الجميع فأخذوني وضربوني مائتي خشبة وطرحوني في السجن أربعة أشهر حتى دخل أستاذي أبو عبد اللّه المغربي البلد فسمع بحالي فشفع لي، فلما وقع بصره عليّ قال: ما شأنك؟ قلت: شبعة خبز وعدس وضربت مائتي خشبة وسجنت أربعة أشهر. فقال لي: نجوت مجاناً أي وردت عقوبة هذه الأكلة على ظاهرك ولم تقدح فيما كنت فيه من سرائرك فكان ذلك رفقاً من الله بك. قال الإمام أبو القاسم القشيري وما أصدق ما قال: فإن من أدِّبَ في دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه فقد خفف عنه في عقباه بل ظهر بالتأدب جوهره ومعناه وحكاية خير النساج رضي الله عنه، المشهورة من معنى ما ذكرناه فانظرها ففيها عبرة للمعتبرين. قال الحافظ أبو نعيم رضي الله عنه: حدثني جعفر بن محمد بن نصير في كتابه قال: سألت خيراً النساج: أكان النسج حرفتك؟ قال: لا. قلت: فمن أين سميت به؟ قال: عاهدت الله واعتقدت أني لا آكل الرطب أبداً فغلبتني نفسي يوماً فأخذت نصف رطل فلما أكلت واحدة، إذا برجل نظر إليَّ وقال: يا خير أين هربت مني؟ وكان له غلام اسمه خير فوقع على شبهه وصورته فخنقني واجتمع الناس فقالوا والله هذا غلامك خير فبقيت متحيراً وعلمت بماذا أخذت وعرفت جنايتي فحملني إلى حانوته الذي كان ينسج فيه صناعته فقالوا: يا عبد السوء تهرب من مولاك ادخل واعمل عملك الذي كنت تعمل وأمرني بعمل الكرباس فدليت رجلي على أن أعمل فأخذت بيدي آلته فكأني كنت أعمل من سنين فبقيت معه شهراً أنسج له، فقمت ليلة فنسجت، وقمت إلى صلاة الغداة فسجدت وقلت في سجودي إلهي لا أعود إلى ما فعلت فأصبحت، فإذا الشبه قد ذهب عني وعدت إلى صورتي التي كنت عليها فأطلقت فثبت عليّ هذا الاسم فكان سبب النسج اتباعي شهوة عاهدت الله تعالى أن لا آكلها فعاقبني بما سمعت.

وفي بعض الأخبار، عن الله تعالى أن أدنى ما أصنع بالعالم، إذا آثر شهوته على محبتي، أن أحرمه لذيذ مناجاتي وستأتي، إن شاء الله تعالى، كيفية مجاهدة النفس عند قوله: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ولهذا المعنى كرهوا له التزويج من غير ضرورة محققة لأنه إنما يقصد بذلك قضاء شهوته وبلوغ نهمته وذلك في الضرر به بمنزلة السم القاتل وقد قالوا: من وافق شهوته عدم صفوته. وقال بعضهم: من هَمَّ بشيءٍ مما أباحه العلم تلذذاً عوقب بتضييع العمر وقسوة القلب وتعب الهم بالدنيا. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: ثلاثٌ من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا، مَنْ طلب معاشاً، أو تزوج امرأة، أو كتب الحديث. وقال: ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته وكان إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، يقول: من تعوَّد أفخاذ النساء لا يفلح. وقيل لبعضهم: لم لا تتزوج؟ فقال: المرأة لا تصلح إلا للرجال وأنا ما بلغت مبلغ الرجال ثم فيه من مكابدة أمر غيره ومن مراعاة توفية حقوقه ومعاناة أخلاقه واتباع مرضاته ما يشوش على المريد حاله ويكدر عليه وقته وقد كان له في معاناة أمر نفسه أعظم شاغل من أن تنضاف إلى نفسه نفس أخرى مع ما يتسلط على باطنه من خوف الفقر ومحبة الجمع والمنع وما يرتكبه بسبب ذلك من التأويلات والرخص وذلك كله مضاد لحال المريد وقد قالوا: إذا تزوج الصوفي، فقد ركب السفينة، فإذا ولد له فقد غرقت السفينة.

وكان بشر الحافي رضي الله عنه يقول: لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلوازاً على الجسر وفي الخبر في فتن آخر الزمان قال: وفي ذلك الوقت حلت العزبة فقيل: وكيف؟ قال: يعيرونه بالفقر فيتكلف ما لا يطيق فيورده مورد

الهلكة وفي الخبر عن رسول الله ﷺ «خَيْرُكُمْ بَعْدَ المائتين رَجُلٌ خَفِيفُ الحاذِ» قيل: يا رسول الله وما خفيف الحاذ؟ قال: «الَّذِي لاَ أَهْلَ لَهُ وَلاَ وَلَدٌ» وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: إياكم والاستماع إلى النسا والميل إليهن، فإن النساء مبعدات من الحكمة قريبات من الشيطان وهن مصايده وحظه من بني آدم فمن عطف إليهن بكليته فقد عطف على حظ الشيطان ومن حاد عنهن يئس منه وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استرق بالنساء وإن الشر معهن حيث كُنَّ فإذا رأيتم في وقتكم من قدركن إليهن فابأسوا منه قيل له: فحديث النبي ﷺ: «حُبِّبَ إِليَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاَثٌ» فذكر النساء فقال: النبي ﷺ معصوم وقد بلغكم ما كان فيه معهن هي عدوة الرجل ظاهراً وباطناً إن أظهرت له المحبة أهلكته وإن أضمرتها له أغوته، وإن الله عزّ وجلّ جعلهن فتنة فنعوذ بالله من فتنتهن انتهى كلام سهل رضي الله عنه.

وقال حذيفة المرعشي رضي الله عنه: كان ينبغي للرجل لو خير بين أن يضرب عنقه وبين أن يتزوج امرأة في الفتنة لاختار ضرب العنق على تزوج المرأة في الفتنة وإنما قال ذلك لما يؤول إليه أمر المتزوج من اكتساب الحرام وارتكاب الآثام في زمان الفتنة وضرب العنق أحسن حالاً وأحمد عاقبة من التعرض لارتكاب شيء من معاصي الله عزّ وجلّ فإن قارب شيئاً من ذلك المريد، فهو داءٌ عضال في حقه، فقد قالوا: زلة بعد الإرادة أقبح من سبعين زلة قبل الإرادة وفي المثل: مَنْ عُرِفَ بالخيانة لا يعتمد عليه في الأمانة وقال بعض الأنبياء في مناجاته لربه: لو عفوت عن فلان ذنوبه بعد عظيم نعمك، فأوحى الله إليه: ليس الذنب في القرب كالذنب في البعد. وسئل بعضهم: هل يجد العاصي حلاوة الطاعة؟ فقال: لا ولا من هم بالمعصية ومن عظيم سوء أدب المريد أن يميل إلى أهل الدنيا وأن يتقرب منهم أو أن يصاحبهم. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا فإن صحبتهم سمٌّ مجرب لأنهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨] وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله: لا تصحب من لا ينهضك حاله. ومن ذلك أيضاً معاشرته للأحداث والشبان وقبول إرفاق النسوان فإن تعرض لاستجلاب ذلك منهن فهو أشد. قال يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه: رأيت آفات الصوفية في صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد ورفق النسوان. قال الإمام أبو القاسم: ومن أصعب الآفات في هذه الطريق صحبة الأحداث ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع من الشيوخ أن ذلك عبد أهانه الله عزّ وجلّ وخذله بل عن نفسه شغله ولو بألف ألف كرامة أهله ثم قال بعد كلام كثير: فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم فإن اليسير منه فَتْحُ باب الخذلان وبدء حال الهجران ونعوذ بالله من قضاء السوء.

وآداب المريد كثيرة وإنما نبهنا هنا على بعض ما يعظم فيه الخطر والضرر مما حذر منه أئمتنا رضي الله عنهم وبالغوا في التوصية به والنهي عنه وجميع ذلك محتمل لأن يكون مراد المؤلف رحمه الله تعالى في قوله: من جهل المريد أن يسيء الأدب فرأينا أن لا يخلو هذا الموضع من هذا التنبيه لأن ذلك يقع للمريدين كثيراً والله وليُّ التوفيق **(إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وأدامه الله عليها مع طول الأمداد فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم ترد عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين فلولا وارد ما كان ورد)** عباد الله المخصوصون ينقسمون إلى قسمين:

بعض الناس، ما ذكره بقوله: **(إذا رأيت عبد أقامه الله تعالى)** أي جعله قائماً **(بوجود الأوراد)** بأن أظهرها منه **(وأدامه عليها)** أي جعله مداوماً عليها **(مع طول الإمداد)** أي المعونة والتيسير، وصرف الشواغل التي تشغله عن القيام بها، والمراد بطول ذلك تواليه عليه مع طول الزمان، فطوله بطول الزمان الذي يحصل فيه، وهذه صفة العباد والزهاد **(فلا تستحقرن ما منحه)** أي أعطاه **(مولاه)** وعلل الاستحقار بقوله: **(لأنك)** أي لكونك **(لم تر عليه سيما العارفين)** أي علامتهم من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والإرادات، ودوام الحضور بين يدي الله **(ولا بهجة المحبين)** وهي ما يعلوهم من شواهد المحبة وآثارها، فإن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح كدوام ذكره، والمسارعة لامتثال أمره، والعمى عن غيره، فيجتهد في خدمته ويتلذذ بمناجاته، ويؤثره على كل ما سواه، ثم علل عدم الاستحقار بقوله: **(فلولا وارد)** إلٰهي أورده الله على قلبه أي تجلى إلٰهي **(ما كان ورد)** وهو ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات، كصلاة وصيام. وذكر إلى غير ذلك أي فيكون استحقارك له قلة أدب معه، والحاصل أن عباد الله المخصوصين ينقسمون قسمين: مقربين وأبراراً فالمقربون هم الذين أخذوا عن حظوظهم، وإراداتهم وقاموا بحقوق ربهم عبودية له وطلباً لمرضاته، وهؤلاء هم العارفون والمحبون والأبرار هم الباقون مع حظوظهم وإراداتهم، وقاموا بعبادة ربهم طمعاً في جنته وهرباً من ناره، وكل واحد منهم

مقربين، وأبرار، فالمقربون هم الذين أخذوا عن حظوظهم وإراداتهم واستعملوا في القيام بحقوق ربهم عبودية له وطلباً لمرضاته وهؤلاء هم العارفون والمحبون والأبرار هم الذين بقوا مع حظوظهم وإراداتهم وأقيموا في الأعمال والطاعات ليجزوا عليها برفيع الدرجات في الجنات وهؤلاء هم الزاهدون والعابدون وكل واحد منهم ممدود في مقامه الذي هو فيه بمدد إلهي اقتضى منهم القيامة بحقوق مقاماتهم على اختلافها فإذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى في أعمال البر الظاهرة ومواصلة الأوراد المتواترة وأمدَّه في ذلك بالمعونة والتيسير، فذلك من اختيار الله تعالى له فلا تحتقرن ذلك لأجل أنك لم تر عليه سيما العارفين من ترك الاختيار، والبراءة من الحظوظ والإرادات بين يدي المريد المختار، ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاة محبوبهم والانبساط والإدلال بين يدي حبيبهم. فلولا الوارد الإلهي الذي أورده الله تعالى عليه، ما استقام على عمله ووِرده فهو لم يخرج عن دائرة عنايته وحفظه ورعايته فلا تستحقر خطير ما منحه وتستقل كثير ما ربحه وهل ذلك الأمن وجود جهلك ونقصان عقلك وسيأتي من كلام المؤلف رحمه الله: لا يستحقر الوارد إلا جهول **(قومٌ أقامهم الحق لخدمته وقومٌ اختصهم بمحبته كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً)** الحق تعالى له الاختيار التام والمشيئة النافذة لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون فطائفة أقامهم الحق تعالى لخدمته حتى صلحوا لجنته وهم: الزاهدون والعابدون كما تقدم، وطائفة اختصهم بمحبته حتى صلحوا لقربه والدخول إلى حضرته وهم: العارفون والعلماء. قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: الزاهد صيد الحق من الدنيا والعارف صيد الحق من الجنة فإذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الإقامة والتخصيص منعه ذلك مما ذكرناه من الاستحقار وسلم الأمر لمن بيده التدبير والاختيار. قال أبو يزيد رضي الله عنه: اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً فشغلهم بالعبادة وذكر الحافظ أبو نعيم في كتابه **(حلية الأولياء)** عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى يطلع على أهل قرية أو بلدة فيريد أن يقسم لهم من نفسه قسماً فلا يجد في قلوب العباد ولا قلوب الزهاد موضعاً لتلك القسمة من نفسه فيمن عليهم أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه. وقال أبو العباس الدينوري رضي الله عنه: إن لله عباداً لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته وله عباداً لم يستصلحهم لخدمته فأهَّلَهم لمعرفته والإشارة بالآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله بينة في هذا المعنى وقال رضي الله عنه **(قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد)** الواردات الإلهية هدايا من الله تعالى وتحف وكرامات يكرم بها عباده فلا تكون في الغالب إلا بغتة، أي، فجأة لئلا يدعوها ويروا أنفسهم أهلاً لها بوجود استعدادهم وتهيئهم وتحف الله تعالى وهداياه مقدسة عن أن تعلل بأمر ومنزهة عن أن تقابل بأعمال بر بل هي محض كرم وفضل من الكريم المتفضل **(من رأيته مجيباً عن كل ما سئل ومعبراً عن كل ما شهد وذاكراً كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله)** الإجابة على كل سؤال والتعبير بكل

ممدود في مقامه الذي هو فيه بمدد إلهيّ اقتضى منه القيام بحقوق ذلك المقام، وإلى ذلك أشار بقوله: **(قوم أقامهم الحق)** أي اختارهم **(لخدمته)** بطاعته الظاهرية حتى صلحوا لجنته، وهم الزاهدون والعابدون كما مر **(وقوم اختصهم بمحبته)** حتى صلحوا لقربه، والدخول في حضرته، وهم المحبون والعارفون، والكل مشتركون في الانتساب إليه، وخدمته لكن خدمة الأولين أكثرها بالجوارح والآخرين أكثرها بالقلب **(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً)** أي ممنوعاً فإذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الإقامة، والتخصيص منعه ذلك عما ذكر من الاحتقار. قال أبو يزيد: اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً فشغلهم بالعبادة **(قلما تكون الواردات الإلهية)** أي قل حصولها **(إلا بغتة)** أي غير بغتة، والمراد بها العلوم الوهبية والأسرار العرفانية التي يتحف الله بها عباده، ولا تكون في الغالب إلا بغتة، أي فجأة من غير استعداد لها بعبادة من صلاة وصيام وغيرهما **(لئلا يدعيها العباد)** أي يرون أنهم أهل لها **(بوجود الاستعداد)** لها بالاجتهاد في الأوراد والعبادات تمسكاً بنحو قوله ﷺ: «وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» وغفلوا عن كون همتهم متعلقة بالدار الآخرة لا به، فلا تحصل لهم معرفته الخاصة، ولا واردات إلهية، وحاصله أن الواردات هدايا من الله تعالى، ومنح منه فلا تحصل عقب العبادات الصادقة، وبفورها، بل تحصل بعد ذلك بغتة، وحصولها عقب العبادات نادر قليل **(من رأيته)** من المريدين أو العارفين **(مجيباً عن كل ما سئل)** أي سئل عنه من العلوم التي يفيضها الله على قلوب السالكين والمواهب اللدنية التي يخص بها العارفين **(ومعبراً عن كل ما شهد)** أي شهده وذاقه بباطنه، وهي تلك العلوم والمواهب **(وذاكراً كل ما علم)** من تلك العلوم **(فاستدل بذلك على وجود جهله)** لأن إجابته عن

مشهود والذكر لكل معلوم أمارات على وجود جهل من اتَّصف بها كما قال: أما الإجابة عن كل سؤال فلاقتضائها منه الإحاطة بجميع المعلومات وذلك محال في حقه قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] فكيف يتصور منه مع هذا الإجابة عن كل سؤال لولا وجود جهله وأيضاً فإنه يجب عليه أن يراعي حال السائل من وجود الأهلية لما سئل عنه فيمتنع عن إجابة من لا أهلية فيه لذلك ويفعل ما فعله رسول الله ﷺ فيما روي عنه مع السائل الذي جاء يسأله أن يعلِّمه من غرائب العلم فإنه استفصله وقال له: ما فعلت في رأس العلم وفي كذا وفي كذا؟ فأجابه السائل: فقال له النبي ﷺ: «اذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هنَا لَكَ ثم تَعَالَ حَتَّى أُعَلِّمُكَ مِنْ غَرائِبِ العِلْمِ» وكما أخذ الله تعالى على العلماء أن لا يكتموا العلم عن أهله، كذلك أخذ عليهم أن يصونوه عن غير أهله، فمن لا يسلك هذا المسلك، فهو جاهل، وأما التعبير بكل مشهود فلأن فيه نوعاً من إفشاء السِّر الذي يجب كتمه وقد قالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار، والسر أمانة الله تعالى عند العبد فإفشاؤه بالتعبير عنه خيانة، والله تعالى لا يحب الخائنين، وأيضاً، فإن الأمور المشهورة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والإيماء واستعمال العبارة فيها إفصاح بها وإشهار لها وفي ذلك ابتذالها وإذاعتها ثم إن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضاً وانغلاقاً لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراك حقائقها بالعبارات النطقية فيؤدي ذلك إلى الإنكار والقدح في علوم السادة الأخيار.

قال أبو علي الروذباري رضي الله تعالى عنه: علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي. أما الذكر لكل معلوم، فلعدم تفريقه بين المعلومات وقد يكون له علم يختص به فإذا ذكره لغيره استغربه، وإن كان ينتفع به، هو فعدم تفريقه بين المعلومات في ذكرها من وجود جهله **(إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها)** إنما جعل ثواب المؤمنين، في دار الآخرة، فيما ظهر لنا لوجهين أحدهما: أن الدنيا لا تسع ما يريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حسّاً ولا معنى، أما

كل سؤال تقتضي إحاطته بكل المعلومات، وذلك محال في حقه قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] ولأنه يجب مراعاة حال السائل، فقد لا يكون في بعض السائلين أهلية للمسؤول عنه، فتكون إجابة مثله من الجهل، وتعبيره عن كل مشهود له فيه نوع من إفشاء السر الذي يجب كتمانه، وقد قالوا قلوب الأحرار قبور الأسرار، والسر أمانة الله تعالى عند العبد، فإفشاؤه بالتعبير عنه خيانة، وأيضاً فالأمور المشهودة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والإيماء، واستعمال العبارة فيها إشهار لها، وفيه ابتذالها، ثم إن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضاً وانغلاقاً، لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراكها بالعبارات النطقية، وذكره لكل معلوم له دليل على عدم تفرقته بين المعلومات، وقد يكون فيها ما لا يصح ذكره لما يلزم عليه من الضرر والفساد، وإنكار الناس له قال ﷺ: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله فإذا أظهروه أنكره أهل الغرة بالله». وقال علي بن الحسين بن علي رضي الله عنه:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من العلم، أما أحدهما فبثثته للناس، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم مني هذا الحلقوم. ولذا قتل الحلاج بإفشاء شيء من ذلك حيث قال: ما في الجبة إلا الله، وذلك إن أهل الله يدركون وجود الله في الأشياء، أي قيامه بها وظهوره فيها، وهذه غاية ما يملكون أن يعبروا به عن مقصودهم، وإلا فهو أمر لا يدرك إلا بالذوق، وقد ذقنا بحمد الله، فمصدوق ما سئل وما شهد وما علم واحد، وإنما يختلف باعتبار السؤال عنه وإفشائه بالعبارة، وعموم ذكره **(إنما جعل)** تعالى **(الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم)** من أنواع النعيم حساً ولا معنى أما الأول فلأنها ضيقة الأقطار ويعطي الله لآحاد المؤمنين في الدار الآخرة في ملك واحد منهم مسيرة سبعمائة عام كما ورد في الخبر، فما ظنك بخواصهم، فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم، وأما الثاني فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص، والأشياء التي يتنعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة كما جاء في الأخبار أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وإن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس وما أشبه هذا **(ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها)** لأن كل ما يفنى وإن طالت مدته كلا شيء، بل أعطاهم الخلود في

الحس، فلأن الدنيا متدانية المسافات، ضيقة الأقطار، ويعطي الله تعالى لآحاد المؤمنين في الدار الآخرة في ملك واحد منهم كما ورد في الخبر: مسيرة خمسمائة عام، فما ظنك بخواصّهم فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم. وأما المعنى، فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والخساسة والحقارة، والأشياء التي يتنعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة كما جاء في الأخبار: إن موضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها وإن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس وما أشبه هذا ويكفي في ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجل: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» والثاني أن الله تعالى أَجَلّ أقدار عباده المؤمنين فلم يجعل لهم الجزاء على طاعتهم في دار فانية منقضية متصرمة لأن كل ما يفنى، وإن طالت مدته، كلا شيء بل أعطاهم الخلود في النعيم والبقاء الدائم في الملك المقيم وناهيك به شرفاً تسميته إياهم باسمه الكريم وهو الحي الذي لا يموت جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وملكاً كبيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] أنه يرسل الله تعالى الملك إلى وليه ويقول استأذن على عبدي فإن أذن لك فادخل وإلا فارجع فيستأذن عليه من سبعين حجاباً ثم يدخل عليه ومعه كتاب من الله عزّ وجلّ عنوانه من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت، فإذا فتح الكتاب وجد مكتوباً فيه: عبدي اشتقت إليك فزرني فيقول هل جئت بالبراق؟ فيقول: نعم. فيركب البراق فيغلب الشوق على قلبه فيحمله شوقه ويبقى البراق إلى أن يصل إلى بساط اللقاء (**مَنْ وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول آجلاً**) ثمرة العمل وجدان الحلاوة فيه والنعيم به ويتصور ذلك في أكثر الأعمال بالمواظبة عليه على حال تكره واستثقال له هذا هو غالب الأمر.

قال بعض العارفين: ليس شيء من البر إلا ودونه عقبة يحتاج إلى الصبر فيها فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة، وإنما هي مجاهدة النفس، ثم مخالفة الهوى، ثم مكابدة في ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم.

وقال عتبة الغلام رضي الله تعالى عنه: كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة. وقال ثابت البناني رضي الله تعالى عنه: كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة. وقال بعض العلماء: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه رضي الله تعالى عنهم، ثم رفعت إلى مقام فوقه وكنت أتلوه وكأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم تصدق الله تعالى بمنزلة أخرى فأنا الآن كأني أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذةً ونعيماً لا أصبر عنه.

وما ذكرناه من الحلاوة والنعيم إنما هو ثمرة الأعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى. قال أبو تراب رضي الله تعالى عنه: إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولةٌ بفضل الله تعالى ورد في الخبر: لا يقبل الله تعالى من مسمع ولا مراءٍ دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة مقبول من قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل كما يقول المؤلف بعد هذا وذلك علامة على وجود الجزاء عليه في الدار الآخرة حسبما يأتي في قوله: وجدان ثمرات الطاعات عاجلاً بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: كل عمل ليس له ثواب في الدنيا ليس له جزاء في الآخرة. فحصل من هذا، أن وجدان الحلاوة علامةٌ على وجود القبول المقتضي لوجود الرضا والجزاء ولذلك قال الحسن

النعيم، والبقاء الدائم في الملك المقيم (**من وجد**) من المريدين (**ثمرة عمله**) أي من الحلاوة فيه والنعيم به (**عاجلاً**) أي في الدنيا (**فهو دليل على وجود القبول آجلاً**) أي قبول الله له قال أبو تراب: إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل، والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله، وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل، وذلك علامة على وجود الجزاء عليه في الدار الآخرة كما سيأتي، وإذا وجد تلك الحلاوة لا ينبغي أن يقف معها، ولا يفرح بها ولا يسكن إليها، وكذا لا ينبغي أن يقصد بعمله حصولها لما فيها من اللذة والحظ، فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه لتكون ميزاناً لأعماله تصحيحاً لأحواله فقط.

رضي الله تعالى عنه: تفقدون الحلاوة في ثلاث: فإن وجدتموها فأبشروا وامضوا لقصدكم، وإن لم تجدوها، فاعلموا أن الباب مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر، وعند السجود. وزاد غيره: وعند الصدقة، وبالأسحار. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال: جنة معجلة، وهي حلاوة الطاعات ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات، وجنة مؤجلة، هي فنون المثوبات وعلوّ الدرجات. قلت: وهذه الحلاوة المذكورة لا تكون إلا في مقام المعرفة الخاصة وهي التي تنافيها المعصية.

قيل لبعضهم: هل تعرف الله؟ فغضب على السائل وقال: أتراني أعبد مَنْ لا أعرفه؟ فقال له: أو تعصي مَنْ تعرفه؟ وقيل لبعضهم: بِمَ تعرف أنك عرفته؟ فقال: لم أقصد مخالفته إلا ورد على قلبي استحياء منه. وقال إسماعيل بن نجيد رضي الله تعالى عنه: التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر فإن العصيان في حال العرفان بعيد فإن وقعت منه زلة أو هفوة بحكم وكان أمر الله قدراً مقدوراً وجد لا محالة لذلك مرارةً وألماً في قلبه فوجدان هذه المرارة والألم في المعصية علامة على صحة ما وجد من الحلاوة والنعيم في الطاعة، فهذه هي الحلاوة التي هي الميزان للأعمال المقبولة وغير المقبولة كما ذكرناه. وأما الحلاوة التي يجدها، من دون أهل هذا المقام في بعض العبادات، فمدخولة معلولة إلا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة والحلاوة على الإطلاق إذا وجدها العامل في العمل لا ينبغي له أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها وكذلك أيضاً لا ينبغي له أن يقصد بعمله إلى نيلها لما له فيها من اللذة والحظ فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته ولكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزاناً لأعماله ومحكاً لأحواله فقط. قال الواسطي رضي الله تعالى عنه: استحلاء الطاعات سموم قاتلة.

قال في **(لطائف المنن)** وصدق الواسطي فأقلّ ما في ذلك، أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائماً متطبأً لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها وتحب دوامها لا قياماً بالوفاء ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة فتكون في الظاهر قائماً لله وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك **(إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيما ذا يقيمك)** هذا ميزان صحيح وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللّهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللّهِ تَعَالى مِنْ قَلْبِهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْزِلُ العَبْدَ عِنْدَهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ» وهذا الإنزال المذكور المنسوب إلى العبد هو معنى الإقامة المذكورة إذ العبد لا فعل له على التحقيق.

قال الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه: إنما يطيع العبد ربه على قدر منزلته منه. وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه: فإذا كان العبد لنظر مولاه مكرماً، ولحرماته معظماً، وإلى محبوبه ومرضاته مسارعاً، كان الله عزّ وجلّ له في الآخرة لوجهه مكرماً ولشأنه معظماً وإلى مسرته من النعيم المقيم مسارعاً، وإذا كان العبد بحق مولاه متهاوناً وبأمره مستخفاً ولشعائره مستصغراً، كان الله عزّ وجلّ له مهيناً وبشأنه متهاوناً وإلى ما يكره من العذاب الأليم له مسارعاً والعياذ بالله من ذلك.

قال وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه: قرأت في بعض الكتب: يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك ولا تعلمني بما يصلحك إني عالِمٌ بخلقي إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري لست بناظر في حق عبدي حتى ينظر عبدي في حقي **(متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة)** المطلوب من العبد شيئان: إقامة الأمر في الظاهر، والتعلق بالله في الباطن وهو الاستغناء به عن غيره، فإذا رزق الله تعالى العبد هذين

(إذا أردت أن تعرف قدرك عنده) هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الأشقياء **(فانظر فيماذا يقيمك)** من طاعة أو ضدها فمن كان من السعادة والقبول، استعمله مولاه فيما يرضيه عنه من أنواع الطاعات، ومن كان من أهل الشقاوة، استعمله فيما يسخطه عليه من أنواع المخالفات، وهذا يناسب العامة، وأما الخاصة فيقال فيه إن أردت أن تعرف قدرك، أي منزلتك عنده هل أنت من المقربين أو لا، فانظر فيماذا يقيمك أي يورده على قلبك من إدراك جلالته وعظمته. قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَعْلَمْ مَنْزِلَةَ اللّهِ مِنْ قَلْبِهِ» **(متى رزقك الطاعة)** أي امتثال الأوامر واجتناب النواهي في ظاهرك **(والغنى به عنها)** بأن لا تركن إليها في نيل مطلوبك بل تعلق قلبك بمولاك، وتغيب عن كل شيء سواه **(فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة)** وهي تلك الطاعة **(وباطنة)** وهي معرفتك التي أوجبت لك الغيبة

الأمرين، فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأوصله إلى غاية الأمل في الدنيا والآخرة سبحانه جلّ وعلا وقال رضي الله عنه **(خير ما تطلبه ما هو طالبه منك)** إن كان لا بد من الطلب منه، فاطلب ما هو طالبه منك من الاستقامة على سبيل العبودية له فذلك خيرٌ لك من طلبك لحظوظك ومراداتك، لأنك حينئذ تكون به وله ويسعفك بمطلوبك عاجلاً من غير تأخير، وأما إن طلبت منه حظ نفسك ونيل مرادك، فقد يحصل في ذلك تأخير ومنع مع ما يفوتك حينئذ من حسن الأدب في الطلب.

يحكى عن أبي الحسين الديلمي رضي الله عنه، أنه قال: وصف لي بأنطاكية إنسان أسود يتكلم على القلوب. قال: فقصدته فلما رأيته، رأيت معه شيئاً من المباحات يريد أن يبيعه فساومته وقلت له بكم تبيع هذا؟ فنظر إليَّ ثم قال اقعد فإنك جائع منذ يومين حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئاً. قال: فمضيت إلى غيره وتغافلت كأني لم أسمع ما قال وساومت غيره ما كان بين يديه ثم رجعت إليه وقلت له: بكم تبيع هذا؟ فنظر إليَّ وقال اقعد فإنك جائع منذ يومين حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئاً. قال: فوقع في قلبي منه هيبة فلما باع ذلك أعطاني شيئاً ومضى. قال: فمضيت خلفه لعلي أستفيد منه شيئاً قال فالتفت إليَّ وقال: إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله إلا أن يكون ذلك فيها حظ فتحتجب بها عن الله تعالى.

ومن دعاء أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: اللهمَّ وكل سؤال سألتك فعن أمرك لي بالسؤال فاجعل سؤالي إليك سؤال محابك ولا تجعلني ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ بل يسأل القيام بواجب حقك ومن دعائه أيضاً اللهم إني أسألك منك ما هو لك وأستعيذك من كل أمر يسخطك اللهمَّ ولا تشغلني بشغل من يشغله عنك ما أراده منك إلا أن يكون لك اللهم اجعلني ممن يذكرك ذكر من لا يريد بذكره منك إلا ما هو لك اللهم اجعل غاية قصدي إليك ما هو لك ولا تجعل قصدي إليك ما أطلبه منك **(الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار)** هذا هو الحزن الكاذب الذي يكون معه البكاء الكاذب كما قالوا: كم من عينٍ جارية وقلبٍ قاسٍ وهو آمن مكر الله تعالى الخفي حيث منعه ما ينفعه وأعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء. سمعت رابعة رضي الله تعالى عنها، رجلاً يقول: واحزناه. فقالت: قل: واقلة حزناه لو كنت محزناً لم يتهيأ لك أن تتنفس. وأما الحزن الصادق، فبخلاف هذا، وهو مقام من مقامات السالكين، وهو يبعث على الانكماش في الأعمال والنهوض إلى الطاعات على كل حال. قال الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: صاحب الحزن يقطع من طريق الله عزّ وجلّ في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين. وفي الخبر إنَّ الله يحب كل قلب حزين. وفي التوراة: إن الله إذا أحب عبداً نصب في قلبه نائحة وإذا أبغض عبداً نصب في قلبه مزماراً. وكان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكر.

وقيل: الحزن إذا فقد من القلب خرب ومن لم يذق طعم الحزن لم يذق لذة العبادة فإذاً الحزن الذي يجده العبد من نفسه إن لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد فذلك من علامات الاغترار وليس بمقام السالكين الأبرار **(ما العارف مَن إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده وانطوائه**

عنها وعدم رؤيتها. **(خير ما تطلبه)** أي أفضل الأشياء التي تطلبها منه **(ما هو طالبه منك)** من الاستقامة على سبيل العبودية له، فهذا خير لك من طلبك لحظوظك، ومراداتك دنيوية كانت أو أخروية، فإن في ذلك حظاً لنفسك. **(الحزن على فقدان الطاعة)** بضم الفاء وكسرها، أي عدم وجودها في الحال **(مع عدم النهوض إليها)** في المستقبل **(من علامات الاغترار)** أي التعويل على ما لا حقيقة له، وهذا هو الحزن الكاذب الذي يكون معه البكاء الكاذب، كما قيل كم من عين جارية وقلب قاس، وهو آمن مكر الله الخفي حيث منعه ما ينفعه، وأعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء، فإنه قد يستحسن بذلك حاله، ويعد نفسه شيئاً أما الحزن الصادق، وهو الذي يبعث على الطاعات ويكون معه البكاء الصادق، فهو من مقامات السالكين، قال أبو علي الدقاق: صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين **(ما العارف من إذا أشار)** إلى شيء من أسرار الحق سبحانه **(وجد الحق أقرب إليه من إشارته)** بأن كان حاضراً معه لم يغب عنه، بل هو ملاحظة في حال إشارته، وأقرب إليه منها، فهذا ليس بعارف حقيقة لبقائه مع نفسه، لأنه حينئذ ملاحظاً أن هناك مشيراً ومشاراً إليه ومشاراً به، وما دام يتعقل أنه مشير والحق مشار إليه، وذلك الكلام الذي صدر منه إشارة، فهو إلى الآن لم يفن عن نفسه، ولم يخرج عن دائرة حسه، والإشارة ألطف من العبارة، لأنها إيماء فقط وتلويح لا تصريح، وهي التي يستعملها أهل الطريق رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم عند ذكرهم لما يفتح الله به عليهم من الأسرار التوحيدية والعلوم

في شهوده) الإشارة ألطف من العبارة وهي كناية وتلويح وإيماءٌ لا تصريح وهي التي يستعملها أهل هذه الطريقة فيما بينهم عند ذكرهم لأسرار التوحيد كما تقدم عنه قوله: من رأيته مجيباً عن كل ما سئل ومعبراً عن كل ما شهد فالمشير إلى الله تعالى الملاحظ لإشارته وإن وجد الله تعالى أقرب إليه من إشارته غير عارفٍ على التحقيق لأنه بوصف التفرقة بشهوده للأغيار بل العارف الفاني في وجوده المنطوي في شهوده الذي غاب عن الإشارة والمشير والمشار به.

سئل الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه، عن المريد فقال: حقيقة المريد أن يشير إلى الله تعالى فيجد الله مع نفس الإشارة قيل له: فالذي يستوعب حاله؟ قال: هو الذي يجد الله بإسقاط الإشارة، وسئل أبو علي الروذباري رضي الله تعالى عنه، عن الإشارة فقال: الإشارة الإبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه لا غير وفي الحقيقة أن الإشارة تصحبها العلل والعلل بعيدة من عين الحقائق. وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: وكل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم حتى يشيروا إلى الحق بالحق وليس لهم إلى ذلك طريق. وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه **(الرجاءُ ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية)** الرجاء مقام شريف من مقامات اليقين وهو يبعث على الاجتهاد في الأعمال كما ذكرناه في الحزن لأن من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه وأما الرجاء الكاذب، الذي يفتر صاحبه عن العمل ويجرئه على المعاصي والذنوب، فليس هذا برجاء عند العلماء ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى وقد ذم الله قوماً ظنوا مثل هذا وأصروا على حب الدنيا والرضا بها وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم: خلفاً والخلف: الرديء من الناس فقال عزّ من قائل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] قال معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه: طلب الجنة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق.

وقال معروف الكرخي أيضاً رضي الله عنه: رجاؤك الرحمة ممن لا تطيعه خذلانٌ وحمقٌ واعلم أنه ليس في أفعال الحق سبحانه ما يوجب أن يؤمن عقابه إنما في أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته، وكما لا يحسن أن يظهر من لطفه في خلقه، لا يحسن الطمع في جانبه ويؤمن أخذه وانتقامه فإن من قطع أشرف عضو بربع الدينار ولا يؤمن أن يكون عذابه غداً هكذا. وقد قالوا: من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح فليزعم أن طلب الربح في القبر وقدح النار في البحر صحيح وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هواها وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ تَعَالى الأَمَانِي» وقال الحسن رضي الله تعالى عنه: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة يقول أحدهم أحسن الظن بربي وهو يكذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل وتلا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

اللدنية والمواجيد والأذواق، فالمشير إلى شيء من ذلك الملاحظ لإشارته، وإن وجد الله تعالى أقرب إليه منها بأن لم يغب عنه في حال الإشارة غير عارف على التحقيق، لأنه بوصف التفرقة بشهوده للأغيار **(بل العارف)** حقيقة **(من لا إشارة له)** أي من لا يشهد أن له إشارة وإن وقعت منه **(لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده)** الضمير لذلك العارف وفي بمعنى عن أي لفنائه عن وجود نفسه وانطوائه عن شهودها، ويحتمل عوده للحق سبحانه وتعالى أي أن العارف حقيقة، هو الذي غاب عن الإشارة والمشير والمشار به، فإذا وقعت منه إشارة لا يشهدها ولا يشعر بها، لكون المشير والمشار إليه حينئذ هو الله تعالى، لأن العارف حينئذ في مقام الجمع، ومن كان كذلك، فهو غائب عن رؤية نفسه. قال الشيخ يوسف العجمي قدّس الله سره: من تكلم في مقام الجمع فليس بمتكلم، وإنما المتكلم الحق سبحانه على لسان عبده، وهو قوله في الخبر القدسي فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق اهـ. وسئل بعضهم عن الفناء فقال: هو أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة، والدرجات والأحوال، والمقامات والأذكار، وتفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه، وفنائه عن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء، فيغرق في التعظيم اهـ. **(الرجاء)** أي الحقيقي **(ما قارنه عمل)** أي ما كان باعثاً على الاجتهاد في الأعمال كما مر في الحزن، لأن من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه **(وإلا)** بأن لم يقارنه عمل، بل كان يفتر صاحبه عن العمل ويجرئه على المعاصي والذنوب **(فهو أمنية)** أي فليس برجاء حقيقة عند العلماء، بل هو أمنية واغترار بالله تعالى. ويقال: أينما برجاء كاذب قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا، والخلف الرديء من الناس. وقال ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا

[فصلت: ٢٣] وكان يقول رضي الله تعالى عنه: عباد الله اتقوا هذه الأماني فإنها أودية الهلكة تحلون فيها والله ما آتى الله عبداً بأمانيه خيراً في الدنيا ولا في الآخرة وكتب أبو عمير المنصوري إلى بعض إخوانه: أما بعد فإنك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك وإنما تضرب جديداً بارداً (**مطلب العارفين من الله تعالى الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية**) مطلب العارفين من ربهم أعلى من مطالب غيرهم سواء كانوا عباداً أو زهاداً أو علماء لأن مطلب العارفين من ربهم إنما هو الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية فقط من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس وكل من عداهم لم يفارقوا الحظوظ والأغراض في مطالبهم وقد تقدم من كلام المؤلف، رحمه الله تعالى: خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك قال سيدي أبو مدين رضي الله تعالى عنه: شتان بين من همَّتُه الحور والقصور وبين من هِمَّتُه رفع الستور ودوام الحضور (**بسطك كي لا يبقيك مع القبض وقبضك كي لا يتركك مع البسط وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه**) القبض والبسط من الحالات التي يتلون بها العارفون وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين وسببهما الواردات التي ترد على باطن العبد، وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الواردات وضعفها والمقصود هاهنا، أنهما وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما فإنهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده، فمن لطف الله بعبده تكوينه فيهما، ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه.

قال فارس رضي الله تعالى عنه: القبض أولاً، ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان في الوجود، وأما مع الفناء والبقاء فلا وكان الجنيد رضي الله تعالى عنه، يقول: الخوف يقبضني، والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني. إذا قبضني بالخوف أفناني عني، وإذا بسطني بالرجاء ردني عليّ وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا فرقني بالحق أشهدني غيري فغطاني عنه فهو في ذلك كله محركي غير مسكني وموحشي غير مؤنسي فحضوري لذوق طعم وجودي فليته أفناني عني فمتعني أو غيبني عني فروحني.

بَعْدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأمانِيَّ» (**مطلب العارفين من الله تعالى**) أعلى من مطلب غيرهم، سواء كان عابداً أو زاهداً أو عالماً، لأن مطلبهم إنما هو (**الصدق في العبودية**) وهو التزام آدابها والتخلق بأخلاقها، والقيام بحقوق الله فيها كالشكر على ما أولاه، والصبر على ما ابتلاه ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وترك الاختيار عليه والتدبير معه، ودوام المراقبة له، والوقوف ببابه لابساً ثوب التواضع، والذلة باسطاً يد الفقر ماسكاً حبل الرجاء مرتدياً برداء الخشية إلى غير ذلك من أوصاف العبودية وأخلاقها، فمن صدق في ذلك كان موفياً بما عاهد الله عليه (**والقيام بحقوق الربوبية**) في ظاهرهم بالطاعة، وفي باطنهم بالمراقبة له، ودوام الحضور معه، أي أنهم لا يطلبون منه إلا هذين الأمرين من غير مراعاة حظ، ولا بقاء مع نفس بخلاف من عداهم، فإنه لم يفارق الحظوظ والأغراض في مطلبه، فلذا كان مطلبهم أعلى المطالب. قال أبو مدين قدّس الله سره: شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور (**بسطك**) أيها العارف (**كي لا يبقيك مع القبض**) الذي فيه قهر لنفسك وإن كان فيه نفع لك كما سيأتي (**وقبضك كي لا يتركك مع البسط**) الذي فيه حظ لها (**وأخرجك عنهما**) بفنائك عن نفسك وبقائك به (**كي لا تكون لشيء دونه**) فلا تكون باقياً مع شيء من أوصافك المؤلمة، ولا المؤنسة، فإن ذلك حجاب لك عن ربك، ويسمى حالك حينئذ اعتدالاً لا قبضاً ولا بسطاً، والمعنى لون عليك الأحوال لتتمكن وتفنى عنها، فالقبض لأهل البدايات من العارفين، ولولاه لما انجمعت حقائقهم وانكفت عن العوائد والشهوات والبسط لأهل الأشراق على مبادئ الفتح كي تسترسل قواهم، وتستعين غوالمهم بما ترتاح إليه من نسمات الحق وشواهد رضاه، والاعتدال لأهل النهايات كي تستقيم أحوالهم، وتصفوا عمالهم ويدوموا بين يدي مولاهم بلا علة، ويؤخذ من ذلك أن القبض والبسط وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما، لأنهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده، لكنهما يتوصل بهما إلى التمكن فمن لطف الله تعالى بعبده تلوينه فيهما، ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه، وبقائه بربه فهما من أحوال المبتدئين من العارفين، يتلونون فيهما كما يتلون المبتدؤون من المريدين في الرجاء والخوف، ويفترقان بأن الرجاء والخوف، مصحوبان بتوقع أمر يحصل في المستقبل فما معه توقع أمر محذور مخوف أو محبوب، فرجاء وما لا توقع معه فقبض في الأول، وبسط في الثاني وسببهما الواردات التي ترد على باطن العارف، وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الوارد وضعفه، فإذا تجلى للقلب وارد الجلال حصل فيه القبض، وإذا تجلى فيه وارد الجمال حصل فيه البسط، فالقبض بوارد حاصل في الوقت، وكذلك البسط لأن العارف لا يهتم لنفسه حتى يراعي

وقد تكلم صاحب كتاب **(عوارف المعارف)** في القبض والبسط بكلام بديع طويل تركت نقله هاهنا اختصاراً فمن أراده فلينظره هناك **(العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ولا يقف على حدود الأب في البسط إلا قليل)** إنما اشتد خوف العارفين في البسط ما لم يشتد في القبض من قبل ملاءمته لهوى أنفسهم بخلاف القبض كما سيقوله المؤلف فيخافون حينئذ من رجوعهم إليه وذوقهم لطعم نفوسهم وفي ذلك الطرد والبعد وقد كتب يوسف بن الحسين الرازي إلى الجنيد رضي الله تعالى عنهما: لا أذاقك طعم نفسك فإنك إن ذقتها لا تذوق بعدها خيراً أبداً ومن ثم يتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار وذلك أمرٌ عسير في هذا الحال ولذلك لا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل. كما قال المؤلف رحمه الله تعالى: وقد قيل قف على البساط وإياك والانبساط. وقال رجل لأبي محمد الجريري رضي الله تعالى عنه: كنت على بساط الإنس وفتح على طريق البسط فزللت زلة فحجبت عن مقامي فكيف السبيل إليه؟ دلني على الوصول إلى ما كنت عليه، فبكى أبو محمد وقال: يا أخي الكل في قهر هذه الحيطة لكني أنشدت أبياتاً لبعضهم وأنشأ يقول:

قِفْ بِالدِّيَارِ فَهذِهِ آثَارُهُمْ ... تَبْكِي الأَحِبَّةَ حَسْرَةً وَتَشَوُّقَا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِرَبْعِهَا مُسْتَخْبِراً ... عَنْ أَهْلِهَا أَوْ سَائِلاً أَوْ مُشْفِقَا
فَأَجَابَنِي دَاعِي الهَوَى فِي رَسْمِها ... فَارَقْتَ مَنْ تَهْوَى فَعَزَّ المُلْتَقَى

وسئل بعض المشاريخ عن هذه الزلة فقال: انبساط مع الحق بغير أدب. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: ومن هذا خشي الأكابر والسادة. قال في **(لطائف المنن)**: البسط مزلة أقدام الرجال فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم، والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطة به ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه. والبسط خروجٌ عن حكم وقته والقبض هو اللائق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى. قال: وأخبرني بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه في المنام بعد موته مقبوضاً فقال: يا أستاذ ما لك مقبوضاً: فقال له: يا بني القبض والبسط مقامان مَنْ لَمْ يُوَفِّهِمَا في الدنيا وفّاهما في الآخرة. قال: وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط انتهى **(البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لا حظ للنفس فيه)** في هذا إشارة لما تقدم من أن مراعاة الأدب في البسط أمر عسيرٌ وذلك أن في البسط وجود حظ للنفس فيستولي عليها الفرح بذلك فلا يتمالك حتى يقع في سوء الأدب والقبض ليس فيه حظ للنفس فلذلك كان أسلم وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه يقول: القبض حقُّ الحق منك والبسط حق العبد منه ولأن يكون بحقه منك أتم من أن تكون بحظك منه.

مستقبلات الأمور **(العارفون إذا بسطوا أخوف منهم)** أي أكثر خوفاً من أنفسهم **(إذا قبضوا)** وذلك لملاءمة البسط لهوى أنفسهم، فيخافون حينئذ من الوقوع فيما تدعو إليه من التحدث بالأحوال والكرامات وغيرها، وربما كان في ذلك الطرد والبعد وأيضاً قد يصدر منه في ذلك الوقت كلام لا يليق بحضرة الرب جل جلاله، وحينئذ يتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب، ودوام الانقباض والانكسار، وذلك أمر عسير في هذا الحال ولذا قال: **(ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل)** قال في لطائف المنن: البسط مزلة أقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم، والقبض أقرب إلى وجود السلامة، لأنه وطن العبد إذ هو في أسر قبضة الله، وإحاطة الحق محيطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو اللائق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى اهـ. **(البسط تأخذ النفس منها حظها بوجود الفرح والقبض لا حظ للنفس فيه)** في هذا إشارة لما تقدم من أن مراعاة الأدب في البسط من الأمر العسير، فلذا كان لا يقف عند حدود الأدب فيه إلا القليل بخلاف القبض، فكأنه يقول إنما كان كذلك، لأن النفس تأخذ منه حظها، ومن شأن النفس إذا وجدت حظها الغفلة ونسيان الحقوق، والدعوى بإظهار ما عندها من العلوم والفهوم والأحوال والأسرار، والتحدث بالخصوصية، والتلذذ بنسبة الخوارق، والإشارة إلى الكرامات، وإدراك المقامات كل على حسب حاله، وكل ذلك مناف للعبودية بخلاف القبض، فإنه لا حظ للنفس فيه فلا تتمالك أن تظهر شيئاً من ذلك، فهو أقرب للسلامة ووجود القدرة على الوفاء بآداب العبودية، ولذا آثره العارفون على البسط.

وأما آداب القبض والبسط، فلا أعلم الآن من استوفى الكلام فيهما من علماء الصوفية ومصنفيهم وإنما وجدنا لهم من ذلك إشاراتٌ إلى أمورٍ جملية كقول الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه، بعد أن تكلم على لفظتي القبض والبسط وتبيين معانيهما إلى أن قال: وقد يكون قبض يشكل على صاحبه سببه يجد في قلبه قبضاً لا يدري ما موجبه وسببه وسبيل صاحب هذا القبض التسليم حتى يمضي ذلك الوقت لأنه لو تكلف نفيه أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد في قبضه ولعله يفيد ذلك منه سوء أدب وإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض فإن الحق سبحانه قال: ﴿واللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقد يكون بسط يرد بغتة ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سبباً يهز صاحبه ويستفزه فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب فإن في هذا الوقت له خطرٌ عظيم فليحذر صاحبه مكراً خفياً.

كما قال بعضهم: فتح على باب من البسط فزللت فحجبت عن مقامي اهـ كلام الإمام أبي القاسم وقد رأيت كلاماً مبسوطاً مستوفى في آداب القبض والبسط لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، فأحببت أن أذكره هاهنا لتتم به الفائدة التي تعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى وإن كان كلام الشيخ أبي الحسن في ذلك أعمُّ مما هو عند غيره من أئمة الصوفية قال رضي الله تعالى عنه: القبض والبسط قلما يخلو العبد منهما، وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار، والحق سبحانه يرتضي منك العبودية فيهما فمن كان وقته القبض فلا يخلو من أن يعلم سببه أو لا يعلم، وأسباب القبض ثلاث: ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك أو نقصت لك، أو ظالم يؤذيك في نفسك أو في عرضك أو ينسبك لغير دين، أو غير ذلك، فإذا ورد عليك القبض من أحد هذه الأسباب، فالعبودية تقتضي أن ترجع إلى العلم مستعملاً له كما أمرك الله تعالى أما في الذنب فبالتوبة والإنابة وطلب الإقالة، وأما فيما ذهب عنك من الدنيا أو نقص فبالتسليم والرضا والاحتساب وأما فيما يؤذيك به ظالم فبالصبر والاحتمال. واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان ظلم غيرك لك وظلمك لنفسك فإن فعلت ما التزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له فتجاب فيه دعوتك وما أحسن ذلك إذا رحم الله بك من ظلمك فتلك درجات الصديقين الرحماء وتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سبباً فالوقت وقتان: ليل ونهار فالقبض أشبه شيء بالليل والبسط أشبه شيء بالنهار فإذا ورد القبض بغير سبب تعلمه فالواجب عليك السكون والسكون على ثلاثة أشياء: عن الأقوال، والحركات، والإرادات، فإن فعلت ذلك، فعن قريب يذهب عنك الليل بطلوع شمس نهارك أو يبدو نجم تهتدي به أو قمر تستضيء به أو شمس تتبصر بها والنجوم: نجوم العلم، والقمر، قمر التوحيد، والشمس شمس المعرفة، وإن تحركت في ظلمة ليلك، فقلما تسلم من الهلاك واعتبر بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣] فهذا حكم العبودية في القبضتين جميعاً وأما مَنْ كان وقته البسط فلا يخلو من أن يعلم له سبباً أولاً، والأسباب ثلاثة: الأول زيادة في الطاعة أو نوال في المطاع كالعلم والمعرفة، والسبب الثاني: زيادة من دنيا بكسب أو كرامة أو هبة أو صلة، والسبب الثالث: بالمدح والثناء من الناس وإقبالهم عليك بطلب الدعاء منك وتقبيل يديك فإذا ورد عليك البسط من أحد هذه الأسباب، فالعبودية تقتضي أن ترى أثر النعمة والمنة من الله عليك واحذر أن ترى شيئاً من ذلك لنفسك وحصنها أن لا يلازمها خوف السلب مما به أنعم عليك فتكون ممقوتاً هذا في جانب الطاعة والنوال من الله تعالى وأما الزيادة من الدنيا، فهي نعمة أيضاً كالأولى وخف مما بطن من آفاتها وأما مدح الناس لك وثناؤهم عليك فالعبودية تقتضي شكر النعمة بما ستره عليك وخف من الله تعالى أن يظهر ذرة مما بطن منك فيمقتك أقرب الناس إليك فهذه آداب القبض والبسط في العبودية وأما البسط الذي لا تعلم له سبباً، فحق العبودية فيه ترك المسؤول والادلال والصولة على النساء والرجال اللهم إلا أن تقول سلم سلم إلى الممات فهذه آداب القبض والبسط في العبودية جميعاً إن عقلت والسلام. انتهى ما ذكره الشيخ أبو الحسن وكلامه في ذلك حسن والحمد لله الذي بيده سوابغ المنن (**ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك**) منع الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته والكون مع شيء من عاداته عطاءٌ جزيل منه لأنه أبقاه معه

(**ربما أعطاك**) شيئاً من الدنيا ولذتها (**فمنعك**) التوفيق لطاعته والإقبال عليه والفهم عنه (**وربما منعك**) من الأول

واقتطعه عن حظوظه وأغراضه وجرده منها وعكس هذا هو المنع على التحقيق وإن كان عطاء في الظاهر.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: إذا منعت فذلك عطاؤه وإذا أعطيت فذلك منعه فاختر الترك على الأخذ فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك فلن يعدم منه خيراً **(متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء)** سيأتي بيان هذا من كلام المؤلف رحمه الله في قوله: متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره إلى آخره **(الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها)** الأكوان هاهنا كل ما يمكن أن يكون للنفس فيه حظٌ من متاعِ الدنيا وزهرتها وهي رائقة الظاهر قبيحة الباطن كما قيل:

عَلَى وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ وَتَحْتَ الثِّيابِ العَارُ لَوْ كانَ بادِيا

فهي من حيث ظاهرها محبوبةٌ حلوة خضرة بالنظر إلى باطنها جيفة قذرة فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها فتهلك صاحبها، والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيسلم من شرها. وقد روي في الكتب السالفة، أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: يا روح الله صِفْ لنا أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليكم ولا هم يحزنون فقال عليه السلام: هم الذين بهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا وبهم قام الكتاب وبه قاموا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم فصار ذكرهم فيها قوتاً وفرحهم فيها حزناً ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرف لهم بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها وخربت فيما بينهم فلم يعمروها وماتت في صدورهم فلم يحيوها بعد موتها وبنوا بها آخرتهم أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيؤون بنوره ويضيؤون به لهم الخير العجيب وعندهم الخير العجيب وكان بعض الأولياء يقول: ما سطع لي زينة من زخرف الدنيا إلا كشف لي باطنه فظهر لي غرور عنها.

قال أبو طالب المكي: فهذه عناية من الله تعالى لمن وليه من أوليائه المقربين منه فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ومن كشف له بعاقبتها لم يستهوه زخرفها وكان عيسى عليه السلام يقول: ويلكم علماءُ السوءِ مثلكم مثل قناة حش ظاهرها جص وباطنها نتن **(إن أردت أن يكون لك عزٌ لا يفنى فلا تستعزنَّ بعزٍّ يفنى)** العز الذي لا يفنى هو الغنى عن الأسباب كلها بوجود مسببها لأنه باقٍ لا يفنى فالتعلق به عز لا يفنى والعزّ الذي يفنى، هو الغنى بالأسباب، مع الغيبة عن مسببها لأنها فانية فالتعلق بها عزّ فان لا يبقى والتعلق بالله عزّ لا يفنى وليس لك إلا أحدهما لأنهما ضدان لا يجتمعان فإن اخترت العزّ الباقي بالله تعالى لم يقدر أحد أن يذلَّك.

يحكى أن رجلاً أمر بالمعروف لهارون الرشيد فحرد عليه هارون الرشيد وكانت له بغلة سيئة الخلق فقال: اربطوه معها تقتله برمحها ففعلوا ذلك فلم تضره فقال: اطرحوه في بيت وطينوا عليه الباب ففعلوا ذلك فرئي في

(فأعطاك) الثاني فمنع الله لك من نيل شهواتك ولذاتك، والكون مع سيىء عاداتك عطاه جزيل منه، لأنه أبقاك معه، واقتطعك عن حظوظك وأغراضك، وعكس ذلك هو المنع على التحقيق، وإن كان عطاء في الظاهر، فلا تنظر لظاهر العطاء والمنع، بل لحقيقة الأمر، وحينئذ فيجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمولاه **(متى فتح لك باب الفهم في المنع)** بأن فهمت أن ذلك المنع رحمة منه بك، ولولا أنه يعلم أنه خير لك من العطاء ما أنزله بك **(عاد المنع)** أي صار **(عين العطاء)** ومن الفهم في المنع ما سيأتي في قوله ومتى منعك أشهدك قهره الخ. **(الأكوان)** أي المكونات التي للنفس فيها حظ من متاع الدنيا وزهرتها **(ظاهرها غرة)** بكسر الغين أي سبب في الاغترار بها لحسنها وبهجتها **(وباطنها عبرة)** بكسر العين أي سبب في الاعتبار بها والانكفاف عنها لقبحها وخستها، والنظر إلى عاقبتها وهي الفناء فهي حسنة الظاهر قبيحة الباطن، فمن نظر إلى ظاهرها وجدها حلوة نضرة فيغتر بها، ويميل إليها، ومن نظر إلى باطنها وجدها جيفة قذرة. فيعتبر بها وينكف عنها **(فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها)** أي زينتها الظاهرة فتغتر بها وتهلك صاحبها **(والقلب ينظر إلى باطن عبرتها)** أي إلى قبائحها الباطنة فيعتبر بها، ويسلم من شرها **(إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى)** بأن تستغني عن جميع الأسباب بوجود مسببها، لأنه باق فيكون تعلقك به عزاً لا يفنى **(فلا تستعزن بعز يفنى)** بأن تستغني بها مع الغيبة عن مسببها، لأنها فانية فيكون تعلقك بها عزاً لا يبقى، بل يزول بزوالها، فإن اعتززت بالله دام عزك، ولم يقدر أحد أن يذلك، وإن اعتززت بغيره من مال أو جاه أو نحوهما بأن ركنت إليه، وجعلته معتمدك وغفلت عن مولاك فلا بقاء لعزك إذ لا بقاء لمن أنت به معتز، ولذا سمع بعض العارفين شخصاً يبكي فقال له: ما شأنك؟ فقال: مات أستاذي. فقال له العارف: ولم

بستان وباب البيت مسدود فأخبر هارون الرشيد بذلك فأتي بالرجل فقال: مَنْ أخرجك من البيت؟ فقال: الذي أدخلني البستان. فقال: ومَنْ أدخلك البستان؟ فقال: الذي أخرجني من البيت. فقال: أركبوه دابة وطوفوا به في البلد وليقل قائل ألا إن هارون قد أراد أن يذل عبداً أعزه الله فلم يقدر وإن أردت العزّ بالأسباب خذلتك وأسلمتك أحوج ما تكون إليها وكنت في غاية الذل والهوان.

حكي عن بعضهم أنه قال: رأيت رجلاً في الطواف وبين يديه شاكرية يطردون الناس فبعد ذلك بمدة رأيت إنساناً يتكفف الناس على الجسر ويسأل شيئاً قال: فنظرت إليه وشبهته بذلك الرجل فقال: لأي شيء تنظر؟ فقلت أشبهك برجل رأيته في الطواف من شأنه كذا وكذا فقال أنا ذلك الرجل تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله في موضع يترفع فيه الناس. قال في **(التنوير)**: فإن اعتززت بالله دام عزك، وإن اعتززت بغيره فلا بقاء لعزك إذ لا بقاء لمن أنت به معتز قال: وأنشدنا بعض الفضلاء لنفسه:

اجْعَلْ بِرَبِّكَ شَأْنَ عِزِّ ... كَ يَسْتَقِرّ وَيَثْبُتُ
فَإِنِ اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُو ... تُ فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

قال: ودخل إنسان على بعض العارفين وهو يبكي فقال: ما شأنك؟ قال: مات أستاذي فقال له ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك مَنْ يموت؛ ويقال لك: إذا اعتززت بغير الله ففقدته واستندت إلى غيره فعدمته وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً **(الطي الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك)** طي مسافة الدنيا إنما يتصور من العبد إذا أشرق نور اليقين في قلبه فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره وتنطوي في اعتباره ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده بل يراها أقرب إليه منه إذ ذاته فانية منطوية بهذا الاعتبار فمن كان هذه مشاهدته لا يتصور منه حب الغائب الفاني وهو الدنيا واستبداله بالحاضر الباقي وهو الآخرة ولذلك كان أصل الرغبة في الدنيا وإيثارها على الآخرة ضعف اليقين فمن لم يشرق في قلبه نور اليقين لم يشاهد الملك الكبير ومن لم يشاهده أحب الدنيا وهي لا شيء فلم تكن قيمته عند الله تعالى شيئاً فهذا هو الطي الحقيقي لمسافة الدنيا الذي يكرم الحق به أولياءه وبه يتحقق عبوديتهم لربهم عزّ وجلّ لا طي مسافة الأرض الذي ربما يكون استدراجاً ومكراً ولا طيّ الليالي والأيام بالوصال للصيام وترك الشراب والطعام إذا لم يتمحض طاعة وبراً وسيأتي من كلام المؤلف رحمه الله تعالى: لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها **(العطاءُ مِنَ الخلق حرمان والمنع من الله إحسان)** عطية الخلق لك حرمان على التحقيق لما فيه من رؤيتك لغير الله ووقوفك مع حظوظك وشهواتك ومنع الله لك إحسان لأنه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه وإن شئت قلت: العطاء من الخلق

جعلت أستاذك من يموت **(الطي الحقيقي أن تطوي)** أيها المريد **(مسافة الدنيا عنك)** بأن لا تشتغل بلذاتها وشهواتها، ولا تركن إليها بل تغيب عنها **(حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك)** أي تكون نصب عينيك ليست غائبة عن قلبك، فهذا هو الطي الحقيقي الذي يكرم الله به أولياءه، وبه تتحقق عبوديتهم لربهم لا طي مسافة الأرض، بأن تكون من أهل الخطوة، لأنه ربما كان استدراجاً ومكراً، ولا طي الليالي والأيام بالقيام والصيام، لأنه ربما قارنه رياء أو عجب، فتكون عاقبته الخسران، ولا يمكن أن تطوي عن العبد مسافة الدنيا إلا إذا أشرق نور اليقين في قلبه، فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده، ومن كانت هذه مشاهدته لا يتصور منه حب الفاني، وهو الدنيا واستبداله بالباقي وهو الآخرة أما إذا لم يشرق نور اليقين في قلبه كان راغباً في الدنيا مؤثراً لها على الآخرة راكناً إليها، وغائباً عن مولاه لضعف يقينه وتقواه **(العطاء من الخلق)** أي إذا أعطوك شيئاً فأخذته غافلاً عن مولاك فهو وإن كان عطاء ظاهراً **(حرمان)** باطناً أي في الحقيقة ونفس الأمر لما فيه من رؤيتك لغير الله تعالى ووقوفك مع حظوظك **(والمنع من الله)** أي منع الله لك وعدم إعطائك **(إحسان)** حيث لم يغب قلبك عنه فهو، وإن كان منعاً ظاهراً إعطاء باطناً، لأنه ألزمك الوقف ببابه وعافاك من وجود حجابه، وإن شئت قلت العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك، وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم والمنع من الله إحسان، لأنه حبيبك وكل ما يفعله المحبوب محبوب. وفي وصية علي كرم الله وجهه لا تجعل بينك وبين الله منعماً واعدد نعمة غيره عليك مغرماً. وهو يناسب المعنى الأول.

حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم والمنع من الله إحسان لأنه حبيبك وكل ما يفعل الحبيب محبوب ولله در من قال:

فَلاَ أَلْبَسُ النّعمى وَغَيْرُكَ مُلْبِسِي ... وَلاَ أَقْبَلُ الدُّنْيا وَغَيْرُك وَاهِبِي

وفي وصية علي رضي الله عنه: لا تجعل بينك وبين الله منعماً واعدد نعمة غيره عليك معرماً. وقال بعض الحكماء: حمل المنن أثقل من الصبر على العدم. وقال آخر: عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة. وقال رضي الله عنه **(جل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئة)** جزاء المعاملة لا يختص بالدار الآخرة بل ربما أظهر الحق تعالى منه لبعض أوليائه في الدنيا انموذجاً يحملهم على الاجتهاد في الأعمال ويتحققون به وجود قبولها في كل الأحوال وذلك لعظيم كرمه وعميم فضله جلّ وعلا **(كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً)** هذا بيان جزائهم المعجل وهو أنه عرفهم من عظمته وجلاله وكبريائه ما استحقروا معه أنفسهم أن يكونوا أهلاً لأن يكلفهم القيام بطاعته ويمدهم فيها بتيسيره ومعونته فسباهم حينئذ حبه واستولى عليهم قربه فانخنست إذ ذاك نفوسهم واضمحل وجودهم وذهب بهم الحياء كل مذهب وهذا هو غاية الجزاء ونهاية العطاء عند العلماء العارفين الذين يمنعهم وجدانه عن التطلع إلى غيره من الحظوظ الآجلة **(كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته)** هذا بيانٌ آخر لما يكرمهم به من الجزاء المعجل وهو أن العاملين لربهم يفتح لهم من المعارف ويورد على قلوبهم من أنواع اللطائف ما يتنسمون منه روح الأنس ويتنعمون به في حضرة القدس وهذا من علامات وجود الرضوان الأكبر الذي يتلاشى دونه كل جزاء ويستحقر.

كان بعضهم يقول: التملق للحبيب، والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا هو من الجنة ظهر لأهل الله تعالى في الدنيا لا يعرفه إلا هم ولا يجده سواهم روحاً لقلوبهم. وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: دخلت على أبي سليمان الداراني رضي الله عنه يوماً وهو يبكي فقلت له: وما يبكيك؟ فقال: يا أحمد ولم لا أبكي إنه إذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وتقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه فنادى: يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكري وإني لمطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم فلم لا تنادي فيهم يا جبريل ما هذا البكاء هل رأيتم حبيباً يعذب أحبابه أم كيف يجمل بي أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تملقوا إليَّ فبي حلفت إذا وردوا على القيامة لأكشفنَّ عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليَّ وأنظر إليهم **(من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه)** عمل العاملين لأجل حصول الجزاء أو فراراً من عقوبة المولى مدخول معلول

(جل ربنا أن يعامله العبد نقداً) أي حالاً بأنواع الطاعات **(فيجازيه نسيئة)** بأن لا يعطيه شيئاً من جزاء عمله في الحال، فإن ذلك ليس شأن الكريم القادر، فجزاء العمل لا يختص بالدار الآخرة، بل ربما أظهر الله تعالى منه لبعض أوليائه شيئاً في الدنيا يحملهم على الاجتهاد في الأعمال، ويتحققون به قبولها، ثم بين ذلك الجزاء المعجل بقوله: **(كفى من جزائه)** أي مجازاته إياك **(على الطاعة أن رضيك لها أهلاً)** أي توفيقك لها وإقدارك عليها، وإلا فصفتك الذاتية التكاسل عن الطاعة وعدم الاعتناء بها، فإذا وفقك مولاك للقيام بها كان ذلك جزاءً معجلاً لك في الدنيا لما يترتب عليه من مزيد الزلفى، وأيضاً فأنت عبد حقير لا تستحق خدمة ملك الملوك، فكونه قربك لخدمته ورضيك أهلاً لها نعمة عظيمة منه عليك، ثم ذكر جزاء آخر معجلاً بقوله: **(كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته)** أي في حال طاعته من المواهب الإلهية والإلهامات اللدنية وحلاوة التملق بين يدي ملك الملوك. قال بعضهم: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، وهذه الحلاوة هي التي يعبر عنها أهل الطريق بالأحوال والمواجيد والأذواق **(وما هو مورده عليهم)** أي على قلوبهم **(من وجود مؤانسته)** أي الأنس به بعد حصول العمل وانقضائه. قال بعضهم: الأنس هو سرور القلب بشهود جمال الحبيب، وهو حالة توجب انتعاش المحب وصفاء وقته، ويخاف فيه غوائل الإدلال **(من عبده)** تعالى **(لشيء يرجو منه)** وهو الثواب **(أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة)** أي حصولها له في الدار الآخرة وقوله: **(عنه)** متعلق بيدفع **(فما قام بحق أوصافه)** بل هو قائم بحظ نفسه من جلب الثواب أو دفع العقاب، بخلاف ما إذا عبده لأجل جلاله وعظمته، وما هو عليه من محامد صفاته التي لا يشارك فيها، إذ من كان كذلك

ليس من شأن الحاذقين المحققين لأن قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضي أن لا يعمل لأجل حظه من جلب ثواب أو دفع عقاب لأنه عبد يستحق عليه مولاه كل شيء ولا يستحق هو عليه شيئاً وهذا من أعلى المحبة لله تعالى لأن المحب مجتمع الهم بأمر محبوبه لا مراد له إلا ما أراد، فعلى العبد أن يعمل لربه عزّ وجلّ لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التي لا يشارك فيها فإن خالف هذا أو عمل على طلب حظه، لم يقم بحق صفات مولاه وكان ذلك نتيجة جهله وغفلته وعمد حبه لربه ومعرفته.

قال سهل بن عبد اللّه التستري رضي الله عنه: ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض إلا وهم جهّال بالله تعالى إلا مَنْ يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته. وفي أخبار داود عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه أنَّ أودّ الأوداء إليَّ من عبدني لغير نوال لكي يعطي الربوبية حقها وفيما نقل وهب بن منبه من الزبور ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو لنار لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً لأن أطاع أو كما قال عزّ وجلّ، وفي أخبار عيسى عليه السلام إذا رأيت التقي مشغوفاً في طلب الرب فقد ألهاه ذلك عما سواه. ومر عيسى عليه الصلاة والسلام على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن عباد الله تعالى. فقال: ولأي شيء تعبدتم؟ قالوا: خوفنا الله من ناره فخفنا منها. فقال: حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه. ثما جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم فقال: لأي شيء تعبدتم؟ قالوا: شوقنا الله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه فنحن نرجوها. فقال: حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم. ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون فقال: ما أنتم؟ قالوا: المحبون لله عزّ وجلّ لم نعبده خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله فقال: أنتم أولياء الله حقاً معكم أُمرت أن أقيم فأقام بين أظهرهم.

وفي لفظ آخر: أنه قال للأولين: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً فأحببتم وقال للآخرين: أنتم المقربون. قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: وممن روى عنه هذا القول وأقيم في هذا المقام، جماعة من التابعين بإحسان منهم أبو حازم المدني كان يقول: إني لأستحي من ربي أن أعبده خوفاً من العذاب فأكون مثل عبد السّوء، إن لم يخف لم يعمل، وأستحي أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبةً له. قال الشيخ أبو طالب المكي وقد روينا معنى هذا الكلام عن رسول الله ﷺ: «لاَ يَكُنْ أَحَدُكُمْ كَالعَبْدِ السَّوءِ إنْ خَافَ عَمِلَ وَلاَ كالأَجِيرِ السُّوءِ إنْ لَمْ يُعْطَ الأَجْرَ لَمْ يَعْمَلْ» وقال بعض إخوان معروف رضي الله عنه، له: أخبرني عنك يا أبا محفوظ أي شيء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت فقلت: ذكرت الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ قلت: فذكرت القبر. قال: وأي شيء القبر؟ فقلت: خوف الناورورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذان من ملك هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع هذا وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا؟.

قال أبو طالب: وحدثوا عن علي بن الموفق قال: رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة فرأيت رجلاً قاعداً على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلاً قائماً على باب الجنة يتصفح وجوه قوم فيدخل بعضهم الجنة ويرد آخرين قال: ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادقات العرش رجلاً قد أشخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان: مَنْ هذا؟ فقال: هو معروف الكرخي عبد اللّه تعالى لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل حباً له فقد أباحه النظر إليه إلى يوم القيامة وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهما.

قال أبو طالب المكي: وروينا عن رابعة العدوية، وكانت إحدى المحبين، وكان سفيان الثوري يجلس بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة وكانت تقول له: نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا وكان يعترف لها ويسلم قولها وكان عالماً زاهداً إلا أنه كان يؤثر كتب الحديث والإقبال على الناس وهي أبواب الدنيا.

وقال لها الثوري يوماً: لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفاً من النار فأكون كالعبد السوء إن أعطي عمل ولا حباً للجنة فأكون كالأجير السوء إن أعطي عمل ولكن عبدته حباً له وشوقاً

يستحق أن يخدم بالعبادة، فإنه حينئذ يكون قائماً بحق أوصافه، أي موفياً لها حقها فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أن أود الأوداء من عبدني لغير نوال، لكن ليعطي الربوبية حقها، وفي الحديث لا يكن أحدكم كالعبد السوء، إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجرة لم يعمل.

إليه. والآثار والحكايات في هذا المعنى كثيرة لا تنحصر فإذا عمل المريد على ما ذكرناه كان عبد الله حقاً فإن طلب منه الثواب أو استعاذ به من العقاب فإنما يطلبه أو يستعيذ به انتجازاً لوعد ربه وفراراً من دعوى رؤية حظه واتباعاً لما أحبه منه وأذن له فيه من طلبه لفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه وهذا وما أشبهه هو المعنيّ بالحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «مَا تَقُولُ في الصَّلاةِ»؟ قال: أتشهد ثم أقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال حولها ندندن لا أن يكون رجاؤه لحصول ذلك وخوفه من فقده باعثاً له على القيام بطاعته وملازمة عبادته فيكون عمله إذ ذاك مدخولاً معلولاً هذا هو مذهب العارفين والمحققين وعليه تنبني قواعد التصوف كلها (**متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبلٌ بوجود لطفه عليك**) المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى ولا سبيل لهم إلى معرفته إلا بتعرفه لهم وتعرفه لهم إنما يكون بما ينزل بهم من النوازل ويورده عليهم من الأحكام ثم هو على قسمين: ما وافق الهوى والطبع ويسمى ذلك عطاء ومنحاً وما خلفهما ويسمى منعاً فبوجود العطاء تشهد صفاته البرية من الجود والكرم والإحسان واللطف والعطف وغير ذلك وبوجود المنع تشهد صفاته القهرية من الجبر والكبرياء والعزة والاستغناء فينبغي لك أيها العبد، أن لا تفرق بينهما إن أردت معرفة ربك ولم يستغرقك حب حظك إذاً فمنعه لك عطاء على التحقيق فهو في كلتا الحالتين منعمٌ عليك ومقبلٌ بوجود لطفه إليك وهذا هو بيان ما تقدم من قوله: متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء والله أعلم.

قال سفيان الثوري رضي الله عنه: أتيت أبا حبيب البدوي أسلّم عليه ولم أكن رأيته فقال لي: أنت سفيان الثوري الذي يقال؟ قال: فقلت: نعم. فنسأل الله عزّ وجلّ بركة ما يقال. قال: فقال لي: يا سفيان ما رأينا خيراً قط إلا من ربنا. قلت: أجل. قال: فما لنا نكره لقاء مَنْ لم نر خيراً قط إلا منه ثم قال: يا سفيان منع الله إياك عطاء منه لك وذلك أنه لم يمنعك من بُخلٍ ولا عدم وإنَّما منعه نظر منه واختبار يا سفيان إنَّ فيك لأُنساً ومعك شغلاً قال: ثم أقبل على غنيمته وتركني (**إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه**) إذا كان منع الله سبحانه وتعالى وعطاؤه نعمتين عظيمتين كما ذكرناه الآن فينبغي أن يكون في كليتيهما قرّة عين المريد فإن تألم بأحدهما، وهو المنع، وتلذذ بالآخر، وهو العطاء، فذلك لعدم فهمه وقصور علمه وإنما الأكمل والأفضل له لم يألم بالعطاء ويلذ بالمنع. كما قال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: لا يصح الفقر للفقير حتى يكون فيه خصلتان إحداهما: الثقة بالله تعالى، والأخرى: الشكر لله فيما روي عنه مما ابتلي به غيره من الدنيا، ولا يكمل الفقير حتى يكون نظر الله له في المنع أفضل من نظره له في العطاء وعلامة صدقه في ذلك أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء لا يعرفه غير باريه

(**متى أعطاك**) أيها العارف المتيقظ (**أشهدك بره**) أي صفات بره من الجود والكرم والإحسان واللطف والعطف وغير ذلك (**ومتى منعك أشهدك قهره**) أي صفاته القهرية، أي التي تقتضي القهر والغلبة من الجبرية والكبرياء والعزة والاستغناء (**فهو في كل ذلك**) أي في كلتا الحالتين (**متعرف إليك**) أي مقبل عليك ومريد منك أن تعرفه، فإن الواحد منا إذا أراد أن يعرفه غيره، فإما أن ينعم عليه، وإما أن يعاقبه فكل منهما سبب في معرفة ذلك الغير له (**ومقبل بوجود لطفه عليك**) لأن مشاهدتك لصفات بره وقهره لطف عظيم منه سبحانه ونعمة منه عليك، فينبغي لك أن تشكره عليها.

والحاصل المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى، ولا سبيل لهم إلى معرفته إلا بتعرفه لهم وتعرفه لهم إنما يكون بما ينزله بهم من النوازل، ويورده عليهم من الأحكام، سواء كان الحكم موافقاً لطبعهم، وهو الإعطاء أو مخالفاً له وهو المنع، فمن كان عارفاً بربه، ولم يستغرقه حظ نفسه لم يفرق بين العطاء والمنع، لأن كلاّ منهما له طريق توصله إلى معرفة صفاته البرية من الجود ونحوه والقهرية، وهذا من جملة فتح باب الفهم في المنع كما مر (**إنما يؤلمك المنع**) أيها المريد (**لعدم فهمك عن الله فيه**) أي في حال المنع، إذ لو فتح لك باب الفهم حينئذ لتلذذت به فمن جملة الفهم في المنع أن تفهم أنه يريد بذلك المنع أن يوقفك ببابه، ويعلقك به، وتصير من جملة أحبابه، فإنه إذا أحب عبداً حماه الدنيا، ومن جملته أن تفهم أنه سلك بك مسلك المقربين كما ورد عن الفضيل أنه كان يقول: إلهي أجعتني وأجعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، وإنما تفعل هذا بخواص عبادك، فبأي سبب أستوجب منك هذا، أي من أعمال البر والخير، ومن جملته أن تفهم أن الدنيا فانية، ولذاتها منقضية، فتفرح بما ادخر لك في الآخرة إلى غير ذلك، مما يفتح الله به على قلب المريد الصادق، فإذا فتح عليه ذلك تلذذ بالمنع، فعاد المنع عين العطاء (**ربما فتح**

الذي خصه بمعرفته وأياديه فهو لا يرى سوء مليكه ولا يملك إلا ما كان من تمليكه وكل شيء له تابع وكل له خاضع اهـ (**ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول**) ينبغي أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء ولينظر إلى حقائقها فصور الطاعات لا تقتضي وجود القبول لها لما قد تضمنته من الآفات القادحة في الإخلاص فيها وذلك مانعٌ من وجود القبول لها ووجود صورة الذنب لا تقتضي الأبعاد والطرد بل ربما يكون ذلك سبباً في وصوله إلى ربه وحصوله في حضرة قربه كما قيل: رُبَّ ذنبٍ أدخل صاحبه الجنة وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ» وذلك أنه يصحبه عند عمله بالطاعة أن يعجب بها ويعتمد عليها ويتكبر بفعلها ويستصغر مَنْ لم يفعلها ويصحبه عند وقوعه في الذنب اللجأ إلى الله تعالى والاعتذار إليه منه واستصغار نفسه وتعظيم مَنْ لم يفعله. قال أبو حازم رضي الله عنه: إن العبد ليعمل الحسنة تسرُّه حين يعملها وما خلق الله له من سيئة أضر له منها وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها وما خلق الله له من حسنة أنفع له منها، وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة تسره فيمتن بها ويرى أن له فضلاً على غيره ولعل الله أن يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً وإن العبد ليعمل السيئة تسوءه حين يعملها ولعل الله أن يحدث له بها وجلاً حتى يلقى الله تعالى وإن خوفها في جوفه لباق ثم بين المؤلف رحمه الله هذا المعنى بقوله (**معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً**) الذلّ والافتقار من صفات العبودية والعز والاستكبار مناقضان لها لأنهما من صفات الربوبية ولا خير في الطاعة إذا لزم عنها شيء مما يناقض صفات العبودية لأنها تحبطها وتبطلها كما لا مبالاة بالمعصية إذا لزمتها صفات العبودية لأنها أيضاً تمحوها وتزيلها قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: انكسار العاصي خير من صولة المطيع وكان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة وكان يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله تعالى حتى إنه ربما دخل عليه مطيعٌ فلا يعبأ به وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصي دخل عليه بكثرة معاصيه وذلة مخالفته وقد تقدم مثل هذا عند قوله: لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى. فمن هذا المعنى ما روي عن أبان بن عياش أنه قال: خرجت يوماً من عند أنس بن مالك رضي الله عنه، بالبصرة فرأيت جنازة يحملها أربعة من الزنج ولم يكن معهم رجل آخر فقلت: سبحان الله بسوق البصرة وجنازة مسلم لا يشيعها أحد. فلأكونن خامسهم فمضيت معهم فلما وضعوها في المصلى قالوا لي: تقدم فقلت: أنتم أولى به. فقالوا: كلنا سواء فتقدمت فصليت عليه وقلت لهم: ما القصة؟ فقالوا: اكترتنا تلك المرأة قال فقعدت حتى دفنوه فلما كان بعد ساعة انصرفت تلك المرأة وهي تضحك فدخل قلبي شيء فقلت: لا ينجيك إلا الصدق أخبريني إيش القصة؟ فقالت: إن هذا ابني ما ترك شيئاً من المعاصي إلا فعله فمرض منذ ثلاثة أيام فقال يا أماه إذا مت فلا تخبري بوفاتي جيراني فإنهم لا يحضرون جنازتي ويشمتون بموتي واكتبي على خاتمي هذا لا إله إلا الله محمد رسول الله واجعليه على كفني فلعل الله تعالى يرحمني به وضعي رجلك على خدي وقولي هذا جزاء من عصى الله فإذا دفنتيني فارفعي يديك إلى الله تعالى وقولي: إني رضيت عنه فارضَ عنه فلما مات فعلت جميع ما أوصى به فلما رفعت يدي إلى السماء سمعت صوته بلسان فصيح: انصرفي يا أماه فقد قدمت على رب كريم غير غضبان عليّ فإنما ضحكت من هذا.

ومن المعنى الآخر ما روي أن رجلاً من بني إسرائيل أتى عائداً من بني إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال له العابد: ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله عزّ وجلّ أيها المتألي علي بل أنت لا يغفر الله لك. قال

لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول) الإضافة فيهما بيانية أو من إضافة المشبه به للمشبه (**وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول**) وذلك أن الطاعة قد تقارنها آفات قادحة في الإخلاص فيها كالإعجاب بها، واعتماد عليها واحتقار من لم يفعلها، وذلك مانع من قبولها، والذنب قد يقارنه الالتجاء إلى الله، والاعتذار إليه واحتقار نفسه، وتعظيم من لم يفعله، فيكون ذلك سبباً في مغفرة الله له، ووصوله إليه فينبغي أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء بل إلى حقائقها، فيخاف إن كان مطيعاً، ويرجو إن كان عاصياً، ثم أوضح المصنف معنى هذه الحكمة بقوله: (**معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً**) ولا شك أن الذل والافتقار من أوصاف العبودية، فالتحقق بهما مقتض للوصول إلى حضرة الرب والعز والاستكبار من أوصاف الربوبية، فالتحقق بهما مقتض للخذلان وعدم القبول. قال أبو مدين قدّس سره:

الحارث المحاسبي رضي الله عنه: لأنه إنما تألى على الله عزّ وجلّ أن لا يغفر الله له لعظم قدر نفسه عنده وإن الإساءة إليه عند الله عزّ وجلّ عظيمة لا يغفرها الله تعالى لموضع عبادته وسجوده لأنه عد نفسه عظيم القدر عند الله عزّ وجلّ فجمع بين عَجَبٍ وكبر واغترار بالله عزّ وجلّ. ومن المعنيين جميعاً ما روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام، خرج ومعه صالح من صالحي بني إسرائيل فتبعهما رجل خاطىءٌ مشهور بالفسق فيهم فقعد منتبذاً عنهما منكسراً فدعا الله سبحانه وتعالى وقال: اللهم اغفر لي ودعاء هذا الصالح وقال: اللهم لا تجمع بيني وبين هذا العاصي فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أني قد استجبت دعاءهما جميعاً رددت ذلك الصالح وغفرت لذلك المجرم.

وروي عن الشعبي أيضاً عن الخليل بن أيوب أن رجلاً كان في بني إسرائيل يقال له خليع بني إسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر من بني إسرائيل يقال له عابد بني إسرائيل وعلى رأس العابد غمامة تظله فقال الخليع في نفسه أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعل الله عزّ وجلّ أن يرحمني به فجلس إليه فقال العابد في نفسه: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل يجلس إليَّ فأنف منه وقال: قم عني، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبي ذلك الزمن مُرْهُما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفي حديث آخر: فتحولت الغمامة على رأس الخليع.

قال الحارث المحاسبي: وإنما أراد الله عزّ وجلّ من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعاً لقلوبهم فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف وتواضع الجاهل أو العاصي وذل هيبة لله عزّ وجلّ وفرقاً منه فهو أطوع لله عزّ وجلّ من العابد أو العالم بقلبه **(نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما ولا بد لكل مكون منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد)** نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد نعمتان لازمتان لكل مكون موجود لأنه في ذاته معدوم متلاش فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق ولولا ذلك لم يزل معدوماً، ونعمة الإمداد أزالت العدم اللاحق ولولا ذلك لتلاشى وفني.

قال سيدي أبو مدين: الحق تعالى مستبد والوجود مستمد والمادة من عين الوجود فلو انقطعت المادة انهدم الوجود وهذا توطئة لما يريد بيانه من الفقر الذاتي للعبد **(أنعم عليك أولاً بالإيجاد وثانياً بتوالي الإمداد)** هذا أحد جزئيات الكلية المتقدمة وهو وجودك ودوام وجودك ومما لا ينبغي أن يتغافل عنه من أنواع هذا الجنس نعمة إيجاد الإيمان ومحبة الطاعة في قلبك وإمدادهما وكذلك كراهة الكفر والمعصية فإن ذلك من النعم العظيمة التي لا مدخل للعبد فيها ولا له وسيلة إليها ولولا توالي الله تعالى له بتينك النعمتين في القسمين لتاه في ظلمات الضلالات وغرق في بحار الجهالات وقد نبه الله عزّ وجلّ على هذا المعنى في كتابه الكريم فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيْمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧ـ ٨] قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: إن من فكر في صنوف الضلال وكثرة طرق المحال وشدة أغاليط الناس في البدع والأهواء وما يتشعب بكل قوم مختلفي النحل والآراء ثم فكر في ضعفه ونقصان عقله وكثرة تحيره في الأمور وشدة جهله وتناقض تدبيره في أحواله وشدة حاجته إلى الاستعانة بأشكاله في أعماله ثم رأى

انكسار العاصي خير من صولة المطيع **(نعمتان ما خرج موجود عنهما)** أي هما عامتان لكل موجود **(ولا بد لكل مكون)** أي موجود **(منهما)** أي هما لازمتان لكل موجود لا ينفك عنهما موجود من الموجودات **(نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد)** الإضافة للبيان فيهما، فكل موجود في ذاته معدوم متلاش فنعمة الإيجاد أزالت عنه العدم السابق، فصار موجوداً ولولا ذلك لم يزل معدوماً، والمعدوم ليس بشيء، ولما كان دوام وجوده يحتاج إلى إمداد إلٰهي يقتضي بقاء صورته وهيكله، أمده بجلب المنافع له، ودفع المضار عنه، فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق، ونعمة الإمداد أزالت العدم اللاحق، وأبدلته باستمرار الوجود، فلولا نعمة الإيجاد لم يخرج شيء من العدم إلى الوجود، ولم يزل معدوماً ولولا نعمة الإمداد لم يتم وجود لموجود، ولم يصح بقاء موجود، بل يختل في أقرب مدة، ويضمحل ولا فرق في هذا بين المكونات العلوية والسفلية، ثم ذكر جزئياً من جزئيات تلك الكلية فقال: **(أنعم عليك)** أيها الإنسان **(أولاً بالإيجاد وثانياً بتوالي الأمداد)** فإذا علم العبد أن ابتداء وجوده من الله، ودوام وجوده كذلك، علم أن فاقته ذاتية، وأنه لا غنى له عن مولاه لافتقاره بعد وجوده في كل وقت إلى الإمدادات، ثم هذه الإمدادات المتوالية عليه، منها ما يكون قوتاً لشبحه تقوم به بنيته كالأقوات، ومنها ما يكون قوتاً لمعناه وروحه كالإيمان والعلوم والمعارف، فإن الإنسان شيئان: روح وجسد والإمداد الأول عام للمؤمنين والكافرين،

خالص يقينه وقوة استبصاره في دينه ونقاء وجه توحيده عن غبرة الشكر وصفاء عين عرفانه عن رهج الشك علم أن ذلك ليس من طاقته ولا بجهده وكده وسعيه وجده بل بفضل ربه وسابغ طوله قال الله تعالى ذكره: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك متظاهرة والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة انتهى. فعلى العبد أن يعرف قدر هذه النعمة ويتوكل على مولاه في بقائها وحفظها عليه ولا يعتمد في ذلك على عقله وعلمه قال بعض العارفين: مَنْ نظر في توحيده إلى عقله لم ينجه توحيده من النار وعن ذي النون المصري رضي الله عنه: ما هو قريبٌ من هذا مَنْ كان في توحيده ناظراً إلى نفسه لم ينجه توحيده من النار حتى يكون نظره إليه في توحيده إياه عزّ وجلّ فهذا هو شكر هذه النعمة العظيمة. قال الشيخ أبو طالب المكي، بعد أن ذكر ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: أَحِبُّوا اللّهَ لما أَسْدَى إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَلِمَا يَغْذُوكُمْ به أيضاً، فمن أفضل ما غذانا به نعمة الإيمان به والمعرفة له وغذاؤه لنا منه دوام ذلك ومدده بروح منه وتثبيتنا عليه في تصريف الأحوال إذ هو أصل الأعمال التي هي مكان النوال فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا في الذنوب ولو قلب قلوبنا في الشك والضلال كما يقلب نياتنا في الأعمال أي شيء كنا نصنع وعلى أي شيء كنا نعول وبأي شيء كنا نطمئن ونرجو فهذا من أعظم النعم ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة وادعاء الإيمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوة وحول هو كفر نعمة الإيمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان لأنه بدل شكر نعمة الله كفراً انتهى كلام الشيخ أبي طالب رضي الله عنه وهو حسن في هذا المعنى **(فاقتك لك ذاتية وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)** إذا ثبت أن نعمتي الإيجاد والإمداد لازمتان لك وأنك في ذاتك عدم لولاهما فالفاقة إذاً ذاتية لك والاضطرار لازمٌ لوجودك وإن كنت غنياً بوجود النعمتين المذكورتين، فإن ذلك أمرٌ عرضيٌّ والأمور الذاتية لا تزيلها الأمور العرضية وإنما أورد عليك الأسباب التي تضاد وجودك أو بقاء وجودك ليذكرك بذلك ما خفي عليك من وجود الفاقة الذاتية لك والاضطرار لازمٌ لوجودك فتلازم مركزك وتقوم بحق عبوديتك ولا تجاوز حدك وطورك قال بعضهم إنما حمل فرعون على قوله أنا ربكم الأعلى طول العافية والغنى لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولاحم جسمه ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة أو المليلة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية. قال في

كنعمة الإيجاد والثاني خاص بالمؤمنين. ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما تقدم بقوله: **(فاقتك لك ذاتية)** أي إذا ثبت أن نعمتي الإيجاد والإمداد لازمتان لك، وأنك في ذاتك عدم لولاهما، فالفاقة إذاً ذاتية لك، والاضطرار لازم لوجودك لاحتياجك إلى المولى في ابتداء وجودك، وفي إدامته عليك، لكن هذا الاضطرار يخفى على غالب الناس، ويغفلون عنه إذا دامت عليهم صحة أبدانهم، وكثرة أموالهم فيغيبون حينئذ عن صفتهم الذاتية، وعن مولاهم فيورد عليهم أسباب الاضطرار ليذكرهم ذلك كما قال: **(وورود الأسباب)** إلى أسباب الاضطرار، وهي الأمور القهرية من مرض وجوع وعطش وحر وبرد وغير ذلك **(مذكرات لك بما)** الباء زائدة أو بمعنى اللام **(خفي عليك منها)** أي الفاقة والاضطرار، فإذا كنت في غفلة عن اضطرارك الذاتي، وأورد عليك مرضاً أو فقراً اضطررت إليه، وظهرت لك صفتك الذاتية بعد أن كانت مغطاة عنك بالصحة والجدة، فتقوم حينئذ بحق العبودية وتدعوه سبحانه برفع ذلك عنك. قال بعضهم: إنما حمل فرعون على قوله: أنا ربكم الأعلى طول العافية، والغني لبث أربعمائة سنة، لم يتصدع رأسه ولا حُمَّ جسمه، ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية، ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة، أو المليلة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية، وهذا في حق غالب الناس، وإلا فالعارفون لا يفارقهم مشاهدة فقرهم الذاتي، كما سيأتي في قوله: العارف لا يزول اضطراره الخ. فهؤلاء لا يحتاجون إلى مذكر، وإنما يسلط الله عليهم هذه الأسباب القهرية، لتظهر عليهم علامات الصدق في العبودية، إذ لا يزيدهم البلاء إلا تعلقاً بربهم وطاعة له ورجوعاً إليه وليكثر ثوابهم، وتعظم منزلتهم عند الله تعالى بما يظهر عليهم من الرضا عن الله والتسليم إليه **(والفاقة)** له **(الذاتية لا ترفعها العوارض)** وهذا متعلق بقوله فاقتك لك ذاتية، أي اضطرار لازم لوجودك، وإن كنت غنياً بوجود النعمتين المذكورتين، فإن ذلك أمر عرضي والأمور الذاتية لا تزيلها الأمور العرضية، فما يحصل للعبد من الصحة والغنى والقدرة حتى تصير الأشياء، كأنها طوع يده لا يزيل الفاقة الذاتية، لأنه يجوز في حقه تعالى أن يزيل ذلك، ويبدله بضده المقتضي للافتقار والاضطرار.

(لطائف المنن): الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده ومدد يمده وكما أن الحق سبحانه هو الغني أبداً فالعبد مضطر إليه أبداً ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا في الدنيا ولا في الآخرة ولو دخل الجنة فهو مُحتاجٌ إلى الله تعالى فيها غير أنه غمس اضطراره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها وهذا هو حكم الحقائق إذ لا يختلف حكمها لا في الغيب ولا في الشهادة ولا في الدنيا ولا في الآخرة فالعلم صفته الكشف أي علم كان في أي وقت كان والإرادة صفتها التخصيص أي إرادة كانت في أي وقت كان ومن اتّسعت أنواره لم يتوقت اضطراره. وقد عاتب الله أقواماً اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم قال سبحانه: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] الآية وقال: ﴿وإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعانا﴾ [يونس: ١٢] وقال: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] الآيتين إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم سلط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلهيته انتهى **(خير أوقاتك وقتٌ تشهد فيه وجود فاقتك وترد فيه إلى وجود ذلتك)** إنما كان هذا خير الأوقات لك لوجود حضورك فيها مع ربك وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك وحجبك فهي، لا محالة، خير أوقاتك وهي مواسمك وأعيادك حسبما يقوله المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا. حكي عن عطاء السلمي رضي الله عنه، أنه بقي سبعة أيام لم يذق شيئاً من الطعام ولم يقدر على شيء فَسُرَّ قلبه بذلك غاية السرور فقال: يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة.

وقيل إن فتحاً الموصلي رضي الله عنه، رجع ليلة إلى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجاً ولا حطباً، فأخذ يحمد الله تعالى ويتضرع إليه ويقول: إلٰهي لأي سببٍ وبأيِّ وسيلة واستحقاق عاملتني بما عاملت به أولياءك؟ وقال بشر الحافي رضي الله عنه: بلغني أن بنتاً لفتح الموصلي عريت فقيل له ألا تطلب مَنْ يكسوها؟ فقال: لا أكسوها حتى يرى الله عريها وصبري عليها. قال: فكان إذا كان ليالي الشتاء جمع عياله ومال بكسائه عليهم ثم قال اللهم أفقرتني وأفقرت عيالي وجوعتني وجوعت عيالي وأعريتني وأعريت عيالي بأي وسيلة توسلت إليك وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك فهل أنا منهم حتى أفرح؟.

وقيل إن الفضيل بن عياض رضي الله عنه، بكى في ليلة قرة ثم قال: إلٰهي أجعتني وأجعت عيالي وأعريتني وأعريت عيالي وأقعدتني وأقعدت عيالي في بيت ليس فيه مصباح وقديماً تفعل هذا بأوليائك وأهل طاعتك إلٰهي فبأي عمل أستحق هذا منك حتى أداوم لك عليه.

وقيل للربيع بن خثيم رضي الله عنه قد غلا السعر. فقال: نحن أَهْوَنُ على الله من أن يجيعنا إنما يجيع أولياءه **(متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الإنس به)** فتح باب الإنس بالله تعالى هو الاستيحاش من الناس ولذلك قيل: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، فإذا فتح لك هذا الباب استوحشت من الأغيار كلها وتحققت في أنسك بربك ومعنى الوحشة منها، أن تشمئز بقلبك منهم وتنقبض عنهم بسرك ولا يكون للأشياء وقعٌ

(خير أوقاتك) أيها المريد الصادق **(وقت تشهد فيه وجود فاقتك)** بأن يزوي عنك الدنيا وشهواتها **(وترد فيه إلى وجود ذلتك)** بكسر الذال أي فقرك، وإنما كانت هذه خير الأوقات لوجود حضورك فيها مع ربك، وانقطاع نظرك عن الوسائط، والأسباب الموجبة لبعدك عنه بخلاف الوقت الذي تشهد فيه وجود غناك وعزك، فإن ذلك شر أوقاتك. حكى عن عطاء السلمي أنه بقي سبعة أيام لم يذق شيئاً من الطعام، ولم يقدر على شيء فسر قلبه بذلك وقال: يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخر، لأصلين لك ألف ركعة، وقيل إن فتحاً الموصلي رضي الله عنه يرجع ليلة إلى بيته، فلم يجد عشاء ولا سراجاً ولا حطباً، فأخذ يحمد الله ويتضرع إليه ويقول: إلهي بأي سبب، وبأي وسيلة واستحقاق عاملتني بما عاملت به أولياءك، وكذا وقع للفضيل بن عياض فقال: فبأي عمل أستحق هذا منك حتى أداوم عليه إلى غير ذلك مما وقع لأهل الله تعالى، ولذا قال المصنف: فيما سيأتي ورود الفاقات أعياد المريدين **(متى أوحشك من خلقه)** أي ما عدا الله تعالى بأن تشمئز منهم بقلبك، وتنقبض عنهم بسرك، ولا يكون للأشياء وقع عندك ولا تجد فيها مقنعاً عن مولاك **(فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به)** فإذا فتح لك ذلك الباب وآنسك بالخطاب صرت له وحده، ورغبت عن غيره كما وقع لأبي يزيد قدّس الله سره أنه اطلع على أنواع من العجائب، وكشف له عن المكونات العلى فقيل له: وهل استحسنت منها شيئاً؟ فقال: لم أر شيئاً أستحسنه. فقيل

عندك ولا تجد فيها مقنعاً لك كما جاء عن أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه، حين اطلع على أنواع من العجائب ووجه بسني الرغائب وكشف له عن الملكوت الأعلى فقيل له هل استحسنت منها شيئاً فقال: لَمْ أَرَ شيئاً أستحسنه فقيل له: أنت عبد اللّه حقاً فإذا كان العبد على هذا الوصف كان ذلك علامة على تحققه بمقام الإنس ونزوله في حضرة القدس وسيأتي هذا المعنى في قوله في مناجاته: أَنْتَ المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم **(متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك)** إطلاق اللسان بالطلب هو أن يحل عنه عقدة الصمت الذي أوجبه الاستغناء بالأغيار وعدم رؤية الفاقة والافتقار فإذا حل عنه هذه العقدة، بشهود فقره وفاقته، وأطلق لسانه بالطلب، كان إذ ذاك داعياً بلسان الاضطرار وكان مجاب الدعوة لصدق الوعد بإجابة دعوة المضطر والله لا يخلف الميعاد، وأنشدوا:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ ما أَرْجُوهُ مِنْ طَلَبِ ... مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا أَلْهَمْتَنِي الطَّلَبَا

وفي الحديث عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أُذِنَ لَهُ في الدُّعاءِ مِنْكُمْ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوابُ الرَّحْمَةِ وَمَا يُسْأَلُ اللّهُ شَيْئاً قَطُّ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ العَفْوَ والعَافِيَةَ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ» وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أُعْطِيَ الدُّعاء لَمْ يُحْرَم الإِجَابَةَ».

قال الشيخ أبو بكر الخفاف رضي الله تعالى عنه: وكيفَ لا يجيبه وهو يحب صوته ولولا ذلك ما فتح له باب الدعاء؟ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إِذَا أَحَبَّ اللّهُ عَبْداً صَبَّ عَلَيْهِ البَلاءَ صَبّاً وَسَحَّهُ عليه سحّاً فإذا دَعَا قَالَتِ المَلائِكَةُ: صَوْتٌ مَعْرُوفٌ» وقال جبريل: يا رب عبدك فلان اقضِ حاجتك فيقول الله: دعوا عبدي فإني أحب أن أسمع صوته، فإذا قال: يا رب قال الله تعالى لبيك عبدي وسعديك لا تدعوني بشيء إلا استجبت لك ولا تسألني شيئاً إلا أعطيتك أما أن أعجل لك ما سألت وإما أن أدخر لك عندي أفضل منه وإما أن أدفع عنك به من البلاء ما هو أعظم من ذلك **(العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره)** معرفة العارفين هي معرفتهم بأنفسهم وبما هي عليه من الفاقة والافتقار إلى العزيز الجبار وبقدر ما يتحققون بذلك من أنفسهم تكون معرفتهم بالله عزّ وجلّ كما جاء في الخبر: مَنْ عرف نفسه عرف ربه فلذلك كان العارف لا يفارقه الاضطرار.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] الولي لا يزال مضطراً. قال الأستاذ تاج الدين بن عطاء الله قدس الله سره: معنى كلام الشيخ هذا، أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب فإذا زالت، زال اضطرارهم وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم فلو شهدوا قبضة الله تعالى الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائمٌ وإنما لم يكن له مع غير الله قرار لوجود وحشته من الأشياء ونفوره بقلبه عنها كما تقدم وكأنه رحمه الله قصد بهذا أن يعلمك أن ما تقدم له من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب من الحق نعتان من نعوت العارفين **(أنار الظواهر بأنوار آثاره وأنار السرائر بأنوار أوصافه**

له: أنت عبد الله حقاً **(متى أطلق لسانك بالطلب)** أي بأن حل عنه عقدة الصمت التي أوجبها الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الافتقار، فإذا حل عنه العقدة بأن أشهدك فقرك وفاقتك حتى دعوته كنت إذ ذاك داعياً بلسان الاضطرار **(فاعلم أنه يريد أن يعطيك)** أي يحصل لك مطلوبك لصدق الوعد بإجابة الدعاء من المضطر، والله لا يخلف الميعاد لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة» أي إما بعين المطلوب أو بغيره عاجلاً أو آجلاً قال بعضهم: هذا إذا كان الدعاء صادراً عن اختيار وقصد، أما إذا جرى على اللسان من غير قصد، فإن الإجابة بعين المطلوب لا تكاد تتخلف.

(العارف لا يزول اضطراره) أي احتياجه، بل هو دائم مستمر لشهوده قبضة الله الشاملة المحيطة ولمعرفته بنفسه، وبما عليه من الفاقة وتحققه بذلك في كل نفس بخلاف غيره، فإنه تارة يضطر فيدعو وتارة يدعو من غير اضطرار، وذلك أن اضطرار العامة بمثيرات الأسباب لغلبة دائرة الحس على مشهدهم، فإذا زالت زال اضطرارهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم **(ولا يكون مع غير الله قراره)** أي لا يركن ولا يستند بقلبه لغير الله تعالى لوجود وحشته من الأشياء ونفوره بقلبه عنها كما تقدم، فكأنه يقول إن ما تقدم من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب نعتان من نعوت العارفين ثم قال: **(أنار الظواهر)** أي المكونات من السموات والأرضين، أي جعلها منيرة **(بأنوار آثاره)** أي آثار أوصافه أي بأنوار الكواكب من شمس وقمر ونجوم التي هي آثار لأوصافه من قدرة وإرادة وغيرهما، فتلك الظواهر صارت مكشوفة لنا بأنوار الكواكب، وحينئذ نرى المكونات ونأخذ منها ما ينفع ونحترز عما يضر **(وأنار السرائر)** جمع سر وهو باطن القلب كما مر **(بأنوار أوصافه)** أي بالعلوم العرفانية الناشئة عن تجلي أوصافه على قلوب العارفين، فتلك

لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ولم تأفل أنوار القلب والسرائر ولذلك قيل:

إنَّ شَـمْـسَ الـنَّـهـارِ تَـغْـرُبُ بـالـلَّـيْلِ وَشَمْسُ القُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ)

أنوار الظواهر التي بها آثارها الحق تعالى هي الإدراكات والإحساسات والحركات التي اتصف بها ظاهر العبد وأنوار السرائر التي بها أنارها الحق تعالى هي المعارف والعلوم ولطائف الإدراكات والفهوم التي اشتمل عليها باطنه وسره فأنوار الظواهر متعلقة بأنوار الآثار الحادثات وأنوارها معانيها ولطائفها المستكنة فيها، وأنوار السرائر متعلقة بأنوار الصفات الأزلية ولأجل اختلاف التعلقين في الحدوث والقدم والغنى والفقر والفناء والبقاء، كان ما ذكره المؤلف رحمه الله من أفول أنوار ما تعلق بالحادث الفاني وعدم أفول أنوار ما تعلق بالقديم الباقي، ثم أنشد المؤلف البيت المذكور مستشهداً على ما ذكره ومعناه بين وقبله:

طَـلَـعَـتْ شَـمْـسُ مَـنْ أُحِبُّ بِـلَـيْـلٍ فَـاسْـتَـضَـاءَتْ فَـمـا لـهـا مِـنْ غُـرُوبِ

وفي هذا تنبيهٌ على أن الأمور الباقية هي التي ينبغي أن يُغتبط بها ويفرح بحصولها ويُعتنى بتربيتها ومراعاة حالها بخلاف الأمور الفانية إلا آفلة وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال: لا أحب الآفلين ويروى أن رجلاً سأل سهل بن عبد الله رضي الله عنه، عن القوت فقال: هو الحي الذي لا يموت. فقال: إنما سألتك عن القوّام، فقال: القوام هو العلم. فقال: إنما سألتك عن الغذاء. فقال: الغذاء هو الذكر. فقال: إنما سألتك عن طعم الجسد. فقال: ما لك وللجسد دَعْ من تولاه أ لا يتولاه آخراً إذا دخلت عليه علة فرده إلى صانعه أما رأيت الصنعة إذا عيبَتْ ردوها إلى صانعها حتى يصلحها؟ و معناه أنشدوا:

كَـمِّـلْ حَـقِـيـقَـتَـكَ الَّـتِـي لَـمْ تَـكْـمـلِ وِ لجِسْمُ دَعْهُ في الحَضِيضِ الأَسْفَلِ

أَتُـكَـمِّـلُ الـفَـانِـي وَتَـتْـرُكُ بـاقِـيـاً هـمـلاً وأَنْـتَ بِـأَمْـرِهِ لَـمْ تَـحْـفـلِ

فـالـجِـسْـمُ لِـلـنَّـفسِ الـنَّـفِـيـسَـةِ آلَـةٌ مَـا لـم تُـحَـصِّـنْـهُ بِـهـا لَـمْ تحـصـلِ

يَـفْـنَـى وَتَـبْـقَـى دَائِـمـاً فـي غِـبْـطَـةٍ أَوْ شِـقْـوَةٍ وَنَـدَامَـةٍ لا تَـنْـجَـلِـي

أَعْـطَـيْـتَ جِـسْـمَـكَ خـادمـاً فَـخَـدَمْـتَـهُ أَنْ يَـمْـلِـكَ الـمَـفْـضُـولُ رِقَّ الأَفْـضَـلِ

شِـرْكٌ كَـثـيـفٌ أَنْـتَ فـي أَحْـبـالِـهِ مَـا دَامَ يُـمْـكِـنُـكَ الـخَـلاصُ فَـعَـجِّـلِ

مَـنْ يَـسْـتَـطِـيـعُ بُـلـوغَ أَعْـلَـى مَـنْـزِلٍ مَـا بَـالَـهُ يَـرْضَـى بِـأَدْنَـى مَـنْـزِلِ

وقيل في هذا المعنى أيضاً:

يا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى لِخِدْمَتِهِ وَتَـطْـلُـبُ الرِّ حَ فـيـمـا فِـيـهِ خِـسْـرَانُ

السرائر أي سرائر العارفين صارت مكشوفة لهم بأنوار العلوم والمعارف الناشئة عن أوصافه سبحانه، أي تحليها على قلوبهم وحينئذ يشاهدون ما في سرائرهم من الأوصاف، فيحترزون عما يضرهم منها ويتصفون بما ينفعهم **(لأجل ذلك)** أي كون الظواهر نارت بأنوار آثاره، والسرائر نارت بأنوار أوصافه، فالأنوار الأولى ناشئة عن الحادث، والثانية عن القديم **(أفلت)** أي غابت وذهبت **(أنوار الظواهر)** أي الكواكب، فيذهب نور الشمس في الليل ونور القمر والنجوم في النهار، ونسبة ذلك النور إلى الظواهر باعتبار كونه منوراً لها، وإلا فهو قائم بالكواكب **(ولم تأفل)** بضم الفاء أي تغب وتذهب **(أنوار القلوب والسرائر)** أي الأنوار الناشئة عن مشاهدة الصفات القديمة التي لا تزول وما ينشأ عن القديم لا يزول، وإنما يطرأ عليه تغطيته بالأوصاف البشرية بالنسبة للعارفين ثم تزول، وذلك النور ثابت في قلوبهم **(ولذلك)** أي لأجل أفول أنوار الظواهر وعدم أفول أنوار السرائر **(قيل)** أي قال الشاعر:

إنَّ شَـمْـسَ الـنَّـهَـارِ تَـغْـرُبُ بِـالـلَّـيْـلِ

أي وإذا غربت ذهب ضوءها **(وَشَمْسُ القُلُوبِ لَيسَتْ تَغِيبُ)** وهو بيت مدور نصفه الياء وقبله:

طَـلَـعَـتْ شَـمْـسُ مَـنْ أُحِـبُّ بِـلَـيْـلٍ

فَاسْتَضَاءَتْ فَمَا لَهَا مِنْ غُرُوبِ، وفي هذا تنبيه على أن الأمور الباقية هي التي ينبغي أن يغتبط بها ويفرح بحصولها، ويعتني بتربيتها ومراعاة حالها بخلاف الأمور الفانية الآفلة، وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال: لا أحب الآفلين.

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ فاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَها فَأَنْتَ بالنَّفْسِ لاَ بالجِسْمِ إنسَانُ

(ليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار) إذا علم العبد أن الله تعالى رحيمٌ به ومستعطف عليه وناظرٌ إليه، فكل ما يورده عليه من أنوار البلايا والرزايا ينبغي له أن لا يكترث بذلك ولا يباليه فإنه لم يتعود منه إلا خيراً له فليحسن به ظنه وليعتقد أن ذلك اختيار له وأن في ذلك مصالح خفية لا يعلمها إلا هو كما قال الله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال أبو طالب المكي في هذه الآية: فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضر وهو خير له في الآخرة، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شرٌ له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة. وفي معنى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قيل: ظاهرة العوافي وباطنة البلايا لأنها نعمة في الآخرة فإذاً كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة كائناً ما كان فله الحمد على نعمه. قال في **(التنوير)** إنما يقويهم على حمل أقداره شهودُ حُسْنِ اختياره، وأنشد فيه لنفسه بقوله:

وَخَفَّفَ عَنِي مَا أُلاقي مِنَ العَنَا بِأَنَّكَ أَنْتَ المُبْتَلِي وَالمُقَدِّرُ

وَمَا لامْرِىءٍ عَمَّا قَضَى للّهِ مَعْدِلُ وَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ الّذي يَتَخَيَّرُ

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه، يقول: جربت مرة وكنت في صورة وحشة من ذلك فدخلت الحمام ففتح على قلبي بشيء من الرّضا فكنت ألثمُ كل واحدة من تلك القروح فخرجت ولم يبقَ منها أثر **(وقال)** الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في آخر عمره، وقد اشتدت به العلة: من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم. ثم قال كالمفسر لقوله مشيراً إلى ما كان فيه من حاله هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن خامد وقال الجنيد رضي الله عنه: كنت نائماً عند سري السقطي رضي الله عنه فنبهني وقال لي: يا جنيد رأيت كأني قد وقفت بين يديه فقال لي: يا سريّ خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر وخلقت الجنة، فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر وخلقت النار فهرب منه تسعة أعشار عشر العشر فسلطت عليهم ذرّةً من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر عشر العشر فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم ولا من البلاء فررتم فماذا تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد فقلت لهم: إني أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم به الجبال الرواسي أتصبرون؟ قالوا: إذا كنت أنت المبلي فافعل ما شئت فهؤلاء عبادي حقاً **(مَنْ ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره)** قصور النظر في عدم رؤية اللطف في القدر إنما هومن ضعف اليقين

(ليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك) أي استحضارك أنه سبحانه هو المبلي دون غيره، وأنه أعلم بمصالحك من نفسك فإن ذلك سبب في تسليك وتسليمك ووجود صبرك **(فالذي)** أي لأن الذي **(واجهتك منه الأقدار)** أي الأمور المقدرة عليك من المرض وذهاب المال والولد ونحوهما **(هو الذي عودك حسن الاختيار)** أي اختيار الأمر الحسن الذي يلائمك فإن من كانت له عليك نعمة من المخلوقين، وجرت عادته أنه يحب الخير لك على تقدير أنه أساء إليك في بعض الأحيان تتحمله، لأنه ربما كانت إساءته إحساناً في الباطن وكذلك العبد إذا علم أنه سبحانه وتعالى رحيم به ويتعطف عليه وناظر له، فكل ما يورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له أن لا يبالي به، فإنه لم يتعود منه إلا خيراً، فيحسن ظنه به ويعتقد أن ذلك اختيار له، وأن له في ذلك مصالح خفية لا يعلمها إلا هو. كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] قال أبو طالب المكي في هذه الآية: فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضر، وهو خير له في الآخرة، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة، وهو شر له عند الله وأسوأ عاقبة اهـ.

(من ظن انفكاك لطفه عن قدره) أي عما قدره الله عليه من البلايا والمحن **(فذلك لقصور نظره)** إذ لو كمل نظره لوجد نفسه قد حصل له في تلك البلايا ألطاف كثيرة منها إقباله على المولى بتلك البلية، فإن البلايا التي يبتلي الله بها عباده مناقضة لإرادتهم، ومنغصة لشهواتهم، وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أن يرد العبد إلى الله ويلزمه بابه فيلتجئ إليه، وهذا أعظم فوائد البلايا، ويجد ذلك في نفسه كل من نزلت به بلية أو أصابته رزية، ومنها أن في البلاء ضعف النفس وذهاب قوتها، وبطلان صفاتها التي توقع العبد في الذنوب والمعاصي، وتقوي رغبته في الدنيا، ومنها أن العبد

وقلة حسن الظن بالمقدر الحكيم ولو كمل نظر العبد وقوي بصره لرأى في ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يحصى وما غاب عنه أكثر ولكان، كما روي عن بعض الصالحين والعارفين، أنه قال: لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول وكان عمران بن الحصين رضي الله عنه، قد استسقى ببطنه فلبث ملقى على ظهره سطيحاً ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له على سرير من جريد وكان تحته نقب لغائطه وبوله فدخل عليه مطرف أو أخوه العلاء بن الشخير فجعل يبكي لما رأى من حاله فقال له: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال: لا تبكِ فإني أحب ما أحبه الله تعالى إليَّ ثم قال: أحدثك بشيء لعل الله تعالى ينفعك به واكتم علي حتى أموت: إن الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم عليَّ فأسمع تسليمها.

وقال بعضهم: دخلنا على سويد بن شعبة نعوده فرأينا ثوباً ملقى فما ظننا أن تحته شيئاً حتى كشف فقالت له امرأته: أهلي فداؤك ما نطعمك وما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضواً ما أطعم طعاماً ولا أسيغ شراباً منذ كذا فذكر أياماً ثم قال: ما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر فهؤلاء شاهدوا في بلاياه عطاياه وفي محنه مننه وفي عنفه لطفه فأوجب لهم ذلك من الرضا بما هم فيه والتنعم به والتلذذ ما حملهم على أن لا يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه.

ووجوه الألطاف والمنن في البلايا لا تحصى ولكنا نذكر منها هاهنا ما يزداد المريد به قوة وحسن ظن بربه عزّ وجلّ ويحمله ذلك على القيام بواجبها فنقول البلايا التي يبتلي الله بها عبادَهُ مناقضة لإرادتهم ومنغّصة لشهواتهم وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أن ذلك رادّ له إلى الله تعالى وملازمة بابه بصدق اللجأ والافتقار وهذا هو أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية أو أصابته رزية وفيها أيضاً ضعف النفس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها، إذ بوجود ذلك يقع العبد في الذنوب والمعاصي وتتأكد منه الرغبة في الدنيا والحرص على اتباع الهوى، وقد قيل: لا يخلو المؤمن من علة أوعيلة أو ذلة أو فاقة أو قلة. وفي الخبر عن الله تعالى: الفقر سجني، والمرض قيدي، أحبس بذلك من أحببت من عبادي. وفيها أيضاً تحصل له طاعات القلوب وأعمالها وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح وذلك مثل الصبر والرضا والزهد والتوكل وحب لقاء الله تعالى. قيل لعبد الواحد بن زيد رضي الله عنه هاهنا: رجل قد تعبَّدَ خمسين سنة فقصده. فقال: حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا قال: فهل أنست به؟ قال: لا قال: فهل رضيت عنه؟ــ قال: لا. قال: فإنما مزيدك منه الصلاة والصيام؟ قال: نعم. قال: لولا أني استحي منك لأخبرتك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة.

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: أراد بذلك أنه لم يرفعك بأعمالك إلى مقامات المقربين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك منه أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب لأن القناعة به حال الموقن والإنس به مقام المحب والرضا وصف المتوكل أي إنما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح. وهذه إشارةٌ إلى ما قلناه من أفضلية أعمال القلوب على أعمال الجوارح، فمن وفقه الله تعالى إلى منازلة هذه المقامات وتوفية حقوقها في البلايا النازلة به، فقد حصل على كنوز البر وذكر أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبي القرطبي المالكي رحمه الله، في كتاب **(النصائح)** له أن عروة بن الزبير رضي الله عنه امتُحن بقرحة في ساقه بلغت به إلى نشر عظم ساقه في الموضع الصحيح منها، فقال له الأطباء ألا نسقيك مرقداً فلا تحس بما نصنع بك؟ فقال: لا ولكن شأنكم بها فنشرت الساق ثم حسموها بالنار فما حرك عضواً ولا أنكروا منه حتى مسته النار فما زاد على أن قال: حسبي وأصيب حينئذ ابنه محمد، وكان من أحب ولده إليه، فلما رأى القدم بيد بعضهم قال أما إن الله تعالى يعلم أني لم أمش بها إلى معصية قط. ثم قال: يا غلام اغسلها وكفنها وادفنها في مقبرة المسلمين ثم جعل يقول: لئن أخذت لقد أبقيت ولئن ابتليت لقد عافيت ولئن أخذت لقد طالما أعطيت.

وذكر ابن قتيبة في **(عيون الأخبار)** له عن المدائني قال: قدم رجل من عبس ضرير محطوم الوجه على الوليد فسأله عن سبب ضرره فقال: بتُّ ليلةً في بطن وادٍ ولا أعلم على وجه الأرض عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرقنا

يحصل له عندها غالباً طاعة القلوب، كالصبر والرضا والتوكل والزهد، وحب لقاء الله تعالى وذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، ومنها أنه يحصل بها كفارة الذنوب والخطايا إلى غير ذلك من الألطاف الإلٰهية.

سيل أذهب ما كان لي من مال وأهل وولد إلا صبياً ضيعاً وبعيراً صعباً فند البعير والصبي معي فوضعته واتبعت البعير لأحبسه فما جاوزت إلا ورأس الولد في بطن الذئب قد أكله فتركته واتبعت البعير فاستدار فرمحني رمحة حطم بها وجهي وأذهب عيني فأصبحت لا ذا مال ولا ذا أهل ولا ذا ولد ولا ذا بدن فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هم أعظم بلاء منه.

وروي عن عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه أنه خرج مع بعض إخوانه إلى ناحية من نواحي البصرة فآواهم السير إلى كهف جبل فإذا فيه عبد مقطع بالجذام يسيل جسده قيحاً وصديداً فقالوا له: يا هذا لو دخلت البصرة فتعالجت من هذا الذي بك فرفع طرفه إلى السماء. وقال: يا سيدي بأي ذنب سلطت هؤلاء عليَّ ليسخطوني عليك ويكرهونك إليَّ؟ سيدي لك العتبى من ذلك الذنب وأستغفرك منه ولا أعود فيه أبداً. قال: ثم أعرض عنا بوجهه فانصرفنا وتركناه.

وروي عن بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه، أنه قال: رأيت بعبادان رجلاً قطعه البلاء وقد سالت حدقتاه على خديه وهو مع ذلك، كثير الذكر، عظيم الشكر لله تعالى قال: وإذا هو صرع من جنة به قال فوضعت رأسه في حجري وجعلت أسأل الله تعالى أن يكشف ما به وأدعو فأفاق فسمع دعائي فقال: مَنْ هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي ويعترض عليه في نعمته عليَّ؟ ونحى رأسه من حجري قال بشر: فعاقدت الله تعالى أن لا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

وقد روي، في بعض الأخبار، أن يونس وجبريل عليهما الصلاة والسلام التقيا فقال يونس لجبريل: دلني على أَعْبَدِ أهل الأرض فأتى به على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه قال: وإذ هو يقول: متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. فقال يونس: يا جبريل إنما سألتك أن تريني صواماً قواماً. قال: إن هذا كان قبل البلاء هكذا وقد أمرت أن أسلبه بصره فأشار إلى عينيه فسالتا فقال: متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. فقال جبريل: هلمَّ تدعو وندعو معك أن يرد الله عليك يديك ورجليك وبصرك فتعود إلى العبادة التي كنت فيها فقال: ما أحب ذلك. قال: ولِمَ؟ قال: إذا كانت محبته في هذا فمحبته أحب إليّ من ذلك. قال يونس: يا جبريل والله ما رأيت أحداً أعبد من هذا. قال جبريل: يا يونس إن هذا طريق ليس يوصل إلى رضاه بشيء أفضل منه.

وفي الخبر: إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه. وفيها أيضاً: يحصل له كفارة الذنوب والخطايا ويستوجب من الله جزيل الهبات والعطايا ولا سبيل له إلى ذلك إلا بما يرد عليه من أنواع البلايا لأن العبد قد يعجز عن القيام بوظائف الطاعات ويتكاسل عن المواظبة على نوافل الخيرات فيكون حينئذ محروماً من ثوابها غير حاصل له تكفير سيئاته بها وإن قدر عليها ولم يتكاسل عنها لم يأمن تخليصها من الشوائب وتسليمها من الآفات والمعايب وحينئذ يبطل عمله ويخيب من انتفاعه به أمله فليحسن العبد ظنَّهُ بمولاه وليعلم أن ما اختاره له خير له مما يختاره لنفسه بشهواته وهواه فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال للرجل الذي قال له أوصني قال: «لاَ تَتَّهِم اللَّهِ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ» وذكر مسلم رحمه الله، من حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَباً لأَمْرِ المُؤمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاّ للمؤمِنِ إنْ أَصَابَهُ شَرٌّ فَشَكَرَ كان خَيْراً لَهُ وَإنْ أَصَابَهُ ضَرٌّ فَصَبَر كَانَ خَيراً لَهُ» وذكر البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلاَ نَصَبٍ وَلاَ سَقَمٍ وَلاَ حزْنٍ حَتّى الهَمَّ يهمُّهُ إلاّ كَفَّر اللّهُ بِهِ مِنْ سَيئاتِهِ» وذكر أيضاً من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنهما قالَ: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِم يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إلاّ حَطَّ اللّهُ تَعَالَى عنه بِهِ سَيِّئاتِهِ كَمَا تَحطُّ الشَّجَرَةُ أَورَاقَها» وذكر البخاري ومسلم أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ بِشَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَها إلاّ كُتِبَتْ لَهُ دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِها خَطِيئَةٌ» وذكر البخاري أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ» وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المَرِيضِ إذا برِىءَ وَصَحَّ مِنْ مَرَضِهِ كَمَثَلِ البُرْدَةِ تَقَعُ مِنَ السَّماءِ فِي صِفَائِها وَلَوْنِها» وروى البزار عن عيسى عليه السلام أنه قال: لا يكون

عالماً مَنْ لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه.

وروي عن نبينا ﷺ أخبار كثيرة في الحمى والعمى وغير ذلك. وروى البزار من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه دخل على رسول الله ﷺ فوضع يده عليه وعليه حمى فوجد حرَّها من فوق اللحاف فقال: ما أشدها عليك يا رسول الله قال: «إنّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنَا البَلاَءُ لِيُضَاعَفَ لَنَا الأَجْرُ» قال: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحونَ لِئَنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بالفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إلاّ عَبَاءَةً يَحْوِيها وإن كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلِي بِالقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ وإن كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالبَلاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بالرَّخَاءِ» وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] أي من الآثام والذنوب بالحمى والأمراض كما قال رسول الله ﷺ فيما يروى عنه للحمى: «اذْهبي إلى أَهْلِ قباء» وقد روي في بعض الأخبار بدلاً من أهل قباء: الأنصارَ ففيه أن النبي ﷺ رأى يوماً شخصاً أسود فقال: من أنتِ؟ فقالت: أم ملدم آكل اللحم وأشرب الدم وجرى من فيح جهنم صورة الحمى فقال عليه السلام: «اذْهَبِي إلى الأَنْصَارِ فَإنَّ لهم عَلَيْنَا حُقُوقاً» فأصبح النبي ﷺ فلم ير أحداً من الأنصار حضر الصلاة فطلبهم فقيل: أخذتهم الحمى. فقال: «قُومُوا بِنَا نَعُودُهُمْ» وقال لهم: «الحُمَّى طَهَارَةٌ وَكَفَّارَةٌ» فقالوا: يا رسول الله ادعُ الله لنا حتى يزيدنا منها.

وذكر مسلم رحمه الله من حديث جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال مالك: يا أم السائب أو يا أم المسيب ترفرفين قالت: الحمى لا بارك الله فيها فقال: لا تسبي الحمى. فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد. وذكر البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عزّ وجلّ قال: إذا ابتليت عبدي المؤمن بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه كذا قال في آخر الحديث من قول أحد الرواة والحبيبتان هما العينان وهما الكريمتان أيضاً.

وروي أن أنس بن مالك وأبا ظلال رضي الله عنهما، كانا في بيت ثابت البناني فقال أنس: يا أبا ظلال متى فقدت بصرك؟ قال: وأنا صبيٌّ لا أعقل فقال: ألا أحدثك حديثاً حدثنيه حبيبي رسول الله ﷺ يرويه عن جبريل ويرويه جبريل عن ربه عزّ وجلّ؟ قال: يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه قال: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا قال جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي.

ومن طريق هلال بن سويد وهو أبو ظلال المذكور أنه سمع أنساً رضي الله عنه يقول: مر بنا ابن أم مكتوم فسلم فقال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ بِمَا حَدَّثَنِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَنْ هذا وَأَضْرَابِهِ الذينَ ذَهَبَتْ أَبْصَارُهُمْ؟ قال رسول الله ﷺ: «حَدَّثَنِي جِبْرِيلُ أَنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: حَقٌّ عَلَيَّ مَنْ أَخَذْتُ كَرِيمَتَيْهِ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إلاّ الجَنَّةُ» وفي حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: «ما أُصِيبَ عَبْدٌ بَعْدَ ذَهَابِ دِينِهِ بِأَشَدَّ مِنْ ذَهَابِ بَصَرِهِ وَمَا ذَهَبَ بَصَرُ عَبْدٍ فَصَبَرَ إلاّ لَقِي اللّهَ وَلاَ حِسَابَ عَلَيْه». وذكر البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن امرأة سوداء أتت النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أصرع وإني أنكشف فادعُ الله لي قال: «إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللّه أَنْ يُعَافِيَكِ» قالت: أصبر. قالت: فإني أنكشفُ فادعُ الله أن لا أنكشف فدعا لها إلى غير ذلك مما روي عن النبي ﷺ في هذا الباب مما لا يحصى كثرة.

وفيها أيضاً، يحصل له تجديد التوبة وأداء الحقوق والتبعات والظلامات وكثرة الاستغفار وحسن التذكار وكثرة ذكر الموت إذ ذاك أبلغ ما يذكر به فقد قيل: الحمى بريد الموت. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] أي يختبرون بها وفي حديث عائشة وأنس رضي الله عنهما قيل: يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ قال: «نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ المَوْتَ كُلَّ يَوْم عشرينَ مَرَّةً» وفي لفظ الحديث الآخر من يذكر ذنوبه فتحزنه. وقد كان السلف رضي الله عنهم، يستوحشون إذا خرج عنهم عامٌ لم يُصَابوا فيه بنقصٍ مِنْ نَفْسٍ أو مالٍ. ويقال: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يراعَ بروعةٍ أو يصاب بنكبة وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشيء. وفيها أيضاً يقع له خلف ما يفوته من الطاعات ونوال العبادات فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته وذلك أبلغ له في

الوصول إلى غرضه لأنه من اختيار الله تعالى له وهو خيرٌ مما اختاره لنفسه.

وفي الخبر يقول الله تعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله في صحته فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتي. وفي الحديث الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً» إلى غير ذلك من الألطاف التي لا نعلمها وإنما ذكرنا هذه المعاني هاهنا لأنها لائقة بكلام المؤلف رحمه الله، وكأنها مفسرة له، وأيضاً فإن العبد محتاجٌ إليها غاية الاحتياج، لأنه في حال نزول البلايا، يتسخط ويجزع ويضطرب إيمانه ويتزلزل إيقانه فيحتاج إلى مذكر يذكره بأمثال هذه المعاني ليحصل له بذلك من الرِّضا وحسن الظن بالله تعالى والمحبة ما يرجى له بذلك إن مات من فوره حسن الخاتمة وجب لقاء الله تعالى والأعمال بخواتيمها وهذا الغرض هو الذي أوجب لنا هذا الفصل، الإكثار من الحكايات وإظهار نسبة أكثر الأحاديث فيه إلى رواتها الثقات لتطمئن قلوب أهل البلاء بذلك وتسلك إلى الله واضحات تلك المسالك والله ولي التوفيق **(لا يخاف عليك أن تَلْتَبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبه الهوى عليك)** الطريق إلى الله تعالى واضحة لائحة، لأن الحق تعالى، هو الذي تولى ذلك وبه أنزل الكتب وأرسل الرسل ونصب عليه الأدلة والبراهين فلا يخاف على العبد من التباسها عليه وإنما يخاف من غلبةِ الهوى عليه حتى يعميه ذلك عن ربه.

قال أحمد بن خضرويه البلخي، رضي الله عنه: الطريق واضح والحق لائح والداعي قد أسمع فما التحير بعد هذا الأمن العمى؟ **(سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية)** سر الخصوصية هو حقيقة المعرفة التي اختص بها أهل ولاية الله تعالى بحيث لا يبقى معها وجود لغير ولا كون وذلك لما جعله فيهم من التهيؤ والقابلية، فمن لطيف حكمة الله تعالى أن ستر ذلك بما أظهره من البشرية التي من لوازمها وجود الغير والكون ولولا هذا الستر لكان سر الله مبتذلاً غير مصونٍ كما قال في **(لطائف المنن)**: ولا بد للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب ثم إن من حقيقة ظهور البشرية الاتصاف بصفة الافتقار والاحتياج وغير ذلك من أوصاف الحدوث وذلك هو حقيقة التعبد والتأله فظهر لنا من ذلك لزوم وجود إله معبود وهذه هي عظمة الربوبية التي ظهرت لنا من وراء حجاب العبودية ولولا ذلك لكان باطناً لا يظهر كما قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: العبودية جوهرة

(لا يخاف عليك) إذا كنت متلبساً بحال من الأحوال كطاعة أو معصية أو نعمة أو بلية **(أن تلتبس الطرق عليك)** أي طرق العبودية التي توصلك إلى ربك عند تلبسك بحال من الأحوال، لأن الشريعة مبينة لذلك، فإن من نظر في الكتاب والسنة وجد ما يرشده، فعبوديتك في الطاعة أن تشهد منته بها عليك، وفي المعصية الاستغفار والتوبة منها، وفي النعمة الشكر عليها، وفي البلية الصبر عليها **(وإنما يخاف عليك)** في هذه الأحوال **(من غلبة الهوى عليك)** حتى يعميك عن رؤية طريق قصدك عما ذكر بأن تعجب بالطاعة، وتصر في المعصية، وتستقل النعمة فلا تشكرها، وتجزع في البلية، ويحتمل أن المعنى لا يخاف عليك أيها المريد الصادق أن تلتبس عليك الطرق، أي الأعمال الموصلة إلى الله من صلاة وصيام وذكر، أي يلتبس عليك الأولى منها، فتصير تعمل هذا تارة وهذا أخرى، وتنتقل في أنواع العبادات، لكونك لا تعرف الأولى منها من غيره إذا لم تكن تحت تربية شيخ، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك، فيصدك عن سلوك أي طريق من تلك الطرق، فترجع عن التوجه إلى مولاك بل الذي يلزمك أن تستعمل طرق القربات، وإن لم تعرف الأولى منها حتى يجمعك الله على شيخ ناصح يريك ذلك، وتكون تحت تربيته **(سبحان من ستر سر الخصوصية)** أي سراً هو الخصوصية، وهي العلوم والمعارف والأسرار الإلهية التي يعطيها الله لأوليائه ويفيضها على قلوبهم **(بظهور البشرية)** أي الأحوال التي تعرض للبشر، والأمور الدنيوية التي يتعاطاها الناس، فإن بعض الأولياء قد يكون حماراً أو خواصاً أو حياكاً، فلا يعرفه غالب الناس لستر خصوصيته بهذه الصنعة التي يتعاطاها ومخاصمته للناس في حال معاملته معهم، وقد يظهر الله آثار الخصوصيات على بعض الناس، وهم الدعاة إلى الله تعالى ليتكمل بهم غيرهم **(وظهر)** للعباد **(بعظمة الربوبية)** أي بربوبيته العظيمة **(في إظهار)** آثار **(العبودية)** عليهم، وهي الأحوال التي تطرأ على العبد، فتقتضي افتقاره للرب كالمرض والفقر، فإن العبد إذا قام به حال من تلك الأحوال، التجأ إلى الرب في إزالته، وظهر له عظمة ربوبيته، أي ربوبيته العظيمة، أي أن له رباً مالكاً له يزيل عنه ما قام به، ولولا ذلك لم يعرفه، فعظمة الربوبية إنما ظهرت للعباد من وراء حجاب العبودية،

أظهرتها الربوبية فسبحان اللطيف الخبير ومَنْ هو على كل شيء قدير. والتسبيح الذي ذكره المؤلف رحمه الله هاهنا في غاية المناسبة لما ذكره من المعنى **(لا تطالب ربك بتأخر مطلبك ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك)** إذا دعوت ربك وسألت منه مطلباً من المطالب ولم تظهر لك الإجابة، فحسِّن به ظنك ولا تطالبه بالوفاء بذلك فإنه يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك فإنها أَهلٌ للمطالبة وسوء أدبها من وجوه أحدها أنك دعوت لتجاب في دعائك فيحصل لك بذلك غرض وهذا مما يقدح في كمال عبوديتك وسيأتي هذا المعنى عند قوله: لا يكن طلبك سبباً إلى العطاء منه فيقلُّ فهمك عنه وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بأحكام الربوبية والثاني اعتقادك أنه لم يستجب لك إذ ظهر لك عدم الإجابة منه وليس من شرط الإجابة أن تظهر لك، بل له أن يخفيها عنك لما في ذلك من المصالح والإجابة إليه أمرها يجعلها ما شاء مما تعلمه أو تجهله وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: لا يكن تأخير أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك إلى آخره والثالث: وهو أشد اعتراضك على ربك في حكمه ومطالبتك له إذا تأخرت إجابته عليك ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى، الحالة التي يكون عليها العبد قائماً بحق الأدب وواصلاً إلى غاية الإرب فقال **(متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره فقد أعظم المنة عليك)** هذان الأمران هما اللذان يلزمانك في إقامة العبودية لربك لا غير فمتى يسرهما الله تعالى لك وأقامك في مراعاة أحكامهما ووفقك لذلك فقد أعظم المنة عليك فلماذا تتشوف، وما الذي تلتمس بعدهما إن كنت عبداً حقيقياً؟.

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: صحبت أخاً في الله تعالى في البادية واعتزلنا في مغارة عسى أن نكون من أولياء الله تعالى وأن يفتح الله علينا بما فتح الله عليهم، فأقمنا زماناً نقول لعل في هذه الجمعة، لعل في هذا الشهر، فلم يفتح الله علينا، فنحن كذلك وإذا بشيخ على باب المغارة يستأذن فأذنا له فدخل فسلم ووقف فقلنا له: مَنْ أنت؟ فقال عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حالك؟ يرددها كالمنكر علينا ثم قال: كيف حال مَنْ يقول لنفسه في هذه الجمعة أكون ولياً في هذا الشهر أكون ولياً فلا ولاية ولا فلاح ولا دنيا ولا آخرة. يا نفس ألا تعبدين الله تعالى كما أمرك مخلصة لوجهه كما أمرك؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ثم انصرف عنا فانتبهنا لغلطنا وتيقظنا من أين دخل علينا وعلمنا أن الله تعالى

بعث به فرجعت على نفسي باللوم والتوبيخ وقلت لها: يا نفس مَنْ أنت، وما عملك، وما خطرك أنت، لا شيء، وتبنا واستغفرنا الله تعالى قال: ففتح الله علينا بجوده وفضله **(ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه)**

ولولا ذلك لكان باطناً لا يظهر، ولذا قال الشاذلي قدّس سره: العبودية جوهرة أظهرتها الربوبية، فسبحان اللطيف الخبير. **(لا تطالب ربك)** أي تعترض عليه وتسيء الظن به بسبب **(تأخر مطلبك)** أي ما طلبته منه باطناً كان كالخصوصيات أو ظاهرياً **(كالأغراض)** الدنيوية فإذا طلبت منه شيئاً، ولم يسرع لك الإجابة فلا تسيء به ظنك، ولا تطالبه بالوفاء بذلك، فإنه يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل **(ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك)** أي عدم وجوده حيث طلبت منه إسراع إجابتك، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب، وأيضاً مطالبتك له بالإجابة دليل على أنك دعوت لتجاب في دعائك، فيكون دعاؤك لغرض، وهذا مما يقدح في كمال عبوديتك، وأيضاً اعتقادك أنه لم يستحب لك إساءة أدب إذ ليس من شرط الإجابة أن تظهر لك، بأن يجيبك بعين ما طلبت في الحال، بل له أن يخفيها عنك لما في ذلك من المصالح، فيجيبك بغير ما طلبت أو بعينه، لكن يؤخر ذلك لمصلحة يعلمها، ثم أشار إلى كمال الأدب الذي إذا قام به العبد حصل له غاية مقصوده، وهو المعبر عنه بالاستقامة وبالصراط المستقيم في قوله تعالى: ﴿اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فقال: **(متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره)** بأن وفقك للقيام بطاعته ويسرها لك **(ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره)** أي الرضا بما يجري عليك من مولاك **(فقد أعظم المنة عليك)** حيث جمع لك بين عبودية الظاهر وعبودية الباطن، فهذان الأمران هما اللذان يلزمانك في إقامة العبودية لربك لا غير فلماذا تتشوف وما الذي تلتمس بعد حصولهما إن كنت عبداً حقيقياً، وهل درجات أهل الكمال إلا التقلب في عبودية الظاهر وعبودية الباطن **(ليس كل من ثبت تخصيصه)** بإظهار أمر خارق للعادة على يده كطي الأرض والطيران في الهواء والمشي على الماء **(كمل تخليصه)** من آفات النفوس وغوائلها وما تدعو إليه من الشهوات والمخالفات، فكأنه يقول ليس كل مخصص بالآيات والكرامات مخلصاً من الآفات، بل قد يكون بعض من خصص بالكرامة لم تثبت له الاستقامة، فالكرامة الحقيقية هي الاستقامة التي تضمنها ما تقدم بخلاف الكرامات التي هي خوارق

التخصيص هاهنا هو أن يظهر الحق تعالى على بعض أثرته وعنايته وتولية لطفه ورعايته فمنهم من يستمر له ذلك حتى يتحقق بالعرفان ويتخلص عن رؤية الأغيار والأكوان وهؤلاء هم خواص المقربين أهل العلم بالله والحب له ومنهم من يوقفه عن بلوغ ذروة الكمال ويربيه في حال بما يليق به من علوم وأعمال وهؤلاء عامة المقربين وخاصة أصحاب اليمين العباد الزهاد وأهل المجاهدة والأوراد وهؤلاء، وإن شاركوا الأولين فيما يتحفهم الحق تعالى من لطائف الكرامات وفيما يمنحهم إياه من القيام بوظائف الطاعات والعبادات، فلم يتخلصوا من رؤية نفوسهم، ولم ينكفوا عن مراعاة حظوظهم بل هم ساكنون إلى الأسباب، مرتبطون بوجود الحجاب وقد يختص الحق تعالى هؤلاء بإظهار الكرامات على أيديهم وبسببهم تسكيناً لنفوسهم وتثبيتاً لليقين في قلوبهم ويمنعها الأولين لأنهم لا يحتاجون إليها لِمَا هُمْ فيه من الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين كما قال صاحب كتاب **(عوارف المعارف)**: وقد يكون مَنْ لا يكاشف بشيء من معاني القدر أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة فالقدرة أثر القادر ومن أُهِّلَ لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئاً من القدرة، ويرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء عالم الحكمة وسئل الشبلي رضي الله عنه، وقيل له إن أبا تراب ذكر أنه جاع في البادية فرأى البادية كلها طعاماً. فقال: عبد رفق به ولو بلغ إلى محل التحقيق لكان كمن قال: أبيتُ عند ربي فيطعمني ويسقيني. قال في **(لطائف المنن)**: واعلم أن الكرامات تارةً تظهر للولي في نفسه وتارة تظهر منه لغيره فإن ظهرت للولي في نفسه، فالمراد تعريفه بقدرة الله تعالى وفرديته وأحديته وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هي حاكمة عليه وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته وسحب شمس أحديته فالواقف عندها محذول والنافذ منها إليه من هو بالعناية موصول قال. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية مجتمع لا يفترق وأمر لا ينفقد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد لا يستوي من تعرف الله إليه بنوره بمن تعرف الله بعقله ولأجل أنها تثبيت لمن ظهرت له ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم وفقدها أهل النهايات في نهاياتهم إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت، وهكذا كان السلف رضي الله عنهم، لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية. ولا يحتاج الجبل إلى مرساة، فالكرامة رافعة لزلزلة الشك في المنة ومعرفة تفضل الله تعالى فيمن أظهرت عليه وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى والناس في الكرامات على ثلاثة أقسام: قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من ظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه، وقسم قالوا وما هي الكرامات؟ إنما هي خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا بها على حدودهم حتى لا يلحقوا مقاماً ليس هو لهم حتى قال أبو تراب النخشبي لأبي العباس الرقي: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي تكرم الله بها على عباده؟ فقال: ما رأيت أحداً إلا وهو مؤمن بها فقال أبو تراب: مَنْ لم يؤمن بها فقد كفر إنما سألتك من طريق الأحوال. فقال: ما أعرف لهم قولاً فقال أبو تراب: بل قد زعم أصحابك أنها خِدَع من الحق وليس الأمر كذلك إنما الخدع في حال السكون إليها فأما مَنْ لم يفرح بها ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين وكان هذا من أبي تراب رضي الله عنه، بعد أن عطش القوم وهم أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء فقال إني أريد أن أشربه في قدح فضرب بيده الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض فشرب وسقانا أبو العباس الرقي وما زال القدح معنا إلى مكة.

قال الشيخ أبو الحسن: والقول الفصل في ذلك، أنه لا ينبغي أن تطلب أدباً مع الله تعالى ومَنْ ظهرت عليه عظم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله تعالى. قال: والقسم الثالث، وهو أن تظهر الكرامات في الولي لغيره والمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذي شهدها بصحة طريق هذا الولي الذي ظهرت عليه الكرامة إما أن يكون جاحداً فيرجع إلى الاعتراف، أو كافراً فيعود إلى الإيمان أو شاكاً في خصوصية هذا العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان انتهى كلامه. وقال أبو نصر السّراج: سألت أبا الحسن بن سالم فقلت له: ما معنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختياراً وكيف أكرموا بأن تجعل لهم الحجارة ذهباً فما وجد ذلك؟ فقال: لا يعطيهم

العادات، فإنها قد تحصل على يد من لم يكن مستقيماً استقامة تامة وكثيراً ما تظهر على أيدي المبتدئين، ولا تظهر على أهل التمكين، والكل من أهل الله تعالى، فينبغي احترامهم وتعظيمهم، لكن يعظم أهل الاستقامة أكثر من أهل الكرامة.

ذلك لقذرها ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا بذلك على نفوسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذي قسم الله لهم فيقولون: الذي يقدر على أن يصير لك الحجارة ذهباً كما هو ذا ينظر إليه قادرٌ على أن يسوق إليك رزقك من حيث لا تحتسبين فيحتجوا بذلك على تصحيح نفوسهم عند فوت الرزق ويقطعوا بذلك حجج نفوسهم فيكون ذلك سبباً لرياضة نفوسهم وتأديباً لها قال أبو نصر: وقد حكى لنا ابن سالم في معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه، أنه قال: كان رجل بالبصرة يقال له إسحاق بن أحمد وكان من أبناء الدنيا فخرج من الدنيا أعني من جميع ماله وتاب وصحب سهلاً فقال يوماً لسهل: يا أبا محمد إن نفسي هذه ليست تترك الصياح والصراخ من خوف فوت القوت والقوام، فقال له سهل: خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاماً تأكله فقال له: ومن إمامي في ذلك حتى أفعل؟ فقال: إمامك إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي المعنى في ذلك أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين لأن من جبلتها الشك فقال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦١] حتى تطمئن نفسي فإني مؤمن بذلك والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين قال: فكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديباً لنفوسهم وتهذيباً لها وزيادة لهم انتهى كلام أبي نصر.

وقال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات إلا على أيدي البله من الصادقين. وكان رجل يصحب سهل بن عبد اللّه رضي الله عنه، فقال له يوماً: ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدي قبضان ذهب وقبضان فضة فقال سهل: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة ليشتغلوا بها؟ وحكى جعفر الخالدي عن الجنيد رضي الله عنه قال: جاءني أبو حفص النيسابوري مرة ومعه عبد اللّه الرباطي وجماعة وكان فيهم رجل أصلع قليل الكلام فقال يوماً لأبي حفص قد كان فيمن مضى لهم الآيات الظاهرة، يعني بها الكرامات، وليس لك شيء من ذلك فقال له أبو حفص رضي الله عنه: تعال فجاء به إلى سوق الحدادين إلى كير عظيم فأحمي فيه حديدة عظيمة فأدخل يده في الكير فأخذ الحديدة المحماة فأخرجها فبردت في يده فقال له: يجزيك هذا فسأل بعضهم عن معنى إظهار ذلك من نفسه فقال: كان مشرفاً على حاله فخشي على حاله أن يتغير عليه إن لم يظهر له ذلك فخصّه بذلك شفقة عليه وصيانةً لحاله وزيادة لإيمانه بل ربما ينفر عنها العارفون ويخاف منها المحققون.

قال بعض السلف: ألطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات. وذكر عن أبي حفص أو غيره أنه كان جالساً وحوله أصحابه قال: فنزل ظبيٌ من الجبل فبرك عندهم قال: فبكى أبو حفص فسئل عن بكائه فقال: كنتم حولي فوقع في قلبي أن لو كان لي شاة لذبحت لكم فلما برك هذا الظبي عندنا شبهت نفسي بفرعون حين سأل الله تعالى أن يجري معه النيل فأجراه معه فبكيت وسألته الإقالة مما تمنيت وأطلقت الظبي.

ويحكى أن بعض الأبدال قال لتلميذ من تلامذة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه: ما بالنا لا يعتاص علينا شيء وهو يعتاص عليه أقل الأمور مع أنا نتمنى مقامه وهو لا يتمنى مقامنا؟ فبلغ ذلك الشيخ أبا مدين فقال: قل له تركنا مرادنا لمراده.

وعن بعضهم أنه كان يسير في البادية فانتهى إلى بئر فإذا الماء ارتفع إلى رأس البئر فقال: أنا أعلم أنك قادر على هذا ولكن لا أطيقه فلو قيضت لي بعض الأعراب ليصفعني صفعات ويسقيني شربة ماء كان أسلم لي ثم إني لا أعلم أن ذلك الرفق ليس من جهته قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال، وإذا رأيته يشير إلى الآلات والنغمات[١] فطريقه طريق المحبة وهو أعلى من الذي قبله، وإذا رأيته يشير إلى الذكر ويكون قلبه معلقاً بالذكر الذي ذكر فطريقه طريق العارفين وهو أعلى درجة من جميع الأحوال وقال أبو يزيد رضي الله عنه: كنت في بدايتي يريني الحق تعالى الآيات والكرامات فلم ألتفت إليها فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلاً **(لا يستحقر الورد إلا جهول الوارد يوجد في الدار الآخرة والورد ينطوي بانطواء هذه**

(لا يستحقر الورد) وهو الأعمال الصالحة التي تعمر بها الأوقات وتنكف بها الجوارح عن الوقوع في المكروهات،

---

(١) قوله الآلات والنغمات في نسخة الآلاء والنعماء.

الدار وأولى ما يعتني به ما لا يخلف وجوده الورد هو طالبه منك والوارد أنت تطلبه منه وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه) الورد عبارة عما يقع بكسب العبد من عبادة ظاهرة أو باطنة والوارد هو الذي يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار فينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه وسره فالورد ما من العبد للحق تعالى من معاملة وعبودية والوارد ما من الحق سبحانه للعبد من لطف وكرامة والورد أحق ما يعتني به العبد ويراعيه من الوارد لوجهين: أحدهما أن الورد مختص بهذه الدار لا يقع إلا فيها فهو منقطع بانقطاعها وفان بفنائها فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها إذ لا يمكنه خلف ما فات منها والثاني، أن الورد هو حق للحق منك والوارد هو حظك منه وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلب حظوظك ووقوفك معها فإذا ثبتت مزية الورد على الوارد باعتبار العبد كان استحقاره من نهاية الجهل وكان مستحقره جهولاً كما قال في لطائف المنن واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات فإنْ مَنْ فاته من الطاعات صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فَقَدَ من النور بمقدار ذلك فلا تهملوا شيئاً من الطاعات ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات ولا ترضوا لأنفسكم بما رضي به المدعون من جري الحقائق على ألسنتهم وفقد أنوارها من قلوبهم لأن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرعة لباب الغيب فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب والتطهر من العيب يفتح لك باب الغيب ولا تكن ممن يطلب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لله فذلك حال الجاهلين الذين لم يفهموا عن الله ولا واجههم المدد من الله والمؤمن ليس كذلك بل المؤمن مَنْ يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه فإن توقف عليه الوقت استبطأ أدبه ولا يستبطىء مطلبه ثم ذكر كلاماً كثيراً وفي كلامه رحمه الله تعالى، تنبيهٌ على تأكد أمر الأوراد وعظم موقعها من الدين وأن مراعاتها من أحسن سمات العارفين وقد رئي الجنيد رضي الله عنه، وفي يده سبحة فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً. وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته ورئي بعد وفاته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات وأبيدت تلك الرسوم وغابت تلك العلوم وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

وحكى أبو محمد الجريري رضي الله عنه، قال كنت عند الجنيد رضي الله عنه، في حال نزعه وكان يوم جمعة ويوم نيروز وهو يقرأ القرآن فختم فقلت: في هذه الحالة يا أبا القاسم فقال ومن أولى مني بذلك وحينئذ تطوى صحيفتي وقال أبو الحسن الدراج رضي الله عنه، ذكر عند الجنيد أهل المعرفة بالله تعالى وما يراعونه من الأوراد والعبادات بعد ما لاطفهم الله به من الكرامات فقال الجنيد رضي الله عنه: العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك.

وقال أبو بكر العطار: حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا فرأيناه قاعداً يصلي ويثني رجله إذا أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه فثقلت عليه حركتهما فمد رجليه فرآه بعض أصدقائه ممن حضر ذلك الوقت وكانت رجلاه قد تورمتا فقال: ما هذا يا أبا القاسم؟ فقال: هذه نعم الله الله أكبر فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريري رضي الله عنه: يا أبا القاسم لو اضطجعت فقال: يا أبا محمد هذا وقت وجود منة الله الله أكبر فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمة الله عليه ورضوانه. وقال الحصري رضي الله عنه: الناس يقولون

بأن لا يعتني به ولا يواظب عليه **(إلا جهول)** لما فيه من العبودية لله تعالى والحضور بين يديه والتنعم بذكره، ولأنه يورث تصفية الباطن، وجلب الأنوار، وهي الواردات فالتشوف لها مع عدم الاعتناء بما يجلبها من الجهل والحمق، ثم ذكر أن له مزية على الوارد من وجهين: أشار إلى الأول بقوله: **(الوارد)** وهو ما يرد على باطن العبد من المعارف الربانية واللطائف الروحانية، وهي الأنوار التي ينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه وسره **(يوجد في الدار الآخرة والورد ينطوي بانطواء هذه الدار)** أي يفنى بفنائها **(وأولى ما يعتني به ما لا يخلف وجوده)** أي فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها، إذ لم يمكنه خلف ما فات منها وإلى الثاني بقوله: **(الورد هو طالبه منك والوارد أنت تطلبه منه وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه)** يعني أن الورد هو حق الله منك، والوارد هو حقك منه، وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلبك حظوظك ووقوفك معها، وأتى المصنف بذلك إرشاداً للمريدين الذين يتشوفون إلى الواردات، ويتركون الأوراد ويستحقرونها، وذلك من الجهل بثمراتها، ولذا لم يترك العارفون أورادهم مع تمكنهم في أحوالهم أكثر من المريدين.

الحصري لا يقول بالنوافل وعلى أوراد من حال الشباب لو تركت منها ركعة لعوتبت وقال محمد بن ثابت البناني رضي الله عنهما: لما حضرت أبي الوفاة جعلت ألقنه الشهادة فقال لي: يا بني دعني فإني في وردي السابع.

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: ومداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين وطريق العابدين وهي مزيد الإيمان وعلامة الإيقان، وفي خبر أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن عمل رسول الله ﷺ فقالت: كان عمله ديمة. وفي لفظ آخر كان إذا عمل عملاً أتقنه وأثبته. وفي الخبر المشهور: أَحَبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلَّ وجدت في الأثر كلام تارة يروى عن الحسن بن علي وتارة يروى عن الحسن البصري ومرة عن عائشة رضي الله عنهم أجمعين وبعضهم يحكيه عن النبي ﷺ في المنام: «مَن اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ أَمْسِهِ فهو مَحْرُومٌ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَزِيدٍ فَهُوَ فِي نُقْصَانٍ وَمَنْ كَانَ فِي نُقْصَانٍ فَالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ» وقد يكون استحقار الورد من المكر والاستدراج للعبد ويكون مبدأ ذلك أن تلوح له خيالات وتظهر له صور كرامات توجب له استحسان حالته واختيار بطالته وفي ذلك رفض العبودية بالكلية وهو أمارة لوجود الطرد والبعد والعياذ بالله وصاحب هذا عظيم الجهالة شديد العماية والضلالة. وقد قال الجنيد رضي الله عنه، لرجل ذكر المعرفة فقال: الرجل أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله تعالى. فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهذه عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه راجعون فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ ذرة إلا أن يحال بي دونها وإنّه لأوكد لي في معرفتي وأقوى في حالي.

قال السهروردي رضي الله عنه، في كتاب **(عوارف المعارف)** فأما من تعوق بخيال أو قنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص فيدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور فيرفض العبادات ويستحقرها ويسلبه الله تعالى لذة المعاملة ويذهب عن قلبه هيبة الشريعة ويفتضح في الدنيا والآخرة فيعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات وكف الجوارح عن المكروهات فيصلح لقوم من أرباب الخلوة مداومة الأوراد وتوزيعها على الأوقات ويصلح لقوم دوام المراقبة ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر انتهى ما يتعلق بغرضنا من كلام السهروردي رضي الله عنه، وهو مناسب لما ذكره المؤلف رحمه الله، وليس من هذا المعنى ما روي عن أبي سليمان الداراني وأحمد بن عاصم الأنطاكي رضي الله عنهما أنهما قالا: إذا صارت العاملة إلى القلوب استراحت الجوارح، وإن كان ظاهره موهماً له فإن أبا نصر السراج رضي الله عنه، فسره بعد أن حكاه عن أبي سليمان الداراني فقال: وهذا الذي قاله أبو سليمان يحتمل معنيين أحدهما: أنه أراد بذلك استراحة الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر والعوائق المذمومة التي تشغل عن ذكر الله تعالى قلبه ويحتمل أيضاً أنه أراد بذلك أن يتمكن من المجاهدات والأعمال والعبادات وتصير وطنه ويستلذ بها بقلبه ويجد حلاوتها ويسقط عنه التعب ووجود الآلام التي كان يجدها قبل ذلك انتهى كلام أبي نصر ومعناه صحيح والله أعلم وبه التوفيق **(ورود الأمداد بحسب الاستعداد وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار)** ورود الموارد الإمدادية من الله تعالى على قلب عبده بحسب القوة الاستعدادية المجبولة فيه وشروق الأنوار اليقينية على حسب صفاء سره من كدر التعلق بالآثار والرّكون إلى الأغيار **(الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به)** أول خاطر يَرِدُ على العبد هو ميزان توحيده

(ورود الأمداد) من الله تعالى على عبده **(بحسب الاستعداد)** أي بحسب استعداد العبد بتطهير قلبه وملازمته لورده. ولذا قيل: طهر قلبك من الأغيار نملؤه بالمعارف والأسرار، فالوارد تابع للورد كيفاً وكماً ودواماً، فإن كان الورد كاملاً بأن برز من قلب صاف كان الوارد مثله، أو ناقصاً كان مثله، وإن كان كثيراً كان الوارد كثيراً، وإلا فبحسبه ويعتبر ذلك بمجموع العمر، ولذا كان أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل وإن كان دائماً كان الإمداد دائماً، فالمواظبة على الورد من أهم المهم، وهذا يصلح أن يكون وجهاً ثالثاً لمزية الورد على الوارد **(و)** قوله: **(شروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار)** تعليل لما قبله وإيضاح له أي شروق أنوار اليقين والعرفان، وهي الإمدادات المذكورة على حسب صفاء الأسرار من كدر التعلق بالآثار والركون إلى الأغيار، ولا يكون صفاؤها غالباً إلا بملازمة الأوراد.

(الغافل) عن التوحيد وأن كل شيء بقضاء الله وقدره **(إذا أصبح ينظر ماذا يفعل)** أي ينسب أفعاله إلى نفسه فيقول

فالغافل، إذا أصبح أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى نفسه فيقول: ماذا أفعل اليوم؟ فهو مشتغل بتدبير نفسه مصروفٌ عن النظر إلى مولاه وذلك لوجود غفلته عنه فهو حقيق بأن يكله الله تعالى إلى نفسه فيتشتت عليه عقله وينغص عليه مراده والعاقل أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى الله تعالى فيقول ماذا يفعل الله بي فهو ناظر إلى الله تعالى وإلى ما يرد عليه منه وذلك لوجود عقله ودوام يقظته فلا جرم أن يكفيه الله تعالى تعلقات الآمال ويفرغه من جميع الأشغال ويرضيه ويقرّ عينه بما يقيمه فيه من أعمال أو يورده عليه من أحوال وهذه سعادة عظيمة ومنة من الله تعالى لمن وليه من عباده جسيمة.

قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت ومالي سرورٌ إلا في مواقع القدر. وقال أبو عثمان رضي الله تعالى عنه: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ولا نقلني إلى غيره فسخطته.

ومن أملح ما رأيت في هذا المعنى الذي ذكره المؤلف رحمه الله، وما يجب أن يحذو على مثاله كل عالم متصوف ما ذكره الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلي رضي الله تعالى عنه في كتابه **(صفة الأولياء ومراتب أحوالٌ الأصفياء)** مسنده إلى أيوب بن بشر الطالقاني قال: حدثنا رجل من أصحابنا قال: رأيت رجلاً في مرج الديباج ليس معه شيء فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت: يرحمك الله أين تريد؟ قال: ما أدري. قلت: هل رأيت أحداً يريد مكاناً لا يدري أين يذهب؟ فقال: نعم أنا واحد. فقلت: فأين تنوي؟ قال: إلى مكة. قلت: تنوي مكة ولا تدري أين تذهب؟ قال: نعم وذلك أني كم مرة أردت أذهب إلى مكة فيردني إلى طرسوس وكم مرة أردت طرسوس فيردني إلى عبادان فنيتي إلى مكة ولا أدري. قلت: فمن أين المعاش؟ قال: لا أدري. قلت: أخبرني بأسباب ذلك. قال: من حيث يريد يجيعني مرة ويشبعني مرة ويكرمني مرة ويهينني مرة ومرة يقول لي: ما على وجه الأرض أزهد منك ومرة يقول: لي أنت لص، ومرة ينومني على الفراش ويطعمني الطيب ويدهن رأسي ويكحل عيني، ومرة يطردني الطرد العنيف ولا ينومني إلا عند النواويس. قلت: يرحمك الله مَنْ يفعل ذلك بك؟ قال: الله عزّ وجلّ. قال: فألقاني في بحر قلت: فسر لي، يرحمك الله، كيف هذا. قال: أنا رجل أسير نهاري فأينما جن بي الليل بت فربما يأويني الليل إلى قرية فإذا نظر إليَّ أهلها قال بعضهم لبعض هذا لص لا تدعون هذا يأوي الليلة في هذه القرية فإذا صليت العشاء الآخرة يدخل المسجد رجل فيقول يا نائم فأقول لبيك فيقول لي بالعنف: قم هاهنا ليس لك ههنا موضع فأقول له حباً وكرامة فأين أبيت الليلة فيقول خارج القرية عند النواويس فأقول نعم وكرامة لا يكون لي مأوى إلا عند النواويس تلك الليلة فإذا أصبحت سرت فيؤويني الليل إلى قرية فإذا رآني أهلها قال بعضهم لبعض قد ورد عليكم الليلة رجل زاهد خيّر فاضل فيقول هذا عندي يبيت ويقول هذا عندي يبيت فإذا صليت العشاء الأخيرة فيقول رجل منهم قم بنا إلى البيت فأقول نعم حباً وكرامة فأمضي معه إلى المنزل فيأتيني بالطعام الطيب ويدهن رأسي ويكحل عيني ويأتيني بالفراش اللين فينومني عليه ولا يدع شيئاً من البر إلا فعله بي حتى أصبح فهذا حالي مع سيدي. فقلت: رحمك الله متى قدر لك أن تدخل بغداد فإن منزلي في موضع كذا وكذا. قال: فأنا يوماً قاعد وإذا بإنسان يدق الباب فخرجت فإذا أنا بصاحبي فسلمت عليه وأدخلته البيت فقلت له: أي شيء صنع بك مولاك؟ قال آخر ما فعل بي ضربني ضرباً شديداً وقال لي: يا لص ثم أراني ظهره فإذا أثر الضرب عليه فقلت: إيش القصة قال: كان أجاعني جوعاً شديداً فلما بلغت الأبيار جئت إلى مقثأة قد نبذ منها المدود والمر فقعدت مقعداً آكل منه فنظرني صاحب المقثاة فأقبل إلي بعصا فجعل يضرب ظهري ويقول: يا لص ما أخرب مقثأتي غيرك مذ كم

ماذا أفعل في هذا اليوم مثلاً **(والعاقل)** أي المستيقظ الذي لا يغفل عن التوحيد، ولا يغيب عنه أن كل شيء بقضاء الله وقدره **(ينظر ماذا يفعل الله به)** أي ينسب أفعاله كلها إلى الله تعالى فيقول: إذا أصبح ماذا يفعل الله بي في هذا اليوم مثلاً، فنظر الغافل لنفسه، فربما وكله الله إليها فلا تنجح مطالبه، ونظر العاقل لربه فيكفيه ما أهمه وييسر له مطالبه، فهذا ميزان يعرف به المريد حال نفسه، فأول خاطر يرد عليه هو ميزان توحيده، فلينظر إذا استقبله شغل، فإن عاد قلبه في أول وهلة إلى حوله وقوته، فهو منقطع عن الله، وإن عاد إلى الله سبحانه فهو واصل إليه، ويصح أن يكون معنى نظره إلى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الإشارة من قبله تعالى، فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق، وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وهدف افتقاره.

أرصدك حتى وقعت عليك وإذ أنا بفارس قد أقبل مسرعاً إليه فضربه بالسوط في رأسه وقال: تعمد إلى رجل زاهد فتضربه ـ أو يُقال لمثل هذا يا لص قال: فما كان بأسرع من أن كنت عنده لصاً فصرت زاهداً كما حدثتك. قال: فأخذ بيدي صاحب المقثأة فذهب بي إلى منزله فما أبقى من الكرامة شيئاً واستحلني فخرجت من عنده وجئت إليك وقد يكون في معنى نظره إلى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الإشارات من قبله فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره.

قال سيدي أبو مدين رضي الله تعالى عنه: احرص من أن تصبح وتمسي إلا مفوضاً مستسلماً لعله أن ينظر إليك فيرحمك.

وقال بعضهم: من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه ومن اهتدى إلى نفسه لم يهتد إلى الله. فانظر إذا استقبلك شغل، فإن عاد قلبك في أول وهلة إلى حولك وقوتك فأنت المنقطع عنه، وإن عاد قلبك إلى الله فأنت الواصل إلى الله وكل العالم في قبضته وتخصيص أهل الوصلة بأنهم في كنف إيوائه ولا يكلهم إلى غيره واعتبر هذا المعنى بعمرة الحديبية وذلك أن النبي ﷺ لما صده المشركون فيها عن مكة ومنعوه من أن يتم بين أظهرهم نسكه رجع في الحال عن تلك العمرة ولم يتعرض لهم بما يحصل له به في الظاهر عزةً أو نصرة بعدما كان دعا إليه من بيعة الرضوان تحت الشجرة وما عزم عليه من مناجزة من حاده من الكفرة وعمل في ذلك على ما أظهره الله له من آياته العظام عند بروك ناقته لما أراد توجيهها إلى البيت الحرام. وقال حينئذ مظهراً لما قصده ومقرراً لما اعتمده: إنما حبسها حابس الفيل لا يدعوني اليوم قريش إلى خصلة فيها صلة الرحم إلا أجبتهم إليها، فكان كما قال ﷺ وشرف وكرم صالحهم على وضع الحرب فيما بينهم عشر سنين ليتقلبوا في الأرض آمنين، فلما استتب بينهم الصلح وأنزل الله تعالى سورة الفتح، ظهرت الفوائد التي تضمنها ذلك التدبير الحسن وقرَّت أعين الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بما أبرزه الله إليهم من ألطاف ومنن وقد صح بالمعنى جميع ما قلناه في الخبر ونقله إلينا علماء الحديث والسير وليقل من دعاء صاحب هذا المقام ومناجاته ليوافق عقده قوله في جميع تصرفاته: اللهم إني أصبحت لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني. اللهم وفقني لما تحبه وترضاه من القول والعمل في طاعتك إنك ذو الفضل العظيم وليقل أيضاً ما رأيته لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، اللهم إن الأمر عندك وهو محجوب عني ولا أعلم أمراً أختاره لنفسي فكن أنت المختار لي واحملني في أجمل الأمور عندك وأحمدها عاقبة في الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير **(إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء)** العباد والزهاد في حجبهم عن ربهم لنظرهم لنفوسهم ومراعاة حظوظهم فهم يفرون من الأشياء ويستوحشون منها لأنها موجودة في نظرهم والزهد في المزهود شاهد له بالوجود كما قال سيدي أبو الحسن رضي الله تعالى عنه: والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها فهم يخافون منها أن تعوق عليها أغراضهم وتفوتهم عن مقاصدهم بميلهم إليها وافتتانهم بها ولو كانوا من أهل العلم بالله والمحبة لله لرأوه ظاهراً في الأشياء كلها ولكان لهم في ذلك من قرة أعينهم ما يشغلهم عن رؤيتهم لنفوسهم فلا يكون هم من الأشياء وخشية ولا يخشون منها فتنة لأنها فانية متلاشية بهذا الاعتبار **(أمرُك في هذا الدار بالنظر في مكوناته وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته)** رؤية العباد لربهم عزّ وجلّ، على

(إنما يستوحش العباد) وهم المتوجهون إلى الله بطريق العمل **(والزهاد)** وهو المتوجهون له بطريق التوكل **(من كل شيء)** فكل من الطائفتين يفر من الخلق لكونهم قاطعين عن الله وذلك **(لغيبتهم عن الله في كل شيء)** أي إنهم محجوبون عن ربهم برؤية نفوسهم ومراعاة حظوظهم، فيفرون من الأشياء ويستوحشون منها، لأنها موجودة في نظرهم فيخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم مقاصدهم لميلهم إليها، وافتتانهم بها **(فلو شهدوه في كل شيء)** كما شهده العارفون والمحبون **(لم يستوحشوا من شيء)** أي من أي شيء من الأشياء، لرؤيتهم له حينئذ ظاهراً له في الأشياء كلها، فيشغلهم ذلك عن رؤيتهم لنفوسهم، فلا يكون لهم من الأشياء وحشة ولا يخشون منها فتنة، لأنها متلاشية فانية بهذا الاعتبار **(أمرك)** أيها العارف **(في هذه الدار بالنظر في مكوناته)** لتراه ظاهراً فيها بعين بصيرتك. قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا ماذا في السَّمٰوَاتِ﴾ [يونس: ١٠١] إلى غير ذلك من الآيات **(وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته)** لتراه بعين بصرك فرؤية العباد لربهم عزَّ وجلَّ على حسب تجليه لهم، ففي هذه الدار يرونه ظاهراً في المكونات بأنوار بصائرهم لما تجلى لهم من

حسب تجليه لهم، ففي هذه الدار يرونه ظاهراً في المكونات بأنوار بصائرهم لما تجلى لهم من وراء حجابها ولذلك أمرهم بالنظر فيها، وفي الدار الآخرة يرونه معاينة بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع وهذا غاية الظهور والكشف. **(علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه)** عدم الصبر عن الله تعالى من وجود الاحتظاء بمعرفته وهو حالٌ شريف يقتضي دوام وجود المعية الاختصاصية، والمعية الاختصاصية، تقتضي دوام المشاهدة والحضور. والمشاهدة الحقيقية غير متصورة في هذه الدار، لما هي عليه من الدناءة والنقص والفناء والذهاب، فأكرم الله تعالى عبده لعلمه بعدم صبره عنه بأن أشهده ما برز عنه من الآثار والأكوان تسليةً له بالأثر عن النظر فحصلت له حينئذ المعية الاختصاصية اللائقة بحاله حتى إذا أقعده في مقعد الصدق وحصلت له عندية الحق خلع عليه خِلَعَ التقريب والتكريم وواجهه بوجهه الكريم فحصلت له حينئذ المعية الحقيقية والمشاهدة السرمدية وما ذلك على الله بعزيز **(لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مُصَلٍّ مقيم)** تلون الطاعات لوجود الملل وتحجرها في الأوقات لوجود الشره نعمتان عظيمتان أنعم الله بهما على عبده فإن الملل والشره فتنتان عظيمتان قاطعتان على العبد سبيل عبوديته. والملل تكره يعرض للإنسان من عمل يلحقه فيه مشقة فيصبر عليه ويتحمل التعب فيه حتى يضجر ويسأم فيترك ذلك العمل ويرفضه استثقالاً له وهو شيء يتعرض للطبع بعد إيثاره للشيء ومحبته له والشره مجاوزة الحد في التسارع إلى العمل والحرص عليه والذي يوجب وجود الملل المداومة على نمط واحد من العبادات فتسأمها النفس وتستثقلها فإذا لونت عليها استحلتها واستخفتها، وقد قال بعض الشعراء:

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذْ كانَتْ مُدبرةً إلاّ التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إلى حَالِ

والموجب لوجود الشره، صلاحية الأوقات كلها لإيقاع العبادات فيها مع شدة الحرص عليها، وعند وجود

وراء حجابهم، وهو تلك المكونات ولذا أمرهم بالنظر فيها، وفي الدار الآخرة يرونه عياناً بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع، وهذا غاية الظهور والكشف والرؤية في الدنيا على الوجه المذكور خاصة بالعارفين، وفي الآخرة عامة لجميع المؤمنين علم منك أنك لا تصبر عنه أي عن مشاهدتك له كما هو شأن المحب، فإنه لا يصبر عن رؤية محبوبه، لكن رؤيتك له في هذه الدار من غير حجاب متعذرة **(فأشهدك ما برز منه)** من الآثار والأكوان، أي أشهدك إياها لتراه فيها بعين بصيرتك، وإن كانت تلك الأكوان حاجبة لك عن رؤيتك له بعين بصرك فقد رأيته، ولو من وراء حجاب، وذلك كرامة من الله لك وعناية منه بك، حيث لم يحجبك عنه في الدنيا أيضاً.

(لما علم الحق منك) أيها المريد **(وجود الملل)** أي السآمة من ثقل العمل المؤدية إلى تركه **(لون)** أي نوع **(لك الطاعات)** رحمة بك وتسهيلاً عليك، لأنك إذا سئمت من نوع منها انتقلت إلى غيره، ولو كانت من نوع واحد لسئمته النفس وتركته استثقالاً له، بخلاف الأنواع المتعددة، فإنها تستخفها وتستحليها لتنقلها من نوع آخر، وشأن النفس أن لا تدوم على حال واحد، بل تنظر في الأحوال، ألا ترى أن الإنسان إذا داوم على طعام واحد تسأمه نفسه كما وقع لبني إسرائيل **(وعلم ما فيك من وجود الشره)** أي مجاوزة الحد في التسارع إلى العمل والحرص عليه، فيؤديك إلى أن لا تأتي به على وجه الكمال **(فحجرها)** بالتخفيف أي منعها **(عليك في بعض الأوقات)** فإن الفرائض يمتنع فعلها في غير أوقاتها المحدودة، والنوافل يمتنع فعلها في وقت الكراهة، وفي بعض النسخ فحجرها عليك في الأوقات بالتشديد، أي جعل لكل طاعة وقتاً مخصوصاً، ولم يجعلها دائمة في جميع الأوقات لئلا يحصل منك شره، فيجرك إلى الترك.

والحاصل أن تلوين الطاعات لوجود الملل وتحجيرها في الأوقات لوجود الشره نعمتان أنعم الله بهما على عبده، فإن الملل والشره آفتان عظيمتان قاطعتان للعمل، والموجب للملل المداومة على نمط واحد من العبادات، فتسأمها النفس وتستثقلها فإذا لونت عليها استحلتها واستخفتها، والموجب للشره صلاحية الأوقات كلها لإيقاع العبادات مع شدة الحرص عليها، وعند وجود الشره يقع النقص والتقصير بأن يقرأ القرآن مثلاً، ولا يتدبر في معانيه، ولا يحضر قلبه مع مولاه في حال قراءته، فلذلك عين لها أوقاتاً تقع فيها، وذلك هو معنى تحجيرها في الأوقات وقوله: **(ليكن همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصل مقيم)** بنصب يكون بعد لام كي على أنه تعليل لما قبله، أي إنما لون لك الطاعات حتى لا تمل وحجرها عليك في الأوقات حتى لا تشره لأجل أن يكون همك الخ، فإنهما إذا انتفيا أمكن توجيه الاهتمام إلى حضور إقامة الصلاة، لا إلى مطلق وجودها وحصول صورتها، بخلاف ما إذا وجدا فإنه لا يكون معهما إتقان، وفي بعض

الشره، يقع النقص والتقصير فيها فلذلك عين لها أوقاتاً توقع فيها وأوقاتاً لا توقع فيها وذلك هو معنى تحجيرها في الأوقات. فإن كان الملل والشره واقعين في الصلاة لم يكن الآتي بها مقيماً لها لوقوع التقصير منه فيها ولم يؤمر إلا بإقامة الصلاة لا بوجود صورة الصلاة.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه: كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح، فإنه إنما جاء لِمَنْ أقام الصلاةَ إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣] وقال الله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال الله عزّ وجلّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وغيرها. و ﴿الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ [الحج: ٣٥] ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة فالإقامة أنه إذا صلى المؤمن صلاة فقبلت منه خلق الله من صلاته صورة في ملكوته راكعة ساجدة إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة. وإقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهراً وباطناً. قال ابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه: إقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهراً وباطناً مع حفظ السر مع الله عزّ وجل لا يختلج بسرك سواه. وقال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: هو القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلي له فتحفظ عليه أحكام الأمر فيما يجري عليه منه وهو عن ملاحظتها محو فنفوسهم منهم مستقبلة إلى القبلة وقلوبهم مستقرة في حقائق الوصلة وتمثيل المؤلف رحمه الله تعالى بالصلاة دون سائر العبادات حسن لأن ذلك أكثر ما يقع فيها وقد يكون ذلك استطراداً للكلام على الصلاة حسبما يقوله بإثر هذا. **(الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب)** كما روي في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ من قوله: «إِنَّما مَثَلُ الصَّلاةِ كَمَثَلِ نَهْرٍ عَذْبٍ يَمُرُّ بِبابِ أَحَدِكُمْ يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا تَرَوْنَ ذَلِكَ أَيُبْقَى مِنْ دونِهِ شَيْئاً». **(واستفتاح لباب الغيوب)** لأن القلوب إذا طهرت وتزكت رفعَ عنها الحجب والأستار فرأت ما غاب عنها من الأسرار. **(الصلاة محل المناجاة)** لأن فيها يكون محل الثناء والدعاء والمناجاة مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار. **(ومعدن المصافاة)** وهي زوال الأكدار الكونية بينك وبين ربك حتى يصفو قلبك وسرك فيصفو لك حينئذ شهوده ويمحو ذاتك وجوده. **(تتسع فيها ميادين الأسرار)** حتى تتكاثر عليك في الظهور. **(وتشرق فيها شوارق الأنوار)** فيكون قلبك نوراً على نور وهذه العبارات الست معانيها متقاربة. ولما كانت هذه الأحوال التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، من فوائد الصلاة وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فإن

النسخ ليكن بالجزم، فيكون كلاماً مستأنفاً، وإقامة الصلاة المراد هنا حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله عزَّ وجلَّ، فلا يختلج فيه وخص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات، لأن ذلك أكثر ما يقع فيها ثم أشار إلى فوائد صلاة المقيم لا مطلق الصلاة بقوله: **(الصلاة)** الحقيقية **(طهرة للقلوب)** من تكدرها بالآثار، وتلونها بالأقذار الأغيار، ومن الأوصاف المبعدة لها عن مشاهدة العزيز الجبار، وفي بعض النسخ **(من أدناس الذنوب)** من إضافة المشبه به للمشبه والذنوب مختلفة باختلاف المقيمين لها **(واستفتاح)** أي فتح وطلب فتح **(لباب الغيوب)** أي ما غاب عنك من المعارف والأسرار شبهها بكنز له باب مغلق عليه، والباب تخييل، وهذا مرتب على ما قبله، لأن القلوب إذا طهرت رفع عنها الأستار فرأت ما غاب عنها من الأسرار **(الصلاة محل المناجاة)** أي مناجاة العبد لربه بإظهار صفاته الجميلة من رحمته للعباد وتربيته للعالمين، وملكه يوم الدين إلى غير ذلك من الصفات ومناجاة الرب له بما يلقيه في سره من العلوم الوهبية والأسرار العرفانية **(ومعدن المصافاة)** أي التودد أي مصافاة العبد لربه بتوجهه إليه بكليته، وإقباله عليه بعوالمه الظاهرة والباطنة حتى لا يختلج في سره غيره، ومصافاة الرب لعبده بأن يمنحه شهوده، ويفيض عليه فضله وجوده، وهذه أعلى المصافاة ودونها مراتب، وعلى قدر إقبال العبد يكون إقبال الرب جل جلاله **(تتسع فيها ميادين الأسرار)** أي تتسع فيها القلوب الشبيهة بالميادين للفرسان، أي تنشرح بتوارد الأسرار، أي العلوم والمعارف عليها، وتسابقها فيها كتسابق الفرسان **(وتشرق)** أي تطلع **(فيها شوارق الأنوار)** أي الأنوار الشبيهة بالكواكب الشارقة، وهو من عطف السبب على المسبب، فإن الأنوار إذا أشرقت في القلوب انشرحت لما يرد عليها من العلوم والمعارف، وذلك من ثمرات المناجاة والمصافاة، وجميع ما ذكر كالدليل لما قبله من أن المطلوب

الصلاة المعتبرة إنما هي صلاة الخاشعين لا صلاة فلين التي لا تنتهض لبلوغ هذه المقاصد السنية ولذلك كانت الصلاة أم العبادات وأساس الخيرات. قال الله تعالى . ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر. وقد روي معنى ذلك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ وَأُمِرَ بِالحَجِّ وَالطَّوَافِ وَأُشْعِرَتِ المَنَاسِكُ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ». ولذلك كانت قرةَ عين حبيب الله ﷺ، على ما سيأتي الكلام عليه حيث تعرض المؤلف له. وفي بعض الأخبار: أَنَّ العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وأن المصلي ينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه منادٍ لو يعلم المناجي مَنْ يناجي ما انتقل وأن أبواب السماء تفتح للمصلي وأن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين. وفي التوراة: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً باكياً فأنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري كانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذي يجده المصلي في قلبه دنو الرب من القلب.

وقال محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: دعا الله تعالى الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمةً منه عليهم وهيأ لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من كل فعل وقول شيئاً من عطاياه فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة وهي عرس الموحدين هيأ هارب العالمين لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار. وقال أ طالب المكي رضي الله تعالى عنه: حدثت أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرض خوفاً منه لأنه تأهب للدخول على الملك فإذا كبر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه الكريم فإذا قال: الله أكبر اطلع الملك على قلبه فإذا كان ليس في قلبه أكبر من الله فيقول الملك: صدقت الله أكبر في قلبك كما تقول. قال فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فيكشف له بذلك النور ملكوت السماوات والأرض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات. قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما تحتوش الذباب نقطة العسل فإذا كبر اطلع الملك على قلبه فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله عنده فيقول الملك: كذبت ليس الله أكبر في قلبك كما تقول. قال فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت. قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه فلا تزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس إليه وتزين له حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه ومعاني هذه الأخبار والآثار موافقة لمعنى ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، دالة عليه فلذلك أوردتها هاهنا والله ولي التوفيق برحمته.

(علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها) فهذا من فضل الله تعالى الذي عوده عبده فتقليل اعدادها بأن جعل الخمسين خمسة وذلك تخفيف منه لما علم من وجود ضعفه وتكثير أمدادها بأن جعل للخمسة ثواب الخمسين وذلك فضلٌ منه عليه إذ كان محتاجاً إليه فله الحمد والشكر على ذلك وهذه المعاني مذكورة في حديث الإسراء. **(متى طلبت عوضاً على عمل طولبت بوجود الصدق فيه ويكفي المريب وجدان السلامة)**

إقامة الصلاة لا وجودها **(علم وجود الضعف منك)** أيها المريد، لأن الطاقة البشرية لا تقدر على دوام التجلي الآلهي **(فقلل أعدادها)** بجعل الخمسين خمسة **(وعلم احتياجك إلى فضله)** بإقباله عليك ومواجهته لك بما تحبه **(فكثر أمدادها)** بالفتح جمع مدد، وهي الأسرار والعلوم والمعارف التي ترد على قلب المصلي، فجعل أمداد الخمسين في الخمس هذا بالنسبة للمريد، ويقال بالنسبة لغيره علم وجود الضعف منك بتكاسلك عنها، وكثرة اشتغالك، وعلم احتياجك إلى فضله، أي كرمه فكثر أمدادها، أي ثوابها بأن جعل للخمسة ثواب الخمسين **(متى طلبت)** أيها المريد من ربك **(عوضاً على عمل)** صلاة كان أو غيرها، بأن عملت ذلك لأجل ثواب آجل، وهو الجزاء عليه في الدار الآخرة، أو عاجل كالإمدادات التي ترد عليك من قبل الحق سبحانه **(طولبت)** أي طالبك الحق تعالى **(بوجود الصدق فيه)** أي قال لك إنك لم تصدق في كونك عملت العمل لأجلي بل عملت لحظ نفسك، والصدق مطابقة الباطن للظاهر، وهو مفقود في هذا العامل، لأن ظاهره أنه يعمل العمل لله قياماً بحق ألوهيته، وباطنه أنه لم يعمل إلا لحظ نفسه، فيكفيه حينئذ سلامته من العقاب عليه كما قال: **(ويكفي المريب)** أي المرتاب في كون مولاه يحل له الثواب العاجل والآجل، وإن لم يقصد بعمله إذ لو كان جازماً بذلك متيقناً له لسعة وجوده سبحانه وتعالى، لم يخطر بباله ذلك في حال عمله، بل كان يخلص فيه لله تعالى فيكفيه حينئذ **(وجدان السلامة)** من العقاب على ذلك العمل المدخول، أي فيقول له الرب هذا العمل الذي عملته لا تستحق عليه مني

تقدم أن العمل لأجل حصول الجزاء مدخول معلول وحكينا هنالك من الآثار والحكايات عن العارفين وأرباب القلوب ما فيه مقنع وقد كرر المؤلف رحمه الله تعالى، هذا المعنى في مواضع متفرقة من هذا الكتاب وما ذكره هاهنا تقبيحٌ لحال طالب الجزاء على العمل ومعنى ما ذكره أن العمل على هذا الوجه معرض للبطلان لأنه إذا طالب ربه بالجزاء على عمله طالبه ربه بوجود الصدق فيه والصدق فيه الوفاء بحقه في العمل وأنى له توفية ذلك مع كونه طالباً للحظ من ربه فهو لا محالة مريب فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها.

وقال الواسطي رضي الله تعالى عنه: العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها. وقريب من هذا قول النصراباذي: العبادات إلى طلب العفو والصفح عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها. وقال خير النساج رضي الله تعالى عنه: ميزان أعمالك ما يليق بأفعالك فاطلب ميزان فضله فإنه أتم وأحسن. قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. **(لا تطلب عوضاً على عمل لست له فاعلاً يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلاً)** المنفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله عزّ وجلّ فكيف يطلب العبد الجزاء على عمل لا مدخل له فيه على الحقيقة. ومعنى كون القبول جزاءً قد تقدم.

(إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك) فضل الله تعالى عظيم فإذا أراد أن يظهره عليك خلق لك الطاعة وحلاك بها ونسبها إليك وقال لك يا عبدي أنت مطيعٌ ومتّقٍ ومجتهد وعامل وسأثيبك على ذلك فإذا شهد العبد هذا الفضل العظيم واستولى عليه الخجل والحياء من سيده الكريم وانطلق لسانه في هذه الحالة بالدعاء والسؤال وقال: يا رب كما تفضلت عليَّ بخلق الطاعة لي وحليتني بها ووصفتني بصفات حميدة أنا خلي عنها في الحقيقة ووعدتني مع ذلك جزيل الثواب والنجاة من العقاب فتقبل منّي عملي وأنجز لي ما وعدتني كان في ذلك مصيباً وإلا فلا فحق العبد أن لا ينسب إلى نفسه شيئاً من محامد الصفات ومحاسن الأعمال حقيقة ولا أدباً إذ لا أهلية فيه لذلك وأما مذام الصفات والأعمال ومساويهما فمقتضى الأدب، أن يضيف ذلك إلى نفسه وأن يعترف بأن ذلك من ظلمه وجهله.

قال سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: إذا عمل العبد حسنةً وقال: يا رب أنت بفضلك استعملت وأنت أعنت وأنت سهلت شكر الله تعالى له ذلك وقال له: يا عبدي بل أنت أطعت وأنت تقربت وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله تعالى عنه وقال: يا عبدي أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت وإذا عمل سيئة وقال: يا رب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت غضب المولى جلت قدرته عليه وقال له: يا عبدي بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت. وإذا قال: يا رب أنا ظلمت نفسي وأنا أسأت وأنا جهلت، أقبل المولى،

جزاء، بل يكفيك من الجزاء عليه سلامتك، وعدم عقابك وهذا تقبيح لحال طالبي الجزاء على العمل، وبيان أن المنهل العذب الصافي أن يعبد العبد ربه، لما هو عليه من عظمة الألوهية ونعوت الربوبية، لا لما يعود عليه في دنياه أو أخراه، وقد ذكر المصنف هذا المعنى في مواضع متفرقة من هذا الكتاب، وأشار إلى موضع منها أيضاً بقوله: **(لا تطلب عوضاً على عمل لست له فاعلاً)** بل هو الفاعل له حقيقة، وإنما أنت محل لظهوره، وإذا كان الفاعل هو الله فكيف تطلب أنت الجزاء عليه، ويقال إن المنفرد بخلق أفعال العباد، واختراعها هو الله، وليس للعبد إلا مجرد الكسب، فكيف يطلب الجزاء على عمل ليس منسوباً إليه بطريق الكسب؟ **(يكفي من الجزاء لك على العمل إن كان له قابلاً)** أي قبوله له، والمراد به عدم مؤاخذتك عليه مع كونه مدخولاً، لا بقصدك به طلب الثواب.

(إذا أراد أن يظهر فضله عليك) أي تفضله عليك وإحسانه لك **(خلق)** أي العمل فيك **(ونسب إليك)** أي نسبه إليك بأن قال فيك عند ملائكته: إنك مطيع ومتق ومجتهد وعامل، أو نسبه إليك على ألسنة العباد بأن يطلق ألسنتهم بأنك مطيع ومتق الخ، فإذا شهد العبد هذا الفضل العظيم، واستولى عليه الخجل والحياء من سيده الكريم، لم ينسب لنفسه شيئاً من محامد الصفات ومحاسن الأعمال لا حقيقة ولا أدباً، إذ لا أهلية فيه لذلك، وأما مذام الصفات والأعمال ومساويها، فمقتضى الأدب أنه يضيف ذلك إلى نفسه، وأن يعترف أنه من ظلمه وجهله.

قال سهل بن عبد الله قدّس الله سره: إذا عمل العبد حسنة وقال: يا رب أنت بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهلت، شكر الله تعالى له ذلك وقال له: يا عبدي بل أنت أطعت وأنت تقربت، وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت وأطعت، وأنا تقربت أعرض الله تعالى عنه وقال: يا عبدي أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت، وإذا عمل سيئة. وقال

جلّت قدرته عليه وقال: يا عبدي أنا قضيت وأنا قدرت وقد عفوت وحلمت وسترت. **(لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك)** من أرجعه الحق إلى نفسه ووكله إلى عقله وخدمته فقد طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وكانت أحواله مدخولة معلولة وأعماله مستقبحة مرذولة ومن آواه إليه وأظهر جوده عليه فقد اصطنعه لنفسه ورفعه إلى حضرة قدسه وكانت أحواله حسنة جميلة وأعماله كلها ممدوحة مقبولة كما قيل:

لَمَّا انْتَسَبْتُ إِلَى جِمَاكَ تَعَرَّفْتُ ذَاتِي فَصِرْتُ أَنَا وَإِلاَّ مَنْ أَنَا

(كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً) التعلق بأوصاف الربوبية أن تشهد وجودك ولوازم وجودك لا شيء من جميع ذلك لك ولا منك وإنما هي عوارٍ عندك فلا ترى وجودك إلا بوجوده ولا بقاءك إلا ببقائه ولا عزتك إلا بعزته ولا قدرتك إلا بقدرته ولا غناك إلا بغناه إلى غير ذلك من الأوصاف ولا يتم لك ذلك إلا بأن تتحقق بأوصاف عبوديتك من عدمك وفقرك وذلك وعجزك والتعلق والتحقق المذكوران متلازمان بل هما شيء واحد لا تعدد فيهما على التحقيق. **(منعك أن تدعي ما ليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين)** أورد هذا كالدليل على ما ذكره آنفاً من أنه لاحظ للعبد من صفات مولاه إلا التعلق بها فقط وأن ادعاء شيء منها من كبائر معاصي القلب ومن مشاركة المربوب للرب ومن مقتضى الغيرة التي اتصف بها وأعلمنا بشأنها على لسان رسول الله ﷺ حيث قال: «لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالى». ومن غيرته أنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بَطُنَ تحريم ذلك على العبد والتسجيل عليه باستحقاق الطرد والبعد ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه عقداً أو قولاً لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه. وفي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الكِبْرِياءُ رِدائي وَالعَظَمَةُ إزاري فَمَنْ نَازَعَني في واحدة منهما أَلْقَيْتُه في النار». ومعنى المنازعة الدعوى قولاً وعبارة والإضمار فعلاً وإشارة ومعنى الغيرة في حقه تعالى أنه لا يرضى بمشاركة غيره له فيما اختص به من صفات الربوبية وفيما هو حق له من الأعمال الدينية وإذا كان الحق تعالى مانعاً لك ومحرماً عليك أن تدّعي ما ليس لك مما أعطى المخلوقين من الأموال ومسمياً ذلك ظلماً وعدواناً فكيف يبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين لا شريك له في ذلك لا أنت ولا غيرك فهو إذاً من أعظم الظلم وأشد العدوان عافانا الله من ذلك قلت: وهذا المعنى الذي ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى، هذه المسألة هو الغرض الأقصى الذي هو مرمى نظر الصوفية وكل ما صنفوه ودونوه وأمروا به ونهوا عنه من أفعالٍ

يا رب أنت قدرت، وأنت قضيت، وأنت حكمت، غضب المولى جلت قدرته عليه، وقال له: يا عبدي، بل أنت أسأت، وأنت جهلت، وأنت عصيت، وإذا قال: يا رب أنا ظلمت وأنا أسأت وأنا جهلت، أقبل المولى جلّت قدرته عليه، وقال: يا عبدي أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وحلمت وسترت اهـ. **(لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك)** أي وكلك إلى نفسك، لأنها مجبولة على الشر فإذا خلى الله بينك وبينها، أي لم يعنك عليها، ولم يحكمك فيها غلبتك وتحكمت فيك فتوقعك في أنواع القبائح حتى لا يبقى في أعمالك ما يستحسن، ولا في أحوالك ما يجب وذلك من علامات الطرد والبعد عن الله **(ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك)** بأن تولي عنايتك ونصرك على نفسك، ولم يحكمها فيك، فتصير أحوالك حسنة جميلة، فلا تفرغ مدائحك ولا تنقضي محاسنك، وذلك من علامات اصطفائه لك واجتبائه، وقد علم أنه لا طريق للنجاة من النفس وغوائلها إلا التعلق بالله والالتجاء إليه **(كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً)** لا متحققاً إذ لا حظ للعبد في شيء من أوصاف مولاه إلا تعلقه به لا تحققه **(وبأوصاف عبوديتك متحققاً)** ومعنى التعلق بأوصاف الربوبية النظر إليها وملاحظتها، أي ملاحظة كونها له، فلا يصح لك أن تتصف بشيء منها، ومعنى التحقق بأوصاف العبودية النظر إليها وملاحظتها، أي ملاحظة كونها له فهي التي ينبغي أن يتصف بها العبد حقيقة لا بأوصاف الربوبية، وما وجد فيه من أوصاف الربوبية، فهو عارية عنده وليس هو له حقيقة، فإذا لاحظ كون الغنى والقدرة والعزة، والقوة ليست إلا للمولى، ولاحظ أن الذي يتصف به العبد حقيقة هو أضدادها، وهي الفقر والعجز والذل والضعف أمده الله تعالى بأوصافه، فيكون غنياً بالله قادراً بالله عالماً بالله عزيزاً بالله قوياً بالله، كما سيأتي في قوله تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ثم علل ذلك بقوله: **(منعك أن تدعي ما ليس لك)** أي حرم عليك أن تدعي شيئاً ليس لك **(مما)** أعطى **(للمخلوقين)** من الأموال وسماه تعالى عدواناً وظلماً **(أفيبيح لك)** سبحانه **(أن تدعي وصفه وهو رب العالمين)** أي فيكون ادعاؤك ذلك من أعظم الظلم وأشد العدوان، فإذا ادعيت أنك غني أو قادر أو عزيز أو قوي أو عالم، كما يقع لبعض الناس كان ذلك من كبائر معاصي

وأقوالٍ وأحوالٍ إنما هي وسائل إلى هذا المقصد الشريف والمقام المنيف فشأنهم أبداً إنما هو العمل على موت نفوسهم وإسقاط حظوظها بالكلية كما قيل: الصوفي دمه هدر وملكه مباح وليس ذلك هو المقصود لهم بالذات وإنما غرضهم من ذلك ما يلزم عنه من انفراد الله تعالى عندهم بالوجود ولوازم الوجود انفراداً لا يشاركونه في شيء منها البتة كما ذكرناه آنفاً وهذا هو كيمياء السعادة الذي أعوز أكثر الناس ولم يحظوا منه إلا بالإفلاس، إذ بذلك يستحق المرء عبودية الله عزّ وجلّ الذي لا مقام للعبد أشرف منه كما قال الشاعر:

أَلَسْتَ لِي خَلَفاً مِني كَفى شَرَفاً فَما وَراءَكَ لِي قَصْدٌ وَمَطْلوبُ

ولهذا المعنى كانت عندهم دقائق خطرات الحظوظ وخفيات هواجس الهوى وكل ما يقتضي بقاء حظ النفس وثبوتها في محبة المقامات وإيثار الألطاف والكرامات ذنوباً عظيمة وأخلاقاً ذميمة لئيمةً قادحة في صدق العبودية والإخلاص للربوبية يتوبون من جميع ذلك إلى ربهم ويتعوذون به من شرهم ويخافون مساكنته وملاحظته غاية البعد ونهاية المكر والطرد كما قيل:

إذَا قُلْتُ مَا أَذْنَبْتُ قَالَتْ مجيبةً وُجودُكَ ذَنْبٌ لا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ

ذكر أنه كان لبعض الملوك عبدٌ يقدمه على أشكاله وأقرانه فشكا أهل إقليم عاملهم إلى الملك فقال: تخيروا من شئتم أوليه عليكم فاختاروا ذلك العبد لما رأوا ميل الملك إليه. فقال الملك: راجعوه فإن اختار الولاية وليته عليكم فرغب الغلام في الولاية فأمر بكتب المنشور وأمر باستقباله إذا وافى محل ولايته والمبالغة في ألطافه بأنواع المكرمات والمبار ودس من يرش عليه ماءً ورد فيه سم ثم أمر من يقول إذا أشرف على الموت هذا جزاء من اختار الولاية على خدمة مولاه ففي هذا عبرة لأولي الأبصار وتبصرة لأرباب الاعتبار. وإلى هذا المعنى الجليل المؤدي إلى سواء السبيل تشير الحكاية المشهورة المروية عن أبي يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنه، حدث يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه أنه رآه في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزاً على صدور قدميه رافعاً أخمصيهما مع عقبيه عن الأرض ضارباً بذقنه على صدره شاخصاً بعينيه لا يطرف قال: ثم سجد عند السحر فأطال ثم قعد فقال: اللهم إن قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فانقلبت لهم الأعيان فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم عبدك خضراً فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء ثم التفت إليَّ فرآني فقال يحيى: قلت نعم يا سيدي. قال: مذ متى أنت هاهنا؟ قلت: منذ حين، فسكت. فقلت: يا سيدي حدثني بشيء فقال: أحدثك بشيء يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلي فأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السماوات وأراني ما فيها من الجنات إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيتُ حتى أهبه لك فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه. فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً لأفعلن بك ولأفعلن بك وذكر أشياء فقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت: يا سيدي لِمَ لَمْ تسأله المعرفة به؟ إذ قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال: فصاح به صيحة وقال: ويلك اسكت وتلك غيرة عليه مني لا أحب أن يعرفه سواه. قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه بعد أن ذكر هذه الحكاية: فهذا حال عبد فانٍ عن نفسه مأخوذ إذا كان ربه عزّ وجلّ له موجداً طال مقامه في المقامات فقصرت عن وصفه الصفات وحق له إذا نظر إلى الحسن الذي حسنت المحاسن كلها عن حسنه وشانت الزينات جميعها بعد النظر إلى زينته وشهد الجمال الذي تجمل الجمال والمتجملون بجماله

القلب، ومن مشاركة المربوب للرب ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه اعتقاداً أو قولاً، لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه، وفي الحديث الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في النار، وفي رواية قصمته، ومعنى المنازعة الدعوى بالعبارة أو الاعتقاد وإضافة هذين الوصفين له تعالى، كناية عن شدة الاختصاص بهما.

أن لا يستحسن سواه وكيف يحب غير ما استحسن أو تزين في عينه إلا إياه أم كيف يطلب غير ما أحب أو يصير مع غير ما طلب بل كيف يهتم بغير ما طلب فهذا نعت عبد مطلوب بعين ما طلب ووصف شخص محبوب بعين ما أحب الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس انتهى.

وفي الإشارات عن الله سبحانه: يا عبدي اعزل نفسك ينعزل معها الملك والملكوت فتلحق الدارين بالملك وتلحق العلوم بالملكوت فتكون عندي من وراء ما أبدي فلا يستطيعك ما أبدي لأنك عندي، وإذا كنت عندي كنت عبدي حقاً، وإذا كنت عبدي كان عليك نوري فلا يستطيعك ما أبدي وإن أرسلته أرسلته إليك لأن نوري عليك وليس نوري عليها فإذا جاءك لم يطغك فأوذنك به فتأذن أنت له والعبارات عنهم في هذا المعنى خارجة عن الحصر. وفيما رسمناه منها كفاية وإنما ذكرنا هذه المعاني، وإن كانت في الظاهر أعلى من أن يتناولها كلام المؤلف رحمه الله تعالى، لأن مرجع أمره إليها إذا وقفنا في النظر وتصرفنا فيه بوجوه العبر فكان باطنه هو المقصود المعتبر وكلام الصوفية رضي الله عنهم كثيراً ما يجري هذا المجرى والله تعالى يجزيهم عنا خيراً ويمن علينا بالفهم عنهم وحسن القبول منهم ويفتح أسماعنا للإصغاء إليهم، ويشرح صدورنا باستحسان ما يرد منهم أو يبدو عنهم بمنه وفضله. **(كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد)** خرق العوائد بانكشاف عالم القدرة لا يكرم الحق تعالى به إلا من خرق عوائد نفسه وفني عن إرادته وحظوظه. فمن لم يصل إلى هذه المقامات لا يطمع فيها، وإن ظهر له ما صورته صورة الكرامات، فينبغي له أن يخاف عند ذلك من الاستدراج والمكر حيث لا يحب ذلك ولا يطلبه. فإن أحبه أو طلبه فهو دليل على بقائه، مع إرادته وحظوظه وعاداته، فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة، وهل هذا إلا محال لا يستقيم؟ قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: وجميع الأنوار من الغيوب التي وراء الحجب والأستار، ولا يظهر عليها إلا مطلوب. والمطلوب لا يكون إلا محجوباً وهو عن نفسه مسلوب. فمتى بقيت عليه من نفسه بقية ونظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية فيسترها عليه رحمة له لأنه لو كوشف بها لهلك في حيرة الهوى وغرق في بحار الدنيا ونفس حبه وعين طلبه إياها هو حجابه عنها واستتارها عنه حتى يكون كارهاً لظهورها كراهيته ظهور الخلق على معصيته وخائفاً منها كخوفه على نفسه في تظاهرها عليه بهلكته. فهناك حين يبتلى بها ويختبر ليظهر كيف يعمل وكذا الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه قال: مَنْ لم يكن كارهاً لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي فهو في حقه حجاب وسترها عليه رحمة. فإذا من خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شيء من الآيات وخوارق العادات له، بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك. فإذا فني عن إرادته جملة فكان له تحقق في رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف ووجود الإسعاف وسلك إلى مرتبة الصديقية المهيع الناهج وضرب مع أهل الإرادة بقدح فالج.

قال الشيخ أبو العباس بن العريف: أصبحتُ يوماً مهموماً فقلت للشيخ أبي القاسم بن رويبل: حدثني بحكاية عسى الله أن يفرج ما بي فقال: نعم وصف لي رجل ببعض السواحل يعرف بأبي الخيار فقصدته فوجدته على ساحل البحر فسلمت عليه وجلست فلم يتكلم ولم أكلمه حتى إذا كان وقت الصلاة أقبل نفرٌ من بعض الأودية متفرقون فاجتمعوا إليه وتقدمهم واحد منهم فصلى بهم ثم افترقوا ولم يكلم أحد منهم أحداً وجلس الشيخ مكانه وجلست عنده حتى إذا كان وقت الصلاة حضر النفر فصلوا ثم انصرفوا حتى إذا كان وقت العصر اجتمعوا وصلوا ثم جلسوا بعد ذلك وتذاكروا سير الصالحين ومقامات العارفين والأولياء إلى قريب الاصفرار ثم تفرقوا واجتمعوا للمغرب ثم تفرقوا فجلست عندهم ثلاثة أيام وهم على ذلك ثم وقع في نفسي أن أسأله عن مسألة أستفيدها فتقدمت إليه فقلت: أيها الشيخ مسألة أسأل عنها. فقال: قل فنظر الجماعة إليّ كالمنكرين ففزعت فقلت: أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد؟ قال: فأعرض عني ولم يجبني، فخفت أن أكون قد أغضبته فقمت عنه فلما كان في اليوم الثاني قلت: لا بد

(كيف تخرق لك) أيها المريد أي تطمع أن تخرق لك **(العوائد)** بأن تظهر على يدك كرامة كطي الأرض **(وأنت لم تخرق من نفسك العوائد)** أي ما اعتدته من الكبر والعجب والدعوى وغير ذلك، فخرق العوائد بظهور شيء من عالم القدرة لا يكرم الله به، إلا من خرق عوائد نفسه وفنى عن إرادته وحظوظه، ومن لم يصل إلى هذا المقام لا يطمع فيه، فإن ظهر له ما في صورته كرامة، فينبغي له أن يخاف من الاستدراج والمكر ولا يحب ذلك ولا يطلبه، فإن أحبه أو طلبه كان

أن أسأله عن المسألة وعزمت على ذلك فتقدمت إليه وقلت: أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد؟ فأعرض عني كالأولى ولم يجاوبني فقمت وعدت في الثالثة وسألته عن المسألة بعينها فاجتمع وقال: لا تقل هكذا أظنك تريد أن تسأل عن أول قدم يضعه المريد في الإرادة فقلت: نعم. قال لي: إذا اجتمع فيه أربع خصال: إحداها أن تطوى له الأرض وتكون عنده كقدم واحد، وأن يمشي على الماء، وأن يأكل من الكون متى أراد، وأن لا ترد له دعوة فعند ذلك يضع أول قدمه في الإرادة. وأمّا متى ما علم المريد عندنا أنه مريد، سقط من حد الإرادة. قال الشيخ أبو العباس بن العريف رضي الله عنه: فصحت صيحةً كادت نفسي تذهب معها. قلت له: آيستنا من الإرادة يا أبا القاسم وتعجبت من علو همة هذا الشيخ انتهى. واعلم أنه أول ما يخرق له من العادة تسميته باسم المريد مع كونه مسلوب الإرادة وما أحسن ما قال الشاعر:

تَـكُـونُ مُـرِيـداً ثُـمَّ فِـيـكَ إرادَةٌ إذا لَـمْ تُـرِدْ شَـيْـئـاً فَـأَنْـتَ مُـرِيـدُ

والتحقيق في هذا أن من تمحضت إرادته لعبودية الله عزّ وجلّ بمراعاة حقوقه لأجل ما وجب عليه من ذلك لا يتوصل به إلى نيل حظ ما هو الذي يسمى مريداً، فلم يسم بذلك إلا أنه متصف بالإرادة الحقيقية المتعلقة بأشرف المطالب ونهاية الآمال والمآرب وذلك أمر وجودي يصح أن يشتق منه اسم لمن قام به ذلك الأمر لا أنه سمي بذلك لأجل ما سلب عنه من الإرادة المجازية المتعلقة بحظوظه لكن لما كان سلب إحداهما يقتضي وجود الأخرى كاقتضاء الواجب صحّ لذلك الشاعر أن يطلق اسم الإرادة على مَنْ سُلِبَت منه ويحجره عمَّن وجدت فيه رشاقة وملاحة ونعمة وبهذا تبين لك صحة كلام أبي يزيد رضي الله عنه، واستقامته حيث قيل له: ما تريد؟ فقال: أريد أن لا أريد. وأنه ليس بمحتل ولا متناقض كما توهم بعضهم قال في (**التنوير**): واعلم أنه قال بعضهم: إن أبا يزيد لما أراد أن لا يريد فقد أراد وهذا قول من لا معرفة عنده وذلك أن أبا يزيد رضي الله عنه، إنما أراد أن يريد لأن الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه فهو لا يختار معه شيئاً ولا يريده فهو في إرادته أن لا يريد موافق لإرادة الله له ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: فكل مختارات الشرع ومرتباته هو مختار لله ليس لك منه شيء فاسمع وأطع وهذا موضع الفقه الرباني والعلم اللدني وهو أرض تنزل علم الحقيقة المأخوذ عن الله قال فأبان الشيخ بهذا الكلام أن كل مختار للشرع لا يناقض اختيار مقام العبودية المبني على ترك الاختيار لئلا ينخدع عقل قاصر عن درك الحقيقة بذلك فيظن أن الوظائف والإرادات ورواتب السنن إرادتها يخرج بها العبد عن صريح العبودية لأنه قد اختار فبين الشيخ أن كل مختارات الشرع ومرتباته ليس لك منه شيء، وإنما أنْتَ مخاطَبٌ أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها لا عن تدبير الله تعالى ورسوله لك فافهم.

قال: فقد علمت إذاً أن أبا يزيد ما أراد أن لا يريد إلا لأن الله أراد منه ذلك فلم تخرجه هذه الإرادة عن العبودية المقتضاة منه انتهى. وقد طال بنا الكلام في هذا المعنى حتى آلَ إلى بُعْدِ المناسبة بينه وبين المسألة المنبَّه عليها من الكتاب والحديث شجون يجر بعضه إلى بعض لكن لما كان قصدنا في هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد في مواضعها ومظانّها لتقرعَ مسائل هذا الفن الغريب أسماع مَنْ أراد الله تعالى توفيقه ممن بينه وبينه بعد المشرقين صح منا ذلك وكنا سائرين فيها على أوضح المسالك وبالله تعالى التوفيق. (**ما الشأن وجود الطلب إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب**) إذا التزم العبد طلب حوائجه وحظوظه من مولاه ولم يطلب ذلك من غيره فلا يظنن أنه وفى بما يجب عليه من حق

ذلك دليلاً على بقائه مع إرادته وحظوظه وعاداته، فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة (**ما الشأن وجود الطلب**) أي الدعاء بلسان المقال، أي ليس الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب حوائجك، وحظوظك من مولاك دون غيره ظاناً أن طلبك ذلك منه دون غيره، يوفي بما يجب عليك في الدعاء من الأدب، فإن ذلك لا يوفي به (**إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب**) أي إنما الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب جميع مطالبك منه دون غيره، لا لقصد نيل حظك ومرادك فقط، بل أن تطلب ذلك منه إظهاراً للعبودية وقياماً بحقوق الربوبية، فبذلك يحسن أدبك ويصح سؤالك وطلبك، وذلك هو الوفاء على التحقيق بحق الأدب في الدعاء، ويحتمل أن يراد بالطلب الطلب بالقلب وتوجهه لشيء من الأغراض، أي ليس الشأن أن تطلب شيئاً من مولاك بقلبك مما لك فيه حظ سواء صاحبه طلب باللسان أو لا، بل الشأن أن ترزق حسن الأدب، وهو ترك الطلب اكتفاء بنظره إليك، فالأدب الحسن في الدعاء على الوجه الأول أن يدعو إظهاراً

الربوبية فليس ذلك بالشأن المعتبر عند المحققين وإنما الشأن أن يتأدب العبد بين يديّ مولاه أدباً حسناً بأن يفوض أمره إليه ويرضى بما قسم له ولا يطلب منه ما ليس له كما سيقول المؤلف رحمه الله، بعد هذا ويطلب عبودية منة لأن القصد نيل حظه، فبهذين الوجهين، يحسن أدبه ويصح سؤاله وطلبه، وذلك هو الوفاء على التحقيق.

(ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار) اضطرار العبد هو أخص أوصاف عبوديته ولذلك لم يطلب من العبد شيء أجلّ منه. قال أبو محمد عبد الله بن منازل رضي الله عنه: العبودية الرجوع في كل شيء إلى الله عزّ وجلّ على حد الاضطرار. وفيه أيضاً خاصية إجابة الدعاء. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] والاضطرار المطلوب منه أن لا يتوهم العبد من نفسه شيئاً من الحول والقوة ولا يرى لنفسه سبباً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه ويكون بمنزلة الغريق في البحر أو الضالّ في التيه القفر لا يرى لغياثه إلا مولاه ولا يرجو لنجاته من هلكته أحداً سواه. وقال بعض العارفين: المضطر الذي يقف بين يدي مولاه فيرفع يديه إليه بالمسألة فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئاً فيقول هَبْ لي يا مولاي، بلا شيء والذلة والافتقار أمران لازمان له وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما وإليه الإشارة بقوله عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرتهم كما قيل:

وَإِذا تَـذَلَّـلَـتِ الـرِّقَـابُ تَـقَـرُّبـاً ... مِـنْـهـا إِلَـيـكَ فَـعِـزُّهـا فِـي ذُلِّـهـا

وقيل:

حَـيْـثُ أَسْـلَـمْـتَـنِي إلى الذَّالِ والـلا ... م تَـلَـقَّـيْـتَـنِـي بِـعَـيْـنٍ وَزَاي

قال في **(لطائف المنن)**: والجالب للتوفيق علامة صدق الرجعي إلى الله في أول كل فعل، وترك تحقيق الفقر والفاقة إليه، والانغماس في بحر الذلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ من ذلك أبداً وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَراءِ وَالمَساكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فلا تدخل جنة عملك وعلمك وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً﴾ [الكهف: ٣٥] ولكن ادخلها كما بين لك وقل كما رضى لك ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله وافهم هاهنا قوله ﷺ: «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاّ باللّهِ كِنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ». وفي رواية أخرى: «كِنزٌ مِنْ كُنُوزِ تَحْتَ العَرْشِ». فالترجمة ظاهر الكنز والمكنوز فيها صدق التبري من الحول والقوة والرجوع إلى حول الله تعالى وقوته. **(لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته فوصلك إليه بما منه إليك**

للعبودية وقياماً بحق الربوبية، لا لنيل حظ نفسه فقط، وعلى الوجه الثاني ترك الدعاء والطلب اعتماداً على قسمته واكتفاء بمشيئته، واشتغالاً بذكره عن مسألته **(ما طلب لك)** بالبناء للفاعل وهو **(شيء مثل الاضطرار)** أي إن أحسن الطالبين لك هو الاضطرار، فشبهه بشخص طالب، والاضطرار إظهار غاية الفاقة فلا تتوهم من نفسك شيئاً من الحول والقوة، ولا ترى لها سبباً من الأسباب تعتمد عليه أو تستند إليه، وتكون بمنزلة الغريق في البحر أو الضال في التيه القفر، لا ترى لغناك إلا مولاك، ولا ترجو النجاة من هلكتك إلا منه، ويحتمل بناء طلب للمفعول والنائب قوله شيء، أي اضطرار العبد هو أقصى أوصاف عبوديته، ولذلك لم يطلب من العبد شيء أجل منه، وقوله: **(ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار)** من عطف اللازم على الملزوم، لأن الذلة والافتقار لازمان للمضطر، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ [آل عمران: ١٢٣] فذلتهم لوجبت لهم عزتهم ونصرتهم **(لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك)** أي عيوب نفسك ومنها شهوة الوصول إليه **(ومحو دعاويك)** أي نسبة ما لا تستحقه إليك كالقوة والعزة والغنى والقدرة وفناء ذلك، ومحوه بالرياضات والمجاهدات، أي لا تعتقد أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء ذلك برياضتك ومجاهدتك، فإن اعتقدت ذلك **(لم تصل إليه أبداً)** لأن ذلك من الأوصاف الذاتية الجبلية التي لا ينفك عنها العبد، وحينئذ فالوصول منة من الله عليك لا بكسبك كما أشار إلى ذلك بقوله: **(ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه)** أي إلى حضرة قربه **(غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته)** أي ستر عنك أوصافك، وأظهر عليك أوصافه فأفناك عنك وأبقاك به، أي غيب صفاتك الدنيئة بإظهار صفاته العلية عليك وإلى ذلك الإشارة بقوله في الحديث القدسي، ولا

لا بما منك إليه) الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بمحو صفات النفس وقطع علاقات القلب وشيء من ذلك لا يتصور من العبد من حيث هو لأن ذلك طبعه وجبلته ولو لم يكن إلا إرادته وعمله في تحصيل هذا الغرض بنفسه، فهما من جملة المساوي والدعاوى المحتاج إلى محوها.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى. يعني انقطاع أدب لا انقطاع ملل. وقال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: ولن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته. فلو خلى الله تعالى عبده وذلك لم يصل إليه أبداً ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إليه، تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب بذلك صفات عبده ونعوته عنه ويكون ذلك علامة على محبته له كما أشار إليه بقوله في الحديث القدسي: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها وعند ذلك لا تكون له إرادة ولا اختيار إلا ما ختاره له مولاه وأراده فيكون حينئذ واصلاً إلى الله بما مَنَّ الله إليه من الفضل والكرم لا بما منَّ العبد إليه من الاجتهاد والعمل فسبحان المتفضل على من شاء بما شاء.

وقال رضي الله عنه: **(لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول)** العبد مبتلى بنظره إلى نفسه وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه وشهود حوله وقوته عليه وهذا لا محيص له عنه إلا بما شاء ربه وقد يكثف حجابه فيرائي به ويطلب حمد الناس له وهذا كله من الشرك الخفي القادح في الإخلاص الحقيقي والإخلاص شرط في قبول العمل كما تقدم.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: مسكين ابن آدم جسم معيب وقلب معيب يريد أن يخرج من معيبين عمل بلا عيب. فعمل العبد لما كان بهذه المثابة لم يكن فيه أهلية لوجود القبول لولا جميل ستر الله تعالى وعظيم حلمه وبره فليعتمد المريد على فضل الله تعالى وكرمه لا على اجتهاده وعمله. قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: إذا طالبهم بالإخلاص تلاشت أعمالهم وإذا تلاشت أعمالهم زاد فقرهم وفاقتهم فتبرموا عن كل شيء ومن كل شيء لهم ومنهم. **(أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته)** شرفُ العبدِ ورفعةُ قدره إنما يكون بنظره إلى ربه عزّ وجلّ وإقباله عليه وسكونه إليه واعتماده عليه ودناءته وخسته وسقوطه من عين الله تعالى إنما تكون بنظره إلى نفسه وإقباله على غيره واستناده إلى سواه فالعبد عند عمله بالطاعة، معرَّض لهذه الأخطار من نظره إلى نفسه واستعظام عمله وعجبه بطاعته وسكونه إلى معاملته وليته يسلم فيه من دقائق الرياء والتصنع بخلاف المعصية في جميع هذه الأشياء فإنها تحمله على الحذر والخوف من ربه وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار إليه، فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذا أطاعه، أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه.

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قُلْ لِعِبَادِي الصِّدِيقِينَ لا تَغْتَرُّوا فإني إِنْ أَقَمْتُ عَلَيْهِمْ عَدْلِي وَقِسْطِي أُعَذِّبْهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ وَقُلْ لِعِبَادِي الخَطَّائِينَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَحْمَتِي فَإِني لا يَكْبُرُ عَلَيَّ ذَنْبٌ أَغْفِرُهُ». ولهذا المعنى قال أبو يزيد رضي الله عنه: توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة.

يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها **(فوصلك إليه بما منه إليك)** وهو إظهار صفاته عليك **(لا بما منك إليه)** من الاجتهاد في الأعمال. قال الشاذلي قدّس سره: لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته، أو اختيار من اختياراته، فلو خلى الله تعالى عبده وذلك لم يصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد الله أن يوصل عبده إليه تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب صفات عبده ونعوته عنه، وعند ذلك لا يكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره مولاه وأراده اهـ. **(لولا جميل ستره)** أي ستره الجميل **(لم يكن عمل أهلاً للقبول)** لأن العبد مبتلي بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه، وشهوده حوله وقوته عليه، وقد يكثف حجابه فيرائي به، ويطلب حمد الناس له هذا كله من الشرك الخفي القادح في الإخلاص، والإخلاص شرط في قبول العمل كما مر، وحينئذ فيكون اعتماد المريد في وصوله على فضل الله وكرمه، لا على اجتهاده ولو قال: لولا فضله لكان أولى **(أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته)** وذلك أن المطيع قد يعرض له عند طاعته أحوال كرؤية نفسه، والإعجاب والكبر وازدراء الغير، واستحقاقه الجزاء إلى غير ذلك من كبائر القلوب، فيخاف أن تنقلب طاعته معصية والعاصي ربما تحمله معصيته على الحذر والخوف من ربه، وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار إليه، فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذا أطاعه أحوج منه إلى حلمه إذا

(الستر على قسمين: سترٌ عن المعصية، وستر فيها. فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق) العامة يغلب عليهم شهود الخلق والتصنع والتزين لهم ومحبة حمدهم وكراهية ذمهم فهم يعملون المعصية ويستخفون بها ويطلبون الستر من الله عليهم فيها أي في حال كونهم عاملين بها لئلا يراهم الخلق فيسقطوا من أعينهم وفي أمثالهم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُم إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يُرْضَى مِنَ القَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في هذه الآية: الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أن الحق مطلع عليهم أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة. روى عدي بن حاتم رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُؤْمَرُ يَوْمَ القِيامَة بِناسٍ مِنَ النَّاسِ إلى الجَنَّةِ حَتى إذَا دَنَوا مِنْها وَنَظَرُوا إلَيْها واسْتَنْشَقُوا رِيحَها وَما أَعَدَّ اللَّهُ لأهْلِها نُودُوا أَنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْها فَلا نَصِيبَ لَهُمْ فِيها قالَ فَيَرْجِعونَ بِحَسْرَةٍ ما رَجعَ الأوَّلُونَ بِمِثْلِها فَيَقُولُونَ يا رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تَرِيَنا ما أَرَيْتَنا مِنْ ثَوابِكَ وَما أَعْدَدْتَ فِيها لأَوْلِيائِكَ كانَ أَهْوَنَ عَلَيْنا. قَالَ ذَلِكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُوني بالعَظَائِمِ وإذَا لَقِيْتُمُ النَّاسَ لَقَيْتُمُوهُمْ مُخْبِتينَ تُراؤونَ النَّاسَ بِخِلافِ ما تُعْطوني مِنْ قُلوبِكُمْ هِبْتُم النَّاسَ وَلَمْ تَهابُوني وَأَجْلَلْتُم النَّاسَ وَلَمْ تُجِلّوني وَرَكَنْتُمْ إلَى النَّاسِ وَلَمْ تَرْكَنُوا إليَّ فاليَوْمَ أُذِيقُكُمْ أَليمَ العَذَابِ مَعَ ما حُرِمْتُمْ مِنَ الثَّوابِ». وفي بعض الكتب المنزلة: «إنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَني أَرَاكُمْ فالخَلَلُ في إيمَانِكُمْ وَإنْ عَلِمْتُمْ أَنّي أَرَاكُمْ جَعَلْتُمُوني أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إلَيْكُمْ». وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ هو الرجل تمر به المرأة في القوم فيريهم أنه يغض بصره عنها ويود أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها. وقال في رواية أخرى: هو الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها فإذا رأى من القوم غفلةً، لحظ إليها ونظر، فإذا خاف أن يفطنوا غض بصره عنها فقد اطلع الله عزّ وجلّ على قلبه أنه يوَدُّ لو نظر إلى عورتها. وهذا كله شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار والخاصة من أهل الإيمان واليقين برآء من هذا الوصف الذميم لا التفات لهم إلى الخلق مدحاً ولا ذماً وهمتهم مصروفة عن النظر إليهم والاعتماد عليهم في نفع أو دفع ضرٍّ وحالهم إنما هو القناعة بعلم الله تعالى ومراقبة نظره فهم يطلبون الستر من الله عنها في أن يغيبها عن نظرهم ولا يحظرها بقلوبهم فتميل إليها أنفسهم فيعملون بها فيقعون في مخالفة ربهم والتعرض لسخطه والسقوط من عينه وشتان ما بين الحالين وإلى هذا المعنى أشار سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في دعائه بقوله: اللهم إنّا نسألك التوبة ودوامها ونعوذ بك من المعصية وأسبابا وذكرنا بالخوف منك

عصاه، وهذا زيادة تحذير من رؤية استحقاق الوصول بالأعمال، فإن ذلك غلط وجهل (**الستر على قسمين: ستر عن المعصية**) بأن يمنعه عنها ولا يهيئ له أسبابها، (**وستر فيها**) أي مع فعلها بأن لا يظهرها للناس حال فعلها أو بعده (**فالعامة**) لعدم تحققهم بحقائق الإيمان يغلب عليهم شهود الخلق، ويتوقعون منهم حصول المنافع ودفع المضار فيراؤونهم، ويتصنعون لهم ويتزينون، ويطمعون فيهم ويتملقون بين أيديهم، ويكرهون أن يطلعوا منهم على ما تسقط به منزلتهم من قلوبهم، ولذا (**يطلبون من الله تعالى الستر**) أي أن يستر عليهم (**فيها**) أي في المعصية أي في حال كونهم عاملين لها ومستخفين بها ومحبين لها وإنما طلبوا ذلك (**خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق**) إذا اطلعوا على حالهم فيفوتهم ما كانوا يتوقعون منهم من حصول المنافع ودفع المضار، وهؤلاء هم الذين يعتمدون على غير الله، وهم أهل الشرك الخفي الذي يخرج صاحبه من حقائق الإيمان، وفي مثلهم قال الله تعالى: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم﴾ [النساء: ١٠٨] (**والخاصة**) لتحققهم بحقائق الإيمان برآء من هذا الوصف الذميم، لا يلتفتون إلى الخلق مدحاً ولا ذماً، ولا يتوقعون منهم نفعاً، ولا ضراً ولا يعتمدون عليهم ولا يسكنون إليهم، وحالهم إنما هو القناعة بنظر الله إليهم (**يطلبون من الله الستر عنها**) بأن يغيبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم، فتميل إليها نفوسهم ويعملونها وإنما طلبوا ذلك (**خشية سقوطهم من نظر الملك الحق**) بمخالفته والتعرض لسخطه وشتان ما بين هذين الحالين، وهذا هو الغالب من حال الفريقين، وقد تطلب العامة الستر فيها امتثالاً لأمر الله ورسوله بالستر لمن ابتلى بشيء منها، ولا يكون عندهم استحقار بها، ولا محبة لها، وتطلب الخاصة الستر فيما وقع منهم بأن لا يفضحهم بين خلقه ولا بين يديه، لخجلهم من وقوع المعصية منهم، ولإساءة الناس ظنهم بالمنسوبين إلى الله إذا اطلعوا عليهم.

قبل هجوم خطراتها واحملنا على النجاة منها ومن التفكر في طرائقها وامحُ من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدها. **(مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّما أكرم فيك جميل ستره فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك)** العبد محل الآفات والعيوب وستر الله الجميل هو الذي يحبب الناس إلى الناس، فإذا أكرمك أحد، فلا يذهبن ذلك بك إلى أن ترى لنفسك وصفاً محموداً تستحق به الإكرام فتكون جاهلاً بنفسك، ولا يحملنك أيضاً رؤية إكرام الخلق لك، لوجود جهلهم بحالك على أن تحمدهم عليه دون ربك الذي اضطرهم إلى إكرامك وستر عنهم عيوبك وأظهر لهم محاسنك فتكون بذلك كافراً بنعمة ربك ظالماً بوضع الحمد في غير موضعه. **(ما صحبك إلا مَنْ صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك إلا مولاك الكريم خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه)** الصاحب على الحقيقة هو من بذل إحسانه إليك وأسبغ نعمه عليك ولم يمنعه من ذلك ما يعلمه من عيوبك التي يكرهها منك وليس ذلك إلا مولاك وخير صاحب لك أيضاً من اعتنى بك وآثرك وأرادك من غير منفعة ينالها منك وليس ذلك أيضاً إلا مولاك فاتخذه صاحباً ودع الناس جانباً. **(لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها)** نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه فيحق به الحق ويبطل به الباطل والآخرة حق والدنيا باطل فإذا أشرق نور اليقين في قلب العبد، أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل فكانت أقرب إليه من أن يرحل إليها فحق بذلك حقها عنده وأبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا والتجافي عن زهرتها والإقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ القَلْبَ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وانْفَتَحَ». قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «نَعَمْ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ والإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ والاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُوله». أو كما قال ﷺ: «وَعِنْدَ ذَلِكَ تَمُوتُ شَهَوَاتُهُ وَتَذْهَبُ دَواعِي نَفْسِهِ فَلا تَأْمُرُهُ بِسوءٍ وَلا تُطالِبُهُ بارْتِكابِ مَنْهِيٍّ وَلا يَكُونُ هَمُّهُ إلاّ المُسَارَعَةُ إِلَى الخَيْرَاتِ وَالمُبادَرَةُ لاغْتِنَامِ السَّاعَاتِ والأَوْقَاتِ وَذَلِكَ لاسْتِشْعارِهِ حُلُولَ الأَجَلِ وَفَوَاتَ صَالِحِ العَمَلِ». وإلى هذا المعنى الإشارة بحديثي حارثة ومعاذ رضي الله عنهما. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حَارِثَة»؟ فقال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً. قال: «انْظُرْ مَا تَقُولُ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً». فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت

(من أكرمك) أي أقبل عليك بإعطاء أو محبة أو شكر **(إنما أكرم فيك جميل ستره)** أي ستره الجميل عليك، فلولا وجوده ما أقبلوا عليك ولا أحبوك، ولا نظروا إليك بعين الرضا، إذ لو اطلعوا على ما أنت عليه لاستقذروك ونفروا عنك وحينئذ **(فالحمد)** لا ينبغي أن يكون إلا **(لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك)** فلا تحمده إلا من حيث إجراء الخير على يديه، لا من حيث إنه المكرم والمعظم حقيقة، إذ ليس ذلك إلا الله، فمن أقبل الناس عليه وأكرموه، فقد يغلط فيضع الحمد والثناء في غير موضعه، فيكون من الظالمين، وقد يغلط فيرى لنفسه وصفاً محموداً يستحق به الإكرام، فيكون من الجاهلين بأنفسهم الناظرين إلى عملهم الغافلين عن منة الله عليهم، فحذره المصنف من هاتين الغلطتين **(ما صحبك)** أي ليس الصاحب الحقيقي **(إلا من صحبك)** أي أقبل عليك بإحسانه **(وهو بعيبك عليم)** أي لم يمنعه من صحبته لك وإقباله عليك ما يعلمه من تفاصيل عيوبك **(وليس ذلك إلا مولاك الكريم)** وكذا من تخلق بأخلاقه من السادة الصوفية العارفين بالله تعالى، أما الذي يصحبك مع جهله بها، فليس بصاحب حقيقة، لأنه لا يثبت عند ظهورها له، وإن عزم على ذلك فليس في مقدوره الصبر عليه، وإن صبر فلا بد من تأثر يلحقه من ذلك **(خير من تصحب من يطلبك)** أي يريدك ويؤثرك على غيرك ويعتني بك **(لا لشيء يعود منك إليه)** أي وليس ذلك إلا مولاك، أو من تخلق بأخلاقه أما من يصحبك لفعلك معه ونفعك له، فليس بصاحب حقيقة، لأن قصده مجرد قضاء حوائجه منك، فإذا زال غرضه فارقك **(لو أشرق لك نور اليقين)** أي العلم بالله وبما وعد به على لسان نبيه، أي لو كثر وأضاء ذلك النور في قلبك **(لرأيت الآخرة)** في تلك الحالة **(أقرب إليك من)** نفسها في حالة **(أن ترحل إليها)** أي في حال ارتحالك إليها وحلولك فيها **(ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء)** أي الفناء الشبيه بالكسفة بفتح الكاف، أي الكسوف والتغير أو كسرها، وهي القطعة من الشيء التي يغطى بها الإناء، فلا تلتفت إليه النفس ولا تنظر ما فيه **(عليها)** وذلك أن نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه، فإذا أشرق في قلب العبد رأى به الحق حقاً

نهاري فكأني بعرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها فقال: «أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ الإيمانَ في قَلْبِهِ». قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة فدعا له رسول الله ﷺ فنودي يوماً في الخيل يا خيل الله اركبي فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد فبلغ أمه ذلك فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أخبرني عن ابني حارثة فإن يك في الجنة فلن أبكي ولن أجزع وإن يك غير ذلك بكيت ما عشت في الدنيا فقال ﷺ: «يا أُمَّ حَارِثَةَ إنَّها لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَلَكِنَّها جَنَّةٌ في جِنانٍ وَحارِثَةُ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى». فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة. وروى أنس أيضاً أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا مَعَاذُ؟ قال: أصبحت بالله مؤمناً. قال النبي ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ مِصْدَاقاً وَلِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً فَما مِصْداقُ ما تَقُولُ»؟ قال يا نبي الله ما أصبحت صباحاً قط إلاّ ظننت أن لا أمسي، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أن لا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلاّ ظننت أن لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة قال ﷺ: «عَرَفْتَ فَالزَمْ». فهذان الرجلان الفاضلان: حارثة بن سراقة، ومعاذ بن جبل الأنصاريان رضي الله تعالى عنهما، لما أشرق عليهما نور اليقين وتمكن من قلوبهما أي تمكين صدر منهما ما صدر مما ذكراه من فنون العبر وشاهدا أمر الدارين بمنزلة رأي العين فسلمت أعمالهما من العيوب والآفات وحفظاً من الهفوات والسيئات وظهرت منهما الأسرار والقلوب وسارعا في كل أمر محبوب وطارت أرواحهما اشتياقاً إلى لقاء الواحد الفرد وطابت أنفسهما بالموت حتى صار عندهما أحلى من الشهد حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم. وكذلك غيرهما من الصحابة وكبار التابعين وأئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين:

وَلَقَدْ أَجَابَ معبر عَنْ حَالِهِمْ ... فَاسْمَعْ مَقَالاً صَادِقاً مَقْبُولا

إنَّ الأُلَى مَاتوا عَلَى دِينِ الهُدَى ... وَجَدُوا المَنِيَّةَ مَنْهلاً مَعْسُولا

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه، أن حرام بن ملحان رضي الله عنه، وهو خال أنس، طعن يوم بئر معونة في رأسه فتلقى دمه بكفه ثم نضحه على رأسه ووجهه وقال: فزت ورب الكعبة وكان جبار بن سلمى فيمن حضر بئر معونة مع عامر بن الطفيل ثم أسلم بعد ذلك فكان يقول: مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم فسمعته يقول: فزت والله. قال: فقلت في نفسي والله ما فاز أليس قتلته حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة فقلت: فاز لعمر الله المطعون هاهنا والله أعلم هو عامر بن فهيرة رضي الله عنه.

وقال رسول الله ﷺ في شأن الأمراء الثلاثة يوم مؤتة: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَها جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَها ابنُ رُواحَةَ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَها خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ عَنْ غَيْرِ إمرَةٍ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ». أظنه قال ﷺ: «وَاللَّهِ مَا يَسُرُّنا أَنَّهُم عِنْدَنَا» أو قال: «مَا يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا». وعيناه تذرفان دموعاً فلله درّهم لقد حازوا مرتبة شريفة ومنزلة عالية منيفة وتباً لأمثالنا الذين عميت بصائرهم وأظلمت سرائرهم فحجبت عنا شموس المعارف ووقعنا في أودية المهالك والمتالف واغتررنا بهذه الدار الغرارة الفتانة السّحارة فتشبثت مخالبنا بشباكها وارتبكنا في مصايدها وأشراكها من غير شعورٍ منّا بحالها وتزوير محالها فكنا في قصدنا إليها، وتعويلنا عليها، بمنزلة ظمآن لاحَ له سرابٌ حسبه ماء. فلما جاءه لم يجد فيه هناء ولا غناء ثم مع هذا كله، ننتسب إلى الدين وندّعي كمال المعرفة واليقين والدخول في بحار أولياء الله المتقين، مع أن أحدنا لو

والباطل باطلاً، والآخرة حق، والدنيا باطل، فيبصر الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل فيقبل عليها بالتهيء والاستعداد لها، ويبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها، وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهد فيها والتجافي عن زهرتها والإقبال على الآخرة، والتهيؤ لنزول حضرتها ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال ﷺ: «إنَّ النُّورَ إذا دَخَلَ القَلْبَ انشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ، وَانْفَتَحَ» قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: نَعَمْ التَّجافي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإِنابَةُ إلى دارِ الخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ للموتِ قَبْلَ نُزُولِهِ، وعند ذلكَ تموتُ شَهَوَاتُهُ، وَتَذْهَبُ دَوَاعِي نَفْسِهِ فلا تَأْمُرُهُ إلا بخير، ولا تطالبُهُ بارتكابِ مَنْهِيٍّ، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره في كلّ حين بحلول الأجل، وفوات صلاح الأمل.

خُيِّرَ بين حلول الحين، أو البقاء في الدنيا معلقاً بأشفار العين، لاختار البقاء فيها على هذه الحال مع كونه لا يحدث نفسه في طاعة بازدياد ولا عن معصية بانتقال. وهذه كلها أخلاق يهودية لا تليق بمن ينتسب إلى هذه الملة المحمدية.

قال الله عزّ وجلّ مخبراً عن حال اليهود، وكاشفاً لأسرارهم، وهاتكاً لأستارهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦] فلو لم ينه العاقل عن محبة البقاء في هذه الدار ويأمره بإيثار دار القرار إلا تشبهه باليهود الناقضين للعهود المتهاونين بأوامر المعبود، لكان ذلك أبلغ ناهٍ وآمر فضلاً عما ورد في ذلك من مواعظ وزواجر نزع الله عن قلوبنا حجاب الغفلة والغرور، وحمانا عن مشابهة كل ظلوم وكفور، وحبب إلينا لقاءه ورزقنا ما رزق أولياءه وأصفياءه وأحباءه بمنه وكرمه. **(ما حجبك عن الله وجود موجودٍ معه ولكن حجبك عنه توهم موجود معه)** تقدم أن لا موجود سوى الله تعالى على التحقيق وأن وجود ما سواه إنما هو وَهمٌ مجرد فلا حاجب لك عن الله تعالى إلاّ توهم وجود ما سواه لا غير. والتوهمات باطلة فلا حاجب لك عن الله تعالى إذاً. وقد استوفى المؤلف رحمه الله تعالى، ذكر جميع أنواع الاعتبارات في هذا المعنى قبل هذا.

قال في **(لطائف المنن)**: وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم وإذا ثبتت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر، لأن الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله تعالى. فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار، ومن هاهنا يتبين لك أيضاً، أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب فما حجبك عن الله وجود موجود معه وذلك كرجل بات في مكان وأراد البراز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن البراز. فلما أصبح لم يجد هناك أسداً وإنما هو الريح انضغط في تلك الكوة فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد. **(لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها وجود أبصار لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته)** ظهور الحق تعالى من وراء حجاب المكونات هو الذي أوجب ظهورها ووقوع الأبصار عليها ولولا وجود حجابيتها لم يقع عليها أبصار ولتلاشت لوجود التجلي الحقيقي كما قال: لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته بل لم يكن هناك بصر ولا أبصار ولا مبصر كما جاء في الحديث: «حِجَابُهُ النَّارُ». وفي رواية: «النُّورُ لَوْ كَشَفَ عنها لأَحْرَقَتْ سَبَحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شيءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ». **(أظهر كل شيء لأنه الباطن وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر)** من أسمائه تعالى: الظاهر والباطن فاسمه الظاهر يقتضي بطون كل

(ما حجبك) أي المريد المحجوب **(عن الله وجود موجود)** من الأكوان الدنيوية والأخروية **(معه)** إذ لا وجود لما سواه على التحقيق **(ولكن حجبك عنه توهم موجود معه)** أي توهمك أن ما سواه له وجود مع أنه في ذاته عدم محض عند العارفين، ووجوده كوجود ظلال الشجر على الماء، فإنها لا تمنع سير السفن، فلا حاجب لك عن الله إلا توهم وجود ما سواه لا غير، وذلك كرجل بات في مان وأراد البراز، فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئيراً، أي صوت أسد، فمنعه ذلك عن البراز، فلما أصبح لم يجد هناك أسداً، وإنما الريح انضغطت في تلك الكوة، فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد **(لولا ظهوره في المكونات)** أي تجليه عليها بالوجود **(ما وقع عليها وجود أبصار)** أي لم توجد وإذا لم توجد فلا تبصر، فوجودها إنما هو بطريق العارية، وظهور الحق فيها كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، وإلا فهي في ذاتها عدم مخض لا وجود لها في ذاتها كما تقدم غير مرة، ويحتمل أن المعنى أن ظهور الحق تعالى لنا من وراء حجاب المكونات، هو الذي أوجب ظهورها، ووقوع الأبصار عليها، ولولا تجليه في هذه المكونات بأن يتجلى التجلي الحقيقي الذي لاخفاء معه لاضمحلت وتلاشت، ولم تقع عليها أبصار بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإلى ذلك أشار بقوله: **(لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته)** بل لم يكن هناك بصر ولا إبصار ولا مبصر كما جاء في الحديث حجابه النور، وفي رواية حجابه النار لو كشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره **(أظهر كل شيء لأنه الباطن)** أي فإن مقتضى اسمه الباطن أن لا يشاركه في البطون شيء، فلذا أظهر الأشياء كلها، أي جعلها ظاهرة ولا باطن فيها غيره **(وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر)** أي أن مقتضى اسمه الظاهر أن لا يشاركه في الظهور شيء، فلذا طوى وجود كل شيء،

شيء حتى لا ظاهر معه فينطوي حينئذ وجود كل شيء واسمه الباطن، يقتضي ظهور كل شيء حتى لا باطن معه فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء. فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار والحمد لله. **(أباح لك أن تنظر ما في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات ﴿قُلِ انْظُرُوا ماذا في السَّمٰوٰاتِ﴾** [يونس: ١٠١] **(فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السماوات لئلا يدلك على وجود الأجرام)** أمر الله تعالى بالنظر في المكونات ليس لذاتها لأن في ذلك البعد عن الله تعالى بالنظر إلى ما سواه ولم يبح هذا وإنما أمرهم بذلك ليتوصلوا بنظرهم فيها إليه لوجود ظهوره فيها والإشارة إلى هذا المعنى بفي في قوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فالمعنى المقصود في وجود الظرفية ومنها يستفاد وهو معنى قوله: فتح لك باب الأفهام فلو أسقطها وقال انظروا السماوات لكان فيه دلالة على وجود الأجرام وهي أغيار له وفيها البعد عنه. فكيف يدل على ذلك وهو لم يأذن فيه. قال في **(لطائف المنن)**: فما نصبت لك الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها فمراد الحق منك أن تراها بعين مَنْ لا يراها تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها. قال: ولنا في هذا المعنى:

مَـا أُبِـيـنَـتْ لَـكَ الـعَـوَالِـمُ إلاَّ ... لِـتَـرَاهُ بِـعَـيـنِ مَـنْ لا يَـرَاهَـا
فَارْقَ عَنْها رُقِيَّ مَنْ لَيْسَ يَرْضَى ... حَـالَـةً دُونَ أَنْ يَـرى مَـوْلاهـا

(الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته) الأكوان من ذاتها العدم المحض كما تقدم، وإنما حصل لها وصف الثبوت، بإثبات الله تعالى لها وجعلها أكواناً. فالثبوت لها أمر عرضي، والحق اللازم هو وجود أحدية الله عزّ وجلّ. والأحدية مبالغة في الوحدة ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يمكن أن يكون أشد ولا أكمل منها فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد إذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان في ذلك تعدد واثنينية كما قيل:

رَبٌّ وَعَـبْـدٌ وَنَـفْـيٌ وَضِـدٌّ ... قُـلْـتُ لَـهُ لَـيْـسَ ذَاكَ عِـنْـدي
فَـقَـالَ مَـا عِـنْـدَكُـمْ فَـقُـلْـنَـا ... وُجُـودٌ فـقـد وفـقـد وجـدي
تَـوْحِـيـدُ حَـقٍّ بِـتَـرْكِ حَـقٍّ ... وَلَـيْـسَ حَـقٌّ سـواي وَحْـدي

وأنشدوا أيضاً:

سِرُّ سِرِّي مِنْ جَنَابِ القُدْسِ أَفْنانِي ... لكِنْ بِذَاكَ الفَنَا عَنِّي قَدْ أَحيانِي
وَرَدَّني لِلبَقَا حَتَى أُعَبِّر عَنْ ... جَمَالِ حَضْرَتِهِ لِكُلِّ هيمانِ
وَطِرْتُ في مَلَكُوتٍ مِنْ عَجَائِبِهِ ... لَمْ أَلْقَ غَيْرَ وُجودٍ مَا لَهُ ثاني

أي لم يجعل لغيره وجوداً من ذاته، بل المكونات جميعها عدم محض ولا وجود لها إلا من وجوده.

وحاصله أن من أسمائه تعالى الظاهر والباطن، فاسمه الظاهر يقتضي بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه، **فينطوي** حينئذ وجود كل شيء، واسمه الباطن يقتضي ظهور كل شيء حتى لا باطن معه، **فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء**، أي بوجوده فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار، ولا وجود لغيره إلا بطريق التبع عند أرباب البصائر، بخلاف غيرهم من المحجوبين **(أباح لك)** أي أمرك الله تعالى **(أن تنظر ما في المكونات)** وهو جمال الحق سبحانه، أي أن تتصدى بنظرك القلبي حتى تشاهد أنه الموجود في المكونات أي الظاهر فيها **(وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات)** بأن تحتجب بها عنه، فلا تشاهده فيها ثم استدل على ذلك وبينه بقوله: **(قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّمٰوٰاتِ)** فأتى بفي الظرفية المشعرة بأن الاعتبار بالمظروف دون الظرف. قال في لطائف المنن: فما نصب لك الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها اهـ. وأشار إلى ذلك هنا بقوله ﴿قل انظروا ماذا في السمٰوات﴾ **(فتح لك باب الإفهام)** أي نبهك وأيقظك لما هو المطلوب منك، وهو مشاهدة ما فيها كما يفهم من الظرفية **(ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام)** فتحتجب بها عنه ولا تشاهده فيها، فتصير مقصداً مع أنها وسيلة إذ ليست إلا مرائي، ومجالي يتجلى فيها الحق سبحانه لأرباب الشهود، ويستدل بها عليه أرباب الحجاب، ثم ذكر حاصل ما تقدم بقوله: **(الأكوان)** من حيث ذاتها عدم محض وإنما هي **(ثابتة بإثباته)** أي إنما حصل لها وصف الثبوت والتحقق بإثبات الله لها، أي ظهوره فيها، فالثبوت لها أمر عرضي ولا ثابت حقيقة إلا هو ولذا قال: **(وممحوة بأحدية ذاته)** أي من نظر إلى أحدية ذاته، لم يجد للأكوان ثبوتاً وتحققاً حينئذ، وإنما لها ثبوت في النظر إلى الواحدية، لأن الأحدية عند

وأنشد المؤلف رحمه الله تعالى في **(لطائف المنن)** يوصي رجلاً من إخوانه اسمه حسن فقال:

حَسَنٌ بِأَنْ تَدَعَ الوُجُودَ بِأَسْرِهِ ... حَسَن فَلا يَشْغَلْكَ عَنْهُ شَاغِلُ
وَلَئِنْ فَهِمْتَ لَتَعْلَمَنَّ بِأَنَّهُ ... لا تَرْكَ إلاّ لِلذي هُوَ حَاصِلُ
مَتَى شَهِدْتَ سِوَاهُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ ... مِنْ وَهْمِكَ الأَدْنَى وَقَلْبُكَ ذَاهِلُ
حَسْبُ الإِلهِ شُهُودُهُ لِوُجُودِهِ ... وَاللهُ يَعْلَمُ مَا يَقُولُ القَائِلُ
وَلَقَدْ أَشَرْتُ إِلى الصَّرِيحِ مِنَ الهُدَى ... دَلَّتْ عَلَيْهِ إِنْ فَهِمْتَ دَلائِلُ
وَحَدِيثٍ كانَ وَلَيْسَ شَيء غَيرَهُ ... يَقْضي بِهِ الآنَ اللبِيبُ العَاقِلُ
لا غَرْوَ أَنْ لا نِسْبَةً مَثْبُوتَةً ... لِيُذَمَّ ذو تركٍ وَيُحْمَدَ فَاعِلُ

وقال رضي الله تعالى عنه: **(الناس يمدحونك لما يظنونه فيك فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها)** ذم العبد لنفسه واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها مطلوب منه، لأن ذلك يؤديه إلى الحذر من غرورها وسرورها فتصلح بسبب ذلك أعماله وتصدق أحواله وإلا فسدت عليه واعتلت لدخول الآفات عليها ولا يصدنه عن ذلك ثناء الناس عليها ومدحهم له لأنه يعلم من عيوب نفسه ما لا يعلمه غيره ثم إنهم لما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له وحسن الظن به، فينبغي أيضاً أن يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه وسوء اعتقاده فيها.

قال بعضهم: مَنْ فرح بمدح نفسه فقد أمكن الشيطان أن يدخل في بطنه. وقال آخر: إذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال بئس الرجل أنت فأنت والله بئس الرجل. وقيل لبعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم: لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم فغضب. وقال إني لأحسبك عراقياً. وقال بعضهم لما مدح: اللهم إن عبدك تقرَّب إلي بمقتك فأشهدك على مقته. وقال آخر: اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا ما لا يعلمون.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه: وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلائق لأن الممدوح هو المقرب عند الله تعالى والمذموم على الحقيقة هو المبعد عن الله تعالى الملقي في النار مع الأشرار فهذا الممدوح إن كان عند الله تعالى من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى. قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه انتهى كلام أبي حامد رضي الله تعالى عنه. **(المؤمن إذا مُدح استحيا من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه)** المؤمن الحقيقي هو الذي لا يشهد من نفسه صفة

العارفين هي الذات البحت، أي الخالصة عن الظهور في المظاهر، وهو الأكوان والواحدية هي الذات الظاهرة في الأكوان، فيكون للأكوان حينئذ ثبوت، باعتبار ظهور الحق فيها، ولذا يقولون بلسان الإشارة والأحدية بحر بلا موج والواحدية بحر مع موج، فإن الحق سبحانه عندهم كالبحر والأكوان كالأمواج التي يحركها ذلك البحر، فهي ليست عينه ولا غيره هذا هو توحيد العارفين، وقد كرر المصنف الكلام عليه في هذا الكتاب، وأبرزه في عبارات مختلفة محاولة على أن يحقق عندك الحق، ويبطل عندك الباطل، وقد أفرده بعضهم بالتأليف، وتكلم على وحدة الوجود بما لا مزيد عليه.

(الناس يمدحونك لما يظنونه فيك) من الأوصاف الحميدة **(فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها)** أي فلا تغتر بمدح الناس لك، وثنائهم عليك، بل ارجع على نفسك باللوم والذم على تلبسها بخلاف ما يظن الناس فيك، ولذا قال علي كرّم الله وجهه: اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون. ويؤخذ من قوله فكن أنت الخ أنه ليس مأموراً بتكذيب الناس، ولا بالسعي في تبديل ظنهم فيه، وإنما هو مأمور بعدم الاغترار، وتقديم علمه على ظنهم.
نعم إن كان المادح كاذباً في مدحه بارتكاب المبالغة والغلو تأكد تكذيبه، وزجره وعليه يحمل قوله ﷺ: «احثوا التراب في وجه المداحين» فمدحه حينئذ منهي عنه، وكذا لو كان مدحه يورث عند الممدوح غرة، ويغلطه في نفسه وعليه يحمل قوله ﷺ لمن مدح عنده رجلاً قطعت عنق صاحبك وقال: إياكم والمدح فإنه الذبح **(المؤمن)** الحقيقي **(إذا مدح استحيا من الله أن يثني عليه بوصف لا يشهده من نفسه)** أي لا يرى ذلك الوصف الذي مدح عليه من نفسه، وإنما يراه منة من الله عليه، فلا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق بها أن يثنى عليه، وإنما يشهد ذلك من ربه، فإذا أثنى الناس عليه وذكروا محاسنه استحيا من الله استحياء تعظيم، وإجلال أن يثني عليه بصفة ليست منه، فيزداد بذلك مقتاً لنفسه واستحقاراً لها،

محمودة يستحق بها أن يمدح أو يثنى عليه وإنما يشهد ذلك من ربه عزّ وجلّ فإذا أثنى الناس عليه وذكروا محاسنه استحيا من الله تعالى استحياء تعظيم وإجلال أن يثنى عليه بصفة ليست فيه فيزداد بذلك مقتاً لنفسه واستحقاراً لها ونفوراً عنها وتقوى عنده رؤية إحسان الله تعالى إليه وشهود فضله في إظهار المحاسن عليه وهذا هو الشكر الذي ينال به المزيد مع سلامته من السكون إلى ثناء العبيد. **(أجهل الناس مَنْ ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس)** الاغترار بمدح الناس وثنائهم غاية في الجهل والغباوة وذلك من علامات المقت لأن المغتر بذلك ترك يقينه بنفسه لظن غيره به وهو على كل حال أعلم بنفسه وقد شبه الحارث المحاسبي رضي الله عنه، الراضي بالمدح بالباطل بمن يهزأ به. ويقال له: إن العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به.

قلت: ولا شك أن الذنوب والعيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه ولا فرق بين الحالين إلا أنه من حال المدح يعلم أن المادح لم يشاركه في معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزئ للمستهزأ به في معرفة حال ما يخرج من جوفه فهو بجهله وغباوته، قد رضي بأن يكون له في قلوب العباد الجاهلين بحاله قدر وجاه من غير مبالاته بسقوطه من عين مولاه الذي يعلم من حاله ما لا يعلمه هو ولا غيره من حيث رضي بالمدحة وفرح بها ولم يقابل ذلك بالإباء والكراهية هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين وأما إن كان جاهلاً أو فاسقاً فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به.

قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: تزكية الأشرار هجنة بك وحبهم لك عيب عليك. وقيل لبعض الحكماء: إن العامة يثنون عليك فأظهر الوحشة من ذلك وقال: لعلهم رأوا مني شيئاً أعجبهم ولا خير في شيء يسرهم ويعجبهم.

ويروى عن بعض الحكماء أنه مدحه بعض العوام فبكى فقال له تلميذه: أتبكي وقد مدحك؟ فقال له: إنه لم يمدحني حتى وافق بعض خلقي خلقه فلذلك بكيت. فانظر هذا فقد نبهك هذا الحكيم على العلة في ذلك. **(إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فأثن عليه بما هو أهله)** المؤمن هو الذي لا يرى نفسه أهلاً لأن يمدح أو يثنى عليه لأن موجبات ذلك ليس له منها شيء كما تقدم. فإذا أطلق الله تعالى ألسنة الناس بالثناء عليه، ولا أهلية فيه لذلك فينبغي أن يعرف الحق لأهله فيستعمل نفسه بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ليكون ذلك شكراً لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليه من غير استحقاق لذلك ولا لثبوت أهلية. **(الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق)** تقدم أن الزهاد في غيبة عن الله تعالى فهم لا يشاهدون إلا الخلق فإذا مدحوا وأثني عليهم شهدوا ذلك من الخلق فانقبضوا عند ذلك لأنهم يخافون فوات نصيبهم من ربهم لأجل ما يتوقعون من

ونفوراً عنها وتقوى عنده رؤية إحسان الله إليه، وشهود فضله في إظهار المحاسن عليه، وهذا هو الشكر الذي به ينال المزيد مع سلامته من السكون إلى ثناء العبيد **(أجهل الناس)** أي أشدهم جهلاً **(من ترك يقين ما عنده)** أي اليقين الذي عنده، وهو علمه بعيوب نفسه وتقصيره مع ربه **(لظن ما عند الناس)** أي لأجل الظن الذي عند الناس، وهو ظنهم صلاح حاله حتى مدحوه وأثنوا عليه، فإذا اغتر ذلك الممدوح، واعتقد استحقاقه لما مدح به واغتر بشهادة الخلق فيه بذلك كان أجهل الناس، لأنه ألغى اليقين وقدم الظن عليه، وقدم ما عند غيره على ما عند نفسه، وقد شبه ذلك بعضهم بمن يهزأ بك، ويقول لك إن العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك، وأنت ترضى بالسخرية بك، وتفرح بذلك، ولا شك أن العيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفك **(إذا أطلق الثناء)** أي ألسنة الناس بالثناء **(عليك ولست بأهل)** أي والحال إنك لست أهلاً لما يثنون به عليك إما لعدم وجود ذلك فيك، أو لكونك معيباً بالعيوب الأصيلة والعارضة، فلا تستحق ثناء عليك لولا فضل الله عليك وستره الجميل **(فأثن عليه بما هو أهله)** أي فالأدب أن تثني على سيدك بما هو أهله، ليكون ذلك شكراً لنعمة ستره عليك، وإطلاق الألسن بمدحك مع عدم أهليتك لذلك، ولا تغتر بأقوال المادحين **(الزهاد إذا مدحوا)** أي مدحهم أحد من الناس **(انقبضوا لشهودهم الثناء)** صادراً **(من الخلق)** وغيبتهم عن الرب، وإنما انقبضوا خوف الاغترار بذلك الثناء، فيفوتهم نصيبهم من ربهم، والعارفون إذا مدحوا **(انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق)** فهم حاضرون مع ربهم لا يشاهدون معه غيره، قائلون ألسنة الخلق أقلام الحق، فإذا مدحوا شهدوا الثناء منه، فانبسطوا لذلك وكان مزيداً في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم، فلا يحصل عندهم إعجاب ولا اغترار، قيل: وهذا محمل قوله ﷺ إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه، ولذا كان يمدح المصنف شيخه المرسي، وهو ساكت ويقع عنده المدح موقعاً عظيماً، وكذا وقع لغيره من العارفين، وصاحب هذا المقام إذا ذمه

الاغترار بذلك والعارفون حاضرون مع ربهم فهم لا يشاهدون معه غيره. فإذا مدحوا شهدوا الثناء من ربهم فانبسطوا لذلك وكان ذلك مزيداً في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم كان بعضهم يمدح وهو ساكت فقيل له في ذلك فقال: وما عليَّ من ذلك ولست أغلط في نفسي بل لست في البين والمجرى والمثنى عليه الله عزّ وجلّ وقيل هذا المعنى في الخبر المروي: إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه. قال أبو طالب المكي رضي الله عنه وفيه طريق للعارفين بأن يعلو الإيمان العلي إلى المولى الأعلى فيفرح بذلك لمولاه ويضيفه إلى سيده الذي تولاه فيرد الصنعة إلى صانعها ويشهد من الفطرة فاطرها فيكون ذلك مدحاً للصانع ووصفاً للفاطر لا ينظر إلى وصفه ولا يعجب بنفسه انتهى.

قلت: وللمؤلف رحمه الله قصائد في مدح شيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنه، وكان ينشدها كثيراً بين يديه ويقع ذلك منه موقعاً عظيماً، وكان يستعيد منه بعضها ويقول له في بعضها: أيدك الله بروح القدس نحو ما كان يقول رسول الله ﷺ لشاعره حسان بن ثابت، مع أن حب المدح عندهم من الرذائل التي تشبه الفضائل، وبهذا النظر والشهود الجمعي استقام لهم من مدحهم لأنفسهم وثنائهم عليها ما لم يستقم لغيرهم كما وقع لجماعة منهم. وقد روي في ذلك عن سيدي عبد القادر الجيلاني، وسيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنهم، وغيرهم غير شيء مع أن ذلك معدود عندهم من الصدق القبيح، وما ذلك إلا لما ذكرناه ولا يتأول ما وقع لهم من ذلك بما تأول به علماء الظاهر مدح يوسف عليه الصلاة والسلام لنفسه وثناءه عليها بغاية الحفظ والعلم لعدم الحاجة إليه في هذا المقام والله تعالى أعلم. وعلامة الصادق في حب المدح، وإن كان صاحب هذا المقام لا يحتاج إلى علامة، أن لا يكره ذم الناس له من حيث نسبة ذلك إليهم لأنهم مصروفون في قبضة القدرة فيسمح لهم ويصفح عنهم ولا يجد في قلبه عليهم ولا يصل بشيء من الأذى إليهم كما قيل:

رُبَّ رَامٍ لـي بـأَحْـجـارِ الأَذَى ... لَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ العَطْفِ عَلَيْهِ
فَـعَـسَـى يَـطّـلـعُ الـلّـهُ عَـلَـى ... فَـرَحِ الـقَـوْمِ فَـيُـدْنِـيـنـي إلَـيْـهِ

(متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء وإذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك في عبوديتك) القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ والعمل على نيله وهو مناقض للعبودية عند العارفين فمن وجد ذلك فليعرف به عدم صدقه في عبوديته وأنه طفيلي بين أهل الله تعالى في ادعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها. والطفيلي، هو الذي يأتي الولائم والضيافات فيدخل مع أهلها من غير دعوة، وهو منسوب إلى رجل من أهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان كان يقال له: «طفيل الأعراس» و«طفيل العرائس» وكان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها فشبه صاحب الكتاب هذا به. قال الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه، أكثر الخلق مع الله تعالى في أحوالهم وإرادتهم على الظنون ما تحقق منهم له إلا قليل. ألا تراه تعالى يقول وما يتبع أكثرهم إلاّ ظناً فمن تحقق في حاله مع الله تعالى غاب عن كل ما منه وله من الأحوال والأقوال والأفعال نظراً إلى ما إليه من رعاية الحق وحياطته وتوليه وكان للحق من حيث الحق له لا من حيث هو للحق ولكن أكثر العبيد يشيرون إليه بالمعرفة ويظهرون حالة المحبة فإذا ورد عليهم وارد بلاء أو خلاف مراد، رجعت نفوسهم إلى حد الإشفاق عليها والاهتمام بها ونسوا ما ادعوا به وما أشاروا إليه ولو كانوا للحق من حيث الاستحقاق، لنسوا في جنب ما أشار إليه جميع الموارد ساء أم سر لأن من حصل في ميدان الوصول لا يعترض عليه عارض خلافه وأذهله حاله عما

أحد لا يجد في نفسه عليه، ولا يؤذيه لعدم شهوده الذم صادراً منه **(متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء وإذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك)** أي يطفلك على أهل الله ولست منهم، بل أنت داخل معهم في أمر لا تستحقه، كما أن الطفيلي يدخل مع الأضياف في ضيافتهم، ولا يستحق الدخول معهم، وهو منسوب لطفيل رجل من أهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، وكان يقال له طفيل الأعراس **(وعدم صدقك في عبوديتك)** لأن القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ والعمل على نيله، وهو مناقض للعبودية عند العارفين، فمن وجد ذلك فليعرف عدم صدقه في عبوديته، وأنه طفيلي بين أهل الله في ادعائه مقاماتهم، وهو لم يؤهل لها، بل الحاصل عنده مجرد دعوى نعم إن كان قبضه خوفاً من عدم صبره ومقاومته للقهر الإلهي، فيحصل عنده بعض ضجر، وكان بسطه لعدم وقوعه في ذلك ففيه اعتناء من الحق به، حيث لم يوقعه في أمر يشوش عليه حاله، لم يكن دليلاً على ما ذكر، لأن العارفين لا بد من بقايا

سواه. وقال رضي الله عنه: **(إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك)** الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذا جرى القدر عليه بذلك وإنما يناقضها الإصرار عليه فإذا وقع من العبد ذنب فينبغي له أن يبادر إلى التوبة منه ولا ييأس بسبب وقوعه فيه من الاستقامة مع ربه ويرى أنه طرده وأبعده رؤية توجب له القنوط من رحمة الله تعالى واليأس من روح الله تعالى لأنه قد يكون ذلك الذنب آخر ذنب قدر عليه وقد وقع ذلك وفرغ منه. **(إذا أردت أن يُفتَحَ لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه)** الرجاء والخوف حالان عن مشاهدتين فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء، فليشهد ما منَّ الله له من الفضل والكرم والإسعاف والألطاف فسيغلب عليه حينئذ حال الرجاء ومن أراد أن يفتح له باب الخوف فليشهد ما منّه إلى الله تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الأدب بين يديه فسيغلب عليه حينئذ حال الخوف. **(ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً)** تقدم أن القبض تؤثره العارفون على البسط لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط وقد ينفتح لهم من أبواب المعارف ما لا ينفتح لهم في البسط، فينبغي للعبد أن يعرف نعمة الله تعالى عليه في ليل القبض كما يعرفها في إشراق نهار البسط لما يعلم أن في الليل من المنافع ما ليس في النهار فليكل علم ذلك إلى ربه وليحسن ظنه به فإنه لا يدري أيهما أقرب إليه نفعاً كما أشار إليه بالآية الكريمة وتشبيه القبض بالليل والبسط بالنهار مجاز بديع وقد تقدم نحوه في كلام الأستاذ سيدي أبي الحسن رضي الله عنه. **(مطالع الأنوار القلوب والأسرار)** نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد مطالعها وموضع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم وهذه هي الأنوار الحقيقية من المطالع الروحانية بخلاف الأنوار الحسية قال في **(لطائف المنن)**: واعلم أن الله سبحانه وتعالى، إذا تولى ولياً، صان قلبه من الأغيار وحرسه بدوام الأنوار حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان الله سبحانه وتعالى، قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك.

شيء من بشريتهم يتمكنون به من مخالطة الخلق، ومن لازم البشرية ذلك، فالخطاب المذكور مع المريدين **(إذا وقع منك ذنب)** على حسب مقامك **(فلا يكن سبباً ليأسك)** أي يقتضي يأسك **(من حصول الاستقامة)** أي اعتدال أحوالك **(مع ربك)** بأن تعتقد بسبب صدور الذنب أن حصول الاستقامة لك مستحيل، فيحملك ذلك على تعاطي غيره من الذنوب، وهذا غلط، لأن الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة، والهفوة إذا جرى القدر عليه بذلك، وإنما يناقضها الإصرار عليه، والعزم على فعله ثانياً، فالواجب عليك أن تتوب إلى مولاك، وترجع إليه ولا تيأس من رحمته **(فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك ويقبل عليك المولى بعد ذلك بتوفيقه وإحسانه)** ثم أشار إلى ما يكون سبباً في الرجوع إلى الله عند صدور الذنب فقال: **(إذا أردت أن يفتح)** الله **(لك باب الرجاء)** فيه **(فاشهد)** أي استحضر في نفسك **(ما)** هو واصل **(منه إليك)** من جلب المنافع ودفع المضار من حين كونك في بطن أمك إلى الوقت الذي أنت فيه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الرجاء فيه، وعدم اليأس من رحمته، ولو مع الوقوع في الذنب **(وإذا)** غلب عليك الرجاء، وخفت أن يوقعك ذلك في مخالفته و **(أردت أن يفتح لك باب الخوف)** ليكفيك عن ذلك **(فاشهد)** أي استحضر في نفسك **(ما)** هو واصل **(منك إليه)** من المخالفات والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الخوف، فتكف عن مخالفته فالرجاء والخوف حالان ينشآن عن المشاهدتين المذكورتين، وشبههما بشيء عليه باب مغلق استعارة بالكناية، والباب تخييل والفتح ترشيح أو الإضافة للبيان **(ربما أفادك)** أيها العارف **(في ليل القبض)** أي القبض الشبيه بالليل بجامع السكون في كل **(ما لم تستفده)** أي علوماً ومعارف لم تستفدها **(في إشراق نهار البسط)** أي البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار في كل لما تقدم أن من حصل عنده البسط، تتهيج نفسه إلى إظهار ما عنده من المعارف وغيرها، فربما كان ذلك سبباً لحجبه بخلاف من حصل عنده القبض، فإن نفسه تنكسر وتذل، فيكون ذلك سبباً في إفاضة الله الخير عليه، ولذا كان العارفون يؤثرونه على البسط لما فيه من عدم حظ النفس، ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط، وقد يحصل عندهم فيه جزع، وعدم صبر على مقاومة القهر الإلهي بخلاف البسط، فينبغي للعبد أن يعرف قدر نعمة الله عليه في حال القبض كما يعرفها في حال البسط، وأن يكل كل ذلك إلى ربه، ويحسن ظنه به، فإنه لا يدري أيهما أقرب له نفعاً. كما قال تعالى: ﴿لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ [النساء: ١١] مطالع الأنوار أي مواضع طلوع وشروق الأنوار المعنوية، وهي نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد **(القلوب والأسرار)** أي قلوب العارفين وأسرارهم، فهي كالسماء التي تشرق فيها الكواكب

يقول الله تعالى بما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن فانظر رحمك الله، هذا الأمر الأكبر الذي أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً ولهذا. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟ ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولي لعبد لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته قال: ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صليت خلف شيخي صلاة فشهدت ما بهر عقلي وذلك أني شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته وانبثّت الأنوار من وجوده حتى إني لم أستطع النظر إليه قال: فلو كشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لا نطوى نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب وأنوار قلوب أولياء الله تعالى لا كسوف لها ولا غروب كذلك قال قائلهم:

إنَّ شَمْسَ النَّهارِ تَغْرُبُ بالليْلِ ... وَشَمْسُ القُلوبِ لَيْسَتْ تَغيبُ

(نور مستودع في القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب) نور اليقين المستودع في القلوب يستمد ويتزايد ضياؤه من النور الوارد من خزائن الغيوب، وهو نور الأوصاف الأزلية، كما ذكرناه عن الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه، قبل هذا وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى، أنار الظواهر بأنوار آثاره وأنار السرائر بأنوار أوصافه. **(نورٌ يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به عن أوصافه)** النور المدرج بالحواس يكشف لك به عن آثاره وهي الأكوان المحدثة وليس لك إلى ذلك كبير حاجة إلا من حيث يستدل به على المؤثر والنور المستودع في القلوب يكشف لك به عن أوصافه الأزلية حتى تراها عياناً وفي هذا غاية بغيتك وبه شرف قدرك ومنزلتك إذ بذلك تتحقق في المعرفة وترفع في المشاهدة ولا تحتاج إلى دليل يدلك وهذا فرقان ما بين النورين قال في **(لطائف المنن)**: نور الشمس تشهد به الآثار ونور اليقين تشهد به المؤثر. قال: ولنا في هذا المعنى:

هذِهِ الشَّمْسُ قابَلَتْنا بِنورِ ... ولَشَمْسُ اليَقينَ أَبْهَرُ نُورا

فَرَأَيْنا بِهذِهِ النورَ لكِنْ ... بِهاتيكَ قَدْ رَأَيْنا المُنيرا

(ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفو بكثائف الأغيار) القلوب نورانية فتحتجب بوقوفها مع لطائف الأغيار النورانية من العلوم والمعارف والنفوس ظلمانية فتحتجب بمحبتها لكثائف الأغيار الظلمانية من

وتطلع، وتقدم أن تلك الأنوار أشد إشراقاً من أنوار الكواكب. قال بعضهم: لو كشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه، لانطوى نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوار القلوب، فإن ذلك النور يطرأ عليه الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أهل الله لا كسوف لها ولا غروب اهـ.

قال الشاذلي قدّس سره: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن الطائع، فمن لطف الله عدم الاطلاع على أنوار العارفين. فقد قال المرسي قدّس سره: لو كشف عن حقيقة الولي لعبد، لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته اهـ. **(نورٌ مستودع في القلوب)** وهو نور اليقين المودع في قلوب العارفين **(مدده)** أي يمتد ويتزايد ضياؤه **(من النور الوارد من خزائن الغيوب)** وهو نور الأوصاف الأزلية فإذا تجلى الله عليهم بأوصافه تزايد ذلك النور الحاصل في قلوبهم، وذلك دليل على عناية الله بهم قال في: **(لطائف المنن)**: واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا تولى ولياً صانَ قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار اهـ. ثم أشار إلى أن النور المستودع في القلب على قسمين بقوله: **(نور يكشف لك عن آثاره)** أي عن أحوال المكونات، فتطلع على أحوال العباد وعلى ما فوق السماء وما تحت الأرض وهذا يسمى: كشفاً صورياً، وهو ليس معتنًى به عند المحققين **(ونور يكشف لك به عن أوصافه)** أي أوصاف جلاله وجماله، وذلك النور يحصل إلا من تجلي تلك الأوصاف عليه، وهذا يسمى كشفاً معنوياً، وهو المعتد به عندهم، ولم يقل ونور يكشف لك به عن ذاته، لأن تجلي الذات البحت الخالية عن الصفات في مختلف فيه عندهم، فبعضهم نفاه وبعضهم أثبته، ويسميه الشيخ محيي الدين بالبوارق، لكونه يطرأ ويزول سريعاً، لأن القدرة البشرية لا تطيق دوامه **(ربما وقفت القلوب مع الأنوار)** أي فتحتجب بها وتتعطل عن السير إلى الله تعالى: **(كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار)** أي بكثائف هي الأغيار أي الشهوات واللذات التي هي غير المولى سبحانه، فالحجاب عن المولى قسمان: نوراني وهو العلوم والمعارف إذا وقفت القلوب معها، وركنت إليها وجعلتها غاية مقصدها، وظلماني وهو شهوات النفوس وعاداتها ووصفها

العادات والشهوات. فالقلوب محجوبة بالأنوار كما أن النفوس محجوبة بالظلمات والحق وراء ذلك كله. قال أبو الحسن التستري رحمة الله عليه في قصيدته النونية:

تَقَيَّدَتِ الأَوْهَامُ لَمَّا تَداخَلَتْ عَلَيْكَ وَنُورُ العَقْلِ أَوْرَثَكَ السِّجْنا
وَهَمَّتْ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَها وَمَنْبِعَها مِنْ أَيْنَ كَانَ فَما هِمْنا
وقَدْ تُحْجَبُ الأَنْوَار لِلْعَبْدِ مِثْلَ ما تَبْعُدُ مِنْ إظْلام نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنا

(ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار وأن ينادي عليها بلسان الاشتهار) أنوار السرائر إنما خفيت عن العيان بما سترها به من كثائف الظواهر مع أن الظهور التام لا ينبغي أن يكون إلا لها لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر فأجلّها عن الابتذال لها بوجود إظهارها وصانها من أن ينادي عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار فيكون ذلك نوعاً من الإهانة بها وقد تقدم مثل هذا الستر في قوله سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية.

تم الجزء الأول من شرح ابن عباد على الحكم ويليه الجزء الثاني. أوله سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه.

بالكثافة، لأنها لا تزول إلا بمعاناة ومشقة **(ستر أنوار السرائر)** أي أنوار قلوب أوليائه **(بكثائف الظواهر)** أي بالأحوال التي يتلبسون بها في ظواهرهم ويتعاطونها من الصنائع وغيرها، فإن تلك الأحوال كثائف، أي حاجبة لغيرهم عن الاطلاع على أنوار قلوبهم، وإنما ستر تلك الأنوار مع أن الظهور التام لا ينبغي أن يكون إلا لها **(إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار وأن ينادي عليها بلسان الاشتهار)** أي لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر، فأجلها عن الابتذال لها بوجود إظهارها، وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار، فيكون ذلك نوعاً من الإهانة بها، وقد تقدم هذا في قوله: سبحان من ستر سر الخصوصية الخ. لكن أعاد ذلك هنا، لأجل التعليل المذكور، وأيضاً سترها رحمة من الله المؤمنين، إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد، لأوجبت على من ظهرت له حقوقاً لا يقدر على القيام بها، فإذا قصر وقع في المحذور.

الفهرس

الجزء الأول

من

شرح الحكم

الفهرس

شرح الحكم

للعالم العلامة محمد بن ابراهيم

المعروف بابن عباد النفزي الرندي

على متن الحكم

للإمام المحقق أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم

ابن عطاء الله السكندري

تغمدهما الله بالرحمة والرضوان

وبهامشه شرح المحقق

الشيخ عبد الله الشرقاوي تغمده الله برحمته

٢

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع



(سُبحانَ مَنْ لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا مَنْ أراد أن يوصله إليه) لا دليل على الله سواه ولا وصول إليه بغيره وكذلك أولياؤه ولما كان الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعناية والخصوصية ويستحيل أن يكون بطلب أو سبب، كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه كذلك لما خلع عليهم الخلع العظيمة، وتولاهم بمننه الجسيمة، فاصطفاهم لنفسه، واختصَّهم بمحبته وأنسه، وطهَّر أسرارهم من أنجاس الأغيار، وصان قلوبهم بما أودع فيها من الأنوار والأسرار، فكانوا لذلك صفيته في عباده وخباياه في بلاده كما قال في بعض الإشارات عنه: سبحانه أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم أحدٌ غيري. وهذا من غيرته عليهم لأن الحق تعالى أغير على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعرفهم فلم يجعل لأحد دليلاً عليهم إلا مِنْ حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه لأنه يلبسهم لباس التلبيس بين الأنام ويظهرهم بما يحقرهم في أعين الخواص والعوام فلم يكن لأحد دليل عليهم أو وصول بسبب إليهم.

قال في **(لطائف المنن)**: فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليلٌ مَنْ يعرفهم. قال: وقد سمعته يقول، يعني شيخه أبا العباس المرسي رضي الله عنه: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروفٌ بكماله وجماله وحتى ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وقال فيه: وإذا أراد الله تعالى أن يعرفك بوليٍّ من أوليائه، طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. وقال صاحب كتاب **(أنوار القلوب)**: لله سبحانه عبادٌ ضَنَّ بهم عن العامة وأظهرهم للخاصة فلا يعرفهم إلا شكل مثلهم أو محب لهم ولله تعالى عباد ضن بهم عن الخاصة والعامة، وعباد أظهرهم للخاصة والعامة، ولله تعالى عباد يظهرهم في البداية ويسترهم في النهاية، والله عباد يظهرهم في النهاية ويسترهم في البداية، ولله عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة، فمن سواهم حتى يلقونه بما أودعهم منه في قلوبهم وهم شهداء الملكوت الأعلى والصفيح الأيمن من العرش الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده فتطيب أجسادهم به فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء إلاّ بدمع الباقي الأحد عزّ وجلّ اهـ. وقال أبو يزيد رضي الله عنه: أولياء الله تعالى عرائس ولا يرى العرائس إلا مَنْ كان محرماً لهم وأما غيرهم فلا وهم مخدرون عنده في حجال الأنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة. وقال أبو علي الجرجاني رضي الله عنه: الولي هو الفاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق تولى الله سبحانه وتعالى سياسته

(سبحان من لم يجعل الدليل) أي الإهداء والوصول والاستدلال **(على أوليائه إلا من حيث)** أي من جهة **(الدليل عليه)** أي أنه مماثل لذلك فكما أن الله محتجب بالأكوان عن المخلوقين، فاهتداؤهم إليه ووصولهم إلى معرفتهم أمر عسير يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة، ومنة جسيمة يشكره عليها، فكذلك الولي مستتر بكثائف الظواهر من الصنائع الخسيسة، وما يتعاطاه من مأكول ومشروب وغيرهما، فيكون الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته أمراً عسيراً يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها.

والحاصل أن الوصول إلى معرفة الله تعالى الخاصة عناية من الله تعالى لا بطلب ولا بسبب، وكذلك الولي، بل معرفته أصعب من معرفة الله تعالى، لأنه تعالى معروف بكماله وجماله والولي مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب، فإذا أراد الله تعالى أن يعرفك بولي من أوليائه لتنتفع به طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته **(ولم يوصل إليهم)** أي يعرف بهم ويجمع عليهم **(إلا من أراد أن يوصله إليه)** ذلك لأنهم أحبابه، فيغار عليهم أن يجمع عليهم غير أحبابه، وهذا لبعض الأولياء وهم المسلكون، فمن أراد أن يوصله إليه جمعه عليهم على وجه الصحبة الخاصة، وهم قسمان: قسم يظهر للعامة والخاصة. وقسم لا يظهر إلا للخاصة. وهناك عباد لا يظهر عليهم أحداً من خلقه حتى

فتوالت عليه أنوار التوالي لم يكن له عن نفسه أخبارٌ ولا مع غير الله عزّ وجلّ قرار.

وفي الإشارات عن الله سبحانه: إنما سميت الولي ولياً لأنه يليني دون ما سواي فهم منزهون بتنزيه الحق تعالى لهم من أن يوصل إليهم بغيره ولذلك صدر المؤلف كلامه بالتسبيح (**ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد**) من لطف الله تعالى، إخفاء أسرار الناس بعضهم على بعض لا سيما سر يقتضي وجود عيب وهو ظاهر ما ذكره المؤلف هنا بدليل الكلام الذي عقبه به: وقد يظهر لبعض الناس ما سوى ذلك من الأسرار الملكوتية ووجه الفرق بينهما ما ذكره المؤلف الآن ويحتمل أن يريد ما هو أعم مما ذكرناه ويدخل في ذلك أسرار الولاية إذا اختص الحق تعالى بها بعض عباده ويكون في ذلك تنبيه على العلة الموجبة لخفاء الولي، حسبما ذكره المؤلف في المسألة التي فرغنا منها، حتى يمتنع الوصول إليه بطلب أو سبب وإخفاء ذلك أيضاً عن عامة المؤمنين من النِّعم العظيمة إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقاً على القيام بها، فإن فرَّط في ذلك وترك القيام بتلك الحقوق رأساً وقع بسبب ذلك في محذورات لا يقوم لها شيء. وقد فهمت هذا المعنى من كلام سهل بن عبد الله رضي الله عنه وقد سأله بعض تلامذته: كيف تعرف أولياء الله تعالى؟ فقال: إن الله تعالى لا يعرفهم إلا لأشكالهم أو من أراد أن ينفعه بهم ولو أظهرهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم ومن خالفهم بعد علمه بهم كفر ومن قعد عنهم حرج ولكن الله تعالى جعل اختياره تغطية أمورهم رحمةً منه لخلقه ورأفةً ولكن الله تعالى قد أخبر بكرامتهم فقال عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿واللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] فأفردهم به ولو أظهرهم حتى يبرزهم لكان في النظر إليهم حجة وكان الاستماع لحديثهم فرضاً اهـ. والمعنى الذي ذكرته في هذه المسألة فهمته من الكلام الذي ذكره الشيخ أبو طالب رضي الله عنه، في كتاب (**الشكر**) قال فيه: ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمول ستره لهم بعضهم من بعض وسترهم عند العلماء والصالحين منهم ولولا ذلك لما نظروا إليهم ثم حجب الصالحين عنهم ولو أظهر عليهم آيات يعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقربه منهم لبطل ثواب المحسنين إليهم ولحرم قبول إحسانهم عليهم ولحبطت أعمال المسيئين إليهم ففي حجب ذلك وستره ما يحمل العاملين لهم في الخير والشر على الرجاء وحسن الظن من وراء حجاب اليقين وتأخرت عقوبات المؤذين لهم عن المعاجلة لما سترهم عليهم من عظيم شأنهم عند الله عزّ وجلّ وجليل قدرهم ففي ستر هذا نِعَمٌ عظيمة على الصالحين في نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم ونعم جليلة على المنتهكين لحرمتهم المصغرين لشعائر الله من أجلهم إذ كانوا أساؤوا إليهم من وراء حجاب فهذا هو لطف خفي من لطف المنعم الوهّاب كما جاء في الخبر: مَنْ آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة. ثم أنا الثائر لوليي فقد يكون مثل ذلك من آذى نبياً وهو لا يعلم بنبوته قبل أن يخبر أنه رسول الله وأن الله عزّ وجلّ نبأه فلا يكون وزره وزر من انتهك حرمة من كان أعلمه أنه نبي لله عزّ وجلّ لعظم حرمة النبي اهـ. ما ذكره الشيخ أبو طالب والوجه الأول أولى في تقرير معنى ما ذكره المؤلف والله تعالى أعلم. (**من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية، كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال إليه**) المطلع على السرائر التي تقتضي وجود العيب إذا لم يتخلق صاحبه بالرحمة الإلهية، فيرحم المذنبين، ويحلم على الظالمين، ويصفح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، ويرأف بعباد الله أجمعين، فإنه يكون ذلك الاطلاع فتنة عليه لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها والعجب بعمله والتكبر على غيره

الحفظة، ويتولى قبض أرواحهم بيده، ولا يسلط التراب على أبدانهم (**ربما أطلعك على غيب ملكوته**) أي ملكوته الغائب عنك كالذي فوق السماء وتحت الأرض (**وحجب عنك الاستشراف**) أي الاطلاع (**على أسرار العباد**) أي ما في قلوبهم من خير أو شر، وذلك من لطف الله بك لأن (**من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية**) بأن يستر على المذنبين ويحلم على الظالمين، ويصفح عن الجاهلين ويحسن إلى المسيئين ويرأف بعباد الله أجمعين، فمن لم يتصف بذلك (**كان اطلاعه فتنة عليه**) لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها، والعجب بعمله والتكبر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة (**و**) كان أيضاً (**سبباً لجر الوبال إليه**) من ادعائه بصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته، وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزي والنكال. روي أن إبراهيم عليه السلام لما أراه الله ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل في معصية من معاصي الله تعالى، فدعا عليه فهلك، وكذلك آخر وآخر فهلكوا، فأوحى الله تعالى إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا

وهذا هو أعظم الفتنة ويكون ذلك سبباً إلى جَرّ الوبال إليه من ادّعائه لصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزي والنكال. وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا نُزِعَتِ الرَّحْمَةُ إلاّ مِنْ قَلْبِ شَقِيّ» وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحمٰن ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّمَاءِ» وفي الإشارات عن الله تعالى أنه قال: عبدي إن استخلفتك شققت لك من الرحمة شقاً فكنت أرحم بالمرء من نفسه. وقد أدب الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام في بعض مواطنه العظيمة المقدار وعلمه كيف يتخلق بهذا الخلق الكريم عند اطلاعه على الأسرار. روى عن قسامة بن زهير، رضي الله عنه أنه قال: بلغني أن إبراهيم عليه السلام حدَّث نفسه أنه أرحم الخلق قال: فرفعه الله تعالى حتى أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون فقال: يا رب دمرهم فقال الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك يا إبراهيم اهبط فلعلهم يتوبون ويرجون. وعن عليّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَمّا أَرَىَ اللّهُ إبراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمواتِ وَالأرض أَشْرَفَ عَلَى رَجُلٍ بمعصيةٍ مِنْ معاصي اللّهِ عزَّ وَجَلَّ فَدَعَا اللّهَ عَلَيْهِ فَهَلَكَ وَكَذٰلِكَ عَلَى آخَرِ وَآخَرَ فهلكوا فَأَوْحَى اللّهُ إلَيْهِ أنْ يا إبراهيمُ إنَّكَ رَجُلٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ فَلاَ تَدْعُوَنَّ عَلَى عِبَادِي فَإنَّهُمْ مِنّي عَلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ: إمَّا أنْ يتوبَ العبدُ مِنْهُمْ فَأَتوبَ عَلَيْهِ وإمَّا أنْ أُخْرِجَ مِنْه نَسْمَةً تُسَبِّحُ لي وإمّا أنْ يُبْعَثَ إليَّ فإنْ شِئْتُ عَفَوْتُ عَنْهُ وإنْ شِئْتُ عاقبتُهُ» وقيل إن سبب أمر الله له بذبح ولده هو هذا المعنى الذي ظهر منه من غلظته على العصاة وقلة رحمته لهم وقد ذكر في بعض التفاسير، أنه عليه السلام، كان يعرج به كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب على فاحشة فقال: اللهم اهلكه يأكل رزقك ويمشي على أرضك ويخالف أمرك، فأهلكه الله تعالى. فاطلع على آخر فقال: اللهم اهلكه. فنودي: كف عن عبادي رويداً رويداً فإني طالما رأيتهم عاصين فلما هبط أرى في المنام ما ذكر الله تعالى حيث يقول: إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى فلما تشمر لذلك وأخذ السكين بيده قال: اللهم هذا ولدي وثمرة فؤادي وأحب الناس إليَّ فسمع قائلاً يقول: أما تذكر الليلة التي سألت فيها إهلاك عبدي؟ أو ما تعلم أني رحيمٌ بعبادي كما أنت شفيق بولدك؟ فإذا سألتني إهلاك عبدي أسألك ذبح ولدك واحداً بواحد والبادي أظلم.

(حظ النفس في المعصية ظاهر جلي وحظها في الطاعات باطنٌ خفيٌ ومداواة ما يخفى صعب علاجه) النفس من شأنها أبداً طلب الحظوظ والفرار من الحقوق فهي لا تسعى إلا في ذلك ولو في عملها في الطاعات فَضلاً عن المعاصي ومن حاسب نَفْسَه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا وقد تجد من النشاط واللذة في نوع من العبادة ما لا تجده في نوع آخر وإن كان هذا النوع الآخر أتمَّ فضيلةً منه وما ذاك إلا من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم إذا ألفت باباً من أبواب العبادات لمعرفتهم بخدعها ومكايدها فيشوشون ذلك عليها ويتنقلون منه.

تدعون على عبادي فإنهم مني على ثلاث خصال: إما أن يتوب العبد منهم إلي فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لي، وإما أن يبعث إلي، فإن شئت عفوت عنه، وإن شئت عاقبته. قيل: إن هذا سبب لأمر الله له بذبح ولده، لأنه تعالى رحيم بعباده كشفقته على ولده. والحاصل أن المكاشفة نعمة من الله على المريد وشكرها الستر والصفح.

(حظ النفس في المعصية) كالزنى **(ظاهر جلي)** وهو التذاذه بها، فإنها لا تطلب منك التلبس بالمعصية إلا لأجل أن تلتذ بها، فيحصل لك الوبال والنكال **(وحظها في الطاعة باطن خفي)** لا يطلع عليه إلا أرباب البصائر، وذلك لأن في الطاعة مشقة عليها، فإذا أمرتك بها لم تعلم حظها فيها إلا بعد تفتيش، فقد تريك أن حظها فيها التقرب إلى الله تعالى، وفي الباطن ليس لها حظ إلا إقبال الناس عليك، واشتهارك بينهم بالصلاح، ومن حاسب نفسه وراقب خاطره تبين له مصداق هذا **(ومداواة ما يخفى)** أي زوال حظوظها الخفية **(صعب علاجه)** لأنه يحتاج إلى دقة وفهم ونفوذ إدراك، فأهل البصائر يتهمون نفوسهم إذا مالت إلى عبادة من العبادات، ويفتشون عن سبب ميلهم إليه، فإن كان لحظ من حظوظها تركوها أو عالجوا نفوسهم في حال فعلها حتى تكون خالصة لله تعالى، كما وقع لبعضهم أنه حدثته نفسه بالخروج إلى الغزو، وأظهرت له أن ذلك لله تعالى، ففتش فإذا هو لأجل أن تستريح من تعب المجاهدة، فإنه كل يوم يقتلها مرات كثيرة بمنعها من شهواتها، فأرادت أن تقتل مرة واحدة فتستريح، وأيضاً لأجل أن يتسامع الناس بأنه استشهد، فيكون شرفاً له وذكراً في الناس، فترك الخروج إلى الغزو، وقد يجد الشخص من النشاط، واللذة في نوع من العبادات ما لا يجده في

وقد حكي عن أبي محمد المرتعش رضي الله عنه أنه قال: حججت كذا وكذا حجةً على التجريد فَبَانَ لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي وذلك أن والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جرة ماءٍ فثقل ذلك على نفسي، فعلمت مطاوعة نفسي في الحجات كانت بشوْبٍ وحظ من نفسي إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع فهذا مما يبين أن حظ النفس في الطاعة موجود ولكنه خفي على العامل فلذلك تعسر مداواته لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك فليتطلب بذلك آفات نفسه ولطائف خدعها وخفايا حظوظها فيعمل على تصفية عمله من ذلك فلا جرم إذ كان متعذراً يجب عليه اتهام نفسه ومخالفتها في كل ما تدعو إليه كائناً ما كان.

قال الشيخ أبو بكر الخفاف رضي الله عنه: سمعت بعض مشايخي يقول عن أحمد بن أرقم البلخي قال: حدثتني نفسي بالخروج إلى اسبيجاب للغزو فقلت: سبحان الله إن الله تعالى يقول إنَّ النفس لأمارةٌ بالسوء وهذه تأمرني بالخير لا يكون هذا أبداً ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس فتستروح به وتتسامع الناس بها فيستقبلونها بالبر والتعظيم والإكرام فقلت لها: أسلك العمران ولا أنزل على معرفة فأجابت: فأسأت ظني بها وقلت: والله أصدق قولاً فقلت لها: أقاتل العدو حاسراً فتكوني أول قتيل فأجابت: وعد أشياء مما أرادها به فأجابت إلى كل ذلك قال: فقلت يا رب نبهني لها فإني لها مُتَّهِمٌ ولقولك مصدق فألهمت كأنها تقول لي إنك تقتلني كل يوم مرات بمخالفتك إياي ومنع شهواتي ولا يشعر بي أحد فإن قاتلت فقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقال استشهد أحمد فيكون شرفاً لي وذكراً في الناس. قال: فقعدت ولم أخرج ذلك العام فهكذا خدع النفس وغرورها أعاذنا الله من شرها. وسيأتي من كلام المؤلف رحمه الله: إذا التبس عليك أمران انظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنَّه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً. **(ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك)** رياء العبد بالعمل حيث يكون بمرأى من الناس ظاهر لا يحتاج إلى أمارة عليه، ورياؤه بعمله حيث لا يراه أحد أمر خفي لا يعرف إلا بالإمارات والعلامات بل هو أخفى من دبيب النمل. ومن أمارته، أن يلتبس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المحافل والمجالس ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه، وإذا قصَّرَ أحدُهمْ في حقِّهِ الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره ويجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره وإهانته وإهانة سواه حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم فيتوعدون من قصر في حقهم بمعاجلة الله له بالعقوبة وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ بثأرهم فإذا وجد العبد هذه الإمارات من نفسه فليعلم أنه مراءٍ بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس.

وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى يقول للقراء يوم القيامة: أَلَمْ تكونوا يرخص لكم في السعر؟ ألم تكونوا تبادرون بالسلام؟ ألم تكن تُقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث الآخر: «لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم». وقال عبد الله بن المبارك: روى وهب بن منبه رضي الله عنه، أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا

نوع آخر، وما ذلك إلا لأجل أن حظها فيه أكثر من الآخر، فإذا كان من أهل البصائر انتقل عما مالت إليه نفسه إلى غيره، فإن طاوعته لم يكن لها في الاشتغال بذلك النوع حظ، وإلا كان لأجل حظها.

(ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك) أي وأنت في مكان لا ينظر الناس إليك فيه، يعني أن الرياء كما يدخل في العمل إذا عمله صاحبه عند الناس، ويسمى الرياء الجلي يدخل فيه إذا عمله وحده بأن يقصد به توقير الناس، وتعظيمه وتقديمه في المحافل، ومسارعتهم في قضاء حوائجه، فإذا قصر أحدهم في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك، واستنكره وربما توعد من قصر في حقه بمعاجلة الله له بالعقوبة، وأن الله يأخذ بثأره منه، فإذا وجد العبد هذه الأمارة في نفسه، فليعلم أنه مراء بعمله، وإن أخفاه عن الناس، ويسمى هذا الرياء بالخفي، ولا يسلم من الرياء الجلي والخفي إلا العارفون الموحدون، لأن الله تعالىٰ طهرهم من دقائق الشرك وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجوا منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة، وإن عملوها بين أظهر الناس، ومن لم يحظ بهذا، وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع، ودفع المضار،

السهل والجبل قد امتلأ من الناس فقال السائح: ما هذا؟ فقيل له: هذا الملك قد أتاك فقال للغلام ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفاً فقال الملك: أين صاحبكم؟ قالوا: هذا. قال: كيف أنت؟ قال: كالناس. وفي حديث آخر بخير. فقال الملك: ما عند هذا من خير. فانصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذي صرّفك عني وأنت لي ذامٌ ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار وعدوا أنفسهم بسببه من الأشرار كما روي عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه قال: مَنْ أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إليّ وسمع مالك بن دينار رضي الله عنه امرأة وهي تقول له: يا مرائي. فقال لها: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة. ودخل رجل على داود الطائي رضي الله عنه، فقال: ما حاجتك؟ قال زيارتك. فقال: أما أنت فقد عملت خيراً حين زرت ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي من أنت فتزار أمن الزهاد أنت لا والله أمن العباد أنت لا والله أمن الصالحين أنت لا والله ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة فاسقاً فلما كبرت صرت مرائياً. واللّهِ لَلْمرائي شرٌّ من الفاسق إلى غير هذا مما روي عنهم في هذا المعنى.

ولا يسلم من الرياء الخفي والجلي إلا العارفون الموحدون لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك وغيب عن نظرهم رؤية الخلق مما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة فلم يرجوا منهم حصول منفعة ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة فأعمال هؤلاء خالصة وإنْ عملوها بين أظهر الناس وبمرأى منهم ومن لم يحظَ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو مراءٍ بعمله، وإن عبد الله تعالى في قنة جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به. وقد تقدم قول يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت فيه على لونٍ آخر. **(استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك)** الخصوصيةَ هاهنا ما اختص الحق تعالى به بعض عباده من عملٍ نافع أو علم صالح وصدق العبودية فيه أن يقنع بعلم الله تعالى فيه بحاله ولا يتطلع إلى أن يعرف بذلك أحد من الخَلق فيشغله حينئذ الحياء من ربه والشكر له عن الاستشراف إلى معرفة الخلق بذلك ويغار على حاله من رؤية الأغيار له ولهذا فضَّل عَمَلَ السر على عمل العلانية بسبعين ضعفاً كما ورد في الخبر عن نبينا ﷺ. وقال عيسى عليه السلام: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه وليمسح شفتيه فإذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم وإذا أعطى أحدكم فليعطِ بيمينه وليخفه عن شماله وإذا صلى أحدكم فليسدل عليه ستر بابه فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق. وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق فقال: كتمان الطاعة. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: من أحب أن يعرف بشيء من الخير ويذكر به فقد أشرك في عبادته لأن من عبد الله على المحبة لا يحب أن يرى خدمته سوى مخدومه. وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: كل من لم يقنع في أفعاله وأقواله، بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة. وقال بعضهم: ما أخلص أحدٌ قط إلا أحب أن يكون في جب لا يعرف. وقال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: مَنْ أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل. وقال أبو الخير الأقطع رضي الله عنه: مَنْ أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراءٍ ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب. وقال بعضهم لمن استوصاه لا تحب أن تعرف ولا تحب أن تعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف فعلى العبد إخفاء حاله

فهو المرائي بعمله، وإن عبد الله في جبل بحيث لا يراه أحد، ولا يسمع به **(استشرافك)** أيها المريد أي محبتك وميلك إلى **(أن يعلم الخلق بخصوصيتك)** أي بما خصك الله تعالى به من علم نافع أو عمل صالح أو أحوال باطنية **(دليل على عدم صدقك في عبوديتك)** لأن الصدق في العبودية هو طرح الأغيار، وعدم الالتفات إليها رأساً، فلو كنت صادقاً في عبودية الرب لقنعت بعلمه بك، ولم تحب أن يعلمك غيره، فتغار على حالك من رؤية الأغيار له، قال بعضهم: من أحب أن يطلع الناس على عمله، فهو مراء، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب هذا في بداية السلوك، فإن تحقق العبد في المعرفة، ومشاهدة الوحدانية الصرفة، فلا بأس بالإخبار بأعماله، والإظهار لمحاسن أحواله ليؤدي حق شكرها، وليقتدي به غيره، فمبنى أمر أهل الطريق في البداية على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال، وكتمان الأحوال تحقيقاً لفنائهم وتثبيتاً لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم وحباً في إخلاص أعمالهم لسيدهم حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الله أظهرهم، وإن

جهده وأن يبلغ في كتمانه أقصى ما عنده. قال الحسن رضي الله عنه: أدركت أقواماً ما من أحد منهم يستطيع أن يسر شيئاً من عمله إلا أسره وإن كان الرجل ليجلس مع القوم وأنه لفقيه وما يعلم به حتى يقوم ولقد أدركت أقواماً يأتي أحدهم الزور فيقوم فيصلي وما يشعر به الزور ولقد أدركت أقواماً وما من عمل يقدرون أن يعملوه لله سراً فيكون علانية أبداً ولقد أدركت أقواماً يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره ولقد أدركت أقواماً يجتهدون في الدعاء وما يسمعهم أحد. وقال محمد بن واسع رضي الله عنه: أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جنبه. وفي رواية عنه إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم فإن وقع منه إعلانٌ وإظهار في وقت ما فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصوته عن أن يعمل فيه الفرح اطلاع الناس على حاله، ولينكر ذلك على نفسه، وليكرهه، ولا يرضَهُ منها، وليجاهد نفسه في ذلك أشد المجاهدة، فإن خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير الله بحاله وغفل عن مجاهدة نفسه في حال ظهور ذلك منه، ولو في لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح في قلبه، فيقع عند ذلك في الفتنة فإن كان ضعيف الإرادة، لم يسلم من الوقوع في الرياء الجلي والخفي لأن سببه قد استتب له وإن كان قوي الإرادة، وسالكاً سبيل المعرفة، لم يسلم من السكون والركون فيفقد حينئذ الغيرة على الحال وينحط بذلك عن ذروة الكمال ولهذا كان إسقاط المنزلة عند الناس من ضروريات سالكي هذه الطريقة كما تقدم عند قوله: ادفن وجودك في أرض الخمول فإن تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة جاز له الإخبار بأعماله والإظهار بمحاسن أحواله بناء منه على نفي الغير وأداء لواجب حق الشكر.

كان بعض السلف يصبح فيقول: صليت البارحة كذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة فيقال له: أما تخشى من الرياء؟ فيقول ويحكم وهل رأيتم من يرائي بفعل غيره وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لِمَ لا تكتم ذلك فيقول: ألم يقل الله سبحانه وتعالى وأما بنعمة ربك فحدث؟ وأنتم تقولون: لا تحدث، فإن قصد من هذا حاله إلى هداية عباد الله ودعائهم إلى الله تعالى فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الأول كله وداخل في حكم هذا النوع الثاني. وعلانية هذا أفضل من سره، لأنه سلم من الآفات التي تعرض لها غيره وحصلت منه الفوائد التي تضمنها إظهاره وجهره. وقد جاء في الخبر: السِّر أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وهذا أرجح الوجوه عند العلماء في قوله ﷺ للرَّجل الذي سأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله «لَكَ أَجْرانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ العَلانِيَةِ»وقد فضل ما ذكرناه من إظهار الطاعة جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية الإطالة وكان ذلك منهم لأجل هذا الغرض ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم إلى الله فلا جرم كان له الدرجات العلي عند الله تعالى لأنه من أئمة المتقين لله وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكرهم عقيب دعائهم لذلك فقال عزّ من قائل: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً خَالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ [الفرقان: ٧٥ ـ ٧٦] قال في **(لطائف المنن)**: اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] وقال تعالى: ﴿أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] فمبنى أمرهم في بدايتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتمان الأحوال تحقيقاً لفنائهم وتثبيتاً لزهدهم وعملاً على سلامة قلوبهم وحباً في إخلاص أعمالهم لسيدهم حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا في الرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء فهناك، إن شاء الحق أظهرهم وإن شاء سترهم وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه فظهور الولي ليس بإرادته لنفسه ولكن بإرادة الله تعالى له بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم وتولاهم في ذلك بتأييده. ووارادات مزيدة لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سلمة لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ومن تحقق منهم بالعبودية لله تعالى لم يطلب ظهوراً ولا خفاء بل إرادته وقف على اختيار سيده له وقال الشيخ أبو

العباس المرسي رضي الله عنه: مَنْ أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواه عليه أظهره أو أخفاه اهـ. **(غيِّبْ نظر الخلق إليك بنظر الله إليك وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك)** هذا المعنى هو حقيقة صدق عبودية الله الذي أشار إليه في المسألة التي قبل هذه، وهو أن لا يكون له شعور ما من الخلق إليه من نظر وإقبال ولا تشوُّف إليه ولا طلب له وإنما يكون شعوره وتشوفه وطلبه مقصوراً على ما مَنَّ الله إليه من نظره إليه وإقباله عليه فيغيب أدنى الحالين بأعلاهما وذلك بأن يعلم أن ما من الخلق إليه أمر وهمي باطل فينقاد إليه كل ذي عقلٍ قاصرٍ يوجب له هذا الانقياد أنواعاً من الكبائر والرذائل من الانحطاط في أهواء الناس وتحسين مواقع نظرهم منه بالتصنع والتزين لهم وتربية الجاه والحشمة لديهم تكبراً وتعظماً عليهم ومعاشرتهم بالنفاق والإدهان وتخالف الإسرار والإعلان وهذا عذاب أليم استعجله في دنياه إذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب عيشه ويسلبه أثواب الغنى والعزة ويلبسه لباس الطمع والذلة فتردى بذلك همته وتقل قيمته ولعذاب الآخرة أكبر وقد قال الشاعر:

مَـنْ رَاقَـبَ الـنَّـاسَ مَـاتَ غَـمّـا وَفَـازَ بِـالـلَّـذَةِ الـجَـسُـورُ

ورأى سهل بن عبد الله رضي الله عنه، رجلاً من الفقهاء بمكة. فقال له شيئاً فقال له: يا أستاذ لا أقدر على هذا من الناس، فالتفت سهل إلى أصحابه فقال: لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا هو وخالقه، فإن أحداً لا يقدر أن يضره ولا ينفعه أو تسقط نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حالٍ يرونه اهـ. ثم من له بحصول ما أراده منهم فأغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة فربما استحسن من نفسه شيئاً لم يستحسنه غيره وربما أرضى شخصاً بما لا يرضي الآخر فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وساع فيما يضره عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب في نفسه. وفي الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيهٌ على هذا المعنى ذكر أن لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكبٌ حماراً وابنه يسوقه. فقال الناس حين رأوه: شيخ لم يشفق على صبي فأركبه خلفه فقالوا اثنان على حمارٍ هلا زاد ثالثاً فنزل لقمان وبقي الولد فقالوا شيخ: ماشٍ وصبيٌّ راكب، فنزل الولد يمشي مع والده وساقا الحمار جميعاً فقالوا: حمار فارغٌ هذان يسوقانه. وكان غرض لقمانَ بهذا، أن يرى ابنه شأن الناس مع من يراعي نظرهم فإنه لا يسلم منهم، على أي حالة، تكون فرضاً الناس غاية لا تدرك وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول وسخفاء الأحلام وأما من كان له عقلٌ وافرٌ وعلم فاخر، فلا يميل إلا إلى ما هو حق ووجود صدق وهو ما منَّ الله إليه من نظر وإقبال وجزيل عطاء وعظيم نوال فهو يعمل فيما يؤديه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذمِّ ذامٍ أو عتب عاتب ويقول بلسان حاله:

إنَّ الَّـذي تَـكْـرَهُـونَ مِـنِّـي هُـوَ الَّـذي يَـشْـتَـهِـيـهِ قَـلْـبِـي

ويقول أيضاً ما قاله محمد بن أسلم رضي الله عنه، ما لي ولهذا الخلق كنت في صلب أبي وحدي ثم صرت في بطن أمي وحدي ثم دخلت الدنيا وحدي ثم تقبض روحي وحدي فأدخل في قبري وحدي ويأتيني منكر ونكير فيسألاني وحدي، فإن صرت إلى خير صرت وحدي، وإن صرت إلى شرٍّ صرت وحدي، ثم أوقف بين يدي الله وحدي ثم يوضع عملي وذنوبي في ميزاني وحدي، فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدي، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدي، فمالي وللناس؟ وقد سئل الحرث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه، عن علامة الصادق فقال: الصادق هو

شاء سترهم ولم تتعلق إرادتهم بظهور ولا خفاء، بل يردون الأمر إليه في ذلك، ثم بين حقيقة صدق العبودية بقوله: **(غيب نظر الخلق إليك)** أي لا تلتفت إلى نظرهم إليك ولا تطلبه ولا تخطره ببالك، بل اجعله غائباً عنك.

(بنظر الله إليك) فلا يكن التفاتك وتشوفك إلا لنظر الله إليك، وكذا يقال في قوله: **(وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك)** فلا تلتفت إلى إقبالهم عليك ولا تطلبه، بل لا يكون التفاتك وطلبك إلا لإقبال الله عليك، فإن إقبال الخلق على المريد قبل كماله يوجب له التصنع لهم ومداهنتهم، وغير ذلك من الآفات وذلك يوجب انحطاط رتبته وسقوطه من عين الحق والعياذ بالله تعالى، فلا يرضى بإقبالهم إلا ذو عقل قاصر وهمة دنيئة، لأن رضا الناس غاية لا تدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك، وأما من كان له عقل وافر، فلا يميل إلا لإقبال الله من غير مبالاة بذم ذام، ولا عيب معيب، قال بعضهم: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل إصلاح قلبه، ولا يحب أن يطلع الناس على مثقال ذرة من صلاح عمله، ولا يكره أن يطلعوا على السيىء من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب

الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصادقين. **(من عرف الحق شهده في كل شيء)** فلا يستوحش من شيء ويستأنس به كل شيء كما تقدم من نعت العارفين. **(ومن فني به غاب عن كل شيء)** فلا يكون منه على الأشياء اعتماد ولا له إليها استناد. **(ومن أحبه لم يؤثِر عليه شيئاً)** من مراداته وشهواته وهذه الأمور التي ذكرها المؤلف رحمه الله، هي علامات بلوغ هذه المقامات العلية وبها تصح وتكمل فمن لم يجدها في نفسه، فلا ينبغي له أن يدعي تلك المقامات وليعمل على مجاهدة نفسه فيما يصححها ويكملها. **(إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك)** شدة القرب حجاب كما أن شدة البعد حجاب لأن شدة قربه منك موجبةٌ لاضمحلالك وذهابك، والمضمحل الذاهب لا مناسبة بينه وبين الثابت الموجود فكيف يراه. قال في **(لطائف المنن)**: فعظيم القرب هو الذي غيب عنك شهود القرب. قال الشيخ أبو الحسن: حيقة القرب أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه. وأنشد بعض العارفين:

كَمْ ذا تُمَوِّهُ بالشعبَيْنِ والعَلَم ... والأمْرُ أَوْضَحُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ
أَرَاكَ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَأَنْتَ بِها ... وَعَنْ تِهَامَةَ هَذا فِعْلُ متَّهَمِ

(إنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظم نوره) هذه عبارة تداولها الناس وضربوا لها مثلاً بالشمس وذلك أن الشمس نورها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة وقوة نورها هي التي حجبت الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها فقد صار ظهورها، الذي أوجبه وجود نورها، حجاباً لها وليس الحجاب على الحقيقة منها فإنَّ الظاهر لذاته لا يحجب من ذاته وإنما الحجاب عليه من غيره والحجاب هاهنا ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور فالحق تعالى احتجب عن الخلق بشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظم نوره وأنشدوا في هذا المعنى:

لَقَدْ ظَهرت فلا تَخْفَى عَلى أَحَدِ ... إلاّ عَلَى أَكْمَهٍ لا يَعْرِفُ القَمَرا
لكنْ بطنتَ بما أظهرْتَ مُحْتَجِباً ... وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بالعِزَّةِ استَتَرا

وأنشدوا أيضاً:

بالنورِ يَظْهَرُ مَا تَرى مِنْ صُورَةٍ ... وَبِهِ وُجُود الكَائِنَاتِ بِلا امْتِرا
لكنَّهُ يخفى لِفَرْطِ ظهورِهِ ... حسّاً ويدركه البصِيرُ مِنَ الوَرَى
فإذا نظرْتَ بعينِ قلبِكَ لَمْ تَجِدْ ... شيئاً سواه على الذّوات مصوّرا
وإذا طَلَبْتَ حقيقَةً مِنْ غَيْرِهِ ... فَبِذَيْلِ جَهْلِكَ لا تَزَالُ مُعَثَّرا

الزيادة عندهم، وليس هذا من إخلاص الصادقين اهـ. **(من عرف الحق)** أي من تحقق في مقام المعرفة بالله **(شهده في كل شيء)** أي رآه ظاهراً في أعيان الموجودات، فلا يستوحش من شيء، ويأنس به كل شيء كما تقدم في نعت العارفين **(ومن فنى به)** أي تحقق في مقام الفناء **(غاب عن كل شيء)** فلا يرى في الوجود ظاهراً إلا الله، ويغيب هو عن نفسه وحسه فلا يشاهد له وجوداً وتحققاً، بخلاف العارف، فإنه متحقق في مقام البقاء، فيرى الخلق والحق ويرى الحق ظاهراً في كل الأشياء وقائماً بها مع عدم غيبته عن نفسه وحسه **(ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً)** أي من إراداته وشهواته، فهذه علامات يعرف بها حال من ادعى بلوغ هذه المقامات **(إنما حجب الحق)** أي الله **(عنك شدة قربه منك إنما احتجب لشدة ظهوره)** ولأن الحجاب كما يكون بشدة البعد يكون بشدة القرب، فإن اليد إذا قربت من البصر والتصقت به لم يرها، بخلاف ما إذا كانت بعيدة عنه، وكذلك الرب لم نره لإحاطته بنا إحاطة تامة وقربه منا قرباً معنوياً، ولا يدرك ذلك إلا أرباب البصائر الذين تجلى الحق على بصائرهم، فأزال عنهم الحجاب حتى رأوه قائماً بالأشياء ومحيطاً بها **(و)** إنما **(خفي عن الأبصار)** في الدنيا فلم تدركه **(لعظم نوره)** وذلك كالشمس فإن نورها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة، وقوة نورها هو الذي حجب الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها، فقد صار ظهورها الذي أوجبه وجود نورها حجاباً لها، وليس الحجاب منها على الحقيقة، فإن الظاهر لذاته لا يحتجب من ذاته، وإنما يطرأ الحجاب عليه من غيره، وهو هنا ضعف البصر عن مقاومة

وقال رضي الله عنه: **(لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بحقوق الربوبية)** لم يأمر الله تعالى عبادَهُ بالطلب له والسؤال منه إلا ليظهر افتقارهم إليه ومثولهم بالتضرع والخضوع بين يديه ليكون ذلك إظهاراً لعبوديتهم وقياماً بحقوق ربوبيته لا لأن يتسببوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوه مما لهم فيه منفعة وحظ هذا هو فهم العارفين عن الله تعالى ويدل على هذا المعنى، ما يذكره المؤلف الآن. قال أبو نصر السراج رضي الله عنه: سألت بعض المشايخ عن الدعاء ما وجهه لأهل التسليم والتفويض؟ فقال: تدعو الله على وجهين أحدهما. تريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء لأن الدعاء ضرب من الخدمة يريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة والوجه الثاني، أن تدعو ائتماراً لما أمر الله تعالى من الدعاء اهـ. وقد قيل: فائدة الدُّعاء إظهار الفاقة بين يديه وإلاَّ فالرب يفعل ما يشاء. ومقتضى هذا، أن لا ينقطع سؤاله ولا رغبته وإن أعطاه كل ما طلبه وأنا له سؤله وأربه، وأن لا يفرق بين العدم والوجود والمنع والإعطاء فيما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر فيكون عبد الله في الأحوال كلها كما أن ربه واسع الفضل في الأحوال كلها وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه.

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: لا يكن همُّك بدعائِكَ الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً وليَكُنْ همُّكَ مناجاة مولاك. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: شر الناس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء، وشدة التضرع والبكاء، فإذا زالت شكايته، ورفعت عنه آفته، ضيع الوفاء ونسي البلاء، وقابل الرفد بنقض العهد، وأبدل العقد برفض الود، أولئك الذين أبعدهم الله في سابق الحكم وخرطهم في سلك أهل الرّد. وقد قيل: بلاء يلجئك إلى الانتصاب بين يدي معبودك خير لك من عطاء ينسيك إياه ويقصيك عنه. **(كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق)** هذا دليل على نفي السببية المذكورة لأن ما طلبه العبد أمر سابق في الأزل تقديره وطلبه أمر لا حق فيما لا يزال وكيف يكون اللاحق سبباً في وجود السابق وهل السبب أبداً إلا متقدم على المسبب. **(جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل)** هذا دليل آخر على ما ذكره وهو أن حصول ما طلبه الداعي حكم من الله تعالى في الأزل فلا يكون سببه الدعاء والسؤال لأن أحكام الله تعالى تجلُّ عن أن تنضاف إلى علة أو سبب من قبل أن له الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة فصنعه علة لكل شيء ولا علة لصنعه كما قاله العارفون المحققون **(عنايته فيك لا لشيء منك وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته لم يكن في أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال)** عناية الله تعالى في الأزل حين لم تكن حين لا

فيضان النور، وهذا لازم لما قبله **(لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه)** أي لا تقصد بطلبك أي توجهك له بالدعاء والأعمال الصالحة حصول النوال منه، وتعتقد أنه سبب مؤثر في ذلك **(فيقل فهمك عنه)** أي عن الله أي فلا نفهم السر والحكمة في أمر الله عباده بالطلب، وهو ما ذكره بقوله: **(وليكن طلبك لإظهار العبودية)** أي لإظهار كونك عبداً ذليلاً ضعيفاً لا غنى لك عن سيدك **(وقياماً بحقوق الربوبية)** فإن الربوبية تقتضي التذلل والخضوع من المربوب، يعني إن الله تعالى لم يأمر عباده بالطلب منه إلا ليظهر افتقارهم إليه وتذللهم بين يديه، لا لأن يتسببوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوا فيه، هذا هو فهم العارفين عن الله، ومن هذا حاله لا ينقطع سؤاله ولا رغبته، وإن أعطاه كل مطلب وأناله كل سؤل ومأرب، ولا يفرق بين العطاء والمنع، فيكون عبد الله في الأحوال كلها كما أنه ربه في الأحوال كلها، وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه **(كيف يكون طلبك اللاحق)** أي الموجود فيما لا يزال **(سبباً في عطائه)** أي إعطائه **(السابق)** أي الموجود في الأزل، فإن الإعطاء وهو تعلق الإرادة في الأزل تعلقاً تنجيزياً قديماً لا يكون الطلب سبباً فيه لتأخره عنه، والسبب لا بد من تقدمه على المسبب ولذا قال: **(جل حكم الأزل)** أي ما حكم به في الأزل وتعلقت إرادته به، وهو الإعطاء **(أن ينضاف إلى العلل)** أي أن ينسب لعلة وهو الطلب، أي أن يكون سبباً مؤثراً فيه: إن قيل قد يكون ذلك الإعطاء معلقاً على الطلب فيكون سبباً فيه أجيب بأن السبب في الحقيقة هو تعلق إرادة الله في الأزل إنك تدعوه فيما لا يزال لا نفس الطلب المتأخر **(عنايته فيك)** أي إعطاؤه إياك ما تطلبه منه أي تعلق إرادته في الأزل بالإعطاء **(لا لشيء منك)** أي وقع منك اقتضى حصول تلك العناية، كالدعاء والأعمال الصالحة **(وأين كنت حين واجهتك عنايتك وقابلتك رعايته)** وهي بمعنى العناية أي إنك كنت معدوماً في الأزل ويلزم من ذلك عدم ما يصدر منك **(لم يكن في أزله إخلاص أعمال)** أي أعمال خالصة كالدعاء والصلاة والصوم **(ولا وجود أحوال)** مرادف لما قبله **(بل لم يكن هناك إلا محض الأفضال**

حين غير معللة بشيء كائن منك من إخلاص أعمال ولا وجود أحوال تتوسل بجميع ذلك إليه وأين كنت إذ ذاك وأنت عدم محض بل لم يكن هناك إلا محض كرمه وأفضاله وعظيم إحسانه ونواله لا غير. قال الواسطي رحمه الله تعالى؛ أقسام قُسِمَتْ ونعوت وأحكام أُجرِيَتْ كيف تُستجلَب بحركات أو تُنال بسعايات. **(علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية. فقال يختص برحمته من يشاء وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتماداً على الأزل فقال إن رحمة الله قريب من المحسنين)** ظهورُ سِرِّ العناية التي مقتضاها الرحمة هو تخصيص المشيئة في قوله عزّ من قائل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٤] ولا علة له من العبد والإحسان المنسوب إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] أمارة وعلامة على تلك العناية وليس بعلة موجبة وإنما أسند الرحمة إليه وعلقها به لئلا يتكل العباد على السابقة ويتركوا العمل الذي هو مقتضى العبودية الواجبة لله تعالى عليهم. **(إلى المشيئة يستند كلُّ شيء)** لأن وقوع ما لم يشأ الحق تعالى محال **(ولا تستند هي إلى شيء(لاستحالة وجود النقص فيما يجب له الكمال وهذه العبارات التي ذكرها المؤلف رحمه الله، من أول الفصل إلى هنا بلغت الغاية في الحسن واستغنت بترددها وتكرارها عن البيان والشرح وفيها إشارة إلى أحكام الأزل وفقد الأسباب والعلل فيجب على العبد أن يبني عليها أعماله وأحواله فيلتزم العبودية والافتقار ويدع التدبير والاختيار لمن بيده ذلك وهذا هو أدب التوحيد جعلنا الله من أهله بمنه وكرمه وفضله.**

قال أبو بكر محمد بن موسى الواسطي رضي الله عنه: إن الله لا يقرب فقيراً لأجل فقره ولا يبعد غنياً لأجل غناه وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يصل وبها يقطع ولو بذات له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بهما ولو أخذتهما كلهما ما قطعك بهما قرب من قرب من غير علة وقطع من قطع من غير علة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] وقال أيضاً رضي الله عنه: ما خالفه أحد ولا وافقه وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته أنى يكون الوفاق والخلاف وهو يقلب الليل والنهار بما فيهما وهو قائم على الأشياء وبالأشياء في بقائها وفنائها لا يؤنسه وجد ولا يوحشه فقد بل لا فقد ولا وجد إنما هي رسوم تحت الرسوم. وقال رضي الله عنه: **(ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتماداً على قسمته واشتغالاً بذكره عن مسألته)** قد يكون من الأدب ترك السؤال

وعظيم النوال) مرادف لما قبله فالدعاء ليس سبباً مؤثراً في المطلوب، والأعمال الصالحة ليست سبباً مؤثراً في عناية الله، أي في دخول الجنة والنجاة من النار **(علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية)** السر هو الشيء المغطى، لأنه مخفي عنا والعناية هي تعلق الإرادة بحصوله في المستقبل، فلما علم أننا نتشوف إلى حصوله، فنطلبه بالدعاء والأعمال الصالحة، ونعتقد تأثير ذلك فيه فقال: **(يختص برحمته من يشاء)** زجراً لنا وقطعاً لأطماعنا، لاحتمال أن سر العناية خاص ببعض الناس، كما أن النبوة لما تشوف الناس إلى ظهورها آخر الزمان ادعاها جماعة، فزجرهم الله بقوله الله أعلم حيث يجعل رسالته **(وعلم أنه لو خلاهم وذلك)** أي مع ملاحظة أن العناية الأزلية خاصة ببعض الناس وليست عامة **(لتركوا العمل اعتماداً على الأزل)** قائلين إن كان سبق في الأزل أنا من أهل العناية، ومن أهل الخصوص نجونا من النار، ودخلنا الجنة من غير أعمال، فلا حاجة إلى الأعمال، ولا إلى الدعاء بحصول المطالب.

فقال: **(إن رحمة الله قريب من المحسنين)** بالأعمال الصالحة، فهي علامة وأمارة على تلك العناية الأزلية، وإن لم تكن علة موجبة لها فلا ينبغي تركها اعتماداً على ما في الأزل، وإن لم يكن لها تأثير في حصول المطلوب **(إلى المشيئة يستند كل شيء)** أي إن كل موجود يستند إلى مشيئة الله من حيث تعلقها به أزلاً **(وليست تستند هي إلى شيء)** من الموجودات، والمراد بالمشيئة في مرجع الضمير ما تعلقت به أزلاً، وهو مطالب العباد التي سبق بها العلم، فإن طلبها بالدعاء والأعمال الصالحة ليس سبباً مؤثراً فيها، وهذه العبارات التي ذكرها المصنف في غاية الحسن، وفيها إشارة إلى التعلق بأحكام الأزل، وطرح الأسباب والعلل، فعلى العبد أن يلزم العبودية والافتقار، ويترك التدبير والاختيار. قال أبو بكر الواسطي: إن الله لا يقرب فقير لأجل فقره، ولا يبعد غنياً لأجل غناه، وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يصل وبها يقطع، ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بهما، ولو أخذتهما كلهما ما قطعك بهما قرب من قرب من غير علة، وأبعد من أبعد من غير علة قال تعالى: ﴿مَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللهُ لهُ نُوراً فما لهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] **(ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتماداً على قسمته واشتغالاً بذكره عن مسألته)** يعني أن بعض العارفين قد يغلب عليهم التفويض والتسليم، فيترك

والطلب لمن هو مستغرق في الأذكار راضٍ بما يجري عليه من تصاريف الأقدار وهو أحد مذاهب القوم. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: واختلف الناس في أي شيء أفضل الدعاء أم السكوت والرضا فمنهم من قال: الدعاء في نفسه عبادة. قال النبي ﷺ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ» فالإتيانُ بِمَا هو عبادة أولى من تركها ثم هو حق الحق سبحانه وتعالى فإن لم يستجب للعبد ولم يصل إلى حظ نفسه فلقد قام بحق الربوبية لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية. وقد قال أبو حازم الأعرج: لأن أُحْرَمَ الدعاء أشد عليّ من أن أُحْرَم الإجابة. وطائفة قالوا: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى ولهذا قال الواسطي: اختيار ما جرى لك في الأزل خيرٌ لك من معارضة الوقت. وقد قال رسول الله ﷺ خبراً عن الله تعالى: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلتي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائلينَ». وقال قوم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه وصاحب رضا بقلبه يأتي الأمرين جميعاً. قال الإمام أبو القاسم: والأولى أن يقال: إن الأوقات مختلفة ففي بعض الأحوال الدُّعاء أفضل من السكوت وهو الأدب وفي بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء وهو الأدب، وإنما يعرف ذلك في الوقت لأن علم الوقت يحصل في الوقت فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء، فالدعاء به أولى. وإذا وجد إشارة إلى السّكوت فالسّكوت له أولى ويصح أن يقال: ينبغي للعبد أن لا يكون ساهياً عن شهود ربه تعالى في حال دعائه ثم يجب أن يراعي حاله. فإذا وجد من الدعاء زيادة بسط في وقته فالدعاء له أولى وإن عاد إلى قلبه في وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض فالأَوْلى ترك الدُّعاء في هذا الوقت وإن لم يجد في قلبه لا زيادة بسط ولا حصول زجر فالدعاء وتركه هاهنا سيان، وإن كان الغالب عليه في هذا الوقت العلم، فالدُّعاء أولى لكونه عبادة وإن كان الغالب عليه في هذا الوقت المعرفة والحال فالسكوت أولى ويصح أن يقال: ما كان للمسلمين فيه نصيب أو للحق سبحانه وتعالى فيه حق فالدعاء أولى، وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم وأولى. وفي الخبر المروي، أنَّ العبد ليدعو الله عز وجل وهو يحبه فيقول الله: يا جبريل أخِّر حاجة عبدي فإن أحب أن أسمع صوته وإنَّ العبد ليدعو وهو يبغضه فيقول الله: يا جبريل اقضِ لعبدي حاجته فإني أكره أن أسمع صوته اهـ. كلام الإمام أبي القاسم القشيري وهو حسن بديع وهو أوفى مما ذكره المؤلف رحمه الله فلذلك أوردته هنا بكماله. **(إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال)** أورد هذا كالدليل على ما ذكره من أن ترك الطلب قد يكون من الأدب وذلك وإن في الطلب إشعاراً بتجويز الإغفال عليه فيقع بذلك التذكير له وتلويحاً باحتمال وجود الإهمال منه فيكون ذلك تنبيهاً له وجميع ذلك محال على الحق تعالى عن ذلك علواً كبيراً فلأجل هذه العلل كان ترك الطلب عند هؤلاء أدباً. وقد سئل الواسطي رضي الله عنه أن يدعو فقال: أخشى إن دعوتُ أن يقال لي إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيتنا أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور. وروي عن عبد الله بن منازل رضي الله عنه أنه قال: ما دعوت الله منذ

السؤال والطلب اعتماداً على القسمة الأزلية، وممن رأيناه متحققاً في هذا المقام العارف بالله تعالى الغارف من بحر الحقيقة الشيخ مصطفى أفندي التركي القسطموني الجركسي، فسّح الله في مدته ورزقنا دوام مودته، واختلف القوم هل الأفضل الدعاء أم السكوت والرضا؟ فمنهم من قال: الدعاء أفضل، لأنه في نفسه عبادة لقوله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة والإتيان بما هو عبادة أولى من تركه» ومنهم من قال: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم وأرضى، لأن ما سبق من اختيار الحق لك أولى من اختيارك، وقد ورد في الحديث القدسي من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، ومنهم من فصل فقال الأوقات مختلفة، فإن وجد الداعي في قلبه إشارة إلى الدعاء كالانبساط، وتوجه القلب فالدعاء أولى، وإن وجد فيه إشارة إلى السكوت كالقبض وعدم توجه القلب، فالسكوت أولى، فإن لم يجد في قلبه شيئاً من ذلك كان الدعاء وتركه سواء. نعم إن كان الغالب عليه حينئذ المعرفة كان السكوت أولى. ثم علل ما ذكره من كون الأدب قد يكون غالباً في ترك الطلب فقال: **(إنما يذكر)** بالدعاء **(من يجوز عليه الإغفال)** أي السهو بأن يكون عنده غفلة وعدم علم بحال السائل فيذكره بالسؤال **(وإنما ينبه)** بمعنى يذكر **(من يمكن منه الإهمال)** أي عدم الاعتناء بحال السائل مع علمه بحاله، فهذا مستحيل على الله تعالى، ولذا كان ترك الطلب عند هؤلاء دبا، وقد سئل الواسطي أن يدعو فقال: أخشى إن دعوت أن يقال لي إن سألتنا ما لك عندنا، فقد اتهمتنا وإن سألتنا ما ليس لك، فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا

خمسين سنة وما أريد أن يدعو لي أحد لأنه ماضٍ على ما سبق. **(ورود الفاقات أعياد المريدين)** الأعياد عبارة عن الأوقات العائدة على الناس بالمسرَّات والأفراح وهم مختلفون في ذلك فمنهم من مسرته وفرحه بوجود حظه ونيل شهواته وغرضه، وهذا هو حال عامة المسلمين، ومنهم من مسرته وفرحه بفقدان حظوظه وإعزاز أمانيه وأغراضه، وهذا هو حال الخاصة من المريدين، لأن مدار أمرهم، إنما هو على مراعاة قلوبهم وتصفية أسرارهم من كدورات الأغيار والآثار، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بوجدانهم لما يقهرهم من ضرورات الفاقات وأنواع الحاجات والضرورات فتراهم يؤثرون الفقر على الغنى، والشدة على الرخاء، والذل على العز، والمرض على الصحة، إذ يحصل لهم بذلك رقة وحلاوة لا يعرف قدرها إلاّ همُ لأنها من وجودهم لقرب ربهم ورؤيتهم له في حال فقدان حظهم وكلما ازدادوا فاقةً وبلاءً، زادهم مولاهم قربة وولاءً كان بعضهم يطوف حول الكعبة الشريفة وهو يقول:

مُـؤْتَـزِرٌ بِـشَـمْـلَـتِـي كَـمَـا تَـرَى ... وَصِـبْـيَـتِـي بَـاكِـيَـةٌ كَـمَـا تَـرَى
وامْـرَأَتِـي عُـرْيَـانَـةٌ كَـمَـا تَـرَى ... يَـا مَـنْ يَـرَى الَّـذي بِـنَـا وَلا يَـرَى
أَمَـا تَـرَى مَـا جَـلَّ بِـي أمـا تَـرَى ... أَمَـا تَـرَى الَّـذي بِـنَـا أمـا تَـرَى

فسمعه بعضهم فجمع له كسراً ودفعها إليه فقال له: إليك عني لو كان معي شيء لما أمكنني أن أقول هذا القول. قال في **(التنوير)**: وفي البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر. ألم تَرَ أنَّ البلايا تخمد النفوس وتذهلها وتدهشها عن طلب حظوظها ويقع مع البلايا وجدان الذلة، ومع الذلة تكون النصرة، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة. وقال أبو إسحق إبراهيم الهروي رضي الله عنه: مَنْ أراد أن يبلغ الشَّرَفَ كُلَّ الشرفِ فليختر سبعاً على سبع، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير، أن يختار الفقر على الغنى، والجوع على الشبع، والدون على الرفع، والذُّل على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة. وقد تقدم عند قول المؤلف رحمه الله: مَنْ ظن انفكاك لطفه عن قدره فذاك لقصور نظره. الشفاء في هذا المعنى فواجب إذاً أن يكون ورود الفاقات أعياد المريدين كما قال فإذا فقدوا ذلك بمؤاتاة الأسباب استشعروا بذلك وجوب الحجاب وبعدهم عن محل الاقتراب فحزنوا لذلك وتأسفوا وودوا لوعاد إليهم الحال الأول. ومن هذا المعنى ما حكِي عن خير النساج رضي الله عنه قال: دخلت بعض المساجد فإذا فيه فقير، فلما رآني تعلق بي وقال: أيها الشيخ تعطَّفْ علي فإن محنتي عظيمة فقلت: وما هي؟ قال: فقدت البلاء وفزت بالعافية. فنظرت فإذا هو قد فتح عليه شيء من الدنيا. وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغني حذراً أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره كما أن الغني يحترز من الفقر جذراً أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه. وقد تقدم من حكايات عطاء السلمي وفتح الموصلي والفضيل بن عياض والربيع بن خثيم رضي الله عنهم، ما يوافق ما ذكرناه، وأنشدوا في ذكر أعياد المريدين والعارفين، وقيل: إنها لأبي علي الروذباري رضي الله عنه:

قَـالُـوا غَـداً الـعِـيـدُ مَـاذَا أَنْـتَ لابِـسـه ... فَـقُـلْـتُ خَـلْـعـة سـاقٍ حـبـه جـرعـا
فَـقْـرٌ وَصَـبْـرٌ هُـمَـا ثَـوْبَـايَ تـحـتَـهـمـا ... قَـلْـبٌ يـرى إلـفـهِ الأعـيـادَ وَالـجُـمَـعَـا
أَحْرَىَ الملابسِ أَنْ تَلْقَى الحبيبَ بِهِ ... يَوْمَ التَّزاوُرِ في الثَّوْبِ الَّذي خُلِعَا
الدَّهْرُ لي مأتَمٌ إنْ غِبْتَ يا أملي ... وَالعِيدُ ما كُنْتَ لي مَرْأًى وَمُسْتَمَعَا

(ربما وجدت من المزيد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة) ورود الفاقات يحصل للمريد بها مزيد كثير من صفاء القلب وطهارة السريرة وقد لا يحصل له ذلك بالصوّم والصلاة لأن الصوم والصلاة قد يكون له فيهما شهوة

لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور اهـ. **(ورود الفاقات أعياد المريدين)** الأعياد جمع عيد، وهي الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح، فالمريدون يسرون بالفاقات، لأنها تسرع بوصولهم لمقصودهم لما فيها من الذل وقصر النفس، كما تسر العوام بالأعياد لما فيها من نيل شهواتهم من ملابس وغيرها.

(ربما وجدت) أيها المريد **(من المزيد)** أي الزيادة في حالك من طهارة السر وحصول أنوار ومعارف **(في الفاقات)** أي في حال ورودها عليك **(ما لا تجده في الصوم والصلاة)** لأنه قد يكون قيامك بهما لشهوة نفسك وحظوظها، ومن كان هذا سبيله فلا يؤمن فيه دخول الآفات، فلا يفيدك تزكية ولا تحلية بخلاف ورود الفاقات، فإنها مباينة للهوى والشهوة على

وهوى كما تقدم، وما كان هذا سبيله لا يؤمن عليه فيه من دخول الآفات فلا يفيده تحلية ولا تزكية بخلاف ورود الفاقات فإنها مباينة للهوى والشهوة على كل حال وقد تقدم نحو من هذا المعنى عند قوله إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك إلى آخره. **(الفاقات بسط المواهب)** الفاقات تحضره مع الحق وتجلسه على بساط الصدق وناهيك بما يكون في تلك المحاضرة والمجالسة من المواهب الربانية أو النفحات الرحمانية. **(إن أردت ورودَ المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك إنما الصدقات للفقراء)** هذا مثل ما ذكره الآن وذكر الآية عقيبه إشارة بديعة وتصحيح الفاقة والفقر هو التحقق بأوصاف العبودية المذكورة في المسألة التي تأتي بإثر هذه ومما يتعلق بظاهر الآية التي استشهد بها المؤلف رحمه الله على طريقه القوم ما قال بعضهم: صدق الفقير أخذه الصدقة ممن يعطيه لا ممن يقيل إليه على يده فالحق تعالى هو المعطي على الحقيقة، لأنه جعلها لهم، فإن قبلها من الحق فهو الصادق في فقره لعلوّ همته ومن قبلها من الوسائط فهو المتوسم بالفقر مع رداءة همته. **(تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه تحقق بذلك يمدك بعزه تحقق بعجزك يمدك بقدرته تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته)** هذا مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب وقد تقدم التّنبيه على هذا المعنى عند قوله كُنْ بأوصافْ ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، بعد كلام ذكره: وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذّل لله تعالى وأضدادها أوصاف الربوبية فما لك ولها فلازم أوصافك وتعلّق بأوصافِهِ وَقُلْ من بساط الفقر الحقيقي يا غني من للفقير غيرك، ومن بساط الضعف يا قوي مَنْ للضعيف غيرك، ومن بساط العجز يا قادر مَنْ للعاجز غيرك، ومن نبساط الذل يا عزيز مَنْ للذليل غيرك، تجد الإجابة كأنها طوع يدك ﴿وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] اهـ. كلام سيدي أبي الحسن وهو معنى ما ذكره المؤلف هاهنا وأكثر كلام المؤلف جارٍ على منهاج كلام أبي الحسن رضي الله عنهما، ونفع بهما.

وقال رضي الله عنه: **(ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة)** الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله عزّ وجلّ، واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً فالواجب على العبد أن لا يحرص إلا عليهما ولا تكون له همة إلا في الوصول إليهما وأما الكرامة، بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة. قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان، وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغترٍ كذاب ليس ذا حظ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور وناقص أو هالك مثبور.

كل حال **(الفاقات بسط المواهب)** أي كالبسط التي ترد عليها المواهب الإلٰهية لكل من جلس عليها، كما أن الملك إذا جلس أحد على بساطه أعطاه شيئاً من مواهب الدنيا، فالفاقات تحضرك مع الحق وتجلسك على بساط الصدق وناهيك بما يكون في تلك الحضرة، والمجالسة من المواهب الربانية، والنفحات الرحمانية ولذا قال: **(إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك)** بأن تتحقق بهما في نفسك تحققاً تاماً، فلا يكون عندك استغناء بغيره بوجه من الوجوه، فحينئذ ترد المواهب الإلٰهية عليك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠] تحقق بأوصافك يمدك بضم الياء وفتحها مع كسر الميم على الأول وضمها على الثاني **(بأوصافه)** ثم فصل ذلك بقوله: **(تحقق بذلك يمدك بعزه)** فتصير عزيزاً به لا بنفسك **(تحقق بعجزك يمدك بقدرته)** فتقصير قادراً به لا بنفسك **(تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته)** فتصير قوياً به، وكذا إن تحققت بفقرك يمدك بغناه، فإذا جلست على بساط الذل. وقلت: يا عزيز من للذليل غيرك، وعلى بساط العجز، وقلت: يا قادر من للعاجز غيرك، وعلى بساط الضعف وقلت: يا قوي من للضعيف غيرك، وعلى بساط الفقر والفاقة وقلت: يا غني من للفقير غيرك، وجدت الإجابة كأنها طوع يدك فقوله: تحقق بأوصافك الخ. مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب، لأن من جملة المواهب الإمداد بضد الوصف الذي تحققت به **(ربما رزق الكرامة)** أي الأمر الخارق للعادة **(من لم تكمل له الاستقامة)** فلا ينبغي للمريد أن يعتني بها ويغتر بظهورها على يده، لأنها حينئذ ربما كانت معونة أو استدراجاً لا كرامة، فالكرامة الحقيقية هي كمال الاستقامة، ومرجعها إلى أمرين صحة الإيمان بالله، واتباع ما جاء به

وقال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة وغيرهما من البلدان إنما الشأن من تُطوى عنه أوصافُ نفسه فإذا هو عند ربه.

وذكر عند سهل بن عبد الله رضي الله عنه، الكرامات فقال: وما الآيات وما الكرامات هي شيء تنقضي لوقتها ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود. وقال بعض المشايخ: لا تعجبوا ممن لم يضع في جيبه شيئاً فيدخل يده في جيبه فيخرج منه ما يريد ولكن تعجبوا ممن يضع في جيبه شيئاً فيدخل يده في جيبه فلا يجده فلا يتغير. وقيل لأبي محمد المرتعش رضي الله عنه، أن فلاناً يمشي على الماء فقال: عندي من مكّنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من المشي على الماء والهواء. وقال أبو يزيد رضي الله عنه: لو أن رجلاً بسط مصلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي وقيل له: إن فلاناً يقال إنه يمر فى ليلة إلى مكة فقال الشيطان: يمر في لحظة من المشرق إلى المغرب وهو في لعنة الله. وقيل له: يقال إن فلاناً يمشي على الماء فقال: الحيتان في الماء والطير في الهواء أعجب من ذلك. وقال الجنيد رضي الله عنه: حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم، والتلذذ بالعطاء، والسكون إلى الكرامات. وقد تقدم مثل هذا عند قوله: ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه. **(من علامات إقامة الحق لك في الشيء إقامته إياك فيه مع حصول النتائج)** لا اعتبار بما يقوم فيه العبد بنفسه من عمل أو حال وإنما العبرة بما يقيمه فيه ربه وعلامة إقامة الله عبده في الشيء أن يديمه عليه ويحصل له ثمرته ونتيجته وينبني عل هذا آداب ومعاملات وقد أشرنا إلى نحو من هذا عند قول المؤلف رحمه الله إرادتُكَ التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب إلى آخره. **(من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة ومن عبر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء)** من شاهد إحسان نفسه وعمل بطاعة ربه انبسط لسانه بالنصيحة والموعظة لعباد الله فإن وقعت منه إساءة ومخالفة، انقبض عن ذلك وصمت لما يعتريه من الخجل والحياء، وهذه طريقة أهل التكليف الذين ينظرون إلى مأمنهم إلى الله تعالى من عملٍ صالح أو طالح. ومن شاهد إحسان الله إليه وغاب عن رؤية إحسانه هو انبسط لسانه في الحالين من غير فرقٍ، لأن مشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته في الحالين أوجبت جراءته على ذلك. وقد قيل: جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان وهذه طريقة أهل التعريف الذين ينظرون إلى ما مَنَّ الله تعالى إليهم. قلت وما ذكرته هنا من لفظَيْ التعريف والتكليف وما نبهت به عليهما من الكلام اللطيف أشرت به إلى مسألة عظيمة مهمة ينبني عليها آداب وأحكام جمة وهي مسألة اختلاف الناس في معاملاتهم لربهم بحسب نيّاتهم في مراتب قربهم ومن أحكامها مسألة التعبير التي اقتصر المؤلف عليها في هذا الفصل ولم يذكر معها سواها مما ينبني على ذلك الأصل وقد نبه عليها في لطائف المنن وأتى فيها بكلام مستوعب حسن فرأينا أن ننقله هاهنا بكماله ليتبين به مقصدنا في تفصيله وإجماله. قال فيه: وقال رضي الله عنه، يعني شيخه أبا العباس: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله. قال: ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المعتذر بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحزان وتحالفه الأشجان ويستولي عليه الكمد كلما بدت

رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً، فالواجب على المريد أن لا يحرص إلا عليها، ولا يكون له همة إلا في الوصول إليها، وأما الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين **(من علامات إقامة الحق)** أي الله **(لك في الشيء)** كالاكتساب أو التجريد **(إقامته إياك فيه)** أي تيسر أسبابه لك وإدامته عليك **(مع حصول النتائج)** أي ثمرات ذلك الشيء كسلامة الدين ووجود الربح من الكسب كما مر **(من عبر)** أي تكلم في علوم القوم وأفادها للمريدين **(من بساط إحسانه)** أي ملاحظاً أن تعبيره وإفادته تلك العلوم نشأ من إحسانه، أي أعماله الصالحة الشبيهة بالبساط الذي يجلس عليه عند ورود المواهب **(أصمتته الإساءة)** أي أسكتته إساءته ومخالفته للرب فينقبض عن ذلك التعبير لما يغتريه من الخجل والحياء بسبب المعصية التي صدرت منه، وسبب ذلك مشاهدته إحسان نفسه.

(ومن عبر من بساط إحسان الله إليه) أي ملاحظاً أن تعبيره وإفادته تلك العلوم ناشئ من إحسان الله إليه غائباً عن رؤية نفسه **(لم يصمت إذا أساء)** أي لم يسكت عن ذلك التعبير إذا صدرت منه معصية، لأن غيبته عن نفسه ومشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك، ولذا قيل جراءة الجنان تنطق اللسان، وتطلق العنان.

منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود الامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله. قال الله سبحانه: قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون فالأول حال العباد والزهاد. والثاني: حال أهل العناية والوداد. الأول شأن أهل التكليف، والثاني شأن أهل التعريف، الأول حال أهل اليقظة، والثاني حال أهل المعرفة. فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه وعرف إساءته في إحسان الله إليه فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون. وقال رضي الله عنه: قليل العمل مع شهود المنة من الله خيرٌ مِن كثرة العمل مع رؤية التقصير من النفس. وقال بعض أهل المعرفة: لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: قرأت ليلة من الليالي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ـ ٦] فقيل لي شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ينسيك ألطافه الحسنة ويذكرك أفعالك السيئة ويقلل عندك ذات اليمين ويكثر عندك ذات الشمال ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد ولذلك قَلَّ أن تجدَ الزهد والعابد إلا مكموداً حزيناً لأنه علم أن الله تعالى طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَها الإِنْسَانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] فعاين الزهاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه فلذلك لزمهم الكمد واستولى عليهم الحزن وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكليف أمراً عظيماً وعلموا ضعفهم عن حمله والقيام به متى وكلوا إلى نفوسهم قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨] وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله تعالى حمل عنهم ما حملهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] فرجعوا إليه بصدق اللجا فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين في محفات المنن تروح عليهم بنفحات اللطف والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف فتلازمهم المشقات وتطول بهم المسافات فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابقِ توفيقِه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايات. وأما القسم الثالث، وهم الذين أمدهم الله تعالى بشهود ما من الله إلى الله، هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون في ميدان التفريد، وأهل القسم الأول، وهم الذين غلب عليهم شهود ما منهم إلى الله لم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره لأنهم أقبلوا على أنفسهم موبخين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا لها بالتوبيخ إذا قصرت فلذلك قال ذلك العارف الذي سبق قوله لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير. فإن قلت إذا كان توبيخ النفس وذمها يستلزم دقيقة الشرك فكيف تصنع والله تعالى قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك. فالجواب، أن ذمها لأن الله تعالى أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف إليها فعلاً فلا تراها هي الفاعلة له وما القسم الثاني، وهو الذي يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيراً من القسم الأول، لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق فلولا إثباته لنفسه ما شهد ذلك فلأجل هذين المعنيين آثر أهل الله تعالى القسم الثالث وهو أن يكون بشهود ما من الله إلى الله فافهم اهـ.

كلامه رحمه الله تعالى ولأجل ما تضمنه من الفوائد الجليلة والمقاصد النبيلة دعانا قرب المناسبة إلى ذكره على ما هو عليه في هذا الموضع والله الموفق لا رَبّ غيره. **(تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير)** الحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به والأنوار المنسوبة إليهم هي أنوار معرفتهم وهي قوة يقينهم فإن

(تسبق أنوار الحكماء) وهم العارفون بالله تعالى العالمون به **(أقوالهم)** وأنوارهم هي أنوار معرفتهم، وهي قوة يقينهم بأن الأمور كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها، فإذا أرادو إرشاد عباد الله ونصيحتهم بإذن من الله تعالى، توجهوا إلى الله والتجؤوا إليه في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده، بأن يجعل فيها أهلية واستعداداً لقبول ما يرد عليها، فيخرج من قلوبهم حينئذ نور ناشئ من نور سرائرهم يصل إلى تلك القلوب **(فحيث صار)** أي حصل **(التنوير)** أي النور أي استقر في قلوب عباد الله الذين يريدون إرشادهم **(وصل التعبير)** أي تلقته تلك القلوب بالقبول كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر، فينتفعون

الأمور كلها بيد الله تعالى، لا شريك له فيها فإذا أرادوا إرشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم بإذن الله تعالى، سبقت أنوار قلوبهم إلى الله تعالى، باللجأ والافتقار إليه في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعداد القبول ما يريدون إيراده عليهم من كلام الحكمة فيجيبهم إلى ذلك فإذا تكلموا به تلقته قلوبهم التي وصل إليها أنوار أسرار الحكماء كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع.

وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال: يا بني ما بلغت من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما لا يعنيني. قال: يا بني إنه قد بقي شيء آخر: جالِس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وإنما قلنا إن الحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به لأنهم خائفون من الله تعالى وفي بعض الآثار: رأس الحكمة مخافة الله والخوف من ثمرات العلم بالله. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والعلم الموجب للخشية هو العلم بالله فقط فالحكماء هم العالمون بالله تعالى وإن كانوا ضعفاء في سائر العلوم الرسمية كليلة ألسنتهم في البيان عنها. **(كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز)** اللسان ترجمان القلب، فإذا صفا من الأكدار، وتزكى من الأغيار، وأشرقت فيه الأنوار، كانت ترجمانية لسانه على حسب ذلك فيتكلم بالكلام النوراني الذي يلج آذان السامعين فتفتح بسببه إذ ذاك أقفال قلوبهم ويستجيبون به لنداء الحق حبيبهم.

وروى الحافظ أبو نعيم رحمه الله عن سعيد بن عاصم قال: كان قاض يجلس قريباً من مجلس محمد بن واسع فقال له يوماً وهو يوبخ جلساءه: ما لي أرى القلوب لا تخشع، وما لي أرَى العيون لا تدمع، ومالي أرى الجلود لا تقشعر؟ فقال محمد بن واسع: يا عبد الله ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك إنَّ الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب. قلت وقد حاز المؤلف قصب السبق في هذا المعنى الذي ذكره ومن مارس كلامه في هذا الكتاب وفي غيره وحصل له منه التأثير المحمود سلم ما قلناه وكفى بشهادة شيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنه على عظم قدره ودعائه برهاناً على ذلك. قال في **(لطائف المنن)**: وكنت قد قلت لبعض تلامذة الشيخ، يعني أبا العباس، أريد لو نظر إلى الشيخ برعايته وجعلني في خاطره فقال ذلك للشيخ فلما دخلت على الشيخ قال رضي الله عنه: لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده ثم قال: أي شيء تريد أن تكون والله ليكونن لك شأن عظيم والله ليكونن لك كذا وكذا والله ليكونن لك كذا وكذا لم أثبت منه إلا قوله ليكونن لك شأن عظيم قال: فكان من فضل الله سبحنه ما لا أنكره قال: فأخبرني سيدي جمال الدين ولد الشيخ قال: قلت للشيخ يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه فقال الشيخ: هم يصدرونه في الفقه وأنا أصدره في التصوف. وقال: دخلت عليه فقال: أذاعوا في الفقيه ناصرِ الدينَ نجلسك في موضع جدك ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية ونتكلم إن شاء الله تعالى في العلمين فكان ما أخبر به رضي الله عنه، قال: وسمعته يقول أريد أن استنسخ كتاب التهذيب لولدي جمال الدين، فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أُعلِمَ الشيخ، وأتيته بالجزء الأول فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب التهذيب استنسخته لكم، فأخذه فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك الولي لا يتفضل عليه أحد تجد هذا إن شاء الله في ميزانك. فلما أتيته بالجزء الثاني، لقيني بعض أصحابه عند نزولي من عنده قال: قال الشيخ عنك والله لأجعلنه عيناً من عيون الله يقتدى به في علم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث، ونزلت من عنده لقيني بعض أصحابه وقال: طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء فقال: هذا الكتاب استنسخه لي ابن عطاء الله والله ما أرضى له بجلسة جده ولكن بزيادة التصوف. قال: وأخبرني بعض أصحابه قال: قال لي الشيخ يوماً: إذا جاء ابن فقيه الاسكندرية فأعلموني به فلما أتيت الشيخ أعلمنا الشيخ بذلك فقال تقدم فتقدمت بين يديه فقال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش فقال له:

بذلك أتم انتفاع ثم علل ذلك بقوله: **(كل كلام يبرز وعليه)** الواو للحال وفي بعض النسخ إسقاطها **(كسوة القلب الذي منه برز)** فإذا كان القلب منوراً اكتسى الكلام نوراً فلا تمجه الأسماع، ولا تنكره القلوب، فكسوته هو ذلك النور وكلام الحكماء يبرز مكسواً بكسوة الأنوار، فتفتح به أقفال القلوب ويستجيبون لنداء حبيبهم، وكلام المدعين يبرز وعليه الظلمة، فلا ينتفع به أتم انتفاع، وقد ينتفع به من جهة حقيقته ومضمونه، لا من جهة قائله: إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

هذا ملك الجبال قد أمره الله أن يطيع أمرك في قريش فسلم عليه ملك الجبال ثم قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت. فقال رسول الله ﷺ: «لا وَلٰكِنْ أَرْجُو أَنْ يُخرِجَ اللّهُ من أَصْلابِهِم مَنْ يُوَحِّدُ اللّهَ تَعَالَى وَلا يُشرِكُ بِهِ شَيْئاً» فصبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء أن يخرج من أصلابهم كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه. قال: وخرجت يوماً من عند الفقيه المكين الأسمر وخرج معي أبو الحسن الجوهري، وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن، فسلمت عليه وسلم عليّ ببشاشة وإقبال فقلت له: من أين تعرفني؟ فقال: وكيف لا أعرفك كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت له: يا سيدي إنه ليعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم. قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله. فكان ما قال الشيخ رحمه الله تعالى قال: وكنت كثيراً ما يطرأ عليَّ الوسواس في الطهارة فبلغ ذلك الشيخ فقال: بلغني أن بك وسواساً في الوضوء. قلت: نعم، فقال رضي الله عنه: هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب لهم، ثم مكثت أياماً ودخلت عليه فقال ما حال ذلك الوسواس؟ قلت: على حاله. فقال: إن كنت لا تترك الوسوسة لا تعد تأتينا فشقَّ ذلك عليَّ وقطع الله ذلك الوسواس عني: قال وكان رضي الله عنه يلقن للوسواس سبحان الملك القدوس الخلاق الفعال ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٦ـ ١٧] قال: وعملت قصيدة أمدحه بها فقال حين أنشدت: أيدك الله بروح القدس. قال: ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته جواباً لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أخميم فلما قرئت عليه قال رضي الله عنه: صحبني هذا الفقيه وبه مرضان وقد عافاه الله منهما ولا بد أن يجلس ويتحدث في العلمين. يشير الشيخ إلى مرض الوسواس. قال: فلقد انقطع عني ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التي أجدها، قد تساهلت في بعض الأمر والمرض الآخر كان بي ألم برأسي، فشكوت ذاك إليه فدعا لي فعافاني الله تعالى وشفاني قال: وبت ليلة من الليالي مهموماً فرأيت الشيخ في المنام فشكوت إليه ما أنا فيه فقال: اسكت والله لأعلمنك علماً عظيماً قال فلما انتبهت جئت إلى الشيخ رضي الله عنه، فقصصت عليه الرؤيا فقال: هكذا تكون إن شاء الله تعالى قال: وجاء يوماً من السفر، فخرجنا للقائه، فلما سلمت عليه، قال لي: يا أحمد كان الله لك ولطف بك وسلك بك سبيل أوليائه وبهاك بين خلقه قال فلقد وجدت بركة هذا الدعاء وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق وأنى مراد بهم لقوله: وبهاك بين خلقه قال: وكنت أنا لأمره من المنكرين وعليه من المعترضين لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صح نقله عنه حتى جرت مقاولة بيني وبين بعض أصحابه وذلك قبل صحبتي إياه. وقلت لذلك الرجل: ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظاماً وظاهر الشرع يأباها. فقال ذلك الرجل بعد أن صحبت الشيخ: تدري ما قال لي الشيخ يوم تخاصمنا؟ فقلت: لا. قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا ولعمري لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر الشرع من الذي كان ينقله عنه من يقصد الأذى. قال: وكان سبب اجتماعي معه أن قلت في نفسي، بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل، دعني أذهب فأرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه. قال: فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال الأول: إسلام، والثاني: إيمان، والثالث: إحسان، وإن شئت قلت: الأول: عبادة، والثاني: عبودية، والثالث: عبودة، وإن شئت قلت: الأول: شريعة، والثاني: حقيقة، والثالث: تحقق. ونحو هذا فما زال يقول وإن شئت قلت إلى أن بهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهي ومدد رباني فأذهب الله ما كان عندي ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد شيئاً مني يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك إلى العود إليه مرة أخرى فأتيت فاستؤذن لي فلما دخلت عليه قام وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحبك، فقال: أحبك الله كما أحببتني. ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال:

أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية. فإن كنت بالنعمة، فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود المنة عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار قال: فقمت من عنده وكأنما كانت تلك الهموم والأحزان ثوباً نزعته. قال: ثم سألني بعد ذلك بمدة كيف حالك فقلت أفتش على الهم فلا أجده، فقال:

لَيْلي بوجْهِكَ مُشْرِقٌ ... وَظلامُهُ في النَاسِ سَارِي

والناسُ في سُدُفِ الظَّلا ... م ونحنُ فِي ضَوْءِ النَّهارِ

الزم فوالله إن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن اهـ. ما نقلته من لطائف المنن وإنما أوردت ذلك هنا على طوله ليعرف به قدر المؤلف وليدفع بواضح برهانه طعن الطاعن وتعسف المتعسف ولنتعرض بذلك لنزول الرحمة من الله تعالى علينا وموالاة منحه وعطاياه لدينا فقد قيل عند ذكر الصالحين: تنزل الرحمة مع ما في ذلك من قرب المناسبة لمعنى ما أورده المؤلف من الكلام الحائز به قصب السبق بين مَنْ عاصره من الأئمة الأعلام، وأما شيخه أبو العباس وشيخ شيخه أبو الحسن، فحالهما أوضح من نار على علم ولقد طرزت بكلامهما الكتب والدفاتر وزهيت بمآثرهما وعلومهما الألسنة والأقلام والصحف والمحابر ولولا خشية الملالة وكراهة الإطالة لذكرنا من ذلك ما يبهر عقول السامعين والمطالعين ويرغم آناف الجاحدين والمعاندين.

سَيَكْفِيكَ مِنْ ذَاكَ المُسَمَّى إشَارة ... وَدَعْهُ مَصُوناً بالجَمَالِ مُحَجّباً

(من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته وجليت إليهم إشارته) المأذون له في التعبير هو الذي يتكلم لله وبالله وفي الله ولذلك كان كلامه صواباً. قال الجنيد رضي الله عنه: الصواب كل نطق عن إذن أشار بهذا والله أعلم إلى قوله تعالى: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨] وقال صواباً فإذا قرع أسماع السامعين كلامه فهمت في مسامعهم عبارته فلم يفتقروا إلى مَعاودة ولا تكرار وجليت إليهم إشارته فلم يحتاجوا معها إلى إطناب ولا إكثار بخلاف غير المأذون له في ذلك. قيل لحمدون بن أحمد بن عمارة القصار رضي الله عنه: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمٰن ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق. **(ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار)** مَنْ لم يستكمل الأوصاف المذكورة، لم يؤذن له في إظهار شيء من الحقائق الربانية فإن أظهرها، برزت مكسوفة الأنوار بما غشيها من ظلمة رؤية الأغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم وعلامة استكمال الأوصاف المذكورة أن يفتح له باب التعبير مع وجود السلامة من آفات المنطق. قال في **(لطائف المنن)**: إن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: الولي يكون مشحوناً بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن من الله له في الكلام. قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة

(من أذن له) من العارفين بالله تعالى **(في التعبير)** عن الحقائق، وهي علوم الوهب والفتح المأخوذة عن الله تعالى بلا واسطة، وعلامة الإذن له في ذلك تيسير التعبير عليه وسهولته، وعدم احتياجه في إلقاء المعارف إلى كلفة، بل يجد لسانه منطلقاً ويجد عنده باعثاً إلى التعبير عنها مع السلامة من آفات النطق وعلامة ذلك، بالنسبة للسامعين ما ذكره بقوله: **(فهمت في مسامع الخلق عبارته)** فلم يفتقروا إلى معاودة وتكرار، وجعل الأسماع محلاً للفهم مبالغة، وإلا فمحلها حقيقة هو القلب **(وجليت)** بضم الجيم وتشديد اللام، أي ظهرت **(إليهم إشارته)** وهي ألطف من العبارة التي يستعملها أهل الطريق في الأخبار من العلوم الباطنية والحقائق العرفانية، أي فلا يحتاجون إلى أطناب ولا إكثار بخلاف غير المأذون له في ذلك ثم قال: **(ربما برزت الحقائق)** وهي العلوم العرفانية **(مكسوفة الأنوار)** بما غشيها من ظلمة رؤية الأغيار، فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم **(إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار)** قال أبو العباس المرسي قدّس الله سره: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام غير المأذون له يخرج مسكوف الأنوار حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة، فتقبل من

فتقبل من أحدهما وترد على الآخر. (**عباراتهم إما لفيضان وَجْدٍ أو لقصد هداية مريد فالأول حال السالكين، والثاني حال أرباب المكنة والمحققين**) إنما يقع التعبير منهم عما يطالعون به من الأمور الغيبية والعلوم الإشهادية لأحد معنيين إما حال غلبة الوجد عليهم وفيضانه وهم معذورون في ذلك لوجود الغلبة وهذا حال السالكين من أهل الهداية وإما لقصد هداية مريد فيلزمهم ذلك لما فيه من فائدة الإرشاد والهداية وهذا حال أهل التمكين والمحققين، من أهل النهاية فإن عبر السالك لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى وإن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان في ذلك إفشاء سرٌ لم يؤذن فيه وأيضاً فحاله يقتضي وجود الصمت وعدم النطق لأنه في حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم فكيف يصدر منهم نطق أو تعبير على غير الوجه المذكور والصمت من آداب الحضرة. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً﴾ [طه: ١٠٨]. (**العبارات قوت لعائلة المستمعين وليس لك إلا ما أنت له آكل**) المستمعون موسومون بالفقر والحاجة إلى معنى ما يستمعون إليه من المواعظ والحكم وهو قوت قلوبهم وغذاء أرواحهم كما أن المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة إلى قوت أبدانهم وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح للآخر من الأطعمة والأشربة لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم فكذلك أقوات الآخرين مختلفة فلا يصلح لواحد منهم من العبارات التي تتضمن وجود القوت المعنوي ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم، فإذا سمعت عبارةً مِنْ عالم أو عارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحظَ منها بشيء، فاعلم أنها لا تصلح لقوتك وغذائك، وهي صالحة لقوم آخرين. ومما ينتظم في هذا السلك، أن تقرع أسماع بعض الناس العبارة من بعض الأشخاص فيفهم منها معنى لم يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثراً عجيباً وقد يقع ذلك لجملة من الناس فيفهم كل واحد منهم ما لا يفهمه الآخر ويحصل لهم بذلك التأثر مع أن المتكلم لم يرد شيئاً من ذلك وربما كان ذلك مضاداً له وقد يسمع أرباب القلوب من الجمادات ويستعدون به لسيّئ الحالات. قال في لطائف المنن: وربما فهم من اللفظ ضد ما قصد واضعه كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله قال: كان ببغداد فقيه يقال له الجوزي يقرأ اثني عشر علماً، فخرج يوماً قاصداً المدرسة فسمع منشداً يقول:

إذَا الـعـشـرون مِـنْ شَـعْـبَـان وَلَّـت ... فَـوَاصِـلْ شُـرْبَ لَـيْـلِـكَ بـالـنَّـهـارِ
وَلا تَـشْـرَبْ بِـأَقْـدَاحٍ صِـغَـارِ ... فَـإنَّ الْـوَقْـتَ ضَـاقَ عَـنِ الـصِّـغَـارِ

فخرج هائماً على وجهه إلى مكة ولم يزل مجاوراً بها حتى مات. قال وقرئ على الشيخ مكين الدين الاسمر قول القائل:

لَوْ كَانَ لي مُسْعِدٌ بالرَّاح يُسْعِدُني ... لَمَا انْتَظَرْتُ لِشُرْبِ الرَّاحِ إفطارا

أحدهما وترد على الآخر (**عباراتهم**) التي يعبرون بها عن العلوم والمعارف التي يجدونها في باطنهم (**أما لفيضان وجد**) أي لفيضان ما يجدونه في قلوبهم من ذلك، فقلوبهم ضيقة يفيض عنها ما يحل فيها قهراً عنهم كالإناء الضيق إذا وضع فيه ماء كثير، فإنه يفيض منه قهراً (**أو لقصد هداية مريد**) وإن كانت قلوبهم متسعة يمكنهم رد ما يستقر فيها، فلا يفيض منها شيء (**الأول حال السالكين**) أي من أهل البداية فهم معذورون في التعبير لوجود الغلبة عليهم (**والثاني حال أرباب المكنة والمحققين**) من أهل النهاية، فيلزمهم ذلك لما فيه من الإرشاد والهداية، فإن عبر السالك لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى، وإن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان في ذلك إفشاء سر لم يؤذن له فيه، وأيضاً فحاله يقتضي وجود الصمت وعدم النطق، لأنه في حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم (**العبارات**) التي يعبر بها أهل هذه الطريقة عن العلوم والمعارف (**قوت لعائلة المستمعين**) الإضافة للبيان، أي هي من حيث معناها قوت الأرواح العائلة، وهم المستمعون المحتاجون إلى ما يلقى إليهم من المواعظ والحكم، كما أن الأطعمة الخسية قوت لأبدان المحتاجين إليها (**وليس لك إلا ما أنت له آكل**) أي كما أن الأقوات الحسية مختلفة، فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر، لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم، كذلك الأقوات المعنوية التي تفهم من العبارات مختلفة، فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم، وتباين مطالبهم، فقد تلقى العبارة على جماعة، فيفهم كل واحد

الـرَّاحُ شَـيْءٌ شَـرِيـفٌ أَنْـتَ شَـارِبُـهُ فاشْرَبْ وَلَوْ حَمَّلَتْكَ الرَّاحُ أَوْزَارا
يَـا مَـنْ يَـلُـومُ عَـلَـى صَـهْـبَـاءَ صَـافِـيَـةٍ خُذِ الجِنَانَ وَدَعْني أسكن النَّارا

فقال إنسان هناك: لا تجوز قراءة هذه الأبيات. فقال الشيخ مكين الدين الاسمر للقارئ: اقرأ هذا رجل محجوب والشيخ مكين الدين الاسمر هذا هو الذي شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه بأنه من السبعة الأبدال قال: ويكفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا منادياً ينادي: يا سعتر بري ففهم كل واحد منهم مخاطبة خوطب عن الله بها في سره فسمع الواحد: اسع تر بري، وسمع الآخر: الساعة ترى بري، وسمع الآخر ما أوسع بري، فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين كما قال سبحانه: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأكُلِ﴾ [الرعد: ٤] وقال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] فأما الذي سمع اسع تر بري فمريد دل على الله تعالى بالنهوض إلى الله بالأعمال فيستقبلَ الطريق بالجد وقيلَ له: اسعَ إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة وأما الثاني: فكان واصلاً إلى الله تعالى طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة فقيل له ترويحاً على قلبه لما أحرقته نار الشغف: الساعة ترى بري وأما الآخر: فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع ما أوسع بري. قال: وقال الشيخ محي الدين بن العربي رحمه الله: دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر فاجتمع بها جماعةٌ من المشايخ فقدم الطعام وعمروا الأوعية وهناك وعاءٌ زجاج قد اتخذ للبول ولم يستعمل فقرب فيه رب المنزل الطعام فالجماعة يأكلون وإذا الوعاء يقول: منذ أكرمني الله بأكل هؤلاء السادة مني لا أرضى لنفسي أن أكون بعد ذلك اليوم محلاً للأذى ثم انكسر نصفين. فقال الشيخ محيي الدين: فقلت للجميع سمعتم ما قال الوعاء؟ فقالوا: نعم. قال: فقلت: ما سمعتم؟ فأعادوا القول الذي قد تقدم قال: فقلت قال قولاً غير ذلك. قالوا: وما هو؟ قلت: قال: كذلك قلوبكم قد أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا جعلنا الله وإياكم من أولي الفهم عنه والتلقي منه.

قلت وهذه المنازع كلها مما يستملح ويستظرف وتتأثر بها القلوب السليمة وتنقاد لها النفوس الكريمة وقد جرت عادة أئمة هذه الطريق باستعمالها وإيرادها في محالها، فلا حرج علينا، إذن، في ذكر بعض ذلك إذا كانت له مناسبة تامة ووجدت فيها فائدة خاصة أو عامة وبالله التوفيق لا رب غيره. **(ربما عبر عن المقام من استشرف عليه وربما عبر عنه من وصل إليه وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة)** كما أن الواصل إلى مقام من مقامات اليقين يعبر عنه كذلك يعبر عنه من استشرف عليه ولم يتحقق فيه بالمنازلة والمواصلة والتباس ذلك على من ليس له بصيرة ظاهرة وأما ذو البصيرة فلا يخفى عليه ذلك لأنه يرى في الكلام صورة المتكلم الباطنة وما هو عليه من كمال أو نقص وقد قيل: تكلموا تُعرفوا. **(لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته فإن ذلك يقل عملها في قلبه ويمنعه وجود**

منها ما لا يفهمه الآخر، وقد يفهم بعضهم من الكلام الذي يسمعه معنى لا يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثراً عجيباً، وربما فهم منه ضد ما قصده المتكلم به فقد سمع بعضهم قائلاً يقول:

إذا الـعـشـرونَ مـن شـعـبـانَ وَلَّـت فـواصـل شـرب لـيـلـك بـالـنـهـار
ولا تـشـرب بـأقـداح صـغـار فـإن الـوقـت ضـاق عـن الـصـغـار

فخرج هائماً على وجهه حتى أتى مكة، ولم يزل مجاوراً بها حتى مات.

(ربما عبر عن المقام) أي عن أي مقام من مقامات اليقين، كمقام الزهد ومقام الورع، ومقام التوكل إلى غير ذلك **(من استشرف عليه)** أي اطلع عليه، وقارب الوصول إليه، ولم يظفر به ولم يتحقق فيه **(وربما عبر عنه من وصل إليه)** وتحقق فيه **(وذلك)** أي ما ذكر من الحالين **(ملتبس)** أي يلتبس الفرق بين حال هذا وحال هذا **(إلا على صاحب بصيرة)** فإنه لا يخفى عليه، لأنه يرى في الكلام صورة المتكلم الباطنة، وما هو عليه من كمال أو نقص، وعلامة الأول أن يجد الفرح، والاستبشار عند التعبير، واستعظام الأمر واستحسانه، لكونه في مباديه وقريب عهد بغيره، بخلاف الثاني، فإنه يتكلم فيه كعادته في كلامه بغيره، وربما عبر عن المقام من نقله من كتاب، وحفظ أحواله من ممارسته لكلام القوم، وحفظه لعباراتهم، وقد يوهم مع ذلك أنه واصل متمكن، وعلامته التي تبين حاله أن يبحث معه على مقتضى قواعد فنون العلم، فإن صار يتكلف الأجوبة ويشم منه رائحة التعصب والانتصار للنفس، والأنفة من العجز فهو مدع كاذب **(لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته)** أي ما

الصدق مع ربه) الواردات الإلهية لا ينبغي للسالك أن يعبر عنها اختياراً منه بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحداً إلا شيخاً مرشداً لأن نفسه تجد في ذلك لذة وانشراحاً فتقوى به صفاتها فيقل بسبب ذلك عمل الواردات في قلبه من التأثير المحمود ولأجل غلبة أحكام نفسه وإيثار حظه يمنعه ذلك من وجود صدقه مع ربه وقد تقدم هذا المعنى في قوله: استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك. **(لا تمدَنَّ يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك فإذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم)** هذه قاعدةٌ عظيمة يحتاج إليها السالكون المتجردون ليبنوا عليها أحوالهم فيما يصل إليهم من الرفق على أيدي الخلق، وقد ذكرها المؤلف رحمه الله بعبارات بديعة محمودة موجزة جمع فيها جملة المعاني التي يحتاج إليها من ذكرناه فلنبسط كلامه في ذلك على حسب عادتنا معه على الوجه الذي ذكرناه في مقدمة هذا التنبيه وهذا قصدنا في جميع ما تكلمنا عليه من مسائل كتابه ونقول على حسب ذلك أرزاق العباد المعتادة لهم تنقسم إلى قسمين: أحدهما: رزق يصلون إليه بأسباب وأعمال وتصرفات كالتجارات والصناعات وغيرهما وهذا حال أهل الأسباب، والثاني: رزق يصل إليهم على أيدي الخلق من غير عمل ولا سعي وهذا حال أرباب التجريد وكل واحد من القسمين له آداب وأحكام تخصه فأحكام القسم الأول وآدابه لم يتعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى وهي مذكورة في فن الفقه وغيره فواجب على كل من دخل في شيء من الأسباب تحصيل علمه وطلبه من حيث هو وأحكام القسم الثاني وآدابه هي التي تعرَّض لها المؤلف وأجمل رحمه الله تعالى جميع ذلك في مراعاة شرطين وجعلهما من شروط صحة الأخذ. الشرط الأول: أن لا يرى العطاء إلا من مولاه عزّ وجلّ وهذا هو الأصل وإنما اشترطه على الآخذ لأنه مقتضى حاله من تحقيق التوحيد وتخليص التجريد وبه يصح له مقام القناعة والتوكل ويسقط من قلبه هم الرزق وتزول به عنه علاقات الخلق، وإن لم يكن على هذا الوصف، كان عبداً للناس مولهاً قلبه إليهم فيكثر طمعه فيهم ورغبته فيما في أيديهم واستشرافه إليهم فيقع بسبب ذلك في كبائر الذنوب من معاصي القلب والجوارح مثل المداهنة والنفاق والرياء والتصنع والتلبيس والغش وعدم النصيحة وقلة الشفقة وغير ذلك من الصفات المذمومة المناقضة للعبودية لله عزّ وجلّ. قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين ولا يكفي في تلك الرؤية المذكورة أن تكون علماً وإيماناً فقط بل لا بد أن تكون حالاً وذوقاً. دعا بعض الناس شقيقاً البلخي رضي الله عنه، وكان في طبقته من أصحابه نحو خمسين رجلاً فوضع الرجل طعاماً واسعاً وأنفق نفقة كثيرة فلما قعدوا قال لهم شقيق: إن هذا الرجل يقول: مَنْ لم يَرَني صنعت هذا الطعام وأني أقدمه إليه فطعامي عليه حرام. قال: فقاموا كلهم وخرجوا إلا شاباً كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم، فقال صاحب المنزل لشقيق: رحمك الله ما أردت بهذا؟ قال: أردت أن أختبر

يمنحه الله له من العلوم الوهبية والأسرار التوحيدية، فلا ينبغي له أن يعبر عنها اختياراً منه، بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحداً إلا شيخاً مرشداً له **(فإن ذلك يقل عملها في قلبه)** أي فلا يحصل له كمال الانتفاع بها، وهو تمكنها في القلب وتأثره بها **(ويمنعه وجود الصدق مع ربه)** إذ لا يخلو التعبير عنها عن شهوة نفسانية، لأن النفس تجد عند التعبير عنها لذة وانشراحاً، وذلك يقوي صفاتها وقوة صفاتها مما يمنعها من وجود الصدق مع ربها **(لا تمدن يدك)** أيها المريد المتجرد **(إلى الأخذ من الخلائق)** مما يعطونه لك من الأرزاق على وجه الرفق إلا بشرطين أشار إلى الأول بقوله: **(إلا أن ترى)** أي إلا بعد ملاحظتك **(أن المعطي فيهم مولاك)** فلا ترى العطاء الذي يصل إليك إلا منه وأن الخلق أسباب ووسائط، ولا يكفي في تلك الرية أن تكون علماً وإيماناً فقط، بل لا بد أن تكون حالاً وذوقاً، فإن ذلك هو اللائق بحال المتجرد وإلى الثاني بقوله: **(فإذا كنت كذلك)** أي ملاحظاً مولاك **(فخذ ما وافقك العلم)** على أخذه، وحاصله أن لا تأخذ إلا ما وافقك العلم على أخذه، وأباح لك أخذه، والمراد علم الظاهر بأن لا تأخذ إلا من يد مكلف رشيد تقي، وعلم الباطن بأن لا تأخذ إلا ما كان على وجه الرفق والمعونة، أي لا تأخذ إلا ما أنت مفتقر إليه في الحال، لتنفقه في ضرورياتك وحاجاتك من غير إسراف ولا إقتار، كما كان عليه الصلاة والسلام في أكله وشربه ولباسه ومسكنه وغير ذلك، فلا تأخذ ما يأتيك قبل وقتك، ولا زائداً على حاجتك إلا أن يكون في خلقك سخاء، ولا تأخذ ما تعطاه على جهة الاختيار من الله بأن أعطيت شيئاً كنت قد قصدت تركه لله من شهوة كنت مبتلي بها قد ملكتك ومنعتك القيام بحقوق ربك، ولا تأخذ من منان ولا فخور، ولا مظهر لعطيته، ولا ممن يثقل على قلبك قبول عطيته فقد قيل: لا تأكل إلا ممن يرى لك الفضل عليه في أكله.

توحيد أصحابي أي، كلهم لا يرونه فيما صنع ولا ينظرون إليه فيما قدم إلا ذلك الرجل وحده. وإنما اشترطنا في رؤية العطاء من الله تعالى أن يكون حالاً وذوقاً، لأن ذلك هو اللائق بحال المتجرد، كما ذكرناه، لأن التجريد حال شريف لا يدخل فيه بالاختيار والتعمد، لأن ذلك من اتباع هوى النفس وطلب الحظ والراحة وإنما يقيم الحق تعالى فيه من أراده به من أهل التقوى والمراقبة بعد كمال شغله بالله تعالى وجده في الهرب عن كل ما يقطعه عن الله تعالى فحينئذ يسلبه الحق من تدبيره واختياره ويكاشفه بوحدانيته في إيراده ويكون تركه للأسباب بحكم الوقت وإشارة الحال كما روي أن أبا حفص النيسابوري رضي الله عنه، كان حداداً وكان غلامه يوماً ينفخ عليه الكير، فأدخل الشيخ يوماً يده في النار وأخرج الحديدة من النار فغشي على غلامه، وترك أبو حفص الحانوت، وأقبل على أمره وكان يقول رضي الله عنه: تركت العمل فرجعت إليه وتركني العمل فلم أرجع إليه. وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: لا ينبغي للصوفي أن يتعرض للقعود عن الكسب إلا أن يكون رجلاً مغلوباً قد أغنته الحال عن المكاسب وأما من كانت الحاجات به قائمة ولم يقطع له عزوف يحول بينه وبين التكلف فالعمل أولى به والكسب بسعي أحل له وأبلغ لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلف.

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: ما دامت الأسباب قائمة بالنفس فالاكتساب أولى. وقال بعض المنقطعين: كنت ذا صنعة جليلة فأريد مني تركها فحاك في صدري مِنْ أين المعاش؟ فهتف بي هاتف: لا أراه تنقطع إليّ وتتهمني في رزقي على أن أخدمك ولياً من أوليائي أو منافقاً من أعدائي؟ وقد اشترط رسول الله ﷺ في صحة قبول العطاء: عدم الاستشراق إلى الناس، ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرناه من أهل التجريد إلا بهذه الرؤية المذكورة. روى زيد عن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ مَعْرُوفٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا اسْتِشْرافِ نَفْسٍ فَلْيَقْبَلْهُ فإنَّما هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللّهُ تَعالَى إلَيْهِ». وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ وُجِّهَ إلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الرِّزقِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ ولا اسْتِشْرَافِ فليأخُذْهُ وَلْيُوَسِّعْ في رِزْقِهِ فَإنْ كَانَ عِنْدَهُ غِنًى، فَلْيَدْفَعْهُ إلَى مَنْ هُوَ أحْوَجُ مِنْه». وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول له: أعطه يا رسول الله من هو أفقر إليه مني. فقال ﷺ: «خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُسْتَشْرِفٍ وَلا سَائِلٍ فَخُذْهُ وَمَالَا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ». قال سالم فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أعطيه فالاستشراف إلى الناس مذموم قادح في التوحيد، فلا ينبغي أن يأخذ المريد عطاء على هذا الوجه.

روي أن أحمد بن حنبل رضي الله عنه، خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقاً ولم يكن في الموضع من يحمله فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته، فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق، أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف فرآه أيوب، وكان يصوم الدهر، فقال أحمد لابنه صالح ادفع إلى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردهما. فقال أحمد: ضعهما ثم صبر قليلاً ثم قال: خذهما والحقه بهما فلحقه، فأخذهما فرجع صالح متعجباً فقال له أحمد: أعجبت من رده وأخذه؟ قال: نعم. قال: هذا رجل صالح لما رأى الخبز استشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبله. وأما الاستشراف إلى الرزق مع قطع نظره عن الخلق فلا يضره ذلك لأنه خلق ضعيف ذو فاقة ورزقه معلومٌ لا بد منه فاستشرافه إلى الرزق في الحقيقة استشراف إلى الرازق، ولا ينافي ذلك حقيقة العبودية، ولكن إن كثر منها الاستشراف إلى الرزق وشغلت صاحبها عن دوام المحاضرة والمناجاة من الحق فليصرفها عن ذلك صرفاً جميلاً ولينهج لها من التعلق والتوثق بالله سبيلاً.

قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: كنت في بدايتي واقفاً بين العشاءين أصلي وأنا فارغ بلا سبب حتى جاءتني النَّفسُ فقالت لي: السلام عليك قلت لها: وعليكِ السلام. قالت: العشاء فأدهتني بداهية فتوقفت ثم ألهمني الله تعالى أن قلت لها: أتدرين له موضعاً؟ قالت: لا. قلت: لا أيش هو ومتى هو. قالت: لا. قلت لها: أنا رب أو عبد؟ قالت: عبد. قلت لها: فالعبد يقدر على شيء فما هذا الكفر والشرك اللذان أتيتيني بهما اهربي إلى خالقك فاطلبي منه العشاء لأنه خالقك والقادر على كل شيء فيعطيك ويجيب لك ما طلبت فتطعمي

وتأكلي فما لك وإياي وما هذه الحيرة؟ قال: فذهبت إلى خالقها فجاء عشاء متمكن كثير فأكلت. قال وكذلك يحتج عليها ومن هنا تثبت الأقدام. وذكر أيضاً مسألة عظيمة مفيدة تتضمن كيف يكون حال الفقير بالنسبة إلى الرزق وما تحتاج إليه بنيته من الرفق وجعلها من قواعد الفقر والإرادة فرأينا ذكرها في هذا الموضع من الواجب لمتعين ليتحقق في العمل بها كل من يقف عليها من مريد مبتدئ. قال رضي الله عنه: اعلم أن الفقير لا يخلو إما أن يكون جالساً أو ماشياً أما قاعدة الجالس فإن جلسته موضع أليته وهو مكانه وزمانه طرف سجادته لا يتعداها ولا يكون التفاته لوقت ولا إلى سبب معلوم لأنه لا يدري الأوقات ما هي ولا يجدها ولا يدري متى هي ولا وقتها ويعلم أن جميع الأشياء تضبه وتحتاج إليه لأنها خلقت من أجله وهو خليفة فيها وقد فرغ من جميعها فالالتفات والأمل لماذا بل يكون هدفاً للأقدار تجري عليه ولا كسب له ولا سبب في التحصيل ثم قال: وأما الماشي من الفقير الذي يكون في سفر أو غيره فلا تجاوز همته خطوته مثاله أن يكون ماشياً فخطر له التغير والالتفات إليه من بلد أو شخص أو مطعم أو مشرب فيهلك ويظفر به العدو وتزل قدمه فإن تمادى في التعلق بشيء من هذه القواطع والشواغل ومشى إلى شيء منها وفقده ومات مات قاتل نفسه. وذلك أنه يكون في يوم صائف ووهج وقد أصابه العطش فيعرض له خيال ماء فيجيء العدو، فيروج عليه أن أسرع تلحق ذلك الماء، فتشرب منه، فيزول عطشك فإن مشى راكناً لهذا الخاطر يجيء للموضع فيجده سراباً، فهناك يظفر به ويقول له: الآن تموت فيقتله من ساعته فيموت قاتل نفسه إذا كان جاهلاً بربه وآياته ولم يعرف دواءه من دائه ولا تعلم العلم ولا سأل العلماء لبقائه مع نفسه. قال: فحكمه إذا جاء هذا الخاطر بالترويج من العدو في سفر من السرعة إلى الماء والركون إلى الأغيار من منازل وأشخاص أو غير ذلك، أن يعرض على العدو ويقول: إن الله تعالى يمكن أن يتوفاني قبل لحوقه فبالضرورة، يطيعه في ذلك ويسلمه ويقول له أيضاً: قال النبي ﷺ: «مَنْ مَشَى إِلَى طَمَعٍ فَلْيَمْشِ رُوَيْداً» وقال: «مَنْ تَأَنَّى أَصَابَ أَوْ كَادَ وَمَنْ تَعَجَّلَ أَخْطَأَ أَوْ كَادَ» والعجلة من الشيطان ومن هذا كثير فلا يشكّ شاكّ أنه كما يحتج للنفس والشيطان بهذه القواعد من العلم أنهم ينقطعون ولا حجة عندهم بعد الاستعانة بالله تعالى والتعلق به ثم يقول له أيضاً أتنكر أن الله تعالى قادر على أن يطعمني ويسقيني إن شاء الله تعالى ينبع لي عيناً الساعة قبل وصولي لذلك الماء فيقول الشيطان: بالضرورة نعم فإذا كان هذا كذلك فالله سبحانه أعلم بمصالحي ومنافعي من كل مخلوق فإذا حصل هذا العلم رجع يمشي متأنياً همته مع خطوته ناظراً لما يرد عليه من ربه فإذا وصل إلى ما خطر له أولاً أو رآه من بعد ولم يجد ما تعلق به خاطره أولاً من صاحب أو طعام بقي على أصله لا تغير عنده ولا تردد فظفر بالعدو وقتله كما فعل أيضاً الشيطان بغيره الشيء أو ضده. هذا ما أردنا ذكره من كلام هذا الإمام وهو عندي من أنفس الكلام المقرب غاية المرام لما تضمنه من المعاني البديعة والأنفاس الرفيعة ولما فيه من تجريد التوحيد والآداب المرضية مع العبيد فهو جدير بأن يكتب ويرسم ويكمل به الغرض الذي تقدم والله تعالى أعلم وحكم الشرط الثاني، أن لا يأخذ إلا ما يوافق العلم وهذا شرط لازم للمتجرد أيضاً.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه: وينبغي لمن لا معلوم عنده من الأسباب، أن يتورع في أخذها، ويتخير المعطي لها كما يتخير أهل المكاسب في الاكتساب لأن لله تعالى في كل شيء حكماً. والقعود عن المكاسب لا يسقط أحكامها، والقاعد عن الطلب لا يسقط أحكام المطالب ولأن ترك العمل عمل يحتاج إلى علم ولم تكن سيرة الفقراء الصادقين أن يأخذوا من كل أحد ولا في كل وقت ولا يأخذوا كل ما يعطون مما يزيد على كفايتهم إلا أن يكونوا ممن يخرجونه إلى غيرهم اهـ. فموافقة العلم التي ذكرها المؤلف رحمه الله على قسمين: موافقة العلم الظاهر، وموافقة العلم الباطن. أما موافقة العلم الظاهر، فبأن لا يأخذ إلا من يد بالغ عاقل تقيّ وقد جاء في الحديث: «لا تَأْكُلْ إلاَّ طَعَامَ تَقِيٍّ وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ» فلا تأخذ من يد ظالم ولا عامل بالربا ولا جاهل بما يحل ويحرم من وجوه المكاسب ولا تأخذ من يد صبي ولا عبد غير مأذون له ولا معتوه. وأما موافقة العلم الباطن، فبأن لا يأخذ إلا ما كان على وجه الرفق والمعونة فلا يأخذ إلا ما هو مفتقر إليه في الحال ولا غنى له عنه من ضرورياته وحاجته من غير إسرافٍ ولا إقتار ولا بأس أن يأخذ ما يزيد على ذلك بأن كان في خلقه سخاء وبذل، وإيثار وتخلق بمحاسن الأخلاق لا ليتوصل به إلى حظ عاجل من جاه أو رئاسة أو قبول عند الناس ولا يأخذ

ما يعطاه على جهة الابتلاء والاختبار أما الابتلاء فأن يأتيه قبل وقته أو زائداً على حاجته فإن أخذه، فليخرجه في السر ليأمن بذلك من آفة الإظهار وأما الاختبار فأن لا يأخذ شيئاً قد نوى تركه لله تعالى من شهوة كان مبتلى بها قد ملكته وأسرته ومنعته القيام بحقوق ربه فليوفِ بعهد الله تعالى وليدفع ذلك عن نفسه إنْ خاف انحلالَ عزمه وفساد نيته فإن لم يخف على ذلك فليأخذه وليخرجه إلى غيره وهذا أشد شيء على النفس وهو من أعظم درجات الزهد ولا يأخذ مِنْ مَنَانٍ ولا فخور ولا مظهر لعطيته ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته فقد قيل: لا تأكل إلا طعام من يرى لك الفضل عليه في أكله ولا تأكل إلا طعام من يرى أنه وديعة عنده ولا تأكل إلا طعام زاهدٍ لأنه يسرُّ بأكلك ولا تأكل إلا طعاماً يراك صاحبه أفضل من الطعام وقد روي أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش وكان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لا أَقْبَلَ إلاّ مِنْ قَرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دُوسِيٍّ». قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: وفعل هذا جماعة من التابعين جاءت إلى فتح الموصلي رضي الله عنه صرة فيها خمسون ديناراً فقال: حدثني عطاء أن النبي ﷺ قال: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ رِزْقاً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فردَّهُ فإنَّما يردُّهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ». ثم فتح الصرة وأخذ منها درهماً وردَّ سائرَها وكان الحسن يروي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ. وحدثنا عنه أن رجلاً أهدى إليه كيساً فيه ألوف ورزمة فيها من دقيق خراسان فرد ذلك فقال له بعض أصحابه في ذلك فقال له: «مَنْ جَلَسَ مِثْلَ مَجْلِسِي هَذَا وَقَبِلَ مِنَ النَّاسِ شَيْئاً مِثْلَ هَذَا لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خِلاقٍ»، وكان الحسن، رضي الله عنه، يقبل من أصحابه وكان إبراهيم التيمي رضي الله عنه يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذ وكان بعض العباد إذا دفع إليه بعض أهل الدنيا الشيء قال: ضعه عندك واعرض على قلبك حالتي كيف أنا عندك بعد الأخذ أفضل أو دون ذلك وأصدقني. فإن قال: أنت عندي الآن أفضل منك قبل ذلك أو قال له أنت عندي بعد الأخذ مثل ما كنت قبل ذلك قبل منه وإن أخبره بنقصانه في قلبه لم يقبل منه. وكان بعضهم يردّ على أكثر الناس صِلاتهم فعوتب في ذلك فقال: ما أرد عليهم إلا إشفاقاً عليهم ونصحاً لهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم. ويروى عن الأعمش أنه قال: جاء شاب من العرب إلى إبراهيم التيمي بألفَي درهم فقال: يا أبا عمران خذ هذه الدراهم والله ما هي من ذي سلطان ولا من كذا ولا من كذا. فقال له إبراهيم: بارك الله لك وجزاك خيراً فلما ولي قلت له: يا أبا عمران ما منعك أن تأخذها والله ما لامرأتك قميص. فقال: صدقت يا سليمان ولكن هذا شاب من العرب لم يحنكه السن ولم تحنكه الآداب فكرهت أن يجلس في حيه فيقول: أعطيت إبراهيم ألفي درهم فيحبط الله أجره وتذهب دراهمه. وممن ذهب إلى هذا سفيان الثوري، رضي الله عنه، كان يشترط على بعض مَنْ كان يأخذ منه أن لا يذكره لإشفاقه عليه لا من أجله بل من ذهاب أجره لأنه قيل في معنى قوله تعالى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] قال المن أن يذكره والأذى أن يظهره. وقال الجنيد للرجل الخراساني الذي جاءه بالمال وسأله أن يأكله فقال الجنيد: بل أفرقه على الفقراء فقال الرجل أنا أعلم بالفقراء منك ولم أختر هذا فقال له الجنيد: وأنا أؤمل أن أعيش حتى آكل هذا فقال: إني لم أقل لك أنفقه في الخل والبقل وإنما قلت أنفقه في الطيبات وألوان الحلاوات وكلما نفذ أسرع كان أحب إلي فقال الجنيد: ومثلك لا يحل أن يرد عليه فقبله. فقال الرجل: ما ببغداد أحد أعظم منة عليَّ منك. فقال الجنيد: وما ببغداد أحد ينبغي أن يقبل منه شيء إلا مَنْ كان مثلك. وكان السري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رضي الله عنهما الشيء فيرده. فقال له: يا أحمد احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ. فقال أحمد: أعد عليَّ ما قلت فأعاده. فقال له أحمد: ما رددت عليك إلاّ وعندي قوت شهرٍ فاحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلي وعلى الجملة، فلا ينبغي أن يأخذ المريد إلا من مريد زاهدٍ عارف فبذلك يسلم من الآفات ويُكفَى من جميع المؤنات. وقال أبو بكر الدقاق رضي الله عنه: منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء فما رأيت رفقاً لأصحابنا إلا من بعضهم لبعض أو ممن يحبهم ومَنْ لم تصحبه التقوى والورع في هذا الأمر أكل الحرام الصرف وإن أراد أن يسأل من مثل هؤلاء فليفعل.

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: كان بشر بن الحارث رضي الله عنه لا يقبل من الناس شيئاً. وكان بعضهم يقول: أحب أن أعلم من أين يأكل. فقال له: من يخبر أمره أنا أدري من أين يأكل كان له صديق عاقل، يعني نظيره في العقل والدين، لأن بعضهم كان لا يقبل إلا من النظراء ولا يقبل من الأتباع هذا الصديق العاقل الذي كان يقوم بكفايته ولم يكن يظهر أمره ولا يلتقي معه هو السري بن مغلس السقطي رضي الله عنه. قال بشر رضي الله عنه: ما سألت أحداً قط شيئاً من الدنيا إلا سريا السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده، فأكون قد أعنته على ما يحب وكان سري رضي الله عنه، يوجه إلى أحمد بن حنبل في حاجاته فيقبل منه وكان إذا ذكر عند أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء إنه ليعجبني أمره وإن بلغت به الحاجات كل مبلغ وأشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه فلم يقدر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب لشغله بحاله فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل من دون هؤلاء ممن جهل حاله. جاء في الأثر: مَنْ جاع فلم يسأل فمات دخل النار وقد سأل الناس عند الحاجة والفاقة نبي الله تعالى موسى والخضر عليهما السلام لقوله تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧] وكان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رضي الله عنهما يسأل من باب أو بابين بين العشاءين ويكون ذلك معلوماً عند حاجته من يوم أو يومين وكان له مقام في الزهد والتوكل. قال أبو طالب: ولم يعب هذا عليه عموم ولا خصوص ونقل عن أبي سعيد الخراز رضي الله عنه، أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول ثم شي لله ونقل عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، أنه كان معتكفاً بجامع البصرة مدة وكان يفطر في كل ثلاثة أيام ليلة وليلة إفطاره يطلب من الأبواب وكان الثوري يسأل في البوادي من الحجاز إلى صنعاء اليمن. قال: كنت أذكر لهم حديثاً في الضيافة. قال: فيخرجون إليَّ طعاماً فأتناول حاجتي وأترك ما يبقى وليجتنب المريد الأكل بالدين وقبول إرفاق النسوان. فإن قيل كيف يرد ما يعطاه في الوجوه التي حكمتم عليه بعدم الأخذ فيها وهو إنما يأخذ من ربه كما تقدم وهل الراد لذلك إلاّ راد على الله تعالى؟ فكيف يستقيم ذلك؟ فالجواب: أن القيام بحق الشريعة والطريقة لا بد منه والتوحيد لا ينافي ذلك وقد قيل: الكامل من لا يطفئ نورَ معرفته نورُ ورعه وكل باطن من العلم يخالف ظاهراً من الحكم فهو مردود ووجه صحة الرد للعطاء عند مشاهدة التوحيد ظاهر إذ لا فرق في ذلك بين يدي المعطي ويد الآخذ فكما يشهد الآخذ يد الله تعالى في العطاء عند يد المعطي فيأخذ ما يعطاه عند موافقة العلم إتباعاً لإذن الله تعالى وأمره يشهد يد الله تعالى في المنع عند يد نفسه بالرد عند مخالفة العلم فلا يأخذه ولا يقبله إتباعاً لنهي الله تعالى عن ذلك وعدم إذنه فيه كما فعله رسول الله ﷺ في الكبش الذي أهدي إليه مع السمن والأقط وكما فعله فتح الموصلي وحسن البصري رضي الله عنهما مع روايتهما للحديث الذي ذكر فيه أن رد الهدية رد على الله تعالى وقد تقدم ذكره بلفظه فهذا يدفع ذلك الخيال والله تعالى الموفق لصالح الأعمال وإنما أطلت الكلام في هذه المسألة لأن الحاجة ماسة إليها وليعلم من ذلك أن جميع تفاريعها ومسائلها داخل في كلام المؤلف، رحمه الله تعالى، على حكم الإيجاز والاختصار وكلامه فيها من بديع الكلام ومستحسنه ولشيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنه، في معنى ما ذكره كلام بديع مختصر منتزع من كتاب الله عزّ وجلّ نقله عنه في لطائف المنن قال رضي الله عنه: للناس أسباب وسببنا نحن الإيمان والتقوى. قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقد جود المؤلف رحمه الله صناعته وأحسن سياقته في مقصد الإرشاد والهداية والله أعلم. (**ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه لاكتفائه بمشيئته فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى خليقته**) قد تقدم أن من الأدب ترك الطلب والسؤال من الله تعالى اكتفاء بمشيئته ورضاً بسابق قسمته

(**ربما استحيا العارف**) المحقق (**أن يرفع حاجته إلى مولاه**) فلا يطلب منه شيئاً (**لاكتفائه بمشيئته**) أي بما تعلقت به مشيئته من إعطاء أو منع أو ضر أو نفع قال الشاذلي قدّس الله سره لما سئل عن الكيمياء أخرج الخلق من قلبك، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك (**فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى خليقته**) فلا يسألون منهم شيئاً ولا يرفعون إليهم حاجة، لأنهم فقراء محتاجون، ومولاهم هو الغني الحميد، فرفع الهمة عن الخلق وعدم التعرض لهم مما يحتاجه سالكو هذه الطريق، فإن من خلعت عليه خلعة الملك،فحفظها وصانها فحري أن تدام له، ولا تسلب عنه، والمدنس

وأن العارفين المحققين يستحيون من الله تعالى في ذلك فكيف لا يستحيون من مولاهم عزّ وجلّ عند سؤالهم للمخلوقين؟ وهل أدبهم في ذلك واستحياؤهم من ربهم إلا واجبٌ عليهم فلا يسألون منهم شيئاً ولا يرفعون إليهم حاجة لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغني الحميد؟ وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: لا تتعد نية همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال.

قال سهل بن عبد الله التستري، رضي الله عنه: ما من نفسٍ ولا قلبٍ إلا والله مطّلع عليه في ساعات الليل والنهار فأيّما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس. وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: من علامات المعرفة أن لا تسأل حوائجك. قلت أو كثرت إلا من الله سبحانه وتعالى مثل موسى عليه الصلاة والسلام اشتاق إلى الرؤية فقال: رب أرِني أنظر إليك وأحتاج مرة إلى رغيف. فقال: رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقيرٌ. وذكر الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه، أن بعض الفقراء كان يأتي كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعدما يطوف ما شاء الله تعالى ويخرج من جيبه رقعة ينظر فيها فلما كان بعد أيام فعل مثل ذلك ثم تباعد ومات فجاء بعض من يرمقه ونظر في الرقعة فإذا فيها: واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا. قال: فكأن الرجل أصابته الفاقة فصبر ولم يظهر حاله لمخلوق حتى مات.

وقال أبو بكر الجوهري رحمه الله تعالى: كنت بعسقلان على برج أحرس فمر بي رجل عليه جبة صوف متخرقة فقمت إليه مسلّماً وعانقته وأجلسته وجاريت معه في فنون من العلم وكان قدماه حافيتين فقلت له: لم لا تسأل أصحابك في نعلٍ تقيك من الحفاء؟ فقال: يا أخي لرد أمس بالحبال وحبس عين الشمس بالعقال ونقل ماء البحر بالغربال أَهْوَنُ علَيَّ من موقف السؤال وارتجائي من المخلوقين النوال ثم أخرجني من باب المدينة فانتهى بي إلى صخرة منقورة فإذا عليها مكتوب كلٌّ مِنْ كَدِّ يمينك وعرق جبينك فإن ضعف يقينك فاسأل المولى يعينك.

قال في (**التنوير**): واعلم رحمك الله، أن رفع الهمّة لسالكي طريق الآخرة عن الخلق وعدم التعرض لهم أزين لهم من الحلى للعروس وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس ومَن خلِعت عليه خلعة الملك فحفظها وصانها فحري بأن تدام له ولا تُسْلَبَ عنه والمدنس لخلع المواهب حَرِيٌّ أن لا نترك له، فلا تدنس أيها الأخ إيمانك بطمعك في المخلوقين ولا تجعلن اعتمادك إلا على رب العالمين وكن أيها الأخ إبراهيمياً فقد قال أبوك إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وما سوى الله آفل إما وجوداً وإما إمكاناً وقد قال سبحانه: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي اتبعوا ملته، فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم ومن ملته رفع همته عن الخلق فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ فقال له: أمّا إليك فلا وأمّا إلى الله تعالى فبلى. قال: فاسأله. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فانظر كيف رفع همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله بل رأى ربه أقرب إليه من جبريل عليه السلام ومن سؤاله فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله وأنعم عليه بنواله وإفضاله وخصه بوجود إقباله ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة بالرد إلى الله لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلاّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] والغنى، إن أردت الدلالة عليه، فهو في اليأس من الناس. ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أيست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لنفسي ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي وهذا هو الكيمياء والإكسير الذي من حصل له يحصل له غنى لا فاقة بعده وعز لا ذل معه وإنفاق لا نفاد له وهو كيمياء أهل الفهم عن الله.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: صحبني إنسان وكان ثقيلاً عليَّ فبسطته يوماً فانبسط فقلت له: يا ولدي ما حاجتك ولمَ صحبتني؟ فقال: يا سيدي قيل لي إنك تحسن الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك ذلك. فقلت له:

لخلع المواهب حري أن لا تترك له، فلا تدنس إيمانك بطمعك في المخلوقين، ولا تجعل اعتمادك إلا على رب العالمين، واتبع ملة إبراهيم في رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل وقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى. فقال له: سل الله. فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. وخرج بالعارف باقي الفقراء، وهم أقسام ثلاثة منهم من يصبر، فإذا احتاج سأل الناس وقبل منهم مع كونه لا يرى أن المعطي فيهم إلا مولاه ومنهم من لا يسأل، وإذا أعطى قبل على الوجه المذكور، ومنهم من لا يسأل، وإذا أعطى لا يقبل قال بعضهم: وهذا من الروحانيين إذا سأل الله تعالى أعطاه، وإن أقسم عليه أبرّ قسمه.

صدقت وصدق من حدثك ولكني أخالك لا تقبل. فقال: بل أقبل. فقلت له: نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين: أعداء، وأحباء، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكوني بشوكة لم يردني الله بها فقطعت نظري عنهم ثم تعلقت بالأحباء فوجدتهم لا يستطيعون أن ينفعوني بشيء لم يردني الله به فقطعت نظري عنهم، وتعلقت بالله تعالى، فقيل لي: إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمناه لك في الأزل. وقال مرة أخرى: لما سئل عن الكيمياء أخرج الخلْقَ من قلبك واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك. قال: وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله ولا مداومته على ورده وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع وبذلك تَحْسُن الأعمال وتزكوا الأحوال. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه والدوام بين يديه وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى اهـ. ما يتعلق بغرضنا من كلام صاحب التنوير، وهو من الكلام النفيس الخطير، وأنت رحمك الله إذا تأملته بعين بصيرتك ناصحاً لربك في علانيتك وسريرتك، علمت منه أن ما تضمنه عظيم الموقع وأنه مستحسن منا إيراده في هذا الموضع إذ هو منوط بالإيمان والتوحيد محتاج إليه كل سالك ومريد فمن رعاه حق رعايته وصرف إلى العمل بمقتضاه عنان عنايته، فقد تحقق بمحاسن الإيمان وكان من ولاية الله تعالى بمكان ومن أهمله وضيعه وجهل قدره وموقعه خيف عليه الوقوع في الشرك الخفي والجلي واستحق بذلك أن يطرد عن باب مولاه العلي فيقوى طمعه في الخلق ويضيق عليه متسعات أبواب الرزق كما قال بعض العارفين المكاشفين رضي الله عنه: قيل لي في نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم لا تبدين فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك وخروجك عن حدك في عبوديتك إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع إليَّ منها وتتضرع بها لديَّ وتتوكل فيها عليّ سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً فلا تزيفن بعد السبك وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسي بالغنى، فإن وصلتها بي، وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيري، قطعت عنك مواد معونتي، وحسمت أسبابك من أسبابي، طرد الملك عن بابي فمن وكلته إلى مَلَكَ ومن وكلته إليه هَلِكَ اهـ.

ومنهم من يأنف من قبول الرفق على أيدي الخلق وترتفع همته عن ذلك وإن لم يكن سؤال ولا طلب. يحكى عن حماد بن سلمة رحمه الله أنه قال: كان في جواري امرأة أرملة لها أيتامٌ وكانت ليلة ذات مطر فسمعت صوتها تقول: يا رفيق ارفق. قال: فخطر ببالي أنها أصابتها فاقة فصبرت حتى احتبس المطر فحملت معي عشرة دنانير ودققت عليها الباب فقالت: حماد بن سلمة؟ فقلت: نعم. كيف الحال؟ فقالت: بخير وعافية احتبس المطر ودفئ الصبيان. فقلت: خذي هذه الدنانير وأصلحي بها بعض شأنك. قال: فصاحت بنية لها خماسية: أتريد يا حماد أن تكون بيننا وبين معبودنا واسطة؟ ثم قالت لأمها: لما رفعت صوتك بإظهار السِّرّ علمت أن الله يؤدبنا بإظهار الرفق على يدي مخلوق. وذكر الشيخ عبد الرحمٰن السلمي عن ابن عباس بن دهقان قال: كنت عند بشر بن الحرث رضي الله عنه، وهو يتكلم في الرضا والتسليم فإذا هو برجل من المتصوفة فقال له: يا أبا نصر انقطعت عن أخذ البر من أيدي الخلق لإقامة الجاه، فإن كنت متحققاً بالزهد، منصرفاً عن الدنيا، فخذ من أيديهم لينمحي جاهك عندهم واخرج بما يعطونك إلى الفقراء وكن بعقد التَّوَكل تأخذ قوتك من الغيب فاشتد ذلك على أصحاب بشر فقال بشر: اسمع أيها الرجل الجواب: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ فذلك من الروحانيين، إذا سأل الله تعالى أعطاه، وإن أقسم على الله أبر قسمه، وفقير لا يسأل وإن أعطي قبل فذلك من أوسط القوم عقده التوكل والسكون إلى الله تعالى فهو ممن توضع له الموائد في حظيرة القدس، وفقير اعتقد الصبر وموافقة الوقت فإذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال فكفارة سؤاله صدقه. فقال الرجل: رضيت رضي الله عنك. وقال رضي الله عنه: **(إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلاّ ما كان حقاً)** هذا ميزان صحيح

(إذا التبس عليك) أيها المريد **(أمران)** واجبان أو مندوبان، فلم تدر أيهما أولى أن تشتغل به، كطلب ما لا بد منه من العلم والسعي على العيال، وكطلب علم زائد على ما لا بد منه، واشتغال بنوافل وكصلاة النوافل، والصلاة على النبي ﷺ **(فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً)** أي أولى لأنها مجبولة على الجهل، فشأنها أبداً إنما هو

باعتبار غالب الأنفس لأنها مجبولة على الجهل والشره فشأنها أبداً إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق كما تقدم عند قوله: حظ النفس في المعصية ظاهرٌ جَلِيٌّ وحظها في الطاعة باطِنٌ خفيٌ فإذا وجد المريد من نفسه ميلاً وخفة عند بعض الأعمال دون البعض اتهمها وترك ما مالت إليه وخف عليها وعمل بما استثقلته. قال بعض العارفين: منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة. وسكون القلب إلى النفس هو اتباعه للأخف عليها دون الأثقل وهو معدود عندهم من نفاق القلب ومن بقي عليه شيء من دواعي الهوى، وإن قلّ لا يؤمن عليه من مثل هذا فخفة العمل على النفس إنما تكون لأجل موافقة هواها وهواها لا يميل إلا إلى الباطل فإذا التبس عليك أمران واجبان أو مندوبان ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدمه على الآخر فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به، وإنما قلنا باعتبار غالب الأنفس لأن النفس المطمئنة لا توصف بالجهل ولا بالشَّرَهِ فقد يخف العمل عليها ولا يدل ذلك على أنه باطل فليكن نظر العبد حينئذ إلى ما هو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدمه على غيره وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه، حكاية عجيبة في شره النفس وكونها لا تميل إلا إلى الباطل قال: حدثني بعض إخواني عن بعض هذه الطائفة قال: قدم علينا بعض الفقراء فاشترينا من جارٍ لنا حَمَلاً مشوياً ودعوناه إليه في جماعة من أصحابنا. فلما مد يده أخذ لقمة وجعلها في فيه ثم لفظها ثم اعتزل وقال: كلوا أنتم فإنه قد عرض لي عارضٌ منعني من الأكل. فقلنا: لا نأكل إنْ لم تأكل. فقال: أنتم أعلم أما أنا فغير آكل. ثم انصرف قال: فكرهنا أن نأكل دونه فقلنا: لو دعونا الشوّاء فسألناه عن أصل هذا الحمل فَلَعَلَّ له سبباً مكروهاً فدعوناه، فلم نزل به نسأله عنه، حتى أقرَّ أنه كان ميتة وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصاً على ثمنه فشواه ووافق أنكم اشتريتموه. قال: فرميناه للكلاب. قال: ثم إني لقيت الرجل بعد وقت فسألته لأي معنى تركت أكله وبأي عارض. فقال: أخبرك ما شرهت نفسي إلى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التي ريضتها بها فلما قدَّمْتم إليَّ هذا شرهت نفسي إليه شرهاً ما عهدته قبل ذلك فعلمت أن في الطعام علة فكرهت أكله لأجل شدة شره النفس إليه. قال الشيخ أبو طالب رضي الله عنه: فانظر رحمك الله كيف اتفقا في شره النفس على قصة واحدة ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان فعصم العالم بالورع والمحاسبة وترك الجاهل، مع شره النفس، بالحرص وترك المراقبة أعني البائع للحمل وعصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب وهو، قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشتري وحسن نيته اهـ. وثم ميزان آخر أصح وأكثر تحقيقاً من الأول وهو أن يقدر نزول الموت به فأي عملٍ سرَّه أن يكون مشغولاً به إذ ذاك فهو حق وما عداه باطل. قال في **(لطائف المنن)**: والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان في دائرة الوقت. أما الوقت، فكما تقدم يعني أنه علامة صحة مرتبة الولاية وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر لا تدري هل يرضى الله فعله أو تركه أو حالة أنت بها لا تدري هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكلُّ حالةٍ وعملٍ تثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطلة إذ الموت حقٌّ والحق يهزم الباطل ويدمغه لقوله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فإذا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿قُلْ إنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَّام الغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨] ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] وما كنت فيه قائماً بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق والموت حق والحق لا

طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فإذا وجد المريد من نفسه خفة وميلاً عند بعض الأعمال دون بعض اتهمها، وترك ما خف عليها، ومالت إليه وعمل بما استثقلته، فإن عمل بالأخف كان ذلك معدوداً عندهم من نفاق القلب، هذا إن لم تصر نفسه مطمئنة، فإن صارت كذلك عمل بما خف عليها، ومالت إليه لكن ينظر حينئذ إلى ما هو أكبر فائدة وأعظم مزيداً في حاله، فيقدمه على غيره وهناك ميزان آخر تميز به الأولى من غيره مما التبس عليك، وهو أن تقدر نزول الموت بك، فأي عمل سرك أن تكون مشغولاً به إذ ذاك، فهو حق وما عداه باطل، فإن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء، وممازجة حظ النفس واتباع الهوى، فإذا التبس عليك الاشتغال بالعلم أو بطريق القوم، فانظر أيهما تحب أن تكون عليه حال خروج روحك، فاشتغل به فإن كنت تحب أن تخرج روحك وبيدك الكراس لإخلاصك في طلب العلم وقصدك به وجه الله، فاشتغل به، وإن كنت تكره ذلك، وتحب أن تكون في ذلك الوقت مشتغلاً بذكر الله مثلاً لا بطلب العلم فلا تطلب العلم، بل اشتغل بغيره، لأن ذلك دليل على عدم إخلاصك فيه، والكلام في القدر الزائد على ما لا بد منه من العلم.

يهزم الحق. **(قال)** وقد تجاذبت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص النّية فيه وأنه لا يشتغل به إلا لله تعالى. فقلت له: الذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غداً تموت لا يضع الكتاب من يده اهـ. قلت: وهذا هو فصل الخطاب ونهاية الصواب فإن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى فهذا هو المطلوب من العبد ولا يستتم له ذلك إلا أن يتحقق بما يقدر من حلول الموت وحصول الفوت وهذا هو معنى قصر الأمل الذي هو أصل حُسْنِ العمل وهو أن لا يقدر لنفسه وقتاً ثانياً يكون فيه حيّاً وعند ذلك يخلص عمله من الآفات ويتطهر من أنواع الرعونات لأن توقع الموت في كل نفس ولحظة يهدم عليه جميع ذلك كما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وكل عمل استرسل فيه صاحبه غافلاً عن تقدير وقوع ذلك إن لم يكن متحققاً به لم يسلم مما ذكرناه. فإذا بعيد من الإخلاص من يأخذ في علم غير متعين عليه الأخذ فيه لا يجتني ثمرته إلا في ثاني حال ويكون في الحالة الراهنة متمكناً من إيقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم فيفوز بثوابها ويتنجز له حصول التقرب بها لأن في ذلك قوت نفسه ووفارة حظه وآية ذلك أنه قد يعرض له في حال أخذه فيه غرض دنيوي يكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدمه على ما كان آخذاً فيه ويتشاغل به من غير مبالاة بما يفوته من ذلك وإنما عبرنا بلفظ الأخذ، ليدخل فيه تعلم المتعلم وتعليم المعلم فإن الأمر فيهما واحد وكل عمل لا إخلاص فيه ليس بالله ولا لله مردود على صاحبه مضروب به وجهه، وبهذا، يتبين لك غرور أكثر الخلق في علومهم وأعمالهم، إلا من رحم الله تعالى، ولهذا نشاهد أكثر الناس عند نزول الموت بهم يندمون على ما أسلفوه من عمل ويودون أن لو أُنْسِئَ لهم في الأجل وهيهات هيهات. فنعوذ بالله من الغفلة في زمان المهلة فإنها مبدأ كل عمل فاسد ومنشأ وجود الغرة والجهالة لكل عالم وعابدٍ. وما ذكرناه من معرفة اختلاف درجات الصالح ليقدم الفاضل فيها على المفضول لا يصلح إلا لمن أيده الله بنور اليقين وجبله على النصيحة في الدين وكان له حظٌّ وافر من الخوف والحذر وموافقة مولاه في كل ورد وصدر، ولا شك أن هذه المرتبة عزيزة المنال متعذرٌ إدراكها إلاّ على الآحاد من الرجال وسبيل مَنْ لم يصل إليها مِمَّنْ ذكرناه، إذا كان منصفاً أن يستعين بنظر من هو أصح منه حالاً، وأصوب مقالاً وفعالاً، ويفوض جميع أموره إليه، ويعتمد إشارته في كل ما يشير به عليه وعلامة إنصافه، وجود اتهامه لنفسه وعدم اعتماده على عقله وحدسه، ومن لم يكن منصفاً، فالكلام معه هذيان فاسد وضربٌ في حديد بارد. وسيأتي مزيد تنبيه على غرور الآخرين في العلم في موضع أليق من هذا والله وَليّ التوفيق. **(من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات)** هذه من الصور التي يتبين بها خفة الباطل وثقل الحق على النفس وما ذكره هو حال أكثر الناس فترى الواحِدَ منهم إذا عقد التوبة، لا هِمَّةَ له إلا في نوافل الصيام والقيام وتكرار المشي إلى بيت الله الحرام وما أشبه ذلك من النوافل وهو مع ذلك غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التي خدعتهم ولم يحظوا بمجاهدة أهوائهم التي استرقتهم وملكتهم ولو أخذوا في ذلك لكان لهم فيه أعظم شغل ولم يجدوا فسحة لشيء من الطاعات والنفل.

قال بعض العلماء: مَنْ كانت الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع. وقال محمد بن أبي الورد رضي الله عنه: هلاك الناس في حرفتين: اشتغال بنافلة، وتضييع فريضة، وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه،

(من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات) أي العبادات **(والتكاسل عن القيام بالواجبات)** فهذا من الصور التي يخف فيها الباطل، ويثقل فيها الحق، وإنما كانت النوافل تخف على النفس دون الفرائض، لأن العادة أنه لا مزية في القيام بالفرائض لاستواء الناس كلهم فيها، بخلاف النوافل، فإنها تذكر بها، ويحصل لها بها مزية وجاه ومنزلة في القلوب، وهذا هو حال أكثر الناس، فتجد الواحد منهم إذا عقد التوبة، أي صمم عليها لا همة له إلا في نوافل الصيام والقيام وتكرار المشي إلى بيت الله الحرام وما أشبه هذا من النوافل، ومع ذلك هو غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات، ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات، وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التي خدعتهم، ولم يعتنوا بمجاهدة أهوائهم التي أسرتهم وملكتهم.

وإنما حرموا الوصول بتضييعهم الأصول. **(وقال)** الخواص رضي الله عنه: انقطع الخلق عن الله بخصلتين، إحداهما: أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض. والثانية: أنهم عملوا أعمالاً بالظاهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها وأبى الله أن يقبل من عامل عملاً إلاّ بالصدق وإصابه الحق.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: فأفضل شيء للعبد، معرفته بنفسه ووقوفه على حدّه وإحكامه لحالته التي أقيم فيها وابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه لما نهي عنه بعلم يدبره في جميع ذلك وورع يحجزه عن الهوى في ذلك ولا يشتغل بطلب نفل حتى يفرغ من فرض لأن النفل لا يصح إلا بعد حوز السلامة كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حوز رأس المال. فمتى تعذرت عليه السّلامة كان من الفضل أبعد وإلى الاغترار أقرب اهـ.

وقال رضي الله عنه: **(قيّدِ الطاعات بأعيان الأوقات كي لا يمنعك عنها وجود التسويف وَوَسّعْ عليك الوقت كي تبقى لك حصة الاختيار)** أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات المؤقتة بالأوقات بنعمتين عظيمتين، إحداهما: تقييدها لك بأعيان الأوقات لتوقعها فيها فتفوز بثوابها، ولو لم يفعل هذا لسوفت بها ولم تعمل بها حتى تفوت فيفوتك ثوابها والنعمة الثانية: توسيع أوقاتها عليك ليبقى لك نصيب من الاختيار حتى تأتي بالطاعات في حال سكون وتمهل من غير حرج، ولا ضيق لله الحمد على نعمه. **(علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل)** لما علم الله تعالى قلة نهوض العباد إلى معاملته الواجبة له عليهم من إقامة العبودية لمشاهدة الربوبية في حال طواعية منهم إذْ في ذلك قرة أعينهم وغاية نعيمهم أوجب عليهم وجود طاعته على حال كراهية منهم لأجل ما خوفهم به إن لم يفعلوا، فساقهم بسلاسل تخويفه وتحذيره إليهم واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمهم مما لا علم لهم به وفعل بهم ما يفعل بالصبي. ألا تراه كيف يؤدَّبُ ويُضرَبُ على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته ويُلْزَم أموراً شاقة عليه فيفعلها وهو كارِهٌ لذلك، والغرض إنما هو حصوله على منافعه التي هو جاهل بها. فإذا كبر وعقل عرف ذلك عياناً؟. وقد عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل كما يُفعل بأسارى الكفار حين يُراد بهم الدخول في الإسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل في رقابهم. وهذا حديث يروى عن رسول الله ﷺ هكذا: «عَجِبَ اللّهُ مِنْ أَقْوَامٍ يُقَادُونَ إلى الجَنَّةِ بالسَّلاسِلِ» قلت وتعبير المؤلف رحمه الله، بالسّلاسل والسَّوْق بها واستعماله له ذلك في التكاليفَ الواجبة التي ألزم العباد القيَام بها من بديع الاستعارات، كما قال الشاعر، وهو أبو خراش الهذلي:

(قيد) الله تعالى **(الطاعات)** الواجبة عليك كالصلوات الخمس **(بأعيان الأوقات)** أي بأوقات معينة ولم يطلق وقتها **(كي لا يمنعك عنها وجود التسويف)** فإنه تعالى لو أطلقها، ولم يعين لها أوقاتاً لحملك التسويف على تركها، فإنك تتكاسل وتقول: حتى أفرغ من حاجتي أصلي لاتساع وقتها، فربما مضى يومك أو ليلتك ولم تفعلها، بخلاف تقييدها بأوقات معينة، فإن ذلك يلجئك إلى تحصيلها، ويحجزك عن تفويتها **(ووسع عليك الوقت)** أي وسع أوقاتها عليك ولم يضيقها **(كي تبقى لك حصة الاختيار)** فيمكنك فعلها في أول وقتها أو وسطه أو آخره، ولا تعد من المضيعين لها إذا أتيت بها في آخر وقتها مثلاً، ولتتمكن أيضاً من الإتيان بها على الوجه الأكمل، وهو مواطأة القلب للجوارح، فإن الوقت إذا كان متسعاً يمكنك أن تتخلى عن الشواغل والقواطع المانعة من استجماع الفكر والحضور مع الله تعالى حال العبادة، واستعمال الآداب اللائقة بين يدي الله تعالى حينئذ **(علم قلة نهوض العباد إلى معاملته)** أي الإقبال عليه بطاعته، والقيام بحقوق ربوبيته طوعاً منهم لما هم عليه من وجود الضعف، ولما في نفوسهم من وجود الكسل **(فأوجب عليهم وجود طاعته)** أي ألزمهم بذلك قهراً عنهم، وخوفهم بدخول النار إن لم يفعلوها **(فساقهم إليه)** أي إلى الإقبال عليه بطاعته، وفي نسخة إليها، أي إلى الطاعة **(بسلاسل الإيجاب)** أي الإيجاب الشبيه بالسلاسل اللاتي توضع في عنق الأسير يجره بها قهراً عنه من أسره إلى الموضع الذي يريده، وكذلك الإيجاب يسوقهم الله تعالى به إلى الطاعة التي يحصل لهم بها ما يسرهم في المستقبل، وإن كانت شاقة عليهم في الحال، فهو يفعل بهم كما يفعل الولي بالصبي ألا تراه كيف يؤدبه ويصر به على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته، ويلزمه أموراً شاقة عليه، فيفعلها وهو كاره لذلك لأجل تحصيل منافعه في المستقبل الذي هو جاهل بها الآن، فإذا كبر وعقل عرف ذلك عياناً **(عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل)** كما يفعل بأسارى الكفار حين يراد منهم الدخول في الإسلام، فيقادون إلى الجنة بالسلاسل في رقابهم، وهذا معنى حديث قاله ﷺ

وَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَلكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسِلُ

وكذلك تمثيله بالحديث المذكور فيه ذلك والإشارة به إلى مقصوده في غاية الحسن.

قال بعض العلماء: يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله تعالى فيه إظهار عجب هذا الأمر لخلقه لأنه بديع الشأن وهو، أن الجنة التي أخبر الله تعالى بما فيها من النعيم المقيم والعيش الدائم والخلود فيها، الذي من حكم من سمع به من ذوي العقول أن يسارع إليها ويبذل مجهوده في الوصول إليها ويتحمل المكاره والمشقات لينالها وهؤلاء يمتنعون عنها ويرغبون عنها ويزهدون فيها حتى يُقادوا إليها بالسلاسل كما يقاد إلى المكروه العظيم الذي تنفر منه الطباع وتألم منه الأبدان وتكرهه النفوس. وقد قرأ جماعة من القراء بل عجبتُ ويسخرون بضم التاء. وفي حديث رسول الله ﷺ: «لَقَدْ عَجِبَ اللّهُ مِنْ فُلانٍ وَفُلانَةٍ» في قصة الأنصاري الذي قال لامرأته أكرمي ضيف رسول الله ﷺ وهو حديث صحيح مشهور، فالعجب منسوب إلى الله تعالى. وقد ورد في الكتاب والسنة فهو إذاً من الصفات السمعية. **(أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك إلا دخول جنته)** هذه عبارةٌ حسنة موافقة لمعنى ما تقدم. والمقصود من هذا كله، الإعلام بأن الله تعالى غنيّ عن خلقه، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، وأن التكاليف كلها، إنما أوجبها عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم لا غير. قلت: وما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، هو حال عامة الناس الذين من شأنهم التأني وعدم الانقياد للأوامر والنواهي ولذلك احتاجوا إلى التخويف والتحذير والموالاة والحض للمبالغة في النكير وأما الخاصة منهم، فلم يحتاجوا إلى شيء من ذلك، لأن الله تعالى شَرَح صدورهم ونوَّر بصائرهم وكتب في قلوبهم الإيمان وحبب إليهم الطاعة وبغَّضَ إليهم العصيان فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه المذكورون من فعل الواجبات واجتناب المحظورات فقط، بل أضافوا إلى ذلك المبادرة إلى أعمال الطاعات والمسارعة إلى نوافل الخيرات وبالجملة صارت أعمالهم كلها قربات وذلك لتمام حريتهم وصحة عبوديتهم. نعم العبد صهيبٌ لَوْ لم يخف الله لم يعصه. قال في **(التنوير)**: وإنما جعل الحق سبحانه الإيجاب على العباد علماً منه بما هم عليه من وجود الضعف وبما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل فأوجب عليهم ما أوجبه، لأنه لو خيَّرهم فيما أوجب عليهم، لم يكونوا به قائمين إلا قليلاً، وقليل ما هم فأوجب عليهم وجود طاعته. وفي التحقيق ما أوجب عليهم إلا دخول جنته فساقهم إلى الجنة بسلاسل الإيجاب.

عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل قال: واعلم رحمك الله، أنا تلمحنا الواجبات فرأينا الحق

في أسارى بدر، ولفظه عجب الله من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل، والعجب والتعجب استعظام أمر خفي سببه، وهو مستحيل عليه تعالى، ففيه المذهبان: السلف يقولون: إن لله عجباً ولا نعلم حقيقته، وهو منزه عن معناه المشهور، والخلف يؤولون ذلك فيقولون: معنى التعجب المنسوب إلى الله إظهار عجب هذا الأمر لخلقه، لأنه بديع الشأن، وهو أن الجنة شأنها أن يسارع إليها لنفاستها، وهؤلاء يرغبون عنها، ويمتنعون منها حتى يقادوا إليها بالسلاسل، كما يقادون إلى الأمر المكروه، وقيل: الراد بالتعجب لازمه، وهو الإحسان إلى المتعجب منه، فإنك إذا قلت ما أعلم زيداً يلزمك أنك تريد الإحسان إليه وإكرامه، فالمعنى أحسن ربك إلى هؤلاء القوم حيث دعاهم إلى الجنة وساقهم إليها كرهاً، وهذا في حق العامة. أما الخاصة فلا يحتاجون إلى الإيجاب والتخويف والتحذير، لأن الله تعالى شرح صدورهم ونور بصائرهم وكتب في قلوبهم الإيمان، وحبب إليهم الطاعات وبغض إليهم العصيان، فلم يحتاجوا إلى شيء من ذلك لتمام حريتهم من الأغيار التي تملك القلوب، فهم ملازمون لطاعته طوعاً، بل لو أكرهوا على تركها لم يستطيعوا الصبر عنها، وفائدة تكليفهم حينئذ إظهار محبتهم كما يأمر الملك وزراءه الملازمين لحضرته بخدمته زيادة في القرب والتشريف.

(أوجب عليك وجود خدمته) في الظاهر **(وما أوجب عليك)** في الحقيقة ونفس الأمر **(إلا دخول جنته)** لأنه تعالى غني عن خلقه لا تنفعه طاعتهم، ولا تضر معصيتهم، وإنما أوجب الأعمال عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم، وهو دخول الجنة لا ليحصل له شرف بذلك، وهذا تصريح بما علم قبله، لأن حاصله أنه تعالى إنما أوجب على عباده طاعته لقلة نهوضهم إليها، فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب، وسوقهم إليها بذلك إنما هو لأمر يرجع إليهم، وهو دخول الجنة بدليل الحديث، وهو عجب ربك الخ فيؤول المعنى إلى أن سوقهم إلى طاعته، وهو إيجابها عليهم سوق إلى الجنة، فلم يوجب عليهم إلا دخولها، وهو ما صرح به هنا.

سبحانه جعل في كل ما أوجبه تطوعاً من جنسه في أي الأنواع كان ليكون ذلك التطوع من ذلك الجنس جابراً لما عساه أن يقع من الخلل في قيام العبد بالواجبات. وكذلك جاء في الحديث: أنه ينظر في مفروض صلاة العبد، فإن نقص منها شيء كمل من النوافل، فافهم رحمك الله هذا ولا تكن مقتصراً على ما فرض الله عليك بل لتكن فيك ناهضة حب توجب إكبابك على معاملة الله تعالى فيما لم يوجبه عليك ولو كان العباد لا يجدون في موازينهم إلا فعل الواجبات وثواب ترك المحرمات لفاتهم من الخير والمنة ما لا يحصره حاصرٌ ولا يحزره حازر فسبحان الله الفاتح للعباد باب المعاملة والمهيء لهم أسباب المواصلة. قال: واعلم أن الحق سبحانه، علم أن في عباده ضعفاء وأقوياء، فأوجب الواجبات، وبيَّن المحرمات، فالضعفاء اقتصروا على القيام بما أوجب والترك لما حرم وليس في قلوبهم من سلطان الحب ووجود الشغف ما يحملهم على المعاملة من غير إيجاب فمثلهم كمثل العبد يعلم السيد منه أنه إن لم يخارجه لم يهد إليه شيئاً، فلذلك وقَّت سبحانه الأوراد ووظَّف وظائف العبودية وعرف ذلك بالطالع والغارب والزوال وصيرورة ظل كل شيء مثله في الصلاة وبالحول في الأموال النامية العين والماشية وبوقت حصول المنفعة في الزرع وآتوا حقه يوم حصاده وبعشر ذي الحجة في الحج وبشهر رمضان في الصيام فوظف الوظائف ووقتها وجعل للنفوس فيها فسحة الحظوظ والسعي في الأسباب، وأهل الله هم: أهل الفهم عنه جعلوا الأوقات كلها وقتاً واحداً والعمر كله نهجاً إلى الله تعالى قاصداً فعلموا أن الوقت كله له فلم يجعلوا شيئاً منه لغيره. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن، رضي الله عنه: عليك بورد واحدٍ وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى. أبت المحبة أن تستعمل محباً إلا فيما يوافق محبوبه.

وعلموا أن الأنفاس أمانات الحق عندهم وودائعه لديهم فعلموا أنهم مطالبون برعايتها فوجهوا هممهم لذلك. وكما أن له الربوبية الدائمة كذلك حقوق ربوبيته عليك دائمة فربوبيته غير مؤقتة بالأوقات فحقوق ربوبيته عليك ينبغي أن تكون أيضاً كذلك لذلك. قال الشيخ أبو الحسن، رضي الله عنه: إنَّ لكل وقت سهماً يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية اهـ. **(من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلٰهية وكان الله على كل شيءٍ مقتدراً)** من استرقته الشهوة واستولت عليه الغفلة فلا ينبغي له أن يستغرب أن ينقذه الله من أسر شهوته وأن يخرجَهُ من وجود غفلته لما يشاهد من استحكام ذلك فيه فإن في ذلك نسبة العجز إلى القدر الإلٰهية والله تعالى متصف بالاقتدار على كل شيء وهذا من الأشياء وليعلم العبد أن قلوب العباد ونواصيهم بيده فلا يقنط ولا ييأس، وليقصد باب مولاه بالذِّلة والانكسار والافتقار فعساه يسهِّل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغربه وما ذلك على الله بعزيز، وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التي تروى عن الصالحين الذين تقدمت لهم في بدايتهم الزلاّت، ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات، فتداركهم الله تعالى بلطفه، واستنقذهم بجوده وعطفه، فأصلح أعمالهم وصفّى أحوالهم وأبدل سيآتهم حسناتٍ ورفعهم من أسفل سافلين إلى أعلى الدرجات. كل ذلك في أقرب زمان وأقصر مدة وأوان والحكايات في هذا المعنى عن الشيوخ مثل سيدي الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وأبي عقال بن علوان وغيرهم رضي الله عنهم، معروفة مشهورة.

ومن أغرب ما رأيته في هذا المعنى ما رواه عبد الصمد بن مغفل عن عمه وهب بن منبه، رضي الله عنهما، أن رجلاً قتل نفساً فجاء إلى سائح من سائحي بني إسرائيل فسأله عن ذلك قال: فرفع له السائح من الأرض عرجوناً أبيض قديماً حائلاً. ثم قال له: إذا اخضرّ هذا العرجون قبلت توبتك وأراد السائح بذلك أن يؤيسه من التوبة لعظم ذنبه، فأخذ الرجل العرجون وهو يطمع في التوبة ويعزم فتاب وجعل يعبد الله تعالى زماناً ويدعو حتى اخضرّ ذلك

(من استغرب أن ينقذه الله من شهوته) التي استرقته **(وأن يخرجه من وجود غفلته)** التي استولت عليه، أي من استحكمت فيه الشهوة والغفلة، واستغرب أن يخرجه الله منهما **(فقد استعجز)** أي فكأنه استعجز **(القدرة الإلٰهية)** أي المنسوبة إلى الإلٰه وفي بعض النسخ قدرة إلٰهية أي نسبها إلى العجز **(وكان الله على كل شيء مقتدراً)** أي مع أنه تعالى وصف نفسه بالاقتدار على كل شيء، وإخراجه من ذلك من جملة الأشياء، فينبغي له أن يقصد باب مولاه بالذلة والافتقار، فعساه يسهل عليه ما استصعبه، ويظهر فيه ما استغربه، وليعتبر هذا المعنى بالحكات التي تؤثر عن الصالحين الذين تقدمت لهم في بدايتهم الزلات، ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات، فتداركهم الله بلطفه، وأصلح أعمالهم وصفى أحوالهم، كفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وأبي عقال بن علوان وغيرهم رضي الله عنهم.

العرجون بإذن الله تعالى وقدرته. وأغرب من هذا، وأعجب ما خرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْساً فَسَأَلَ عَنْ أَعْبَدِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: قَتَلْتُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقال: لا فقتله فَكَمَّل بِهِ المائة ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّه قَتَلَ مائةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انطَلِقْ إِلى أَرْضِ كَذَا فإِنَّ بها أُناساً يَعْبُدُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ فاعْبُدِ اللّهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فإِنَّها أَرْضُ سُوءٍ، فانطلق حتى إِذَا أتى نِصْفَ الطَّرِيقِ، أَتَاهُ المَوْتُ فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ العَذَابِ فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جاء تائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إلى اللّهِ تعالى. وقَالَتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ: إنه لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قطّ فَأَتاهُمْ مَلَكٌ في صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوه بينهم حكماً فقال: قيسوا ما بين الأَرْضَينِ فإلى أيتِهما كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوهُ فوجدوه أدنى إِلَى الأَرْضِ التي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ». قال قتادة: قال الحسن: ذُكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره. وقال عيسى بن دينار: كان يقال ما وَفَّقَ الله عبداً لعمل إلا وهو يريد أن يقبله منه ولا وفق الله عبداً لنزوع عن ذنب إلا وهو يريد أن يغفره له. وقد ذكر القاضي يونس بن عبد الله، المعروف بابن الصفار رحمه الله في كتاب **(التسبب والتيسير لصالح العمل)** أنه أخبره ثقة من أهل العلم قال: كان رجلٌ من أهل الأدب له أصحاب تجمعه بهم مجالس مكروهة فدعوه ذات يوم فلم يجبهم فقالوا له: ما يمنعك من إجابتنا؟ فقال: دخلت البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سني. ثم لزم الخير والعبادة. قال: وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال: وجبت حجة الله على ابن الأربعين. وذكر فيه أيضاً عن مغيث بن سمى قال: كان رجل من بني إسرائيل يعمل بالخطايا فبينما هو يسير ذات يوم ذكر ما سلف من عمله فقال: اللهم غفرانك فمات على ذلك الحال فغفر له. وذكر فيه أيضاً عن رجل من العلماء أنه رأى في منامه شيخاً وجماعة من الشعراء قد أحدقوا به يسألونه قال: فقلت له أيها الشيخ أخبرني بأحكم بيت قالته العرب فأنشدني:

صَبَا ما صَبَا حَتَّى عَلا الشَّيْبُ رَأْسَهُ ... فَلَمَّا عَلاهُ قَالَ لَلْبَاطِلِ ابْعِدِ

قال: فوالله لقد نفعني الله عزّ وجلّ بهذا البيت ما ذكرته بعد ذلك عند شهوة أو خطيئة إلا ارتدعت عنها وأرجو أن لا يفارقني الانتفاع به ما بقيت، إن شاء الله تعالى، وفي الكتاب المذكور حكايات مستحسنات في هذا المعنى فطالع ذلك فيه والله المستعان الموفق لا ربَّ غيره. **(ربما وردت الظلم عليك، ليعرفك قدر ما من به عليك)** الظُلَمَ أضداد الأنوار فما من نور إلا وفي مقابلته ظلمة وكل ظلمة على قدر نورها والشيء يعرف بضده كما قيل:

وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ

فما أورده عليك من ظلمات الحجبة والغيبة في ليالي الهجر والقطيعة إنما ذلك ليعرفك قدر ما من به عليك من أنوار التجلي والحضور في نهاية القربة والوصلة فجميع ذلك نعم منه عليك من غير علم منك بذلك. **(من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها)** أكثر الناس لا يعرفون قدر النعم إلا إذا فقدوها وذلك لأجل غلبة الغفلة عليهم حين وجودها عندهم.

قال سري القسطي رضي الله عنه: مَنْ لم يعرف قدر النعم سُلبها من حيث لا يعلم. وقال الفضيل رضي الله عنه: عليكم بمداومة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض البلغاء: إذا كانت النعمة

(ربما وردت الظلم) أي الشهوات والمعاصي والغفلات **(عليك ليعرفك)** حال ورودها **(قدر ما منَّ)** الله **(به عليك)** أي ما كان قد منّ الله به عليك سابقاً من الأنوار والإقبال على مولاك فتحمده عليها، وإذا رجعت إلى حالك عرفت أن ذلك نعمة عظيمة فيكثر منك الحمد والشكر، فقد صارت النقمة نعمة، وقد يكون سبب ورودها ما حصل منك من الإعجاب بطاعتك، فيوردها عليك لتعرف قدرك، ولا تتعدى طورك فلا تتكبر، ولا ترى نفسك على أبناء جنسك، وهذه نعمة أيضاً، وقد ترد عليك عقوبة وامتحاناً، وعلامة ذلك أنك كلما خرجت من معصية وقعت في أخرى وهكذا، ولا توفق للتوبة ولا تعتقد التقصير من نفسك **(من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها)** هذا تعليل لما قبله كأنه قال: إنما كان ورود الظلم معرفاً بقدر النعم، لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها، فعند وجود النقيض يظهر فضل المناقض، فإنما يعرف قدر نعمة البصر مثلاً من ابتلى بالعمى، وقد قيل إنما يعرف قدر الماء من ابتلى بعطش البادية لا من كان على شاطئ الأنهار والأودية الجارية.

وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة. وقال آخر: شكر النعمة عصمة من حلول النقمة. وفي معنى هذا قيل: إنما يعرف قدر الماء من بلي بالعطش في البادية لا من كان على شاطئ الأنهار الجارية. وقيل أيضاً: الولد العاق المصرُّ على تأبيه إنما يعرف قدر الأب يوم وفاة أبيه. وقيل: نِعَمُ الله مجهولة وتعرف إذا فقدت. ومن دعاء بعض الصالحين: اللهم عرِّفْنَا نعمتَكَ بدوامها ولا تعرفها لنا بزوالها. قلت: ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد وتضييع الشكر عليها من العبد أمرنا رسول الله ﷺ بالنظر إلى مَنْ هو أسفل منا لئلا نزدري نعمة الله علينا والسعيد من وعظ بغيره. قال رسول الله ﷺ فيما روي عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُم وَلا تَنْظُرُوا إِلى مَنْ هُوَ فَوْقَكُم فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم» وروي أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضُلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلقِ فلينظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ» قال الشيخ أبو حامد رضي الله عنه، وكان بعض الصوفية: وَظَّفَ على نفسه كُلَّ يوم أن يحضر دار المرضى فيشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم ويحضر حبس السلطان ويشاهد أرباب الجنايات ومحنهم في التعرض لإقامة العقوبات ويحضر المقابر فيشاهد أصحاب العزاء وتأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه وكان يعود إلى بيته ويشتغل بالشكر طول النهار على نعم الله عليه في تخليصه من تلك البلايا اهـ. وكان الربيع بن خثيم رضي الله عنه، حفر في داره قبراً وكان يضع في عنقه غلاً وينام في لحده ثم يقول: رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت ثم يقوم ويقول: يا ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد وهذا كله موافق لأمر رسول الله ﷺ في الحديثين المذكورين. ولا طريق للعبد الغافل إلى تَعَرُّفِ النعم الموجودة لديه أبلغ منه، فإذا عرف نعم الله تعالى عليه، اشتغل بالشكر عليها من قبل أن تزال عنه فلا يكون له سبيل إليها. وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله، مَنْ لَمْ يَشْكرِ النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها. **(لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإن ذلك مما يحطُّ من وجود قدرك)** إذا ترادفت نعم الله تعالى عليك، فلا ينبغي أن تدهشك عن القيام بشكرها من حيث ترى عجز نفسك عن توفية ذلك، وأن لا قِبَل لك به فتتركه فإن الله تعالى رفع قدرك، وأعلى أمرك، وجعل القليل منك كثيراً، وأشهدك من حسن توليه لك ونسبة أفعالك إليك ما يؤذن بعظم سيادتك ورفعة قدرك فلم تبخس نفسك حقها وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر والقيام بمقتضى الأمر لا على وجه الأدب والإتيان من الشكر بما وجب كأن الأمر في ذلك إليها. قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ما مِنْ نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. والنعمة التي ألهم بها الحمد أفضل من الأولى لأن بالشكر يستوجب المزيد. وفي أخبار داود عليه السلام: إلهي ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود إني أعطي الكثير وأرضى باليسير وإن شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمني. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إليه: إني بأرض قد كثرت فيها النعم حتى لقد أشفقت على من قبل ضعف الشكر، فكتب إليه عمر: إني كنت أراك أنك أعلم بالله مما أنت أن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل قال الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاودَ وسُلَيْمانَ عِلْماً وقالا الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَى إذا جَاؤُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خَالِدِينَ وَقَالُوا الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٣]الخ. وأي نعمة أعظم من دخول الجنة. **(تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال)** القلب محل الإيمان والمعرفة واليقين

(لا تدهشك واردات النعم) أي النعم الواردة المترادفة عليك **(عن القيام بحقوق شكرك)** أي شكر المولى عليها بأن ترى عجز نفسك عن توفية ذلك فتترك الشكر **(فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك)** أي إن الله تعالى قد رفع قدرك، وجعل القليل منك كثيراً. قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها﴾ [الأنعام: ١٦٠] فلا تبخس نفسك حقها، وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر بسبب كثرة النعم، وذلك من الجهل كما لو تركت الشكر عليها لاستقلالها في نظرك، فالحامل على ترك الشكر على النعمة أحد أمرين وكل منهما مذموم ومن شكر اللسان ذكر الله، ومنه الباقيات الصالحات التي تذكر عقب الصلوات **(تمكن حلاوة الهوى)** الهوى ميل النفس، والمراد به الهوى وهو الشهوات، أي تمكن حب شهوات الدنيا **(من القلب هو الداء العضال)** أي الذي لا تنفع فيه الحيل والأسباب والأدوية، كالإيمان والمعرفة واليقين فإن

وهذه هي الأدوية لأمراضه التي أوجبها وجود الهوى والشهوة فإذا تمكن الداء من القلب لم يبق للدواء محل فلذلك أعضل أمره وتعذر برؤه. **(لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق)** الشهوة المتمكنة من القلب لا يخرجها إلاّ وارد قوي قاهر غالب يرد عليه وذلك إما خوف مزعج أو شوق مقلق وما عدا هذين الأمرين لا استقلال له بذلك. **(كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يقبل عليه)** العمل المشترك هو المَشُوبُ بالرياء والتصنع، والقلب المشترك هو الذي فيه محبة غير الله تعالى والسكون إليه والاعتماد عليه، فالعمل المشترك معتلٌ بنظر صاحبه إلى الناس والقلب المشترك، معتل بنظر صاحبه إلى نفسه. فالعمل المشترك لا يحبه ولا يقبله ولا يثيب عليه لفقد الإخلاص منه والقلب المشترك لا يحبه ولا يقبل عليه ولا يرضى عنه لعدم وجود الصدق فيه، فمن صحح أعماله بالإخلاص وأحواله بالصدق، كان محبوباً لله تعالى مثاباً مرضياً عنه وإلا فلا. وقال رضي الله عنه: **(أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول)** الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب تنقسم إلى قسمين: أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب فقط، وأنوار أذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه، فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يشاهد العبد معها نفسه وربه ودنياه وآخرته فيكون تارةً مع نفسه وتارةً مع ربه وطوراً يسعى في العمل لآخرته وطوراً يعمل في أمور دنياه والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلا وجود الله عزّ وجلّ فلذلك لا يحب سواه ولا يعبد إلا إياه. قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب، كان العبد محباً للآخرة والدنيا، وكان مرةً مع الله تعالى، ومرةً مع نفسه. فإذا دخل الإيمان باطن القلب، أبغض العبد دنياه وهجر هواه.

وفي لفظ آخر: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب، يعني أعلى الفؤاد، كان المؤمن يحب الله حباً متوسطاً. فإذا دخل الإيمان في باطن القلب وكان في سويدائه أحبه الحب البالغ. قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: ومحبة العبد ذلك أن ينظر، فإن كان يؤثر الله تعالى على جميع هواه ويغلب محبته على هواه حتى تصير محبة الله هي محبة العبد من كل شيء فهو محبٌ لله تعالى حقاً كما أنه مؤمن به حقاً، وإن رأيت قلبك دون ذلك، فلك من المحبة بقدر ذلك.

الداء إذا تمكن من القلب لم يبق للدواء محل، فلذا أعضل أمره وتعذر برؤه، فلا يفيد فيه إلا وارد إلٰهي، كما أشار إليه بقوله: **(لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج)** يرد على القلب من شهود صفات الجلال ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة وتذكره نزول الموت به، ودخوله للقبر وحيداً وسؤال الملكين مع أهوال الحشر، والمعاد الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، ويجعل الولدان شيباً إلى غير ذلك **(أو شوق مقلق)** يرد على القلب من شهود صفات الجمال، ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد لأهل الطاعات، وتذكره ما أعد لأوليائه من النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر إلى غير ذلك، والمواظبة على حضور مجالس الذكر والتذكير علاج كبير، ونفع كثير في حصول ذلك إذ لا يزال ذلك يعمل في القلب شيئاً فشيئاً إلى أن يسكنه الخوف أو الشوق، أما إذا لم يكن الأول مزعجاً، والثاني مقلقاً فلا يفيدان تركاً ولا توجهاً **(كما لا يحب العمل المشترك)** وهو المشوب بالرياء والتصنع. **(كذلك لا يحب القلب المشترك)** وهو الذي فيه محبة غير الله والسكون إليه والاعتماد عليه، ولما كانت المحبة بمعنى ميل القلب مستحيلة في حقه تعالى أولها على طريقة الخلف بقوله **(العمل المشترك لا يقبله)** أي لا يثبت عليه لعدم الإخلاص فيه، فعدم محبته بمعنى عدم إثابته عليه **(والقلب المشترك لا يقبل عليه)** أي لا يرضى عن صاحبه، ولا يثيبه لعدم وجود الصدق منه، فعدم محبته بمعنى عدم الرضا عن صاحبه، وعدم إثابته فمن صحح أعماله بالإخلاص، وأحواله بالصدق كان محبوباً لله، أي مثاباً مرضياً عنه، وإلا فلا أما السلف، فيثبتون لله محبة لكن لا نعلم حقيقتها **(أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول)** أي الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب وهي معارف وأسرار إلٰهية تنقسم إلى قسمين أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب فقط، وأنوار أذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه، فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يشاهد القلب معها نفسه، وربه ودنياه وآخرته، فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه، وتارة يحب آخرته وتارة يحب دنياه، والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلا وجود الله عز وجل، فلذلك لا يحب سواه لا يعبد إلا إياه قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب، كان العبد محباً للآخرة والدنيا، وكان مرة مع ربه ومرة مع نفسه، فإذا دخل الإيمان باطن القلب أبغض العبد دنياه، وهجر هواه ـ اهـ.

وقال بعض العلماء: ظاهر القلب محل الإسلام وباطنه مكان الإيمان فمن هاهنا تفاوت المحبون في المحبة لفضل الإيمان على الإسلام وفضل الباطن على الظاهر. (**ربما وَرَدَتْ عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار**) الأنوار الإلهية قد تَرِدُ على القلب فلا تجد فيه موضعاً لاستقرارها لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية فترتحل من حيث تنزل لأنها مقدسة مطهرة، فإذا أردت حلول الأنوار فيه وتجلي المعارف والأسرار له، ففرغه من الأغيار وامحُ عنه صور الآثار. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى، كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته. (**لا تستبطئ منه النوال ولكن استبطيء من نَفْسِكَ وُجُودَ الإقبال**) تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: لا تُطالِبْ رَبَّكَ بتأخير مطلبك ولكن طالِبْ نَفْسَكَ بتأخير أَدَبِكَ. والعبارتان متفقتان معنًى وإن اختلفا لفظاً. (**حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقضِ حق الله فيه**) الحقوق الكائنة في الأوقات هي وظائف العبادات الظاهرة من صلاةٍ وصيام وغيرهما فمن فاته شيءٌ منها في وقته المعين أمكنه قضاؤه في وقت آخر إذ قد جعل له في ذلك مجالٌ رحب فيستدرك فيه ما يفوته من تلك الحقوق والحقوق المضافة إلى الأوقات هي المعاملات الباطنة التي تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه إذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به وارد يرد عليه حق جديد وأمر أكيد ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك فإن فاته لم يجد مجالاً لقضائه ولا يمكنه ذلك فعلى العبد أن يكون مراقباً لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنه قضاؤها إن فاتت.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، ولله تعالى عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها، ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا

ثم فرع على ما تقدم بقوله (**ربما وردت عليك الأنوار**) أي العلوم والمعارف الإلهية (**فوجدت القلب محشواً بصور الآثار**) أي معلقاً بصور المكونات من أموال وأولاد وغيرهما (**فارتحلت من حيث نزلت**) أي من المكان الذي نزلت فيه، وهو القلب لأنها مطهرة مقدسة، فلا تحل في القلب المدنس بالأغيار (**فرغ قلبك من الأغيار**) أي التعلق بغير مولاك، وامح عنه صور الآثار، بأن لا تتوجه بسيرك إلى غير ربك، فلا يكون لك أنس إلا به واعتماد إلا عليه (**يملؤه بالمعارف والأسرار**) قال تعالى ﴿**الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت: ٦٩] تقدم في كلام المصنف كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، وإذا كان كذلك (**فلا تستبطئ منه النوال**) أي إعطاء المعارف والأسرار (**ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال**) عليه بمحو صور الأغيار من مرآة قلبك بالمجاهدة والرياضة ثم قال: (**حقوق**) كائنة (**في الأوقات**) أي الأزمنة، وتلك الحقوق هي وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما (**يمكن قضاؤها**) أي إن من فاته شيء من ذلك في وقته المعين له أمكنه قضاؤه في وقت آخر (**وحقوق الأوقات**) هي ما يرد على العبد من قبل الرب من الأحوال، فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الأحوال، وأوقاته أربعة لا خامس لها النعمة، والبلية والطاعة والمعصية، وسمي ما ذكر وقتاً، لأنه يرد في وقت مخصوص تسمية للشيء باسم زمنه، وحقوقها الواجبة عليك فيها هي المعاملات الباطنة التي تقتضيها تلك الأحوال، فحقه عليك في النعمة الحمد والشكر، وفي البلية الصبر والرضا، وفي الطاعة شهود المنة، وفي المعصية الاستغفار والتوبة، ولذا يقولون الفقير ابن وقته، أي يتأدب معه ويعطيه حقه، كما يتأدب الولد مع أبيه وتلك الحقوق (**لا يمكن قضاؤها**) إذا فاتت (**إذا ما من وقت**) أي حال (**يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد**) هو بمعنى ما قبله أي فلا يسعك إلا أن توفي حقه، فيمنعك اشتغالك بحقه عن اشتغالك بحق ما فاتك ولذا قال: (**فكيف تقضي فيه حق غيره**) مما فاتك (**وأنت لم تقض حق الله فيه**) وهو الحق المتعلق بذلك الوقت ولو قال، وأنت لم تقض حق ذلك الوقت لكان أوضح، وحينئذ فيجب عليك أن تكون مراقباً لقلبك حتى تقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنك قضاؤها إن فاتت، ولا تشغل أوقاتك بشهوات نفسك، ورعونات بشريتك حتى تضيع حقوق الله تعالى الواجبة عليك التي ليس لها خلف يقوم

بالقضاء والصبر والرضا، رضا النفس عن الله، والصبر مشتق من الإصبار وهو نصب الغرض للسهام وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهام القضاء فإن ثبت لها، فهو صابر والصَّبْر ثبات القلب بين يدي الرب وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ وابْتُلِيَ فَصَبَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ وَظَلَمَ فاسْتَغْفَرَ» ثم سكت رسول الله ﷺ فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟ فقال: «أُولَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» أي لهم الأمن في الآخرة وهم المهتدون في الدنيا. **(ما فات من عمرك لا عوض له وما حصل لك منه لا قيمة له)** عمر العبد ميدان لأعماله الصالحة المقربة له من الله تعالى والموجبة له جزيل الثواب في الدار الآخرة وهذه هي السعادة التي لها يكدح العبد ويسعى من أجلها وليس له منه إلا ما سعى. كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ ما سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] فكل جزء يفوته من العمر خالياً من عمل صالح يفوته من السعادة بقدره ولا عوض له منه. قال الجنيد رضي الله عنه: الوقت إذا فات لا يستدرك وليس شيء أعز من الوقت وكل جزء يحصل له من العمر غير خالٍ من ذلك يتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك لأنه في غاية الشرف والنفاسة ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضي الله عنهم، لأنفاسهم ولحظاتهم وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير. وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بقية عمر المرء ما لها ثمن يدرك فيها ما فات ويحيي ما أمات.

وقد نظم بعض الشعراء في المعنى رحمه الله وأرضاه فقال:

بَقِيَّةُ العُمْرِ عِنْدِي مَا لَهَا ثَمَنٌ ... وَإنْ غَدَا غَيْرَ مَحْسُوبٍ مِنَ الزَّمَنِ

يَسْتَدْرِكُ المَرْءُ فِيهَا كُلَّ فَائِتَةٍ ... مِنَ الزَّمانِ وَيَمْحُو السُّوءَ بالحَسَنِ

وقال رجل لعامر بن عبد الله بن قيس رضي الله عنه، وهو يريد الجمعة: قف حتى أكلمك. فقال له: لولا أني أبادر لوقفت لك. قال له: وما تبادر؟ قال: أبادر خروج روحي. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم يقول كما لا يخرج ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود عليه نفعه فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه. وقال السري السقطي رضي الله عنه: جزْتُ من بغداد أريد الرباط إلى عباد أن لأصوم بها رجب وشعبان فاتفق لي في طريقي علي الجرجاني، وكان من الزهَّاد الكبار فدنا وقت إفطاري وكان معي ملح مدقوق وأقراص فقال: ملحك مدقوق ومعك ألوانٌ من الطعام لن تفلح ولن تدخل في سنن المحبين فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير فسف منه فقلت: ما دعاك إلى هذا؟ قال إني حسبت ما بين المضغ والسف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة. وفي الخبر: ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة. ويقال: إن العبد تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعاً وعشرين خزانة فيرى في كل خزانة نعيماً ولذةً وعطاءً وجزاءً لما كان أودع خزائنه من ساعاته في الدنيا من الحسنات فيسره ذلك ويغتبط به فإذا مرت به في الدنيا ساعاته التي لم يذكر الله فيها رآها في الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء عليها فيسوؤه ذلك ويتحسر عليه كيف فاته حيث لم يدخر فيها شيئاً فيرى جزاءَه مدخوراً ثم يلقى في نفسه الرضا والسكون. وجاء في الخبر أنَّ أهل الجنة بينما هم في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ من فوق أضاءت منه منازلهم كما يضيء الشمس والقمر لأهل الدنيا فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يرَوْن الكوكب الدري في أفق السماء وقد فضلوا عليهم في الأنوار والجمال والنعيم المقيم كما فضل القمر على سائر النجوم

مقامها، وإذا فاتت لا يمكن قضاؤها ولذا قال: **(ما فات من عمرك لا عوض له)** أي لا عودة ولا رجوع له، فإذا خليته من العمل الصالح الذي هو وظيفة ذلك الوقت فاتك من السعادة بقدره ولا يمكنك تداركه **(وما حصل لك منه لا قيمة له)** أي لا يمكن أن يقاوم بشيء لعظم قدره، لأنك تتوصل به إذا اشتغلت بحق الله تعالى فيه إلى ملك كبير في الآخرة وشرف عظيم كثير لا يفنى، ولذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضي الله عنهم لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير. * وفي الحديث: «ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة وندامة»، ويقال: إن العبد يوم القيامة تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة، فيراها خزائن مصفوفة أربعاً وعشرين خزانة، فيرى في كل خزانة نعيماً، ولذة جزاء لما كان أودعه في تلك الخزانة من الأعمال الصالحة، والتي لم يعمل فيها شيئاً يراها فارغة، فيتحسر ويندم حيث لا ينفعه

فينظرون إليهم يطيرون على نُجُب تسرح بهم في الهواء، يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادونهم هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا كنا نصلي كما تصلون ونصوم كما تصومون فما هذا الذي فضلتم به علينا؟ فإذا النداء من قبل الله تعالى إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكتسون، ويذكرون حين تسكتون، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فضلوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: رُئِيَ بعضهم مجتهداً فقيل له في ذلك فقال: ومن أولى مني بالجهد وأنا أطمع أن ألحق الأبرار والكبار من السلف؟ قال الله تعالى: ﴿وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وفي معناه أنشدوا:

السِّبَاقَ السِّبَاقَ قولاً وفعلاً حَذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ المَسْبُوقِ

(ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً) المحبة للشيء تقتضي الانقياد له وشدة العلاقة وأن لا يبغي به بدلاً كما قيل: حبك للشيء يعمي ويصم. وذلك معنى استعباده للمحب له فمن أحب غير الله عزّ وجلّ فقد استعبده ذلك الغير كائناً ما كان، والله لا يحب أن تكون لغيره عبداً ولا يرضى بذلك تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والزوجة والخميصة تعس وانتكس. وقال محمد بن السماك كتب إليّ أخٌ إن استطعت أن لا تكون لغير الله عبداً ما وجدت للعبودية بداً فافعل. وقال الجنيد رضي الله عنه: إنك لن تكون على الحقيقة له عبداً وشيء مما دونه لك مسترق وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية وسئل عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة فقال: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم.

ومن الحكايات في هذا المعنى، ما ذكر عن أبي عبد الله الرازي، نزيل نيسابورَ قال: كساني ابن الأنباري صوفاً. ورأيت على رأس الشبلي قلنسوةً ظريفة تليق بذلك الصوف فتمنيت في نفسي أن يكونا جميعاً لي، فلما قام الشبلي من مجلسه التفت إليّ فتبعته، وكان من عاداته، إذا أراد أن أتبعه أن يلتفت إليّ، فلما دخل داره دخلت فقال انزع الصوف فنزعته، فلفَّه وطرح عليه القلنسوة ودعا بنارٍ فأحرقهما. ومثل هذا مما كان ينكره عليه من لم يعرف مقصوده وفي ذلك شيء كثير ورد عنه. **(لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك وإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك)** الحق تعالى غني عن أعمال العاملين لأنه منزَّهٌ عن الأعواض والأغراض فلا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك وإنما أمرك ونهاك لما يعود عليك من المصالح والمنافع في الدارين لا غير وذلك على سبيل التفضل منه من غير إيجاب عليه، وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل. قال في لطائف المنن: اعلم رحمك الله، أنَّ الله لم يأمر العباد بشيء وجوباً أو يقتضيه منهم ندباً إلا والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر ولم يقتض منهم ترك شيءٍ تحريماً أو كراهةً إلا والمصلحة لهم في ترك ما أمرهم بتركه وجوباً أو ندباً. ولسنا نقول كما قال مَنْ عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب على الله رعاية مصالح عباده، بل إنما نقول ذلك عادة الحق وشرعته المستمر فعلها مع عباده على سبيل التفضل فليت شعري، إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟ ثم إنَّا نظرنا فرأينا كل ما هو واجب أو مندوب إليه يستلزم الجمع على الله وكل منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه فإذاً مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه لكن الطاعات هي أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها المعصية هي أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها اهـ. **(لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه)** عزة

الندم، ثم يلقي عليه الرضا والسكون **(ما أحببت شيئاً)** من أمور الدنيا **(إلا كنت له عبداً)** لأن محبتك للشيء تقتضي انقيادك له وشدة علاقتك به، وأن لا تبغي به بدلاً كما قيل حبك للشيء يعمي ويصم، وهذا معنى استعباده لك فإن أحببت غير الله، فقد استعبدك ذلك الغير كائناً ما كان **(وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً)** أي لا يرضى بذلك، وفي الحديث تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم والزوجة والخميصة تعس وانتكس. وقال الجنيد: إنك لن تكون على الحقيقة له عبد أو شيء مما دونه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقوق عبوديته بقية المكاتب عبد ما بقي عليه درهم.

(لا تنفعه طاعتك) لأنه غني عن العالمين وأعمالهم **(ولا تضره معصيتك)** لتنزهه تعالى عن أن يصل إليه مكروه من خلقه **(وإنما أمرك بهذه)** أي الطاعة **(ونهاك عن هذه)** أي المعصية **(لما يعود عليك)** من المنافع والمصالح في الدارين، وذلك على سبيل التفضل منه لا على وجه الإيجاب عليه **(لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه)** لأن

الله تعالى صفة من صفات ذاته وصفاته في غاية الكمال والتمام فهي منزهة عن الزيادة والنقصان وسبقية العلل. وقال رضي الله عنه: **(وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجلّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء)** الوصول إلى الله تعالى الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة، هو الوصول إلى العلم الحقيقي بالله تعالى وهذا هو غاية السالكين ومنتهى سير السائرين، وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعالٍ عنه. وقال الجنيد رضي الله عنه: متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير، هيهات هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان. قال الشيخ أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي صاحب كتاب **(عوارف المعارف)** رحمه الله: واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليهما الشيوخ وكل من وَصَل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو رتبة في الوصول ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم مَنْ يوقف في مقام الهيبة والإنس بما يكاشفه قلبه من مطالعة الجلال والجمال وهذا تجلٍّ بطريق الصفات وهو رتبة في الوصول، ومنهم مَنْ يرقى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيب في شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين وهذه رتبة في الوصول. وفوق هذا رتبة حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا لمح وهو سَرَيان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى مراتب الوصول، فإذا تحققت الحقائق، يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة، أنه في أول المنزل فأين الوصول؟ هيهات! منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي فكيف بالعمر القصير الدنيوي. **(قربك منه أن تكون مشاهداً لقربه وإلا فمن أين أنت ووجود قربه)** القرب الحقيقي قرب الله منك. قال الله تعالى: ﴿وإذا سَأَلَكَ عِبَادي عَنّي فَإنّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] وقال عزّ من قائل: ﴿ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وحظك من ذلك، إنما هو مشاهدتك لقربه فقط فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة وغلبة الهيبة والتأدب بآداب الحضرة. وأما أنت، فلا يليق بك إلا وصف العبد وشهوده من نفسك كما يقول المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا: إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك. **(الحقائق ترد في حال التجلي مجملة**

عزه صفة من صفاته الجامعة كالألوهية والكبرياء والعظمة وصفاته تعالى في غاية الكمال والتمام، فهي منزهة عن الزيادة والنقصان، وهذا تعليل لما قبله من كونه لا يعود عليه نفع من عبيده ولا يلحقه ضرر منهم **(وصولك إلى الله)** الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة هو **(وصولك إلى العلم به)** أي إلى مشاهدته بعين بصيرتك مشاهدة تغنيك عن الدليل والبرهان، ويعبر عن ذلك العلم بالمشاهدة وبعلم اليقين بالتجلي وبالفيض الرحماني والتعرف العياني، والذوق الوجداني وأهل الشهود متفاوتون، فمنهم من يحصل له تجلي الأفعال، وهو أول التجليات عندهم فيفنى فعله، وفعل غيره في فعل الله تعالى، فلا يرى فاعلاً إلا هو. ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه أول مراتب الوصول، ومنهم من يحصل له تجلي الصفات، فيقف في مقام الهيبة والإنس بما يشاهده قلبه من الجلال والجمال، وهذه رتبة ثانية من رتب الوصول، ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، فيغيب في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهو أيضاً رتبة في الوصول، وفوق هذا رتبة حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهو من أعلى رتب الوصول. قال في عوارف المعارف: فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه في أول المنزل، فأين الوصول هيهات منازل طريق الوصول، لا ينقطع أبداً الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنيوي؟ اهـ. **(وإلا)** ترد بالوصول ما ذكر، وهو العلم الحقيقي بالله تعالى بطريق الذوق والوجدان، بأن أردنا به الوصول المتعارف، وهو وصول الذوات والأجسام فلا يصح **(فجل)** أي لأنه تعالى **(ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء)** لا حساً وهو ظاهر، ولا معنى إذ كيف يتصل من لا شبيه له، ولا نظير له بمن له شبيه ونظير، وشرط الاتصال المداناة في الوصف، ولا نسبة بين كامل على الإطلاق، وناقص على الإطلاق.

(قربك منه) الذي تشير إليه أهل هذه الطريقة هو **(أن تكون مشاهداً لقربه)** منك قرباً معنوياً فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة في التأدب بآداب الحضرة **(وإلا)** نقل ذلك بل أزدنا القرب الذي هو من صفات الأجسام **(فمن أين أنت ووجود قربه)** قرباً حسياً فهذا لا يصح **(الحقائق)** أي العلوم اللدنية التي يقذفها الله تعالى في أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحريرهم من رق الأغيار، وتعرضهم بسرهم إلى نفحات الحق **(ترد في حال التجلي)** أي تجلي الله على قلوبهم **(مجملة)** لا

وبعد الوعي يكون البيان فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) حقائق العلوم اللدنية التي يقذفها الحق تعالى في أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحررهم من رقّ الأشياء وتعرضهم باللجأ والافتقار لما يفتح عليهم المولى يكرمهم الحق تعالى بها تحقيقاً لوعده لهم من غير تعلم ولا دراسة وعند ورودها عليهم وتجليها لهم تكون مجملة لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها، فإذا وعوها وتصرفت فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل، تبين لهم معناها وظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية من غير مخالفة حتى إن بعضهم ربما يجري على لسانه وبنانه كلامٌ كثير من غير أن يلقى له بالاً فإذا فرغ من ذكره أو رسمه يتصفحه ويتأمله فيجده صحيحاً مستقيماً، وقد أخبرني بنحو ذلك مَنْ له قَدَمُ صدق في هذا الطريق عن نفسه. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: وأصحاب الحقائق يجري بحكم التصرف عليهم شيء لا علم لهم به على التفصيل وبعد ذلك يكشف لهم وجهه فربما يجري على لسانهم شيء لا يدرون وجهه ثم بعد فراغهم عن النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه من شواهد العلم إذ تحقيق ذلك بجريان الحال في ثاني الوقت اهـ كلام الإمام أبي القاسم وهو موافق لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى والله تعالى أعلم وكأنهما أشارا بذلك إلى المسألة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة وقد عبروا عن ذلك بعبارات فقد سئل عبد الله بن طاهر الأبهري رضي الله عنه، عن الحقيقة فقال: الحقيقة كلها علم. فسئل عن العلم فقال: العلم كله حقيقة. وقال الشبلي رضي الله عنه: الألسنة ثلاثة: لسان علم، ولسان حقيقة، ولسان حق، فلسان العلم ما تأدى إلينا بالوسائط، ولسان الحقيقة ما أوصله الله إلى الأسرار بلا واسطة، ولسان الحق ليس إليه طريق. وقال رويم رضي الله عنه: أصح الحقائق ما قارن العلم. وقال أبو بكر الوراق رضي الله عنه: كنت في تيه بني إسرائيل فوقع في قلبي أن علم الحقيقة بخلاف علم الشريعة فإذا شخص تحت شجرة أم غيلان صاح بي وقال: يا أبا بكر كل حقيقة تخالف الشريعة فهي كفر وإشارة المؤلف رحمه الله بالآية التي ذكرها إلى هذا المعنى بينة. **(متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد عليك إنَّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها)** الواردات الإلهية على العبد تمحو عنه جميع رعوناته وتهدم عليه مستمر عاداته ولها سلطنة عظيمة على ذلك فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالتها عنه بمرة وأثبتت عوضاً عن ذلك أحوالاً علية وأوصافاً مرضية. أنشدني سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في هذا المعنى:

لَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ يَوْمَ تَزَلْزَلَتْ أَرْضُ النُّفُوسِ وَدُكَّتِ الأَجْبَالُ

تتبين لهم معانيها، ولا يدركون جهات حقيقتها لعظم التجلي على قلوبهم **(وبعد الوعي)** لزوال ذلك التجلي **(يكون البيان)** أي تتصرف فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل، فيتبين لهم معناها، ويظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية، حتى أنه ربما يجري على لسان بعضهم كلام كثير لا يلقى له بالاً، فإذا فرغ من ذكره وتأمله وجده صحيحاً مثال ذلك ما وقع من الحلاج من قوله ما في الجبة إلا الله، فإن هذا قاله لعظم التجلي عليه، فإذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحاً، لأن معناه أنه لا قائم بالأشياء إلا هو سبحانه، وهذا معنى صحيح يوافق الشريعة، وكذا قول بعضهم أنا اللوح أنا القلم، فإن ذلك لعظم التجلي عليه وغيبته عن حسه يرى أن نفسه عين تلك الأشياء، فإذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحاً، أي أن المتجلي عليّ وهو الله سار سره في اللوح والقلم وغيرهما، وأشار بذلك إلى المسألة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة حيث قالوا: حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة *.

ثم استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ [القيامة: ١٨] أي أقرأناه لك على لسان جبريل **(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)** أي فاستمع لقراءته، ثم اقرأه بعد ذلك **(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)** أي بيان معانيه لك، فقد جعل بيان المعنى بعد قراءته المقارنة للتجلي الإلهي.

(متى وردت الواردات) وهي التجليات **(الإلهية)** ويعبر عنها بالأحوال أيضاً وقوله: **(عليك)** متعلق بوردت، أي وردت على قلبك من قبل الحق، فأحدثت فيه أحوالاً سنية **(هدمت)** أي أزالت **(العوائد عليك)** أي الأمور التي كانت معتاداً لها، وهي رعونات نفسك، لأن لها سلطنة عظيمة، فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت ذلك، وأثبتت عوضاً منه أحوالاً علية وأوصافاً مرضية **(إن)** أي لأن **(الملوك)** أي جنودهم **(إذا دخلوا قرية أفسدوها)** أي أزالوا ما تلبس به أهلها من النعيم، وكذلك الواردات الإلهية شبيهة بجنود الملك إذا حلت قلباً قهرت ما فيه وأزالته، وهذا جواب عما يقال: إن العوائد مما جبلت عليه الطبائع، فكيف تزيلها الواردات؟

لَرَأَيْتَ شَمْسَ الحَقِّ يَسْطَعُ نُورُهَا   حِينَ التَّزَلْزُلِ وَالرِّجَالُ رِجَالُ

الأرض أرض النفوس والجبال جبال العقل والشمس شمس المعرفة والإشارة بالآية إلى هذا المعنى بينة. **(الوارد يأتي من حضرة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دَمَغُه بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ)** الوارد موسوم بِسِمَة القهر والغلبة لوروده من حضرة القهار الغالب على أمره لأجل ذلك لا يصادمه شيء من رعونات البشرية إلا دمغه وأزاله وهو أيضاً حق ورد على باطل والباطل لا ثبات له مع الحق والإشارة بالآية إلى هذا المعنى بينة. **(كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر)** قد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى، الكلام على هذا المعنى في أول الكتاب وأتى فيه بالعجب العجاب وقد نبهنا عليه هناك. **(لا تيأس من قبول عملٍ لم تجد فيه وجود الحضور فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلاً)** والعمل الذي لا يجد صاحبه حضوراً فيه ينبغي له أن لا ييأس من قبوله فإن ذلك إلى الله تعالى فقد يقبل من العمل ما لم يدرك ثمرته عاجلاً من وجدان حضور أو حلاوة أو غير ذلك ولو لم يكن إلا قصد التقرب به وسقوطه عن نظره وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: لا عمل أرجى للقلوب. **(لا تزكين وارداً لا تعلم ثمرته فليس المراد من السَّحابة الأمطار وإنما المراد منها وجود الأثمار)** الوارد مراد لثمرته لا لوجدان حظ نفسك منه كما أن السحابة مرادة لوجدان الأثمار الذي اقتضاه وجود أمطارها لا لمجرد وجود أمطارها. وثمرة الوارد إنما هي تأثر القلب به وتبدُّل صفاته المذمومة بصفات محمودة، كما تقدم فإن لم تعلم وجود هذا فيك، فلا تزكِّ الوارد، ولا تفرح به، فإن في ذلك نوعاً من الاغترار وانخداعاً بلبسة الإظهار فكن على حذر منه. **(لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها فلك في الله غِنًى عن كل شيء وليس يغنيك عنه شيء)** أنوار الواردات المنبسطة على العبد هي تكيف ظاهره وباطنه بكيفيات العبودية وأسرارها المودعة فيه

وحاصل الجواب أن الوارد له القهر كجند الملك، ووضح ذلك بقوله: **(الوارد يأتي من حضرة قهار)** أي أن له القهر والغلبة لوروده من حضرة اسمه القهار، والقهار هو الغالب الذي لا يغلب **(لأجل ذلك لا يصادمه شيء)** من رعونات البشرية **(إلا دمغه)** أي أزاله ومعناه في الأصل أصاب دماغه بالضرب، ويلزم منه إتلافه وإذهابه، وهو أيضاً حق ورد على باطل، والباطل لا ثبات له مع الحق. قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] كيف يحتجب الحق أي الله **(بشيء)** من الموجودات العلوية والسفلية **(والذي)** أي والحال أن الذي **(يحتجب)** الله تعالى **(به هو)** أي الله **(فيه ظاهر)** أي ظاهر فيه تشاهده أرباب البصائر **(وموجود حاضر)** مدرك لهم فكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجاباً له حتى يستدل عليه به، هل ذلك الأمن عمى البصائر، وعدم رؤيته في كل شيء كما تقدم **(لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور)** بقلبك مع الله حال فعله بأن تكون ملاحظاً إنك حاضر بين يديه غير غائب عنه، كأنك تراه كما في الحديث، فإن ذلك دليل على قبوله، ولا يلزم من فقد الدليل فقد المدلول ولذلك قال: **(فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته)** أي ثمرة قبوله أي علاماته **(عاجلاً)** أي حال فعله، ومن علامة قبوله أيضاً وجدان حلاوته، واستلذاذ قلبه به حال فعله كما مر، وقوله كيف يحتجب الحق إلى هنا، معترض بين الكلام على الوارد ثم تممه بقوله: **(لا تزكين وارداً)** أي لا تفرح به وتمدحه في سرك **(لا تعلم ثمرته)** فإذا ورد عليك وارد إلهي، أي تجل إلهي ملك قلبك، ويعبر عنه بالحال، لكن لم يتأثر قلبك بحيث تحب الإقبال على المولى، وتنهض لطاعته، وتقوم بحقوق ربوبيته، فلا تفرح بذلك الوارد، لأن ثمرته إنما هي تأثر القلب به، وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما مر، فإن لم يوجد هذا عندك فلا تفرح به، فإن في ذلك نوعاً من الاغترار.

(فليس المراد من السحابة الأمطار وإنما المراد منها وجود الأثمار) أي أنها مرتادة لوجود الأثمار الذي اقتضاه وجود أمطارها، لا لمجرد وجود أمطارها، وكذلك الوارد مراد لثمرته، لا لوجود حظ نفسك فيه، فإن كثيراً ممن يحصل عندهم تلك الأحوال القلبية يغترون بها، وربما تركوا الأعمال الظاهرة مع وجود عقلهم **(لا تطلبن بقاء الواردات)** أي التجليات والأحوال القلبية **(بعد أن بسطت أنوارها عليك)** وأنوارها هي تكيف ظاهرك وباطنك بكيفيات العبودية **(وأودعت)** فيك **(أسرارها)** وهي ما لاح في قلبك من عظمة الربوبية، فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد، فلا تطلبن بقاءه حال وجودها، ولا تحزن على فقده إذا فقدته **(فلك في الله غنى عن كل شيء وليس يغنيك عنه شيء)** كما قيل:

لكل شيء إذا فارقته عوض   وليس لله إن فارقت من عوض

فالله تعالى إنما أدخلك في الحال لتأخذ منها، لا لتأخذ منك، لأنها جاءت حاملة هدية التعريف من الله إليك، فإذا

بما لاح له من عظمة الربوبية فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه في حال كونه ولا تأسَ على فقده إذا فَقَدْتَهُ فإنَّ لك في الله غنًى عنه وعن غيره وليس لَكَ غِنًى عن الله تعالى في شيء من الأشياء، كما قال الشاعر:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ ... وَلَيْسَ لِلَّهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

قال أبو عبد الله بن عطاء الله رضي الله عنه: إياك أن تلاحظ مخلوقاً وأنت تجدّ إلى ملاحظة الحق سبيلاً. ويدخل في هذا المعنى الذي ذكره ابن عطاء الله رضي الله عنه جميع الأغيار والأنوار والمقامات والأحوال والدنيا والآخرة والنعم الباطنة والظاهرة فلا تلاحظ شيئاً من ذلك ولا تركنَنَّ إليه ولا تعتمد عليه بقي أو ذهب، فإن ذلك قادحٌ في إخلاص التوحيد. قال في (التنوير): واعلم أن الباري سبحانه، إنما يدخلك فى الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك وإنما جاءت تحمل هدية التعريف من الله إليك فيها فتوجه إليها باسمه المبدئ فأبداها وأبقاها، حتى إذا أوصلت إليك ما كان لك فيها فلما أدت الأمانة توجه إليها باسمه المعيد فأرجعها وتوفاها فلا تطلبن بقاء رسولٍ بعد أن بلّغ رسالته ولا أمين بعد أن بلغ أمانته وإنما يفتضح المدعون بزوال الأحوال وبعزلهم عن مراتب الإنزال هناك يبدو العوار وتنهتك الأستار، فكم من مدّعي الغنى بالله وإنما غناه بطاعته أو بنوره أو فتحه، وكم من مدعي العز بالله وإنما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمداً على ما ثبت عندهم من معرفته فكن عبد الله لا عبد العلل وكما كان الله لك رباً ولا علة فكن عبد إلٰهٍ ولا علة لتكون له كما كان لك اهـ.

وقال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: عبدٌ هو في الحال بالحال وعبدٌ هو في الحال بالمحول فالذي هو في الحال بالحال عبد الحال، والذي هو في الحال بالمحول عبد المحول وأمارة مَنْ هو في الحال بالحال أن يأسى عليها إذا فقدها ويفرح بها إذا وجدها والذي هو في الحال بالمحول لا يفرح بها إذا وجدت ولا يحزن عليها إذا فقدت وفي الإشارات عن الله سبحانه: لا تركنن إلى شيء دوننا فإنَّه وبال عليك وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم، تتبعناه عليك، وإن أويت إلى العمل، رددناه عليك، وإن وثقت بالحال وقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك فأيُّ حيلة لك وأيُّ قوة معك فارضنا لك رباً حتى نرضاك لنا عبداً. **(تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به)** وجدان العبد لربه ووصوله إليه هو غاية مطالبه ومنتهى آماله ومآربه وبه يفوز بالنعيم ويحظى بالملك العظيم وعند ذلك ينسى كل محبوب ويلهى عن كل مفروح به ومرغوب، وهذه هي صفة أهل التفريد الذين استتروا في ذكر الله المجيد كما روي عن أبي عبد الله اليسري رضي الله عنه قال: سألت رجلاً باللكام ما الذي أجلسك في هذا الموضع؟ فقال لي: وما سؤالك عن شيء إن طلبته لم تدركه، وإن لحقته لم تقع عليه؟ قلت: تخبرني ما هو؟ قال: علمي بأن مجالسة الله تستغرق نعيم الجنان. ثم قال: أواه قد كنت أظن أن نفسي ظفرت ومن الخلق هربت فإذا أنا كذاب في مقالتي. لو كنت محباً لله صادقاً ما اطلع عليَّ أحد فقلت: أما علمت أن المحبين خلفاء الله في أرضه مستأنسين بخلقه يبعثونهم على طاعته؟ فصاح صيحة وقال لي: يا مخدوع لو شممت رائحة الحب وعاين قلبك ما وراء ذلك من القرب ما احتجت أن ترى فوق ما رأيت. ثم قال: يا سماء ويا أرض اشهدا أني ما خطر على قلبي ذكر الجنة والنار قط إن كنت صادقاً فأمتني فوالله ما سمعت له كلاماً بعدها وخفت أن يساء إليَّ الظن من الناس من قتله فتركته ومضيت فبينما أنا على ذلك، وإذا أنا بجماعة فقالوا: ما فعل الفتى؟ فكنيت

أوصلت إليك ما كان فيها، فلا تطلب بقاءها إذ لا يطلب بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته، ولا أمين بعد أن أدى أمانته، فإن طلبت بقاءها كنت عبد الحامل، لا عبد المحمول. * ثم أقام دليلاً على ذلك بقوله: **(تطلعك إلى بقاء غيره)** من الواردات المذكورة وغيرها كالأنوار والمقامات والنعم الباطنة والظاهرة **(دليل على عدم وجدانك له)** إذ لو وجدته في قلبك وانجمع عليه سرك لم تطلب بقاء غيره **(واستيحاشك لفقدان ما سواه)** كالواردات المذكورة **(دليل على عدم وصلتك به)** أي وصولك إليه إذ لو وصلت إليه لنسيت كل محبوب، ولم تستوحش عند فقد شيء سواه، فالسالك إذا وردت على قلبه واردات الهبة، وبسطت فيه أنوارها وأودعت فيه أسرارها وحدثته نفسه، أنه من الواصلين، فإن كان يتطلع ويتشوف إلى شيء من الأغيار المحبوبة أو يستوحش لفقدانه، فذلك دليل على عدم تحققه بهذا المقام الشريف. قال الجنيد قدّس سره: إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيء مما سواه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقوق عبوديته

عن ذلك فقالوا ارجع فإن الله قد قبضه فصليت معهم عليه. فقلت لهم: مَنْ هذا الرجل؟ ومَنْ أنتم؟ قالوا: ويحك هذا رجل به كان قد يمطر المطر قلبه على قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. أما رأيته يخبر عن نفسه أن ذكر الجنة والنار ما خطر على قلبه فهل كان أحدٌ كذا إلا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؟ فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن السبعة المخصوصون من الإبدال. قلت: علموني شيئاً. قالوا: لا تحب أن تعرف ولا تحب أن يعرف أنك ممن يحب أن لا يعرف. وفي مثل هذا الحال أنشدوا:

كَـانَـتْ لِـقَـلْـبِـيَ أَهْـوَاءٌ مُـفَـرَّقَـةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ إذْ رَأَتْكَ العَيْنُ أَهْوائي

فَصَارَ يَحْسُدُني مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الورى مُذْ صِرْتَ مَولائي

تَـرَكْـتُ لـلـنـاسِ دُنْـيَـاهُـمْ وَدِيـنَـهُـمْ ... شُـغْـلاً بِـذِكْـرِكَ يَـا دِيـنِـي وَدُنـيـائـي

وقد سئل العبد أبو سليمان الداراني رضي الله عنه، عن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله تبارك وتعالى، فقال: أقرب ما يتقرب به إليه، أن يطلع الله على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره فهذه هي العلامة الصادقة والدلالة القاطعة على التحقق بهذا المقام العظيم، فإن كان له شعور بشيء من الأغيار المحبوبة، فتطلع إلى بقائها أو استوحش لفقدانها، فذلك دليل على عدم تحققه بذلك، فليعرف منزلته وحده وليعمل في تصحيح هذا المقام جهده.

وقال رضي الله عنه: **(النعيم وإنْ تنوعت مظاهره، إنما هو لشهوده واقترابه والعذاب وإن تنوعت مظاهره وإنما هو لوجود حجابه فسبب العذاب وجود الحجاب وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم)** مظاهر النعيم المتنوعة هي ما ورد من أنواع الثواب في الدار الآخرة من الحور والقصور والولدان والغلمان والمآكل والمشارب والملابس إلى غير ذلك من أنواع المَسَرَّات واللذات ومظاهر العذاب المتنوعة هي ما ورد من أنواع العقاب فيها، من الجحيم والحميم والزقوم والحيّات والعقارب والسلاسل والأغلال والأنكال وغير ذلك من أنواع الآلام والعقوبات. وليس وجود النعيم والعذاب بسبب وجود هذه الأشياء ومباشرتها للمنعم والمعذب، وإنما ذلك لما تضمنته وظهر فيها من وجود قرب الله تعالى وشهوده للمنعم أو وجود حجابه وإعراضه عن المعذب فهذان الأمران بهما يقع النعيم والعذاب على التحقيق. **(ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما منعت من وجود العيان)** وجود الهموم والأحزان الدنيوية والأخروية من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها وهو الذي منع العبد من وجود العيان. فلو قد فني عن رؤية نفسه وذهَبَ عن مراعاة حظه لظفر بوجود العيان ولم يكن له همٌّ ولا حزن ألبتة. يكونُ متصل الحبور دائم الفرح

بقية **(النعيم)** أي نعيم الدنيا والآخرة أي التنعم والتلذذ بما فيهما من الملابس والمطاعم والحور، والولدان والقصور **(وإن تنوعت مظاهره)** أي مواضع ظهوره، وهي الأمور المذكورة التي يتنعم بها ظاهراً **(فإنما هو)** أي النعيم بمعنى التنعم والتلذذ **(بشهوده)** تعالى **(واقترابه)** أي إنما يكون نعيماً حقيقياً إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء مشاهداً له وحاضراً معه، فإن لم تكن بتلك الحالة، فليس ذلك بنعيم حقيقة، بل هو عذاب **(العذاب)** أي التألم **(وإن تنوعت مظاهره)** من الضرب والجحيم والسلاسل وغيرها **(إنما هو)** أي العذاب بمعنى التألم **(بوجود حجابه)** تعالى أي إنما يكون تألماً حقيقة إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء محجوباً عنه، وكان غائباً عنك، فإن كنت مشاهداً له، فليس ما أنت فيه عذاباً حقيقة، بل هو نعيم **(فسبب العذاب)** أي التألم **(وجود الحجاب وإتمام النعيم)** أي النعيم التام، أي التلذذ والتنعم **(بالنظر إلى وجهه الكريم)** أي مشاهدته بعين البصيرة في الدنيا، وبالبصر في الآخرة، وحاصله أن النعيم محصور في شهود الرب والتألم في الحجاب عنه، وأما ما يتنعم به ظاهراً أو يعذب به ظاهراً، فليس بنعيم ولا عذاب بالنظر إلى ذاته **(ما تجده القلوب من الهموم والأحزان)** الدنيوية **(فلأجل ما منعت من وجود العيان)** أي معاينة الرب ومشاهدته بعين البصيرة وإلاّ لم يحصل عندها هم، ولا حزن على فوات شيء من الدنيا، فوجدانهما من نتائج رؤية النفس، واعتبارها وبقاء حظها، فلو غاب الشخص عن رؤية نفسه بمعاينة سيده، لكان دائم الفرح والسرور. كما قال تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا﴾ [التوبة: ٤٠] فمن استنار قلبه بنور المعرفة لا يكون عنده غم أبداً، لكن في وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام، إذا لم يقدر على دفعها عنه فوائد جليلة، لأنها توجب خمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر والبطر، والفرح بالدنيا والهم ما يتعلق بما يكون في المستقبل، والحزن ما يتعلق بما يكون في الماضي، ويصح أن يكون هذا شاملاً للأمور الأخروية أيضاً، فأهل النار لا يحصل للواحد منهم هم ولا حزن، إلا إذا لم يشاهد مولاه، فإن شاهده لم يحصل عنده ذلك، بل يكون العذاب في حقه

والسرور كما قال تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا﴾ [التوبة: ٤٠] فالمعية المذكورة لا يجتمع معها حزن وهم وهي ما قلناه من وجود العيان والعيان والله أعلم درجة فوق درجة اليقين كما قال الشاعر:

كَبُرَ العَيَانُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّهُ صَارَ اليَقِينُ مِنَ العِيَانِ تَوَهُّما

قال الشبلي رضي الله عنه: مَنْ عرف الله لا يكون له غَمٌّ أبداً. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: يا داود إنَّ محبتي في خلقي أن يكونوا روحانيين وللروحانيين عِلْمٌ هو أن لا يغتموا وأنا مصباح قلوبهم يا داود لا يمزج الهَمُّ قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين. وسيأتي في كلام المؤلف رحمه الله، أوحى الله إلى داود عليه السلام: بي فافرح وبذكري فتنعم فباستنارة القلب بنور المعرفة واحتظائه بوجود العيان والرؤية يخرج منه الهم ويحل محله الروحانية، على أن في وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام، إذا لم يقدر على دفعها عن نفسه فوائد جزيلة لا ينبغي أن تُسْتَحْقَرَ من قبل أنها موجبة لخمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر والبطر والفرح بالدنيا ثم هي كفارات إن كانت في الأمور الدنيوية ودرجات إن كانت في الأمورالأخروية والهمّ متعلق بما يكون في المستقبل والحزن متعلق بما يكون في الماضي. **(من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك)** وجدان الكفاية من الرزق وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد لما له في ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية. أما مصالح الدين، في عدم الزيادة على الكفاية، فظاهر إذ لو وجدها ربما أوجب له ذلك طغياناً كما قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦ـ ٧] فالاستغناء هو وجود الزيادة على الكفاية وهو سبب الطغيان والطغيان أصلُ كل معصية لله عزّ وجلّ. وقصة ثعلبة بن حاطب حين طلب الدعاء من النبي ﷺ أن يرزقه الله مالاً وما آل إليه أمره أمر مشهورٌ. وقال ابن أبي وقاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي وَخَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيّ». وفي حديث أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلا غَرَبَتْ إلاّ بِجَنْبِها مَلَكَان يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ الخَلائِقَ غَيْرَ الثقلين: يا أَيُّها النَّاسُ هَلُمُّوا إلى ربكم فإن مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمّا كثر وألهى». أو كما قال ﷺ: «وَأَمَّا مَصَالِحُ الدُّنْيَا في ذلك». فسيأتي التنبيه عليها في قول المؤلف رحمه الله تعالى: ليقلّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه وأما مصالح الدين، عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها، فمن أجل توصله بذلك إلى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى ولأجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد. قال الله تعالى: ﴿وابْتَغِ فيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] أي لا تنس نصيبك في الآخرة أن تتوصل إليه بما آتاك الله من الدنيا. وأما مصالح الدنيا في ذلك، فظاهر، لا يحتاج إلى التنبيه عليه إذ بذلك يحصل له طيب العيش وراحة القلب والبدن وصيانة الوجه عن ذل المسألة عند وجود الحاجة والفاقة. فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة ويقنع بما أباح له من هذه المنة الجسيمة فيستعمل بذلك راحة نفسه والاستغناء عن بني جنسه ويحصل له بذلك حلاوة الزهد في الأمور العاجلة وتجافي القلب عن زهراتها. فإن طلب الزيادة من الدنيا ولم يقنع بما قسم له منها خيف عليه من اقتحام المهالك إذ يجره الحرص والطمع إلى ذلك. قال بعض العارفين: كُل من لا يعرف قدر ما زوي عنه من الدنيا ابتلي بأحد وجهين، إما بحرص مع فقر ينقطع به حسرات، أو رغبة تنسيه شكر ما أنعم به عليه. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرْضِ وإنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» وغِنى النفس عن الدنيا شرف الأولياء المختارين وعز أهل التقوى من المؤمنين المحسنين، ولقد صدق الشاعر في قوله:

غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ فإنْ زدْتَ شَيْئاً عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرا

(يحكى) عن بنان الحمال رضي الله عنه أنه قال: كنت مطروحاً طاوياً على باب بني شيبة سبعة أيام لم أذق شيئاً، فنوديت في سري، إن من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عيني قلبه. وقال عبد الواحد بن زيد

عذوبة **(من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك)** من غير زيادة ولا نقصان ويمنعك ما يطغيك) أي يوقعك في الطغيان، وهو كثرة المال. قال تعالى: ﴿كلاّ إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦ـ ٧] وفي الحديث ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، أما ما نقص عن الكفاية، فقد يكون معه اشتغال عن طاعة الرب، فليس ذلك من تمام النعمة، ولما كان ذلك هو المناسب لحال المريد الصادق لم يقل، ويمنعك ما يطغيك أو يقلل رزقك عن كفايتك.

رضي الله عنه: ذكر لي أن في خرائب أيلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم أزل أطلبها حتى وجدتها في خربة جالسة على حجر وعليها جبة صوف وهي محلوقة الرأس، فلما نظرَتْ إليَّ قالَتْ لي مِنْ غير أن أكلمها: مرحباً بك يا عبد الواحد: قال: فقلت: رحَّبَ الله بك وعجبت من معرفتها بي ولم ترني قبل ذلك، فقالت: ما الذي جاء بك هاهنا؟ قلت: جئت لتعظيني قالت: وا عجباً لواعظ يوعَظ. ثم قالت: يا عبد الواحد اعلم أن العبد، إذا كان في كفاية ثم مال إلى الدنيا سلبه الله سبحانه وتعالى حلاوة الزهد فيظل حيران والهاً فإن كان له عند الله نصيبٌ، عاتبه وحياً في سره فقال: عبدي أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحَمَلة عرشي وأجعلك دليلاً لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتني فورثتك بذلك الوحشة بعد الإنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى. عبدي ارجع إلى ما كنت عليه أرجع إليك ما كنت تعرفه من نفسك قال: ثم تركتني وولت عني فانصرفت وبقلبي حسرة منها. وفي بعض الكتب: إن أهون ما أصنع بالعالم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي. وذكر أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم التجيبي القرطبي المالكي رحمه الله في كتاب **(النصائح)** له عن أبي عبد ربه الشامي ثم الدمشقي أنه كان من أكثر أهل دمشق مالاً فخرج مسافراً فأمسى إلى جانب نهر ومرعى فنزل به قال: فسمعت صوتاً يكثر حمد الله تعالى في ناحية المرج فاتبعته فوافيت رجلاً ملفوفاً في حصير فسلمت عليه فقلت: مَنْ أنت يا عبد الله؟ فقال: رجل من المسلمين. فقلت: فما حالك هذه؟ قال: حال نعمة يجب عليَّ حمد الله عليها. قال: فقلت وكيف وإنما أنت في حصير؟ قال: وما لي لا أَحْمِدَ الله تعالى وقد خلقني فأحسن خلقي وجعل منشئي ومولدي في الإسلام وألبسني العافية في أركاني وستر عليَّ ما أكره ذكره ونشره فَمَنْ أعظم نعمةً ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟ فقلت له: إن رأيت رحمك الله أن تقوم معي إلى المنزل فإنا نزول على النهر هناك. قال: ولِم؟ قلت لتصيب من الطعام ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير. قال: ما لي فيه من حاجة. فراودته على أن يتبعني فأبى فانصرفت وقد تقاصرتُ في نفسي ومقتُّها إذا لم أخلف بدمشق رجلاً يكاثرني في غنى وأنا ألتمس الزيادة فقلت: اللهم إني أتوب إليك من سوء ما أنا فيه فبت لا يعلم إخواني ما أجمعت عليه، فلما كان من السحر رحلوا كنحو رحلتهم فيما مضى وقدموا إلى دابتي فصرفتها إلى دمشق فقلت: ما أنا بصادق في التوبة إن مضيت إلى متجري. فسألني القوم فأخبرتهم وعاتبوني على المضي فأبيت، فلما قدم دمشق وضع يده يتصدق بماله فما زال يفرقه في سبيل الخيرات حتى احتضر فما وجدوا عنده إلا قدر ثمن الكفن. زاد غير أبي إبراهيم وكان يقول، يعني أبا عبد ربه المذكور: والله لو أن نهركم يعني نهر دمشق سال ذهباً ما خرجت إليه ولا أخذت شيئاً منه. ولو قيل لي مَنْ مس هذا العمود مات لقمت إليه وعانقته شوقاً إلى الله ورسوله. **(ليقلّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه)** درء المفاسد عند العقلاء أهم من جلب المصالح. فمن زوى الله تعالى عنه فضول الدنيا فرضي بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه، فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه لأنه دفع عن نفسه مفسدة وجود الحزن بتركه لما يفيده حصول مصلحة الفرح الذي يزول عن قرب واعتاض من ذلك الراحة الدائمة كما قيل:

وَمَـنْ سَـرَّه أَنْ لا يَـرى مَـا يَـسُـوءُهُ ... فَلا يَتَّـخِذْ شَـيْـئـاً يَـخَـافُ لَـهُ فَـقْـدَا

فَـإِنَّ صَـلاحَ الـمَـرْءِ يَـرْجِـعُ كُـلُّـهُ ... فَسَاداً إذا الإِنْسَانُ جَازَ بِـهِ الـحَـدَّا

وقيل لبعضهم: لِمَ لا تغتم؟ فقال: لأني لا أقتني ما يغمني فقده. فالمفروح به هو المحزون عليه إن قليلاً فقليل وإن كثيراً فكثير كما قيل:

عَلَى قَدْرِ مَا أُولِعْتَ بالشَّيْءِ حُزْنُهُ ... وَيَصْعُبُ نَزْعُ السَّهْمِ مَهْمَا تَمَكَّنَا

يحكى أن رجلاً حَمَلَ إلى بعض الملوك قدحاً من فيروزج مرصّعاً بالجواهر لم يرَ له نظير ففرح الملك به فرحاً

(ليقل ما تفرح به) من المال وغيره **(يقل ما تحزن عليه)** فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضي بذلك وقنع منها باليسير، ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه، فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه، لأنه دفع عنها مفسدة وجود الحزن بتركه، ولم ينظر إلى حصول مصلحة الفرح بوجود الذي يزول عن قريب، ودرء المفاسد مقدم عند العقلاء على جلب المصالح، فالمفروح به هو المحزون عليه، إن قليلاً فقليل، وإن كثيراً فكثير.

شديداً. فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة وفقراً. قال: وكيف ذلك؟ قال: إن انكسر كانت مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، فاتفق أنه انكسر القدح يوماً فعظمت مصيبة الملك فيه وقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا. وأمثال هذه المصيبة وأعظم منها نازلة من له علاقة بشيء من أسباب الدنيا فإنها إن لم تؤخذ منه بغصب أو سرقة أو جائحة نازلة، فلا بد أن يؤخذ هو عنها بالموت الهازم للذّات المنغص للشهوات فإن كان له ألف محبوب مثلاً نزل به عند الموت ألف مصيبة في وقت واحد لأنه كان يحبها كلها وقد سلبت منه في كرة واحد ولذلك كان الزهد في الدنيا من قضايا العقل.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: للعقل ألف اسم ولكل اسم منها ألف اسم وأول كل اسم منها ترك الدنيا.

وقال الحسن رضي الله عنه: كيف يسمى عاقلاً وهو يمسي ويصبح في الدنيا ومباهاة أهلها في المطاعم والمشارب والملابس والمراكب أولئك هم الخاسرون وأولئك هم الغافلون وأولئك هم الجاهلون وأنشدوا:

أَيُّـهـا الـمَـرْءُ إنَّ دُنْـيَـاك بَـحْـرٌ ... طَـافِـحٌ مَـوْجُـهُ فَـلا تَـأْمَـنَـنْـهـا
وَسَـبِـيـلُ الـنَّـجَـاةِ فِـيـهـا بَـيِّـنٌ ... وَهُوَ أَخْذُ الكَفَافِ والقُوتِ مِنْها

وقال أبو علي الثقفي رضي الله عنه أفٍّ من أشغال الدنيا إذا أقبلت وأفٍّ من حسراتها إذا أدبرت والعاقل من لا يركن إلى شيء إذا أقبل كان شغلاً وإذا أدبر كان حسرة وقد قيل في معناه:

وَمَنْ يَـحْـمَـدِ الـدُّنْـيَـا لِـشَـيْءٍ يَـسُـرُّه ... فَسَوْفَ لَعَمْري عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُها
إذا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى المَرْءِ حَسْرَةً ... وإنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُها

وقيل لأبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور مميزاً ولها متصفحاً وعما يوجبه عليه العقل باحثاً يلتمس بذلك طلب الذي هو أولى ليعمل به ويؤثره على ما سواه فإذا كان كذلك فمن صفته ركوب الفضل في كل أحواله بعد إحكام العمل بما فرض الله عليه وليس من صفة العقلاء إغفال النظر لما هو أحق وأولى ولا من صفتهم الرضا بالنقص والتقصير فمن كانت هذه صفته بعد إحكامه، لما يجب عليه من عمله وترك التشاغل بما يزول وترك العمل بما يفنى وينقضي وذلك صفة لكل ما احتوت عليه الدنيا وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل يصده التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة التي يدوم نعيمها ونفعها ويتأبد سرورها ويتصل بقاؤها وذلك أن الدين يدوم نفعه ويبقى على العامل له حظه وما سوى ذلك زائل متروك ومفارق موروث يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه ومحاسبة الله عليه كذلك صفة العاقل لتصفحه الأمور بعقله والأخذ منها بأوفرها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨] بذلك وصفهم الله تعالى وذوو الألباب هم ذوو العقول وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعاً في العاجل والآجل وإلى ذلك ندب الله عزّ وجلّ من عقل في كتابه اهـ. كلام الجنيد رضي الله عنه، وهو في غاية الحسن ونهاية التحقيق وفيه مناسبة لما كنا بصدده من التنبيه على كلام المؤلف رحمه الله تعالى فرأيت ذكره هاهنا لائقاً والله تعالى الموفق للعمل بمنه وكرمه. **(إن أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك)** هذه من أمثلة ما تقدم لأن الولاية مآلها إلى الحزن بسبب وقوع العزل عنها ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا يقع في العزل المحزون به. **(إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن)** بدايات الأمور وظواهرها ترغب الجاهل فيها وتدعوه إليها لأنها

(إن أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك) هذه من أفراد ما قبلها، لأن الولاية مآلها إلى الحزن، بسبب وقوع العزل عنها بموت أو غيره، ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها، لئلا تقع في العزل عنها، فيحصل عندك غاية الهم والحزن **(إن رغبتك)** في الولاية **(البدايات)** أي بداياتها من كونها رائقة الحسن مليحة الظاهر، وإن كل من تلبس بها حسن حاله ومنظره بين الناس وتبهر معاشه **(رهدتك)** فيها **(النهايات)** فإن نهاياتها مفارقتها بعزل أو موت، فيحصل لك مزيد الضرر دنيا وأخرى، لأن الولايات قل من يسلم فيها بدينه، وذلك مما يحمل العاقل على الزهد فيها والهرب منها **(إن دعاك إليها ظاهر)** أي ظاهر حالها من تيسر الملابس، والمآكل عند التلبس بها **(نهاك عنها باطن)** أي باطن حالها من كونها شاغلة عن الله، ومن حصول الضرر لكل من تلبس بها، وهذا في المعنى يرجع لما قبله، فالظاهر يرجع للبدايات والباطن

رائقة الحسن مليحة الظاهر فيغتر الجاهل بذلك فتقوده إلى ما فيه ضرره وهلاكه ونهايات الأمور وبواطنها تزهد العاقل وتنهاه عنها لما أشهدته من سماجتها وقبح باطنها فيعتبر العاقل بذلك فيهرب منها ويسلم من شرها وقد تقدم هذا المعنى عند قوله الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة. قال وهب بن منبه رضي الله عنه: صحب رجل بعض الرهاب سبعة أيام ليستفيد منه شيئاً فوجده مشغولاً عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ثم التفت في اليوم السابع. فقال: يا هذا قد علمت ما تريد حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فيها رأس كل خير والتوفيق نجاح كل بر فاحذر رأس كل خطيئة وارغب في رأس كل خير وتضرع إلى ربك أن يهب لك نجاح كل بر قال: وكيف أعرف ذلك؟ قال: كان جدي رجلاً من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء شبهها بالماء المالح يغر ولا يروي ويضر ولا ينفع وبظل الغمام يغر ويخذل وبالبريق الخلب يضر ولا ينفع وبسحاب الصيف يضر ولا ينفع وبزهر الربيع يغر بنضرته ثم يصفر فتراه هشيماً وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فإذا استيقظ لم يجد في يده شيئاً إلا الحسرة وبالعسل المشوب بالسّم الزعاف يغر ويقتل فتدبرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت فيها حرفاً واحداً فشبهتها بالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها فرأيت جدي في المنام فقال لي: يا بني أنت مني وأنا منك قال: فبأي شيء يكون الزهد في الدنيا؟ قال: باليقين واليقين بالصبر والصبر بالعبر والعبر بالفكر ثم وقف الراهب وقال خذها ولا أراك خلفي إلا متجرداً بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به. وقال محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السالفة عند العقلاء منهم وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضين وما قام داع في أمة إلا وقد حذر من متابعة الدنيا وجمعها والحب لها ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد وقال إنما هذه الحيٰوة الدنيا متاع أي لن تصل إلى سبيل الرشاد وفي قلبك محبة الدنيا وطلب لها والحكايات والآثار في أحوال الدنيا وغرورها وشرورها أكثر من أن تحصى ولا شيء أبين في ذلك من قول الله تعالى في صفتها اعلموا أنما الحيٰوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحيٰوة الدنيا إلا متاع الغرور. **(إنما جعلها محلاً للأغيار ومعدناً للأكدار تزهيداً لك فيها)** وورود الأغيار والأكدار الدنيوية على العبد نعم من الله تعالى عليه لأن ذلك لا محالة يدعوه إلى الزهادة في الدنيا والتجافي عنها ويصرف عنه وجود الغباوة والجهالة لأجل تمسكه بالخيال وما يستضر به في الحال والمآل لأن الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها إنما هو ما يتوهمه فيها من الحصول على منيته وبغيته وقضاء غرضه من شهوته ونهمته من غير مكدر ولا منغص ولو تصور له حصوله على هذه الأشياء على حسب ما يحبه ويهواه كان ينبغي له أن يرغب عنها عوضاً عن الرغبة فيها إن كان عاقلاً لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال والافتقار والانقضاء والارتحال. وقد قالوا شر لا يدوم خير من خير لا يدوم:

أَشَـدُّ الـغَـمِّ عِـنْـدي فـي سُروري ... تـيـقـن عَـنْـهُ صَاحِبُـهُ ارْتَـحـالا

أَرَى الـدُّنـيا عَـلَـى مَنْ كَانَ فِـيـهـا ... تَـدُورُ فَـلا تُـديـمُ عَـلَـيْـهِ حَـالا

ثُمَّ هي مانعة له من سعادة الآخرة والقرب من الله عزّ وجلّ الذي هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين فكيف وهو معرض فيها لأنواع المصائب والفجائع ووقوع الأغيار والأكدار فما من أحد فيها إلا وهو في كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة سهم بلية وسهم رزية وسهم منية فإذا نزل به ذلك عادت النقمة نعمة وانقلبت الحيرة عبرة وصارت الفرحة ترحة وهكذا شأن الدنيا أبداً فلا يفي مرجوها بمخوفها ولا يقوم خيرها بشرها ولقد صدق الشاعر في قوله:

إنَّ الـلّـيَـالِـيَ لَـمْ تُـحْـسِـنْ إلَـى أَحَـدٍ ... إلاَّ أَسَـاءَتْ إلَـيْـهِ بَـعْـدَ إحْـسَـانِ

وصدق أيضاً من قال:

مَـا قَـامَ خَـيْـرُكَ يَـا زَمَـانُ بِـشِـدَّةٍ ... أَوْلَـى بِنَا مَا قَلَّ مِـنْـكَ وَمَا كَـفَـى

للنهايات **(إنما جعلها)** أي الدنيا **(محلاً للأغيار)** كالأمراض والمحن والبلايا وقوله: **(ومعدنا للأكدار)** بمعنى ما قبله **(ليزهدك فيها)** لأن الموجب لرغبتك فيها، إنما هو ما تتوهم من حصول أغراضك ومطلوباتك فيها من غير تكدير ولا تنغيص، وهو لا يكون أبداً حتى لو فرض ذلك لكان اللائق بك الزهد فيها، والرغبة عنها لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال

زَمَـنٌ إذَا أَعـطَـى اسْـتَـرَدَّ عَـطَـاءَهُ وإذَا اسْـتَـقـامَ بَـدَا! لَـهُ مُـتَـحَـرِّفـا

وقد كتب علي بن أبي طالب إلى سلمان رضي الله عنهما إنما مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها قاتل سمها فأعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون فيها فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه. وقال بعض البلغاء دار الدنيا كأحلام المنام وسرورها كظل الغمام وأحداثها كصوائب السهام وشهواتها كمشؤوم المسمام وفتنتها كالأمواج الطوام. وقال أبو العتاهية:

هِـيَ الـدَّارُ دَارُ الأَذَى والـقَـذَى وَدَارُ الـفَـنَـاءِ وَدَارُ الـغِـيَـرْ
وَلَـوْ نِـلْـتَـهـا بِـحَـذافِـيـرِهـا لَـمُـتَّ وَلَـمْ تَـقْـضِ مِـنْـهـا الـوطَـرْ
أَيَـا مَـنْ يُـؤَمِـلُ طُـولَ الـبَـقَـا وَطُـولَ الـخُـلُـودِ عَـلَـيْـهُ ضَـرَرْ
إذَا مَـا كَـبُـرْتَ وَفَـاتَ الـشَّـبَـابُ فَلا خَيْرَ في العَيْشِ بَعْدَ الكِبَرْ

وأنشد أبو منصور الثعالبي رحمه الله في ذم الدنيا:

تَـنَـحَّ عَـنِ الـدُّنْـيَا فَـلا تَـخْـطِـبَـنَّـهـا وَلا تَـخْـطُـبَـنْ قَـتَّـالَـةَ مَـنْ تُـنَـاكِـحُ
فَـلَـيْـسَ يَـفِي مَرْجُوُّها بـمخوفها ومَـكْـرُوهُـهـا إنْ ما تـأَمَّـلْـتَ رَاجِـحُ
لَقَدْ قَالَ فِيها الوَاصِفُونَ فَأَكْثَرُوا وَعِنْدِي لَهَا وَصْفٌ لَعَمْري صَالِحُ
سُـلافٌ قُـصـارَاهـا زُعَـافٌ وَمَـرْكَـبٌ شَـهِـيٌّ إذا اسْـتَـلْـذَذْتَـهُ فَـهُـوَ جَـامِـحُ
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُؤْنِسُ النَّاسَ حُسْنُهُ وَلَـكِـنْ لَـهُ أَسْـرارُ سُـوءٍ قَـبَـائِـحُ

فإذا علم العبد هذا كله علم اليقين وتمكن من قَلْبِهِ غاية التمكين لم يتصور منه مع ذلك وجود رغبة ألبته لأنه إذ ذاك، يجمع بين خيبتين وخسارتين ويأتيه الموت وهو صفر اليدين من منافع الدارين وذلك هو الخسران المبين. قال أبو هاشم الزاهد رضي الله عنه: إن الله وسم الدنيا بالوحشية ليكون أنس المريدين به دونها وليقبل المطيعون إليه بالإعراض عنها وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة مشتاقون، وقيل: أوحى الله تعالى إلى الدنيا تضيقي وتشددي على أوليائي وترفهي وتوسعي على أعدائي تضيقي على أوليائي حتى لا يغتروا بك عني وتوسعي على أعدائي حتى يشتغلوا بك عني فلا يتفرغوا لذكري. **(علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهل عليك وجود فراقها)** النصح المجرد لا يقبله إلا من لم يستحكم فيه حب العاجلة والأنس بلذاتها الفانية وكان كريم الطبع سهل القياد. وأما من رسخت فيه تلك الخبائث وتمكنت من باطنه وكان لئيم السجية صعب المقادة فلا بد في قصد هدايته وإرشاده من زيادة على النصح والوعظ وهو وجود ما يقهره ويجبره وليس ذلك إلا ما ذكرناه فاعرف قدر النعمة عليك بذلك واعمل بمقتضاها وسلم لربك في حكمته وقدرته وحسن ظنك به وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: مَنْ لم يقبل على الله بملاطفة الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان. **(العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه وينكشف به عن القلب قناعه)** العلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين

ولشغلها إياك غالباً عن الله تعالى. لا يقال الزهد فيها يحصل بنصح الواعظ وتذكيره، لأنا نقول: **(علم)** الله **(أنك لا تقبل النصح المجرد)** عن الأمراض والبلايا والمحن، لأن النصح المجرد لا يقبله إلا من لم يستحكم فيه حب العاجلة، والأنس بلذاتها الفانية أما من كان كذلك، فلا بد في قصد هدايته من زيادة على النصح والوعظ **(فذوقك من ذواقها)** أي مما شأنه أن يذاق فيها، وهو تلك الأمراض والبلايا والمحن **(ما يسهل عليك فراقها)** فإن العبد إذا نزل به شيء من ذلك يتمنى الموت ومفارقة الدنيا، فهو نعمة من الله عليه، وإن لم يعرف ذلك لغلبة طبعه عليه، وقد تقدم مثل هذا عند قوله من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان.

(العلم النافع) وهو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلم بكيفية التعبد له، والتأدب بين يديه فهذا هو العلم **(الذي ينبسط في الصدر شعاعه)** فيتسع وينشرح للإسلام **(وينكشف به عن القلب قناعه)** أي غطاؤه وغشاوته، فتزول عنه الشكوك والأوهام. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذفه الله تعالى في القلوب، وإنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه، ويبعده عن رؤية نفسه، وذلك غاية سعادته، ومنتهى طلبه وإرادته. وقال المهدوي قدّس سره: العلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب، والزهد في الدنيا وما يقرب إلى الجنة ويبعد عن النار، والخوف من الله والرجاء

يديه فهذا هو العلم الذي يبسط في الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام وفي حكمة داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام العلم في الصدر كالمصباح في البيت. وقال محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: العلم النافع هو الذي قد تمكن في الصدور وتصور وذلك أن النور إذا أشرق في الصدور، تصورت الأمور حسنها وسيئها ووقع بذلك ظل في الصدور فهو صورة الأمور فيأتي حسنها ويجتنب سيئها فذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور وهي علامات الهدى والعلم الذي قد تعلمه فذلك علم اللسان إنما هو شيء قد استودع الحفظ والشهوة غالبة عليه قد أحاطت به وأذهبت بظلمتها ضوءه.

وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه، والعلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب والزهد في الدنيا وما يقرب من الجنة وما يبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله في قلب من يشاء دون علم اللسان المنقول والمعقول. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله تعالى في القلوب اهـ. وإنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه ويبعده عن رؤية نفسه وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه وإرادته. قال الجنيد رضي الله عنه: العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك وهذه عبارة مختصرة وجيزة جمع فيها رحمه الله مقصود علم الصوفية وهي معرفة الله تعالى وحسن الأدب بين يديه وهذه هي العلوم التي ينبغي للإنسان أن يستغرق فيها عمره الطويل ولا يقنع منها بكثير ولا قليل. وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: مَنْ لم يتغلغل في هذه العلوم، يعني علوم الصوفية، مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم وما سوى هذه العلوم قد لا يحتاج إليها وربما أضر بصاحبها مداومته عليها وقد استعاذ رسول الله ﷺ في الخبر المشهور عنه من علم لا ينفع ثم ذكر المؤلف رحمه الله عبارة أخرى في بيان العلم النافع وتعريفه يلازمه فقال: **(خير العلم ما كانت الخشية معه)** خيرُ العلوم ما يلزم وجود الخشية لله تعالى لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه بل لا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة. قال الربيع بن أنس رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ من لم يخش الله فليس بعالم ألا ترى أن داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال: ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك والحكمة الإيمان بك فما علم من لم يَخْشَك وما حكمة من لم يؤمن بك قال في **(لطائف المنن)**: فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله الخشية لله تعالى وشاهد الخشية موافقة الأمر أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع والادخار والمباهاة والاستكبار، وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه، ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء مثل الشمعة تضيء على غيرها، وهي تحرق نفسها جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه، وسبباً في تكثير العقوبة لديه اهـ. وكان سهل بن عبد الله رضي الله عنه يقول: لا تقطعوا أمراً من أمور الدنيا والدين، إلا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله تعالى. قيل:

فيه، وآفات النفوس وطهارتها، وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله في قلب من يشاء دون علم اللسان والمعقول والمنقول اهـ. وجمع ذلك الجنيد قدّس سره في قوله: العلم أن تعرف ربك، ولا تعدو قدرك أي هو معرفة الله وحسن الأدب بين يديه، ثم ذكر المصنف عبارة أخرى في بيان العلم النافع وتعريفه بلازمه فقال: **(خير العلم ما كانت الخشية معه)** والخشية الخوف مع الإجلال وقيل: هي الإجلال مع التعظيم. وقيل: الخوف مع العمل، أي خير العلوم ما تلزمه خشية الله تعالى وتصاحبه، وهو العلم المتقدم لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فكل علم لا خشية معه لا خير فيه، ولا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة ويلزم من مصاحبة الخشية له الوقوف على حدود الله وملازمة طاعته والوثوق به، والإعراض عن الدنيا، وعن طالبيها والتقليل منها، ومجانبة أبواب أربابها، والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم، والتواضع ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى بخلاف العلم الذي لا تصاحبه الخشية، فإنه يكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع والإدخار والمباهاة والاستكبار، وطول الأمل ونسيان الآخرة، فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها، وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة،

يا أبا محمد من العلماء؟ قال: الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصيته وشاور في أمرك الذين يخشون الله تعالى. وقال الواسطي رضي الله عنه أرحم الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى، وإشفاقهم مما علمهم الله عزّ وجل. وقال في التنوير في قوله ﷺ: «طَالِبُ العِلْمِ تَكَفَّلَ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقِهِ» اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب العزيز أو في السنة إنما المراد به العلم النافع الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فبين أن الخشية تلازم العلم وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ [النحل: ٢٧] ﴿وَالرَّاسِخُونَ في العِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً﴾ [طه: ١١٤] قوله ﷺ: «إِنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها لِطالِبِ العِلْمِ» وقولهَ: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنبِياءِ»، وقوله هنا طالب العلم تكفل الله برزقه إنما المراد بالعلم في هذه المواطن العلم النافع القاهر للهوى القامع للنفس، وذلك يتعين بالضرورة، لأن كلام الله وكلام رسوله ﷺ أجل من أن يحمل على غير هذا، وقد بينا ذلك في غير هذا الكتاب والعلم النافع هو الذي يستعان به على طاعة الله تعالى، ويلزمك المخافة من الله تعالى والوقوف على حدود الله، وهو علم المعرفة بالله، ويشمل العلم النافع العلم بالله والعلم بما أمر الله به إذا كان تعلمه لله تعالى.

وقد تقدم المعيار الصادق على صحة دعوى التعلم والتعليم لله عند قوله إذا التبس عليك أمران. وقال الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه: كل علم لا يورث صاحبه الخشية والتواضع والنصيحة للخلق والشفقة عليهم، ولا يحمله على حسن معاملة الله تعالى ودوام مراقبته وطلب الحلال، وحفظ الجوارح وأداء الأمانة، ومخالفة النفس ومباينة الشهوات، فذلك العلم الذي لا ينفع، وهو الذي استعاذ منه النبي ﷺ فقال: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ». ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ من عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ وقال رجل للشعبي: أيها العالم. فقال: اسكت العالم من يخشى الله تعالى. وقال بعض السلف: من ازداد علماً فليزدد خشوعاً. وقال رجل للجنيد: أي العلم أنفع؟ قال: ما دلك على الله تعالى وأبعدك عن نفسك. قال: والعلم النافع ما يدل صاحبه على التواضع ودوام المجاهدة، ورعاية السر ومراقبة الظاهر، والخوف من الله والإعرض عن الدنيا وعن طالبيها والتقلل منها ومجانبة أبواب أربابها وترك ما فيها على من فيها من أهلها، والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم، ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى، والإقبال على ما يعنيه، فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة، وعن طاعة الله تعالى بقدر ذلك. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ أَلا فآثِرُوا ما يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى». وقال فضيل بن عياض: العالم طبيب الدين ودواء الدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرئ غيره، فإذا وفق الله العالم من العلماء للإقبال على الله وعلى أوامره والإعراض عن الدنيا وما فيها ومن فيها، فأول ما يلزمه أن يعرف نعم الله عليه في ذلك، ويقوم بواجب الشكر ويزيد تواضعاً واجتهاداً، ويعلم أنه محمول على ذلك، وأن ذلك بتوفيق من الله تعالى لا بمجاهدة منه، فإن مجاهدته أيضاً ومعرفته لنعم الله عليه بزيادة توفيق الله. فإذا كان العالم بهذا المحل من الدين كان إماماً يقتدى به في أحكام الظاهر، وأحوال الباطن يهتدي بنوره كل من صحبه، ويستضيء بعلمه كل من اتبعه، ويكون حجة لله على عباده وبركة في بلاده ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا وطلب العلو فيها وطلب اتباع الرئاسة واستتباع الخلق، فهو العلم الذي هو غير نافع، وهو العلم المغتر به ولا حسرة أعظم من أن يهلك العالم بما يرجو به نجاته، ونحن نعوذ بالله من الخذلان اهـ. ثم عبر المؤلف رحمه الله تعالى بعبارة أخرى من معنى ما تقدم فقال: **(العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك)** العلم الذي تلازمه الخشية لك لأنك تنتفع به في دنياك وآخرتك، فليس ذلك إلا ما ذكرناه والعلم الذي

وعن طاعة الله بقدر ذلك، ثم ذكر عبارة أخرى من معنى ما تقدم فقال: **(العلم إن قارنته الخشية فلك)** منفعته في الدنيا والآخرة **(وإلا فعليك)** مضرته فيهما، قال سفيان الثوري: إنما يتعلم العلم ليتقي به الله، وإنما فضل العلم على غيره، لأنه يتقى الله به فإن اختل هذا المقصد وفسدت نية طالبه بأن استشعر به التوصل إلى منال دنيوي من مال أو جاه، فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسراناً مبيناً قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ [الشورى: ٢٠] الآية انتهى.

لا خشية فيه عليك، لأنك تستضر به فيهما، وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة، وعلماء الدنيا من حيث إن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة، وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والعزة، وقد بين علماؤنا رضي الله عنهم حال الفريقين، وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات، وأطالوا في ذلك النفس لما شهدوا من انتشار الفساد في الأرض بسبب جهل الناس بالعلم النافع، أي شيء هو فمن أراد الشفاء في ذلك واستيفاء الكلام عليه، وما في ذلك من الأخبار والآثار، فعليه بالنظر في كتاب العلم من كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي رضي الله عنه، ولباب ذلك ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى هاهنا. وقد قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: كان العلماء ربيع الناس إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنياً، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس. قال هذا في زمانه الصالح فكيف لو أدرك زماننا هذا؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون. واعلم أنه قد ورد في الكتاب والسنة من فضل العلم والعلماء ما لا يحصى كثرة، ولا يرجى حصول ذلك إلا لمن صحت فيه نيته وصحة نيته في ذلك أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة الله تعالى، واستعماله فيما ينفع عنده، وإيثاره الخروج عن ظلمة الجهل إلى نور العلم، فهذه هي النية الصحيحة التي تحمد عاقبتها آجلاً، وتجتني ثمرتها في طاعة الله عاجلاً، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُلُّ يَوْمٍ لا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْماً يُقَرِّبُنِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فلا بُورِكَ لِي في طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ اليَوْمِ». وقال الحسن رضي الله عنه: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وهديه وزهده، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم، فيعمل به فيكون خيراً له من الدنيا بما فيها لو كانت له ليضعها في الآخرة، وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحق والباطل، فإذا كان ذلك لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق.

وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: إنما يتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره، لأنه يتقي الله به، فإن اختل هذا المقصد وفسدت نية طالبه بأن يستشعر به التوصل إلى منال دنيوي من مال أو جاه، فقد بطل أجره وحبط عمله، وخسر خسراناً مبيناً. قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وقال رسول الله ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «من تعلم علماً لا يبتغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها» وكان الحسن رضي الله عنه يقول: والله ما طلب هذا العلم أحداً إلا كان حظه منه ما أراد به. وقال الحسن: عقوبة العالم موت القلب. فقيل له: وما موت القلب قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة، فإذا انضاف إلى هذا الغرض أن يتصدى به إلى تولي الأعمال السلطانية كائنة ما كانت، أو يتوصل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهة، فقد تعرض لغضب الله تعالى وسخطه وباء بإثمه، وآثام المقتدين به، وكان الجهل إذ ذاك خيراً له من العلم وأحمد عاقبة. وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى: وروينا عن الأوزاعي رضي الله عنه قال: شكت النواويس إلى الله عزّ وجلّ ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله تعالى إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه قال: وروينا عن الفضيل بن عياض وأسد بن الفرات قال: بلغني أن الفسقة من العلماء، ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان. قال فضيل بن عياض رضي الله عنه، لأن من علم ليس كمن لم يعلم قلت: والغالب على طلبة العلم في هذه الأعصار هذا الوصف المذموم، لأن حب الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترؤس قد ملكهم فأصمهم وأعماهم، ولذلك أمارات وعلامات لا تحصى ولا تخفى. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ في آخِرِ الزَّمَانِ رِجالٌ يَخْتَلِسُونَ الدُّنْيَا بالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئابِ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَبِي تَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ تَجْتَرِئُونَ فبي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ» رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه.

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى في بَعْضِ الكُتُبِ أَوْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إلى بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ العَمَلِ وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا

بِعَمَلِ الآخِرَةِ وَيَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسوكَ الكُبُوشِ وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذِّئابِ أَلسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ إِيَّايَ يُخادِعُونَ وَبي يَسْتَهْزِئُونَ لأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانَ». وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه قلوبهم خربة من الهدي، ومساجدهم عامرة من أبدانهم شر من تظل السماء يومئذ علماؤهم منهم تخرج الفتنة، وإليهم تعود، واعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف إنما هو العلم الذي يؤدي صاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان، وتوافق الأسرار والإعلان إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإيثار الآخرة عليها، والموالاة في الله والمعاداة فيه، والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة، ولزوم الأدب بين يدي الله تعالى، فيراعيها حفظاً وطلباً ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك فيرفضها رفضاً وهرباً إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناجي السنية، فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية، فإذا خلا طالب العلم عنها أو عن بعضها، فإن كان ما يطلبه علماً حقيقياً كان حجة عليه، وإن كان رسمياً كان وبالاً واصلاً إليه. والعياذ بالله من ذلك.

قال في لطائف المنن ربما غر الغافل من طلبة العلم من قال طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، وليس في قول هذا القائل ما يستروح إليه من طلب العلم للرئاسة والمنافسة به، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر من عليه وفتنة سلمه الله منها لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره، وذلك بمثابة من به مرض مزمن في المعي أعيا علاجه الأطباء، وضاق عليه خلقه فأخذ خنجراً وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه، فصادف ذلك المعي، فقطعه فخرج الداء منه فهذا لا يستصوب العقلاء فعله، وإن نجحت عاقبته وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم إلى التهلكة:

لَيسَ المُخَاطِرُ مَحْمُوداً وَإِنْ سَلِمَا

وقال في مواضع أخرى: ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفَاجِرِ» ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا، وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت فما أشرف الوسيلة، وما أخس المتوسل إليه، ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم، فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم، ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة، فلم يصل صلاة واحدة، إذ مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصري رضي الله عنه عن مسألة، فأفتاه فيها الرجل للحسن، قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن وقال: ويحك وهل رأيت فقيهاً، إنما الفقيه الذي فقه عن الله أمره ونهيه قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول الفقيه من انفتق الحجاب عن عين قلبه، والرجل الذي سأل الحسن البصري هو فرقد السبخي والله أعلم. وقد روى عنه في صفة الفقهاء كلام أتم مما ذكره صاحب كتاب لطائف المنن.

قال فرقد السبخي سألت الحسن عن مسألة فأجابني عنها فقلت له: إن الفقهاء يخالفونك فقال لي: ثكلتك أمك فريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم، المجتهد في العبادة المقيم على سنة المصطفى رسول الله ﷺ الذي لا ينبذ من هو فوقه، ولا يسخر ممن هو دونه، ولا يأخذ على علم علمه الله له حطاماً. قلت: وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه، فلا يبذل علمه إلا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح، إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التي ذكرناها، ولا يبذل لمن سوى هذا ممن علم حاله أو جهله. قال رجل لسفيان الثوري رضي الله عنه: إنك إن نشرت ما معك من العلم رجوت أن ينفع الله به بعض عباده، وتؤجر على ذلك. فقال سفيان الثوري: والله لو أعلم بالذي يطلب هذا العلم لا يريد به إلا ما عند الله، لكنت أنا الذي آتيه في منزله، فأحدثه بما عندي ممن أرجو أن ينفعه الله به، وقد سئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب. فقال له السائل: أما سمعت رسول الله ﷺ قال: «من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار» فقال له: اترك اللجام واذهب فإن جاء ما يستحقه وكتمته فليلجمني به، وفي قوله عز من قائل: ﴿ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاء أَمْوالَكُمْ﴾ [النساء: ٥] تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويستضر به أولى كما قيل:

وَمَنْ مَنَحَ الجُهَّالُ عِلْماً أَضاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وقد حكي عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه، فإن وجدوا فيه خلقاً رديئاً منعوه من العلم أشد المنع. وقالوا: إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الرديء، فيصير العلم آلة شر في حقه. وقد قالت الحكماء زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد رياً ازداد مرارة، وهذا كله صحيح مجرب، فينبغي إذاً للعالم أن لا يهمله، بل يراعيه ويمتثله ولا اعتبار بما يتوهمه في تعليمهم من وجود المصالح على تقدير حصول توفيق الله تعالى لهم، لأن يعملوا ببعض ما يتعلمونه من العلم الصحيح إن كانت لهم ولاية حكم أو غير ذلك، فإن المفاسد التي تقع بسبب ذلك لهم في خاصة أنفسهم والمفاسد التي تتعدى منهم إلى غيرهم أكثر ودرء المفاسد أهم عند العقلاء من جلب المصالح، أما المفاسد التي تختص بهم، فهي تقوية صفاتهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة مما يطلبونه من العلم، لأنهم يستشعرون بذلك التوصل إلى جميع مطالبهم الدنيوية على غاية الكمال والتمام، فإذا استشعروا بذلك توجهوا بهممهم إليه وعكفوا بالجد والاجتهاد عليه، ولولا هذا الاستشعار لم يتصور منهم ذلك، فإذا حصلوا على شيء من ذلك، وظهرت لهم مخايل وصولهم إلى أغراضهم المذكورة فرحوا بذلك واغتبطوا به، وكلما ازدادوا علماً ازدادوا فرحاً واغتباطاً بما هم فيه، وهذا الفرح والاغتباط في غاية الذم منهم، لأن ذلك متعلق بأسباب الدنيا، وهي بمنزلة السم القاتل الذي يوجب موت قلوبهم وقسوتها، وبعدها عن التأثر بالمواعظ والحكم كما قيل:

إذا قَسَا القَلْبُ لم تَنْفَعْهُ مَوْعِظَةٌ ... كَالأَرْضِ إنْ سَبَخَتْ لم يَنْفَعِ المَطَرُ

وعند ذلك تنتعش نفوسهم وتتقوى صفاتها وتظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا، والركون إلى من هي عنده من أبنائها المترفين، وليس لهم ما يتوسلون به إليهم سوى علمهم، فيحتالون على تحصيل إقبالهم عليهم وصرف وجوههم إليهم بالتفنن عندهم بأنواع من الحيل ولا يسلمون في ذلك من الرياء والتصنع والنفاق والدهان، ويجرهم ذلك إلى أنواع من المحظورات، وضروب من العصيان مع ما يحل بهم في ذلك من الذل والهوان، فإذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم، وتمكنوا من جميع حظوظهم فخرجوا من الحرية إلى استعباد الأغيار، واستبدلوا بالجهل النافع العلم الضار. وقد قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحوا على دينهم، وأعزوا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعاً، وعز الإسلام وأهله، ولكنهم أذلوا أنفسهم، ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم، فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا، ليصيبوا بذلك ما في أيدي الناس فذلوا وهانوا على الناس اهـ. ولله در الشاعر رحمه الله حيث يقول:

يَقُولونَ لي فِيكَ انْقِباضٌ وَإنَّما ... رَأَوا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَما
إذا قِيلَ هَذا مَوْرِدٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّما
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لأَخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ إلا لأُخْدَمَا
أَأَغْرِسُهُ عِزّاً وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إذاً فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلٰكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

وقال وهب بن منبه رضي الله عنه لعطاء الخراساني: كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم فيها اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم. وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضاً للدنيا وتركاً لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حباً ولها طلباً، وكان الرجل ينفق ماله على علمه، ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالاً، وكان يرى على طالب العلم زيادة في باطنه وظاهره، فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد في الباطن والظاهر، فانظر رحمك الله إلى ما ذكره هؤلاء الفضلاء، تجده لازماً لطلبة هذا الزمان، وليس الخبر كالعيان، ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم وتوغلهم بها في

سوء أدبهم يتعذر عليهم بعد ذلك سلوك طريق الحق، لما استحكم في قلوبهم من علامات سوء الخلق. فقد قيل: التعمق في الباطل قطع لآمال الرجوع عنه، فكلما كان بعد المسافة من الحق أتم، كان اليأس من الرجعة أوجب، وأعظم الوبال عليهم اغترارهم بحالهم واستحسانهم لسيء أعمالهم، واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة في الدار الآخرة، ونيل الثواب فيها، وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة، والمناقب المنيفة التي اختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق ما يخرجون به من هذا الغرور، لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك، ولم يهتدوا لما هنالك، فهذا هو الفساد الذي يختص بهم، ولا يشاركون غيرهم فيه. وأما الفساد الذي يتعدى إلى غيرهم، فأظهر من كل ظاهر وناهيك بمن ملكته نفسه أشد ملك، واستعبدته أشد استعباد، هل يبقى عليه شيء من الشر أو نوع من أنواع الفساد إلا ويقع فيه إذا تمكن منه، ومن دقيق ما يسري عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك وقوع الاغترار للجهلة والأغمار بمشاهدة حالهم، فإنهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه ويتوهمونهم نالوا شرف الآخرة، بما أفادوه واستفادوه، فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم في طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية لذلك، فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك أو يؤديهم ذلك إلى محبتهم وموالاتهم، واتخاذهم أرباباً يسمعون منهم، ويطيعونهم في أوامرهم ونواهيهم، ثم يخرج بهم استحسان حالهم إلى الداء الدفين، وهو مسارقة طباعهم الدنيئة وأخلاقهم الرديئة، فإن نفوس العامة قابلة لذلك ومهيئة له بمنزلة الصبي الذي ترسخ فيه أخلاق آبائه ومنازعهم ومذاهبهم، وعند ذلك يبطل في حقهم ما هو مقصود من بعثة الرسل من التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة وحب الفقر والمسكنة، وإيثار التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان والإسلام، وشدة الحذر من ارتكاب المناهي والآثام، ثم يؤول ذلك بهم إلى الشرك الخفي والجلي، ثم يحيق بهم المكر السيء والعياذ بالله تعالى، ويكون وبال جميع ذلك راجعاً إلى العالم لتيسير أسباب ذلك على يديه، ولقد صدق ابن المبارك رحمه الله حيث يقول:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

فَبَاعُوا النُّفُوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا ... وَلَمْ تَغْلُ فِي البَيْعِ أَثْمَانُهَا

لَقَدْ رَتَعَ القَوْمُ فِي جِيفَةٍ ... يَبِينُ لِذِي العَقْلِ انْتَانُهَا

وروي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه. ثم قال: إن الدين قد استضاء إضاءة هذه ثم أخذ كفاً من تراب، فجعل يذره على الحصاة حتى واراها. ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون العلم هكذا، كما دفنت هذه الحصاة، ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدم بالقدم، والنعل بالنعل. قلت: ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فقد اليقين منها، وانكساف أنوار الإيمان فيها وإفلاسهم من حقائق ذلك، وعدم اختصاصهم بشيء منه، فصاروا بذلك مأسورين لأهوائهم منقادين لأغراضهم وآرائهم، ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم والأعمال بالنيات. فإذا كانت النيات صالحة كانت الأعمال صالحة، وترتب عليها آثار الصلاح، وانعطف من ذلك على القلوب مزيد إشراق وحميد أخلاق يؤذن ذلك بوجود القرب من الله ونيل درجة الحب منه، فإذا كانت النيات فاسدة، كانت الأعمال أيضاً فاسدة وترتب عليها آثار فاسدة، وانعطف من ذلك على القلوب زيادة ظلمة ورداءة همة تقتضي البعد من الله تعالى، وحصول المقت منه، وطلب العلم عمل من الأعمال معرض للصحة والاعتلال. وليت شعري هؤلاء الذين استغرقوا أعمارهم في طلب العلم والأثر، وأتعبوا أنفسهم بالدراسة والنظر، وقطعوا أيامهم ولياليهم بالجوع والسهر، وسمحت نفوسهم بفراق ملذوذاتها، والبعد عن جميع مألوفاتها هل بعثهم على ذلك باعث الدين أو باعث الهوى؟ ولا شك أن باعث الدين غير متصور منهم، بل هو محال في حقهم لما قدمناه من خراب البواطن، وظلمة القلوب، وكيف يتصور ذلك منهم وهم لم يعملوا على تخلصهم من التكاليف الواجبة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم، بل لم يعرفوا ذلك البتة، وإن ادعوا أنهم على أحوال لا يجب عليهم فيها حكم يحتاجون إلى تعرفه، والقيام به فهم مخدوعون، ومن أين لهم ذلك والعلم به لا يحصل ضرورة فلا بد لهم من استفادته ولا عناية لهم بهذا أيضاً، وإنما كان يتصور منهم باعث

الدين لو توفرت أغراضهم كلها عليه، ووصلوا إلى ما يمكنهم الوصول إليه من شهواتهم ولذاتهم بسبب ما من أسباب الدنيا، ثم يصرفون ما فضل من أوقاتهم عن محاولة هذه المطالب ونيلها إلى طلب العلم عوضاً عن البطالة التي يتبرم بها صاحبها، ويدعوه فراغه من أشغال دنياه إلى قطع ذلك الوقت بلهو ولعب، أو ارتكاب معصية وذنب لا البطالة التي يكون فيها استراحة لنفسه، واستجمام لعقله وحسه ففي هذه الحال قد يصح باعث الدين من أمثال هؤلاء، وأما الحال التي وصفناها، فلا يتصور عليها باعث إلا الدنيا المجردة المجاوزة للحد في الذم والمقت بمنزلة من هو حريص على الاتساع في الدنيا، والحصول على غاية ملاذها، فإنه يعمل فيما يوصله إلى ذلك وإن كان فيه هلاكه فتراه يرتكب الأخطار، ويخوض لجج البحار، ويجوب البراري والقفار ويهون عليه في جنب ما يأمله كل مشقة تصيبه، وبلية تنزل به، ولو لم يفعل هذا لم يحصل إلا على سد الرمق والاقتصار على التبليغ والعلق، فكذلك هؤلاء الذين كلامنا فيهم، لو لم يتصوروا في خواطرهم الحصول على كليات أغراضهم من اتساع ما لهم وجاههم في دنياهم ووصولهم مع ذلك إلى رفيع الدرجات في عقباهم، لم يبلغوا ذلك المبلغ في الاجتهاد، ولا اقتصروا على بعضه، وهذه كلها أمور بينة لا إشكال فيها عند من له أدنى تمييز وفهم، وليس المانع لأكثر من ينتسب إلى العلم من العمل بمقتضى ما ذكرناه خفاءه عليهم كيف؟ وهم يعتقدون صحته، ويسلمون حاصله وحقيقته في الأحايين عندما ينجلي عن قلوبهم بعض ظلماتها، وتتزحزح عن عظيم غمراتها، إما بتذكير مذكر من الخلق، أو وعظ واعظ في قلوبهم من قبل الحق، ثم يرجعون في سائر أوقاتهم إلى مألوفاتهم ومعتاداتهم، وإنما المانع لهم من ذلك انفراد الله تعالى بالمشيئة والقدرة واستئثاره بالخذلان والنصرة، فإذا أراد الله تعالى أن يضل عبداً من عباده لم ينصره عقل، ولم ينفعه علم قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١] وفي مثل هذا الموطن تبطل أحكام الأسباب، ويتحقق أرباب الحقائق العظمة والجلال والعزة والكمال لرب الأرباب، فليعتبر بما ذكرناه أرباب الأبصار، وليسلموا أحكام الواحد القهار لعلهم بذلك يهتدون إلى منهج التحقيق حين يضل غيرهم عن سواء الطريق:

مَـصَـائِـبُ قَـوْمٍ عِـنْـدَ قَـوْمٍ فَـوَائِـدُ

وليقل العبد المؤمن إذا نظر إليهم واعتبر بما جرى من سوء القضاء عليهم الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاهم به، وفضلني عليه تفضيلاً. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من رأى مبتلي فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به هذا وفضلني عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلاً عافاه الله من ذلك البلاء كائناً ما كان» فعلى المعلم الناصح لنفسه السالم في عقله وحدسه، العامل على تصحيح أعماله وهممه المشفق على دينه الذي هو مسوط بلحمه ودمه، أن يتأمل هذه المفاسد ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه، ويدقق النظر في ذلك كما يدققه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها، ولا يقدم على التعليم في هذه الأزمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد، ولا تجويز وقوع خطأ في نظر ولا سبيل له إلى هذا ولا يسعه خلاف ذلك إذا كان منصفاً. قال بعضهم: رأيت سفيان الثوري حزيناً فسألته عن ذلك فقال: وهو ندم ما صرنا إلا متجراً لأبناء الدنيا قلت: وكيف ذلك؟ قال: يلزمنا أحدهم حتى إذا عرف بنا وحمل عنا، وجعل عاملاً أو حاجباً أو قهرماناً أو جابياً يقول: حدثنا سفيان الثوري وعليه أيضاً أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه إليه من التعليم، لأن كل ما تستحليه النفس ويوافق غرضها مصحوب بالآفات والعلل التي تقدح في إخلاص الأعمال، وإخلاص الأعمال شرط في وجوب القبول، وعند ذلك يذهب عملاً باطلاً، ولا ينال بسعيه طائلاً وقد تقدم من كلام علي بن إبي طالب رضي الله عنه كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم للعمل عند قوله: ما قل عمل برز من قلب زاهد. وتقدم أيضاً الكلام على اتهام النفس في دعائها إلى ما ظاهره خير عند قوله: إذا التبس عليك أمران. وليتعلم الحزم في ذلك من بشر بن الحرث الحافي ﷺ رضي الله عنه كان يقول: أنا أشتهي أن أحدث، ولو ذهب عني شهوة الحديث لحدثت، وكان سبب تركه طلب الحديث أنه سمع أبا داود الطيالسي يحدث عن شعبة أنه كان يقول: الإكثار من هذا الحديث

يصدكم عن ذكر الله، وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟ فلما سمعه منه قال: انتهينا انتهينا، ثم ترك الرحلة في طلب الحديث، وأقبل على العبادة وروى أيضاً مثل هذا الكلام عن مسعر بن كدام فإذا كان الإكثار من طلب الحديث بهذه المثابة عند إمامي المحدثين في زمنيهما مع ما فيه من الفوائد الأخروية، فما ظنك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها، ولقد ذكر الشيخ الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله بإسناده إلى عبد الله بن مسلمة القعنبي رحمه الله قال: دخلت على مالك بن أنس رضي الله عنه، فوجدته باكياً فسلمت عليه فرد علي السلام، ثم سكت عني يبكي. فقلت له: يا أبا عبد الله ما الذي أبكاك؟ فقال لي: يا ابن قعنب أبكي لله على ما فرط مني ليتني جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط، ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي، وهذه المسائل ولقد كان لي سعة فيما سبقت إليه قال: هذا فيما كان آخذاً فيه من المسائل المحققة المبنية على أصول صحيحة غير ملفقة، فما الظن بما انتشر بعده من الهذيان الذي صار بحكم العادة واقتضاء العصبية، وتمالؤ الناس على الضلال وتقليد الرؤساء الجهال ديناً قويماً وصراطاً مستقيماً، وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو أهم عليه مما هو مأمور به، ومسؤول عنه من مراقبة ربه وإصلاح نفسه وقلبه، فله في ذلك شغل شاغل عما يفرق همه، ويقسي قلبه وينسيه ذكر ربه عزّ وجلّ. قال وهب بن منبه: ذكر طلب العلم عند مالك بن أنس فقال: إن طلبه لحسن إذا صحت فيه النية، ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي ومن حين تمسي إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئاً، وكان سفيان الثوري يقول لأهل العلم: الظاهر طلب هذا ليس من زاد الآخرة، وكان يقول: ليس طلب الحديث من عدة الموت، لكنه علة يتشاغل به الرجل، وكان يقول لولا أن للشيطان فيه حظاً ما ازدحمتم عليه يعني العلم، فهذه نبذة قصدت إلى بثها في الموضع اللائق بها من هذا التنبيه، ليتنبه بها من سبق له من الله زوال العمى عن بصره ومراجعة خوفه وحذره من المعلمين والمتعلمين، وليتبين بها كلام المؤلف رحمه الله غاية التبيين، وبالله الذي لا إله سواه نستعين. **(متى آلمك إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم)** العبد لا ينبغي أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه، ولا يحزن إلا لإعراضه عنه، ولا ينظر إلى المخلوقين في إقبال ولا إعراض ولا مدح ولا ذم، فإنهم لا يغنون عنه من الله شيئاً، وقد تقدم هذا المعنى في قوله رحمه الله غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك فمتى آلمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، فإن كان قانعاً بعلمه راضياً بقسمته كان له في ذلك أعظم سلوان عما يفوته من جهة المخلوقين، بل لا يجد وقعاً في قلبه لما عسى أن يكون منهم من إقبال أو إعراض، وإن لم يكن راضياً ولا قانعاً، فمصيبته بذلك أعظم من مصيبته بأذى الناس له، بل لا مصيبة له في أذى الناس ألبتة عند من عرف سر ذلك على ما

(متى آلمك) أي أوجد عندك الألم والغم **(عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله)** أي اقنع بعلمه **(فيك)** واكتف به عن علمهم بحالك المقتضي لإقبالهم عليك، وعدم ذمهم لك، فإن كنت عند الله مخلصاً في أعمالك مقبولاً، فأي شيء يضرك من كونك عند الخلق ليس على ذلك الوصف حتى يتوجهوا إليك بالذم والأذى، وإن كنت حقيراً ممقوتاً لعدم إخلاصك، فأي شيء ينفعك من إقبالهم عليك ورضاهم عنك وثنائهم عليك **(فإن كان لا يقنعك علمه)** بأن أحببت أن تدخل مع علمه علم غيره حتى يطلع على إخلاصك وأعمالك، فيعظمك ويقبل عليك **(فمصيبتك)** الحاصلة لك **(بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك)** الحاصلة **(بوجود الأذى منهم)** بذمك والإعراض عنك، لأن عدم القناعة بعلمه تعالى يردك إليهم فهو مصيبة، ولا بد وأذاهم يردك إليه، فهو فائدة في الواقع ونعمة، وإن كان مصيبة في الظاهر، فلا ينبغي للمريد أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه ولا يحزن إلا بإعراضه عنه، ولا ينظر إلى المخلوقين في إقبال، ولا إعراض ولا مدح ولا ذم، فإنهم لا يغنون عنه من الله شيئاً فمن آلمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه، فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، وليكتف بعلمه بحاله، ولا يحب أن يدخل مع علمه علم المخلوقين حتى يعظموه. قال إبراهيم التيمي لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيّ؟ قال: يقولون إنك مراء فقال الآن طاب العمل. قال بشر: أكتفي والله بعلم الله، فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره. وقال بشر الحافي سكون القلب إلى قبول المدح

يذكره المؤلف الآن رحمه الله تعالى. قال إبراهيم التيمي رضي الله عنه لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيّ؟ فقال: يقولون إنك مراء. فقال: الآن طاب العمل. فقال بشر رضي الله عنه: أكتفي والله بعلم الله: فلم يحب أن يدخل مع الله علم غيره. وقال بشر الحافي: سكون النفس إلى قبول المدح لها أشد عليها من المعاصي. (**إنما أجرى الأذى على أيديهم كيلا تكون ساكناً إليهم أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء**) وجود أذى الناس للعبد نعمة عظيمة عليه لا سيما ممن اعتاد منه الملاطفة، والإكرام والمبرة والاحترام، لأن ذلك يفقده عدم السكون إليهم وترك الاعتماد عليهم، وفقد الإنس بهم، فيتحقق بذلك عبوديته لربه عزّ وجلّ. قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أذاني إنسان مرة فضقت ذرعاً بذلك، فنمت فرأيت يقال لي: من علامة الصديقية كثرة أعدائها، ثم لا يبالي بهم. وقال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره، ولولا ذلك لرقد العبد في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم. وقال سيدي أبو محمد عبد السلام شيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما في دعائه: اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك، اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك. وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري رضي الله عنه: الأنس بالخلق وحشة، والطمأنينة إليهم حمق، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن، والثقة بهم ضياع، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل أنسه به وبذكره وتوكله عليه وصان سره عن النظر إليهم، وظاهره عن الاعتماد عليهم. وقد قالوا: الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقرباً إلى الله تعالى، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحقيقاً بالله عزّ وجلّ. قال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا وكيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال ﷺ: «مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكافِئوه فَإِنْ لَمْ تَقْدِروا فادْعوا اللّهَ لَهُ» كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق، وليتعلق بالملك الحق. قال وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك ولعدو تصل به إلى الله، خير لك من حبيب يقطعك عن الله، ومن إقبالهم عليك ليلاً وإعراضهم عنك نهاراً ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا. قال: وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ ظهورهم سنة الله في أحبابه وأصفيائه. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك، فنسألك عوضه فقداً تصحبه أنوار محبتك. قال: ومما يدلك على أن ذلك سنة الله في أحبابه وأصفيائه قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلوا﴾ [البقرة: ٢١٤، الأحزاب: ١١] وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠] الآية وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [القصص: ٥] وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى اهـ.

وكذلك من استحلى حالاً أو ساكن مقاماً فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم، وهو من غيرته على قلوبهم لئلا تستأنس بغيره، ولئلا تتقيد بسواه. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: ومن المقاطع المشكلة السكون إلى استحلاء ما يلاقيك به من فنون تقريبك، وكأنه في خلال ما يناجيك يناغيك، فإنه بكل لطيفة

أشد عليه من المعاصي (**إنما أجرى الأذى على أيديهم**) إليك إيها المريد (**كي لا تكون ساكناً إليهم**) أي معتمداً عليهم في تحصيل نفع أو دفع ضر تاركاً لجناب مولاك وقوله: (**أراد أن يزعجك عن كل شيء**) بتوجه الخلق إليك بالأذى (**حتى لا يشغلك عنه شيء**) هو بمعنى ما قبله. قال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء حكمهم في بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم، ليطهروا من البقايا وتتكمل فيهم المزايا، ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه. ثم قال: وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ ظهورهم سنة الله في أحبابه وأصفيائه اهـ. وقال الأستاذ أبو الحسن الشاذلي قدّس الله سره: آذاني إنسان مرة فضقت ذرعاً بذلك، فنمت فرأيت يقال لي من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم اهـ.

يصفيك ويطريك وتحتها خدع خافية، ومن أدركته السعادة كاشفة بشهود جلاله لا بإثباته في لطيف أحواله، وما يخصه به من إفضاله وإقباله وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدود عندهم من الشهوة الخفية، ومن هذا المعنى ما ذكر عن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه لما دخل على شيخه أبي محمد عبد السلام في أول ما لقيه، وسأله عن حاله. قال له أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار، فقال له الشيخ أبو الحسن: أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته، وأنا الآن فيه. وأما شكواك من برد الرضا والتسليم، فلم أفهمه فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله سبحانه. وقال سيدي أبو العباس رضي الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف يعني السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به. ولذلك قال سري السقطي رضي الله عنه: لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار عليها من جميع ما خلق الله من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال: السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك، كان في أيديها أسيراً. وقال بعضهم: لايكون الصوفي صوفياً حتى لا تقله أرض، ولا تظله سماء ولا يكون له قبول عند الخلق، ويكون مرجعه في جميع أموره إلى الحق. وقيل الفقير من لا دنيا له ولا آخرة، فإن عرض على مالك قال: ليس من رجالي وإن سلم إلى رضوان قال: لا أهتدي إليه وليس من رجالي، وإن قلت من هو وما الذي يدعى به قال: ليس ممن يدعي بشيء وقال محمد بن الحسن رضي الله تعالى عنه: بينا أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج شاب قد أحرقه السموم والرياح، فلما نظر إلي ولّى هارباً فتبعته وقلت له: عظني بكلمة. فقال: احذره فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه، وكتب الجنيد رضي الله عنه إلى بعض إخوانه من أشار إلى الله، وسكن إلى غيره ابتلاه الله، وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع ممن سكن إليه، ورجع إلى ما أشار إليه كشف الله ما به من المحن والبلوى، وإن دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه، وألبس لباس الطمع، فتزداد رغبته فيهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزاً وموته كمداً ومعاده أسفاً، ونحن نعوذ بالله من السكون لغيره. **(إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده)** الشيطان عدو مسلط على الإنسان ومقتضى ذلك أن لا يوجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والإغواء والإضلال قيل لبعضهم: أينام إبليس؟ فقال: لو نام لوجدنا راحة فإذا علمت أنه لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده، وهو الله عزّ وجلّ وذلك بتحقيق عبوديتك له، وتوكلك عليه، وافتقارك في كل أحوالك إليه واستعاذتك به من شر عدوك وعدوه، فبذلك تخرج من سلطنته، وتنجو من غائلته. قال الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] فمن تحقق هذه الصفات العلية من الإيمان بالله تعالى والعبودية له، والتوكل عليه واللجأ والافتقار إليه والاستعاذة والاستجارة به، كيف يكون لعدو الله عليه سلطان والله حبيبه، وولي حفظه ونصره ولولا ما أمرهم الله تعالى بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه، ومن هو حتى يستعاذ بالله منه.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً﴾ [فاطر: ٦] فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو، أي وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته، فكفاهم من دونه وقال أبو حازم رضي الله

(إذا علمت) أيها المريد **(أن الشيطان لا يغفل عنك)** أي عن إضلالك وإغوائك ومحاربتك لقوله تعالى: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] وقد ورد أن لكل أحد من الناس شيطاناً واضعاً خرطومه على قلبه، فإذا غفل عن ذكر الله تعالى وسوس له، وإذا ذكر خنس أي تأخر واستتر **(فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده)** وهو الله تعالى عن الاعتصام والاحتماء به سبحانه وتعالى، فإنه يكفيك همه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الإيمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليه والالتجاء، والافتقار إليه والاستعاذة به كيف لا ينصره على عدوه، قال ذو النون المصري: إن كان هو يراك من حيث لاتراه، فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن الله عليه وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال إبليس لربه عزّ وجلّ بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي

عنه: ومن الشيطان حتى يهاب والله لقد أطيع فما نفع، ولقد عصى فما ضر. وقال بعضهم: الشيطان منديل هذه الدار يعني يمسح به أقذار النسب، وهي نسبة الشرور وأنواع المعاصي والفساد إليه أدباً مع الله عزّ وجلّ، وهذا سراً يجاده كما قال الله تعالى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ [الكهف: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿هٰذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ [القصص: ١٥] وأما أن له حولاً وقوة يضر بها أو ينفع فلا.

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: ما خلق الله عزّ وجلّ خلقاً أهون عليه من إبليس، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً، وقيل لبعض العارفين: كيف مجاهدتك للشيطان؟ فقال: وما الشيطان نحن قوم صرفنا هممنا إليه فكفانا من دونه، وسئل بعضهم بم تدفع إبليس فقال: لا أدفع من لا أعرف، فأما إن أهملت ذلك وغفلت عنه، ولم تعبأ به غلبك، لا محالة لثبوت سلطنته عليك، ووصوله بالوسوسة إليك. قال أهل العلم: إن لكل أحد من الناس وسواساً موكلاً به مستبطناً قلبه، واضعاً رأسه أو قال: خرطومه عليه فإذا غفل العبد وسوس، وإذا ذكر الله خنس، أي تأخر واستتر. وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: الشيطان قديم وأنت حديث، والشيطان كسير، وأنت سليم الناحية والشيطان لا ينساك، وأنت لا تزال تنساه، وله من نفسك عليك عون. وقيل: صدر ابن آدم مسكن له ومجراه من ابن آدم مجرى الدم، وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى. وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: إن عدواً يراك، ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمة الله وفيه يقول القائل:

أشكو عدواً كيده يراني ... ولا أراه حيثما يراني
وعند ما أنساه لا ينساني ... يا سيدي إن لم تغث سباني

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قالَ إِبْلِيسُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ ما دَامَتِ الأَرْوَاحُ فِيهِمْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ وَعِزَّتي وَجَلالي لا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهم ما اسْتَغْفَرُوني». **(جعله لك عدواً ليحوشك به إليه وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه)** عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك إذ من مقتضاها كما قلناه أن لا يغفل عنك، وأن يبذل جهده في محاربتك ومقاتلتك بنفسه، وبجنده وبخيله وبرجله ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك، لأنك في غاية الضعف والعجز، فيضطرك الحال لا محالة إلى الاستعانة عليه بمولاك القوي المتين، فيوجد منك حينئذ الالتجاء إليه والانتصار به، والتوكل عليه في دفعه عنك، فعداوة الشيطان هي التي ردك الحق تعالى بها إليه وجمعك بها عليه، وهذا هو غاية المقصود، وكذلك حركة النفس بالحمل على متابعة الهوى والشهوة بما جعل فيها من الطبع والجبلة نعمة عظيمة أيضاً، وإن كانت أعدى الأعداء لك إذ بواسطتها يتوصلون إليك، وبأمرها يعملون فيما يعود بالضرر عليك من قبل أنك لا تقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك، إلا بمن هو أقوى منك، وليس ذلك إلا مولاك فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه والعكوف بالهم عليه، وكأن المؤلف رحمه الله تعالى قصد في هذه الكلمات إلى ذكر الأعداء الأربعة المذكورين في قول الشاعر:

إني بُليتُ بأرْبَعٍ يَرْمِينَني ... بِالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لَها تَوْتِيرُ
إبْليسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسي وَالهَوَى ... يَا رَبِّ أَنْتَ عَلَى الخَلاصِ قَدِيرُ

بني آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال له الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني **(جعله الله) (لك عدواً)** قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦] **(ليحوشك به إليه)** لأنك إذا عرفت أنه لا طاقة لك على مقابلته بنفسك لما أنت عليه من غاية الضعف والعجز اضطررت لا محالة إلى الاستعانة عليه بمولاك القوي المتين، ووجد منك الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه في دفعه عنك، فعداوة الشيطان هي التي ردك بها إليه وجمعك بها عليه، وهذا هو غاية المقصود وهذا في حق غير المحبوبين الذين صرفوا همتهم إلى جناب الحق أمامهم، فلا يحتاجون إلى عدو يحوشهم، لأن تعلقهم به كالطبيعي فيهم، فلا يلتفتون إلى إبليس ولولا أمر الله تعالى لهم بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه، ومن هو حتى يستعاذ بالله منه **(وحرك عليك النفس)** بطلب متابعة الهوى والشهوة **(ليدوم إقبالك عليه)** لأنك لا تقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك، وليس ذلك إلا مولاك، فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه، والعكوف بالهم عليه لا سيما وهي أعدى أعدائك إذ بواسطتها يتوصل إليك، ولأنها عدو من داخل البيت

وبين في كلامه وجود عداوتهم ووجوه الاحتراز منها، وتمم ذلك ببيان أن تلك العداوة، وإن عظمت من أعظم الوسائل إلى أسنى المطالب لمن أريد بذلك، ووفق له وأتى بجميع ذلك في ألفاظ بديعة مختصرة وجيزة محررة. فاعرف قدر هذا الفصل واعترف لواضعه بكمال النبل والفضل. وقال رضي الله عنه: **(من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً إذ ليس التواضع إلا عن رفعة فمتى أثبت لنفسك تواضعاً فأنت المتكبر)** إثبات التواضع يقتضي وجود الرفعة لا محالة، إذ لو كانت معدومة لكان ضدها، وهو الضعة ثابتاً موجوداً ولا ينتفي عن العبد التكبر إلا بوجود الضعة ووجود الضعة لا يحتاج إلى الإثبات من العبد، لأنه ثابت في نفسه. فالتواضع الذي أثبته العبد لنفسه لا ينفي عنه وجود التكبر بالضرورة وأيضاً فإن لفظة التواضع تؤذن بذلك، فإن التواضع تفاعل من الضعة، وأكثر باب التفاعل موضوع لإظهار الصفة، وليست كذلك كالتناوم والتناكر والتفارح والتماوت وغير ذلك، فصيغة التواضع لا تقتضي حقيقة الضعة وعدم الرفعة، ولا يلزم من وجودها ذلك، والمطلوب من العبد إنما هو أن يتصف بذلك حقيقةً لا إظهاراً فقط بأن ينتفي عنه وجود الرفعة بالكلية وحينئذ يبرأ العبد من التكبر، ولا يكون له وجود ألبتة. **(ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع)** هذا بيان آخر لما ذكره من أن العبد المتواضع حقيقة لا يثبت التواضع لنفسه لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته ما يمنعه من ذلك، وهذا هو التواضع الحقيقي وهو شهوده لذلك ووجده به وظهور آثاره على ظاهره، بل شهوده لذلك ووجده به مما يقدح في حقيقة تواضعه. كما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: من وجد ذوق ذله في ذله، فهو متعزز وفيه بقية، فهذا العبد المتصف بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء، لم يثبت بذلك لنفسه تواضعاً، لأنه يرى نفسه دون ما صنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود والوجد عليه، فإن أثبته لنفسه، ورأى أن نفسه فوق ما صنع مما يقتضي وجود صفة التواضع له بزعمه، فهو متكبر حقيقة، ولذلك قال الشبلي رضي الله عنه يوماً في بعض كلامه ذلي عطل ذل اليهود. وقال: من رأى لنفسه قيمة، فليس له من التواضع نصيب. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه لا يتواضع العبد لله حتى يعرف نفسه. وقال أبو يزيد رضي الله عنه: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه، فهو متكبر. قيل: فمتى يكون متواضعاً؟ قال إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع كل أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال أبو يونس بن عبيد الله رضي الله عنه وقد انصرف من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت فيهم. وقيل لمحمد بن مقاتل ادع الله لنا فبكى. وقال: يا ليتني لم أكن أنا سبب هلاككم، ومن علامات التحقق بهذا الخلق أن لا يغضب إذا عيب أو نقص، ولا يكره أن يذم ويقذف بالكبائر، ومن علامات تحققه به أيضاً أن يشتد حرصه على أن لا يكون له جاه، وقدر عند الناس، ويلتزم الصدق في حاله بأن لا يرى لنفسه موضعاً في قلوبهم، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

وحكى عن أبي الحسين بن الكرنبي أستاذ الجنيد رضي الله عنهما: أن رجلاً دعاه ثلاث مرات إلى طعامه، ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله داره في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك فقال: قد ريضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب، يطرد فينطرد ثم يدعى فيعود، ويرمى له عظم فيجيب، ولو رددتني خمسين مرة، ثم دعوتني بعد ذلك لأجبتك.

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه وحدثت عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل وهو يأكل فمد يده وقال:

وعداوة العدو الذي من داخل البيت أشد، ولذا سمى ﷺ جهادها بالجهاد الأكبر **(من أثبت لنفسه تواضعاً)** بأن خطر بباله أنه متواضع **(فهو المتكبر حقاً إذ ليس المتواضع)** أي ليس إثباته ناشئاً **(إلا عن)** شهود **(رفعة)** كان يستحقها وأنه تنازل عنها إلى ما دونها **(فمتى أثبت لنفسك رفعة)** في ضمن إثبات التواضع **(فأنت المتكبر حقاً)** ولا ينتفي عنك التكبر إلا بوجود الضعة حقيقة، بأن لا ترى لنفسك مرتبة ولا قيمة ثم قال: **(ليس المتواضع الذي إذا تواضع)** أي فعل أفعال المتواضعين، بأن جلس في أسفل المجلس مثلاً **(رأى أنه فوق ما صنع)** أي أنه يستحق الجلوس في صدر المجلس مثلاً **(ولكن المتواضع)** هو **(الذي إذا تواضع)** أي فعل أفعال المتواضعين بأن جلس قريباً من صدر المجلس مثلاً **(رأى أنه دون ما صنع)** وأنه يستحق أن يجلس في أسفل المجلس مثلاً.

إن كان ثم شيء لله تعالى. فقال: اجلس فكل. فقال اعطني في كفي فأعطاه في كفه فقعد في مكانه يأكل، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه فقال: إن حالي مع الله تعالى الذل، فكرهت أن أفارق حالي قال: وكان هذا ربما مد يده إلى الهرّاس فيجعل فيها هريسة. ومن أغرب ما رأيت في التواضع ما ذكره صاحب كتاب عوارف المعارف قال: رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه في سفره إلى الشام، وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاماً على رؤوس الأسارى من الإفرنج وهم في قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفاً واحداً، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، وأكل وأكلوا وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله تعالى، والانكسار في نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله. وأغرب من هذا ما ذكره صاحب كتاب بغية الطالب ومنية الراغب أبو الحسن علي بن عتيق بن يوسف القرطبي رحمه الله عن أبيه أنه، رأى الشيخ الفقيه أبا محمد بن عبد الله عبد الرحمن بن مفيد، وكان من الفقهاء العلماء، وهو يمشي في يوم شات كثير الطين، فاستقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها قال: فرأيته قد لصق بالحائط، وعمل للكلب طريقاً، ووقف ينتظره ليجوز وحينئذٍ يمشي هو، فلما قرب منه الكلب قال: فرأيته قد ترك مكانه الذي كان فيه، ونزل أسفل وترك الكلب يمشي فوقه قال: فلما جاوزه الكلب وصلت إليه، فوجدته وعليه كآبة فقلت له: يا سيدي إني رأيتك صنعت الآن شيئاً استغربته، كيف رميت بنفسك في الطين وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي؟ فقال لي: بعد أن عملت له طريقاً تحتي تفكرت فقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسي أرفع منه، بل هو والله أرفع مني وأولى بالكرامة، لأني عصيت الله تعالى، وأنا كثير الذنوب والكلب لا ذنب له، فنزلت عن موضعي وتركته يمشي عليه، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عني لأني رفعت نفسي على من هو خير مني. **(التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلي صفته)** شهود عظمة الله تعالى وتجلي صفته هو الذي يوجب للعبد وجود التواضع الذي ذكرناه، لأن ذلك هو الذي يخمد النفس ويذيبها ويبطل أمنيتها، فما تجلى الله تعالى لشيء إلا خضع له، فلا تنقلع من القلب شجرة الرئاسة والكبر إلا به لا بما يتكلفه العبد، ويتعاطاه بنفسه من أعمال وأحوال. قال الجنيد رضي الله عنه: التواضع عند أهل التوحيد تكبر. وقال الشيخ أبو حامد رضي الله عنه: ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها. وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: من أراد التواضع، فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى. وفي كتاب

والحاصل أن المتواضع حقيقة هو الذي لا يثبت التواضع لنفسه، لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته ما يمنعه من ذلك، ومن كان متصفاً بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعاً، لأنه يرى نفسه دون ما صنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود عليه، فإن أثبته لنفسه ورأى نفسه فوق ما صنع مما يقتضي وجود صفة التواضع له بزعمه، فهو متكبر حقيقة، ولذا قال الشبلي: من رأى لنفسه قيمة، فليس له من التواضع نصيب. وقال: ذلي عطل ذل اليهود. * ومن علامة التحقق بهذا الخلق أن لا يغضب إذا عوتب أو انتقص، ولا يكره أن يذم أو يقذف بالكبائر، ولا يحرص على أن يكون له عندهم قدر وجاه، ولا يرى لنفسه موضعاً في قلوب الناس.

(التواضع الحقيقي هو ما) أي انكسار وانهضام **(كان ناشئاً عن شهود عظمته)** تعالى **(وتجلي صفته)** يعني أن شهود عظمة الله تعالى وتجلي صفاته على العبد هو الذي يوجب له وجود التواضع الحقيقي، لأن ذلك هو الذي يخمد النفس ويذهبها، ويبطل أمانيها فما تجلى الله تعالى لشيء إلا خضع له، فلا ينقطع من القلب شجرة الكبر وحب الرياسة إلا به، وخرج بالحقيقي التواضع المتقدم، وهو الذي ينشأ من النظر لنقص النفوس وعيوبها، فإنه ليس حقيقياً، لأنه قد يكون مشوباً بشيء من الكبر والعجب. ولذا قال الجنيد قدّس الله سره: التواضع عند أهل التوحيد تكبر. قال الغزالي: ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها انتهى. فهو غائب عن نفسه وحسه بما يشاهده من عظمة ربه. قال في عوارف المعارف: لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وعند ذوبانها صفاؤها عن غش الكبر والعجب انتهى. * ثم علل ما تقدم بقوله: **(لا**

عوارف المعارف، واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها. **(لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف)** هذه عبارة مليحة موافقة لمعنى ما تقدم الآن، والوصف المذكور أولاً وصف العبد والوصف المذكور ثانياً وصف الرب تبارك وتعالى **(المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكراً وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً)** شكر النفس رؤية نسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، وذلك ثناء عليها وهو مضاد للثناء على الله تعالى، وذكر حظها من اعتقاد أن لها حقاً على ما يفعله من الطاعات، وهو مضاد للقيام بحقوق الله تعالى، فالمؤمن الحقيقي لا يلتفت إلى نفسه في نسبة شيء من المحاسن إليها، وفي طلب حظ عليه لها، بل يشغله الثناء على الله تعالى والحرص على توفية جميع حقوقه عن جميع ذلك **(ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضاً أو يطلب منه غرضاً فإن المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له)** المحبة تقتضي من المحب بذل كلياته وجزئياته في مرضاة محبوبه من غير طلب حظ يناله منه، فهذا مما يلزم وجود المحبة كما قيل:

إن المحبَّ إذا أحبَّ حبيبه ... تلقاهُ يبذل فيه ما لا يُبْذَلُ

بل يرى ما فعل من ذلك غاية الحظ وموافقة رضا محبوبه نهاية السعادة والبخت، كما قال أبو حفص عمر بن الفارض رحمه الله تعالى:

ما لي سوى روحي وباذل روحه ... في حب من يهواه ليس بمسرفِ

فلئن رضيت بها فقد أسعفتني ... يا خيبة المسعى إذا لم تسعفِ

ولذلك قيل: المحبة الإيثار وهو أن لا يدع لمحبوبه ميسوراً إلا بذله، ولا ممكناً إلا استعمله، ولا يبقى لنفسه ولا لحظه نفساً ولا سكتة ولا يستثنى من كل ما لا بد منه سمسمة وأنشدوا:

لئن بقيت في العين مني قطرة ... فإني إذن في العاشقين ذليلُ

وقال أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شيء. وقال أبو يعقوب السوسي رضي الله عنه: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله تعالى، وينسى حوائجه إليه. وقيل لبعض المحبين وكان قد بلغ المجهود في بذل ماله ونفسه حتى لم يبق منه بقية، ما كان سبب حالك هذه في المحبة فقال: كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت في هذا البلاء قيل: وما هي؟ قال: سمعت محباً خلا بمحبوبه، وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله، وأنت تعرض عني بوجهك كله. فقال له المحبوب: إن كنت تحبني

يخرجك عن الوصف) أي عن أوصاف نفسك كالكبر والعجب **(إلا شهود الوصف)** أي شهود صفات ربك كعظمته، فالوصف المذكور أولاً هو وصف العبد، والمذكور ثانياً هو وصف الرب، وهذه قاعدة كلية شاملة لما تقدم، ولغيره فلا خروج للعبد عن صفات نفسه إلا بشهوده لصفات ربه، فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر ومن شهد غناه لم يبق له غنى، ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة، فيبقى بربه لا بنفسه فإن من شهد أوصاف ربه لم يبق له خبر عن نفسه **(المؤمن)** الكامل **(يشغله الثناء على الله)** أي وصفه بالأوصاف الجميلة ونسبة الأوصاف الحميدة إليه **(عن أن يكون لنفسه شاكراً)** أي معظماً لها بنسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، فإذا قال أنا صليت أو صمت ونسب الأفعال الجميلة إليه لم يكن مؤمناً، لأن ذلك فعل الله تعالى والعبد مظهر لذلك فقط ظهر فيه الفعل، فلا معنى للاشتغال بالثناء على المظهر عن الثناء على الفاعل المعطي المنان، فالمؤمن الكامل لا ينسب الأفعال الحسنة والأحوال السنية إلى نفسه، ولا يلتفت إليها فيكون لها شاكراً، أي معظماً بل يغيب عن ذلك بنسبتها إلى موجدها ومنشئها وهو الله تعالى **(وتشغله حقوق الله)** أي الحرص على توفية حقوقه تعالى **(عن أن يكون لحظوظه ذاكراً)** أي ملتفتاً لها بأن يعبد الله تعالى لذاته لا لطمع في جنته أو هرب من ناره فإنه **(ليس المحب)** الحقيقي **(الذي يرجو من محبوبه عوضاً)** على عمل يعمله، فلا يقصد بأعماله الصالحة جنة ولا نجاة من نار **(أو يطلب منه غرضاً)** من الأغراض الدنيوية والأخروية **(فإن المحب)** أي الحقيقي **(من يبذل لك)** أي يعطيك **(ليس المحب)** الحقيقي **(من تبذل له)** لأن المحبة الحقيقية أخذ خصال المحبوب لمحبه القلب، فلا يصير عند المحب التفات لغير محبوبه فمن عبده تعالى لجنته فليس محباً له بل للجنة.

فأيّ شيء تنفق عليّ. فقال: يا سيدي أملكك ما أملك، ثم أنفق عليك روحي حتى أهلك. فقلت: هذا خلق لخلق وعبد لعبد، فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود؟ فكان هذا سببه، فهذا الذي ذكرناه من لوازم المحبة الحقيقية. وأما رجاء العوض وطلب الغرض فهذا حال من مقامه الرجاء، وليس من مقام المحبة المخصوصة في شيء قال الشاعر:

من لم يكنْ بكَ فانِياً عن حَظِّهِ وعن الهوى والأنس بالأحبابِ
فلأنه بين المراتبِ واقفٌ لمنالِ حظّ أو لحسن مآبِ

وقال آخر:

وما أنا بالباغي عن الحبِّ رشوةً ضعيفَ هوى يرجو عليه ثوابا

وقال أبو محمد رويم: من أحب العوض بغض العوض إليه محبوبه. وقيل: أوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام إني إذا اطلعت على قلب عبد، فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي. وقال بعض المحبين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخشن ويتثنين، فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوماً. قال: ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال وقيل لي انظر إليهن قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن وقلت: أعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهن، فلم أزل أتضرع إلى الله تعالى حتى صرفهن عني.

وذكر الشيخ الحافظ أبو نعيم رضي الله عنه، قال ميسرة الخادم: غزونا في بعض الغزوات فإذا فتى إلى جانبي، وإذا هو مقنع بالحديد، فحمل على الميمنة حتى ثناها، وعلى الميسرة حتى ثناها وحمل على القلب حتى ثناه ثم أنشد يقول:

أحْسِنْ بمولاكَ سَعيدُ ظَنّا هذا الذي كنتَ له تمنى
تَنَحّي يا حور الجنان عَنّا ما لكِ قاتلنا ولا قتلنا
لكن إلى سيدكن اشتقنا قد علم السِّرَّ وما أعلَنّا

قال: فحمل فقاتل حتى قتل منهم عدداً كثيراً، ثم رجع إلى مصافه فتكالب عليه العدو، فإذا هو قد حمل على الناس وأنشأ يقول:

قد كنت أرجو ورجائي لم يخب أن لا يضيع اليومَ كدِّي والطلب
يا من ملا تلك القصور باللعب لولاك ما طالت ولا طاب الطرب

فحمل وقاتل فقتل منهم عدداً كثيراً، ثم رجع إلى مصافه فتكالب عليه العدوّ، فحمل الثالثة على الناس ثم أنشأ يقول:

يَا لُعْبَةَ الخُلْدِ قِفِي ثُمَّ اسْمَعِي مَا لكِ قَاتِلْنَا فَكُفِّي وَارْجِعِي
ثُمَّ ارْجعي إلى الجِنانِ وأَسْرِعي لا تَطْمَعي لا تَطْمَعي لا تَطْمَعي

فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى ولأجل ما ذكرناه من اقتضاء مقام المحبة بذل كلية البذل من المحب لزم وقوع الابتلاءات والمطالبات به، حتى يحصل له توفية حقوق هذا المقام على التمام، ولهذا قال بعضهم: أول ما يقول الله عزّ وجلّ للعبد اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك، فإن قال: لا ما أريد إلا أنت. قال له: من دخل معي في هذا إنما يدخل بإسقاط الحظوظ، ورفع الحدوث، وثبوت القدم، وذلك يوجب له العدم. وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبه، ورأيته يبتليك، فاعلم أنه يريد أن يصافيك. وقال بعض المريدين لأستاذه: طولعت بشيء من المحبة. فقال له: يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه، فآثرته عليه؟ فقال: لا. قال: لا تطمع نفسك في المحبة، فإنه لا تعطيها أحداً حتى يبلوه. وقال بعض علمائنا رضي الله عنهم: كل أهل المقامات يرجون أن يعفو عنهم، ويسمح لهم إلا من ادعى المعرفة والمحبة، فإنهم يطلبون بكل شعرة مطالبة، وفي كل حركة وسكون ونظرة وخطرة لله، ومع الله. وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: وكان له مقامات في المحبة رفيعة. قلت ذات يوم: يا رب إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك، فاعطني ذلك فقد أضرّ بي القلق. قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه فقال: يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن المشتاق دون لقاء

حبيبه؟ أم هل يستريح المحب إلى غير معشوقه؟ قال: فقلت: يا رب تهت في حبك، فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني كيف أقول؟ فقال: قل اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك اهـ.

فللمحبين دقائق خطرات ولطائف ملاحظات يظهر لهم بذلك الشوق في صفاء حبهم، والبعد في مواطن قربهم فهم يفرون منها، ويخرجون عنها مخافة أن تسترق بشيء من ذلك قلوبهم بأدنى ميل أو مساكنة، فيوجب لهم ذلك السقوط من مقامهم الرفيع الذي أهل لهم وأهلوا له، ولذلك قال محمد بن سهل بن عبد الله رضي الله عنه: جناية المحب عند الله تعالى أشد من معصية العامة، وهو أن يسكن إلى غير الله أو يستأنس بسواه. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يا داود إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي مع حب غيري.

ويحكى أن الله تعالى قال لموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: نعم العبد برخ هو لي إلا أن فيه عيباً. قال: يا رب وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء.

ويروى أن عابداً عبد الله في غيضة دهراً طويلاً فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها، ويصفر عندها. فقال: لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت ذلك الطائر. قال ففعل فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها مني بشيء من عملك أبداً. **(لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)** السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثارها ودواعيها، وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى، وتصل إلى سعادة لقائه ولولا معاناة هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك، كيف والحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه، فالبعد الحسي وهو المسافة التي تطويها رحلته والبعد المعنوي، وهي القطعة التي تمحوها وصلته محالان في حقه تعالى لنفي المثلية في الأول، وعدم العندية في الثاني، وهذه الألفاظ التي عبر عنها المؤلف رحمه الله تعالى من السير والميادين والرحلة والوصلة، وفي معناها السير والسلوك والذهاب والرجوع هي عبارات استعملتها الصوفية في أمور معنوية تجوّزوا بها عن أمور حسية، ومرجع جميع ذلك كله إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير. وهذا الكلام الذي ذكره المؤلف هاهنا وما تقدم له، ولنا غير ما مرة من أن النفس هي الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى، وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى صحيح المعنى.

قال بعضهم: ما الحياة إلا في الموت، أي ما حياة القلب إلا في إماتة النفس. وقيل: النعمة العظمة الخروج عن النفس، لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.

وقال سيدي أبو مدين رضي الله عنه من لم يمت لم ير الحق. وقال سيدي أبو العباس رضي الله عنه: لا يدخل على الله إلا من بابين: من باب الفناء الأكبر، وهو الموت الطبيعي، ومن باب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة. وعن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه قال: من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موت أحمر وموت أسود وموت أبيض وموت أخضر، فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتمال أذى الناس، والموت الأحمر مخالفة النفس، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض. وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: للنفس سر ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال: أنا ربكم الأعلى، ولها سبعة حجب

(لولا ميادين النفوس) أي شهواتها وعاداتها ومألوفاتها الشبيهة بالميادين، أي مواضع مرتكض الخيل بجامع الجولان في كل فكما أن الخيول تجول في الميادين، كذلك النفوس تجول في مشتهياتها، والمعنى لولا هذه الشهوات التي تخوض فيها النفوس وتتعشقها **(ما تحقق سير السائرين)** أي ما تصور سير ولا سلوك إلى حضرة ملك الملوك، لأنه تعالى أقرب لكل أحد من نفسه. قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فالبعد الذي يوجب السير إلى المحبوب وسلوك الطريق للوصول إليه قائم بك أيها العبد، وهو شهواتك ولو عدمت منك لم تحتج إلى سير ولا سلوك، لأن البعد الذي يحتاج إلى ذلك منفي عنه سبحانه وتعالى حسياً كان أو معنوياً، كما أشار إلى ذلك بقوله: **(إذ لا مسافة)** حسية **(بينك وبينه حتى تطويها رحلتك)** أي ارتحالك لأن المسافة الحسية تكون إلا بين متماثلين يصل أحدهما إلى صاحبه **(ولا قطعة)** بضم القاف أي انقطاعاً وعداوة **(بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)** لأن الانقطاع والعداوة لا يكونان إلا بين متضادين متعاديين، فيحتاج أحدهما إلى الوصلة والمودة، وأين أنت من الله حتى تعاديه.

سماوية، وسبعة حجب أرضية، فكلما يدفن العبد نفسه أرضاً أرضاً سما قلبه سماء سماء، فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش يعني إذا خالفتها وفارقتها، وسبيل المريد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء، والرغبة إلى مولاه في أن يعينه ويقويه على أمر نفسه، ويسهل عليه طريق سلوكه، ويستعمل هذا في كل حال ووقت، وليجعله عمدته فيما هو سبيله، وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله ما توقف مطلب أنت طالبه بربك. وقال بعض العارفين: لا يمكن الخروج من النفس بالنفس، وإنما يكون الخروج من النفس بالله، ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة، والطريقة في ظاهره وباطنه والتزام آدابهما، ولكل عبد عمل مخصوص يقتضي لا محالة حكماً مخصوصاً يقوم بحقه، وذلك مختلف باختلاف أحوال الناس، فحركات العبد وسكناته هي أعماله الظاهرة ومقصوده وهمه، وإرادته هي أعماله الباطنة وكل واحد من القسمين ينبغي أن يأخذ فيه بعزائم الأمور، ويجتنب الرخص التي هي من شأن العامة والجمهور، حسبما تقدم عند قوله من جهل المريد أن يسيء الأدب، فتؤخر العقوبة عنه، فعمل الظاهر إن كان واجباً فليبادر إلى فعله ولا يتوان عنه، وليقم بجميع آدابه اللازمة له، ويلتحق بذلك ما كان مندوباً إليه إذا علم في أي مرتبة هو، وإنما اشترطنا هذا الشرط، لأن المندوبات التي تعترضه يحتاج فيها إلى تقديم الأولى فالأولى والأهم فالأهم منها فإن لم يعمل على هذا وقدم ما ليس بأهم كان متبعاً للهوى لا لموجب العلم، وليأخذ في ذلك بالقصد من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «اكْلَفُوا مِنَ العَمَلِ ما تُطِيقُونَ فإنَّ اللّهَ تَعَالَى لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا وَإنَّ أَفْضَلَ العَمَلِ أَدْوَمُهُ وَإنْ قَلَّ» وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِروا» وإن كان حراماً فليبادر إلى تركه واجتنابه، وليقطع عن نفسه جميع أسبابه، ويلتحق بذلك ما يكون مكروهاً وإن كان مباحاً فهذا هو محل نظر المريد، فعليه أن يأخذ بالعزيمة فيه، وليقف على حدود الضرورة منه، وليكن اجتنابه لما يشتد ميل النفس إليه، ويعظم حرصها عليه أكثر من اجتنابه لما فقد منه ذلك، ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص فرب شخص تميل نفسه إلى ما لا تميل إليه نفس شخص آخر، فليشتغل المريد بقطع ذلك، وزوال علاقته من قلبه بالرياضة والمجاهدة، وليستمر على ذلك حتى يكون وقوفه على ما لا بد له منه على وجه الطاعة، والقربة لا على سبيل الهوى والشهوة، ومما يشتد ميل نفوس أكثر الناس إليه ما يكون سبب تناوله واستعماله مراعاة نظر الخلق والجري على عوائدهم السيئة، ومراسمهم المذمومة ومجاهدة النفس في مثل هذا عسيرة جداً، لاسيما على من ابتلى بحب الجاه والرياسة، وقبول الخلق في ولاية حكم أو نشر علم أو غير ذلك، فإنها أشد الشهوات علاقة بالقلب، وأضرها بالمريد، فيجب عليه أن يعتني بذلك ويبالغ في تطهير ظاهره وباطنه منه مما يتعاطاه من أعمال وأحوال، وقد نبهنا على هذا المعنى في أول الكتاب عند قول المؤلف رحمه الله تعالى ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه. ويتعين على المريد في رياضته ومجاهدته أن يمنع حواسه، ويكف جوارحه عن التطلع والجولان في مظان وجدان شهواته وسيء عاداته، وأن لا

والحاصل أنك عند انتفاء الشهوات منك لا تحتاج إلى سير، لأن السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثار دواعيها، وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى، وتصل إلى سعادة لقائه ولولا معاناة هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك كيف، والحق أقرب إليك من نفسك، فالبعد الحسي وهو المسافة التي تطويها رحلتك، والبعد المعنوي وهي القطعة التي تمحوها وصلتك محالان في حقه تعالى لنفي المثلية في الأول وعدم الضدية في الثاني، فنفسك هي الحجاب الأعظم عن الله وبمجاهدتها وقمعها وموتها تصل إلى الله. * وقال أبو مدين: من لم يمت نفسه لم ير الحق. وقال الأستاذ أبو العباس: لا يدخل على الله إلا من بابين: باب الفناء الأكبر، وهو الموت الطبيعي، وباب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة. * وعن حاتم الأصم: من دخل في مذهبنا هذا، فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موت أحمر وهو مخالفة النفس، وموت أسود وهو احتمال أذى الناس، وموت أبيض وهو الجوع، وموت أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض، ولا بد للمريد في هذه الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد، قد فرغ من تأديب نفسه، وتخلص من هواه، فيسلم نفسه إليه ويلزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه من غير ارتياب ولا تأويل، ولا تردد فقد قالوا: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه، وقد استوفينا آداب المريد مع الشيخ وبينا من يصلح للمشيخة في غير هذا الكتاب.

يجامعها ولا يتفق معها، فإن ذلك منشأ كل شر ومنبع كل فساد وضر كما قيل:

إنَّ السَّلامَةَ مِنْ سَلْمَى وَجَارَتِها أَنْ لا تَمُرَّ عَلَى حَالٍ بِوَادِيها

فليراقب ربه، وليحفظ جوارحه وقلبه، فإن الإنسان قد يتحرك مثلاً في طلب الخير والعمل من أعمال البر، فيتفق أن يقع بصره على شيء له فيه هوى وشهوة، فتميل نفسه إليه بالشره والمحبة فيتكدر عليه وقته ويظلم قلبه، ويختل عليه في لحظة ما كابد أمره في سنة مثلاً، وكذلك سائر حواسه، وقد شبه العلماء رضي الله عنهم النفس في مثل هذا بدابّة استعارها رجل من ربها، ومالكها ليتصرف بها في حاجاته، وكانت دابة جموحة صعبة المراس، فجاز بها المستعير في بعض تصرفاته على دار مولاها، فنزعت إلى دار سيدها، فإنه لا محالة يحتاج إلى صرف عنانها، فإن تقاعست ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت إليه، وقد يكون عليه في ذلك تعب ومؤنة. وسبب ذلك إنما هو خطوره بها على دار مولاها الذي ألفته واعتادته، ولو لم يمر بها عليه لسلم، ولم يحتج إلى معاناة ولا مكابدة، فإن تغافل عنها حتى أدخلت يديها في عتبة الباب واستمكنت منها، ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجه، بل اقتحمت به باب الدار كرهاً وربما جرحت رأسه وآلمته. وسبب ذلك إنما هو تمكينها من العمل بمقتضى طبيعتها، وموافقة جبلتها فكذلك حال النفس قال:

فَالنَّفْسُ إنْ أَعْطَيْتَها هَوَاها فَاغِرَةٌ نَحْوَ هَواها فَاها

فلذلك كانت الخلوة والعزلة من أوجب الواجبات على المريد، فإن نفسه إذ ذاك تكون ساكنة هادئة، قد نسيت عوائدها وفترت دواعيها، وبمداومته على ذلك يحصل له من التزكية والتحلية والاستقامة والطمأنينة ما هو المقصود بالرياضة والمجاهدة، فإن اعتراه شيء مما ذكرناه اختل عليه حاله، واحتاج من أجل ذلك إلى المجاهدة الشاقة والرياضة الصعبة، وأنى له مع ذلك تلافي ما فاته وقد قالوا: وقفة المريد شر من فترته. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: والفرق بين الوقفة والفترة أن الفترة رجوع عن الإرادة، وخروج منها، والوقفة خروج عن السير باستيلاء حالات الكسل، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء اهـ كلامه رحمه الله. فبدايات الأمور هي التي يجب أن يراعيها المريد، والله ولي التوفيق والتسديد، ولا غنى للمريد في هذا القسم عن تحصيل ما يحتاج إليه من العلوم الشرعية على ما ينبغي، وعمل الباطن يرجع حاصله إلى أمر واحد، وهو إخلاص التوحيد لله عزّ وجلّ باعتقاد العبودية له، وذلك بأن يحمل نفسه على الاستسلام لأحكام الله تعالى وترك المنازعة والتدبير والاختيار بين يديه. وهذا المعنى هو الذي ضمنه المؤلف رحمه الله كتابه التنوير في إسقاط التدبير، فليستعن المريد على ذلك به، ولا يقصد برياضته ومجاهدته التوصل إلى شيء من الكرامات، وخرق العوائد وأنواع الإجابات فإن ذلك فتنة وبلية قاطعة عليه طريق العبودية.

قال أبو عثمان المغربي رضي الله عنه: من اختار الخلوة على الصحبة ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخالياً من جميع الإرادات إلا رضا ربه، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب، وإن لم يكن بهذه الصفة، فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية. وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: من عمل ليجد أو يرى لم يفتح له بشيء حتى يكون قصده تحقيق العبودية، والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية. قال صاحب كتاب عوارف المعارف: من دخل الخلوة معتلاً في دخوله دخل عليه الشيطان وسول له أنواع الطغيان، وامتلأ من الغرور والمحال، وظن أنه حصل على حسن الحال. قال: وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار، واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق، ومنعوا الشواغل من الحواس، كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقاً، فكل ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا، وحلاوة الذكر والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع، ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضية، مما يعتني به الفلاسفة والدهريون، وكلما أكثر من ذلك كثر البعد من الله تعالى، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية، أو بما قد يتراءى له من صدق

الخاطر، وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون، ويظن أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة، وليست هي المقصودة من الخلوة لقول بعضهم: الحق يطلب منك الاستقامة، وأنت تطالبه بالكرامة، وقد يفتح على الصادقين بشيء من خرق العادات وصدق الفراسة، وتبين ما يستحدث في المستقبل، وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح في حالهم عدم ذلك. وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة، وما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد في الدنيا، والتخلق بالأخلاق الحميدة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع، يصير سبباً لمزيد بعده وغروره وحماقته، واستطالته على الناس، وازدرائه بالخلق ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه، وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى، وترك متابعة الرسول ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق نعوذ بالله من الضلال، وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع، ويسمونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك اهـ كلامه رحمه الله وهو في غاية الحسن ونهاية التحقيق، فبمداومة العبد على مثل هذه الأساليب التي ذكرناها مشاهد التوفيق ربه عزّ وجلّ، وتأييده له يحصل له من الله مزيد كثير، وعند ذلك يتطهر باطنه من جميع الآفات وخبائث الصفات، وتستنير سريرته بأنوار المكاشفات والملاطفات.

وقد عبر الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال: قتل النفس في الحقيقة التبري من حولها وقوتها أو شهود شيء منها، وردّ دواعيها إليها وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها، وانسلاخها من اختيارها، وإرادتها وإمحاء آثار بشريتها عنها، فأما بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر لها ولا عبرة اهـ. فهذه هي السبيل إلى موت النفس المفضي إلى حضرة القدس، لكونه جارياً على مقتضى الشريعة. والحقيقة اللتين بأنوارهما يهتدي كل سالك ومريد، ولا بد للمريد في هذه الطريقة من صحبة شيخ محقق مرشد، قد فرغ من تهذيب نفسه وتخلصه من هواه، فليسلم نفسه إليه وليلزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه من غير ارتياب ولا تأويل، ولا تردد فقد قالوا من لم يكن له شيخ، فالشيطان شيخه وقد قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له، وناه يريه عيوب نفسه ورعونات أعماله لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

وقال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه. وقال المؤلف رحمه الله في لطائف المنن: إنما يكون الاقتداء بولي ذلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، فألقيت إليك القياد، فسلك بك سبيل الرشاد يعرفك برعونات نفسك في كمائنها ودقائقها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله يوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب عنها، وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه. قال: فإن قلت فأين من هذا وصفه لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب، فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين، وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم جد صدقاً تجد مرشداً، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى. قال الله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُم﴾ [محمد: ٢١]فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء والخائف إلى الأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته، لوجدك الحق منك قريباً، ولك مجيباً ولوجدت الوصول غير متعذر عليك، ولتوجه الحق يتيسر ذلك عليك اهـ. وفي كلامه رحمه الله تنبيه على أن الشيخ من منح الله وهداياه للعبد المريد الصادق إذا صدق في إرادته، وبذل في مناصحة مولاه جهد استطاعته لا على ما قد يتوهمه من لا علم عنده، وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الآداب معه لما أشهده من عالي مرتبته ورفيع درجته. قال سيدي أبو مدين الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم الشيخ من هذبك بأخلاقه

وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه الشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه. وقال المؤلف رحمه الله في لطائف المنن: وليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذي أثرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في أنوار الحضرة وقال: ها أنت وربك اهـ. وآداب المريد مع الشيخ، والشيخ مع المريد كثيرة مذكورة في كتب الأئمة الصوفية رضي الله عنهم، ومن أبلغ ذلك وأوجزه ما ذكره الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه قال: فشروط المريد أن لا يتنفس نفساً إلا بإذن شيخه، ومن خالف شيخه في نفسه سراً أو جهراً، فسوف يرى عنه من غير ما يحبه سريعاً، ومخالفة الشيوخ فيما يسرونه منهم أشد مما يكابدونه بالجهد وأكثر، لأن هذا يلتحق بالخيانة، ومن خالف شيخه لم يشم رائحة الصدق، فإن برز منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه شيخه إلى ما فيه كفارة جرمه، ويلتزم في الغرامة ما يحكم به عليه، فإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته، فإن المريدين عيال على شيوخهم فرض عليهم أن ينفقوا من قوت أحوالهم ما يكون جبراناً لتقصيرهم اهـ. وقال الشيخ العارف محيي الدين أبو العباس البوني رحمه الله: إياك أن تحقر فعلاً يخطر لك أن لا تلقيه إلى الشيخ طاعة كان أو معصية، على أي نوع برز لك، ولو اختلف عليك ألف مرة في ساعة، واختلفت إليه ألف ساعة في الخاطر ليعلمك الدواء الذي تزعجه به، أو يحمل عنك بهمته قال: ولقد رأيت تلميذاً من أصحاب شيخنا الإمام تاج العارفين أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي رحمه الله تعالى، وكنت جالساً عنده، فدخل عليه فقير، وفي يده باقلاة فقال له: يا سيدي إني وجدت هذه الباقلاة، فما أصنع بها فقال له: اتركها حتى تفطر عليها فقلت: يا سيدي حتى الباقلاة يعلم بها. قال: يا ولدي لو خالفني في لحظة من خطراته لم يفلح أبداً، فإذا جوهدت النفس بهذه المجاهدات، وقوتلت بهذه المقاتلات رجعت عن جميع مألوفاتها الدنيئة وعادتها الرديئة، وزال عنها النفور والاستكبار، ودانت لمولاها بالعبودية والافتقار، وتزكت أعمالها وصفت أحوالها، وهذه هي خاصيتها التي خلقت لأجلها ومزيتها التي شرفت من قبلها، وإنما ألفت سوى هذه لمرض أصابها من الركون إلى هذا العالم الأدنى، والأنس بالشهوات التي تزول وتفنى حتى امتنع عليها ما خلقت لأجله من موجب سعادتها وغاية شرفها، وإفادتها فلما تعالجت بما ذكرناه عادت إلى الصحة، وإلى طبعها الأصلي فألفت العبودية والتزمتها، وصارب بذلك مطمئنة صالحة، لأن يقال لها: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي. قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: النفس المطمئنة هي التي تخلصت من السوء، ولم يبق بينها وبين السوء نسبة، وكانت مباديها في الاكتساب الإيمان والرضا المكتسب، فلما صفت وتطهرت من جميع المخلوقات، وزال عنها الحجاب الذي هو صفة الخلق سمعت النداء من مكان قريب، فأجابت لعدم الحجاب، فخرجت للمواهب والرضى الوضعي الوهبي الذي قال الله فيه رضي الله عنهم ورضوا عنه، فدخلت في رضا الله المطلوب الموهوب، وفي عباده وجنته لا في جنتها بوصف كسبها وأعمالها اهـ. وعلامة وصول المريد إلى هذا المقام الحميد أن تستوي عنده الأحوال، ولا يتأثر باطنه بما يواجه به من قبيح الأفعال، والأقوال لاستغراق قلبه في مطالعة حضرة الكمال.

قال أبو عثمان الحيري رضي الله عنه: لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع والغطاء والعز والذل. وقال محمد بن حنيف رضي الله عنه: قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل، وكان به علة البطن، فكنت أخدمه وآخذ منه الطشت طول مرضه فنفرت مرة، فقال لي: نمت لعنك الله. فقيل له: كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله؟ فقال: كقوله رحمك الله. وحكي عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال: ما سررت في الإسلام

إلا مرات معدودات كنت في مركب يوماً، وكان به رجل يحكي الحكايات المضحكة، فيضحك منه الناس، وكان يقول رأيت وقتاً في معركة الترك علجاً فقلت: هكذا، وكان يأخذ بلحيتي ويمر يده على حلقي هكذا، والناس يضحكون منه، ولم يكن في ذلك المركب عنده أحد أصغر مني ولا أحقر، فسررت بذلك، وكان يوم آخر كنت جالساً فجاء إنسان وصفعني من غير سبب، ويوم آخر كنت جالساً فجاء إنسان وبال عليّ، وكان في وقت حاتم الأصم رضي الله عنه رجل يسيء القول فيه، وفي أصحابه ويواجههم كل يوم بالقبيح، فوقع عليه جذع من السقف في بعض الأيام في حال مواجهة القوم بالسب والشتم، فمات فقال: الحمد لله. فقيل له: هذا خلاف ما تأمرنا به. فقال: ما حمدت الله شماتة بموته، بل حمدت الله إذ لم أسر بنكبته. هذا وأشباهه من أحوالهم معلوم ضرورة. وأبلغ من هذا كله محبة الموت وكراهية البقاء في الدنيا شوقاً إلى لقاء المولى. قال بعضهم: حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله تعالى في كل نفس من غير اختيار حالة يكون المرء عليها، فإذا وجد المريد هذه العلامات في نفسه فقد خرج من عالم جنسه، ووصل إلى حضرة قدسه، وكان كما قال الشاعر:

لك الدهر طوع والأنام عبيد ... فعش كل يوم من زمانك عيد

وكما قال سيدي أبو العباس العريف رضي الله عنه في هذا المعنى:

بدا لك سر طال عنك اكتتامه ... ولاح صباح كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سر غيبه ... ولولاك لم يطبع عليه ختامه

فإن غبت عنه حل فيه وطنبت ... على مركب الكشف المصون خيامه

وجاء حديث لا يمل سماعه ... شهي إلينا نثره ونظامه

إذا سمعته النفس طاب نعيمها ... وزال عن القلب المعنى غرامه

وأنشدوا في معناه أيضاً رضي الله عنهم أجمعين:

قُولِي لآمَالِي أَلَا فَابْعِدِي ... قَدْ أَنْجَزَ الأَحْبَابُ لِي مَوْعِدِي

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ مُسْتَأْنِساً ... مِنْكَ بِحَلِّ مُشْفِقٍ مُسْعِدِ

إِذَا نَسِيمُ الوَصْلِ مِنْ نَحْوِهِمْ ... هَبَّ فَلِي عِنْدَكِ ظِلُّ نَدِي

وَحَيْثُ لاحَتْ لِي أَعْلامُهُمْ ... فَلَيْسَ لِي فَقْرٌ إِلَى مَرْشَدِي

وإن لم يجدها في نفسه فليستمر على سلوكه ومجاهداته، ولا يغتر بما قد يتراءى له من سنىَ حالاته، فإنه لم يصل بعده، ولم يحصل له من هوى نفسه فقد، وليس طريق موت النفس بقطع جميع الأرفاق عنها، وردها إلى الاجتزاء بالخشن والنخالة والمبالغة في التقشف، والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب، وهممه وقصور إراداته وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذم، فذلك كله غلو وبدعة، وقد غلط في ذلك طوائف من الناس عملوا عليه في رياضاتهم ومجاهداتهم، ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم، فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم، ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة، وذلك لجهلهم بالسنة، وما كان عليه سلف هذه الأمة. **(جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف**

(جعلك) أيها الإنسان **(في)** زائدة **(العالم المتوسط بين ملكه وملكوته)** أي جعلك العالم المتوسط بين عالم الملك، وهو عالم الشهادة وعالم الملكوت وهو عالم الغيب، فالإنسان ليس من عالم الملك محضاً، ولا من عالم الملكوت محضاً، بل هو متوسط بينهما حساً ومعنى، أما حساً فلأن الله تعالى خلقه بين السماء والأرض، وغيره من الحيوانات، وغيرها مخلوق لأجل انتفاعه به، وأما معنى فلأن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم، وجعله متضمناً لأسرار جميع الموجودات علويها وسفليها لطيفها وكثيفها، فصار بذلك روحانياً جسمانياً سماوياً أرضياً، ولذا يقال له: العالم الأصغر. ويقال: إنه نسخة من العوالم ففيه من صفات الملائكة العقل والمعرفة والعبادة، ومن صفات الشياطين الإغواء والتمرد والطغيان، ومن صفات الحيوانات أنه في حالة الغضب يكون أسداً، وفي حالة غلبة الشهوة يكون خنزيراً لا يبالي أين يلقي نفسه، وفي حالة الحرص على الدنيا، والشره يكون كلباً وفي حالة الاحتيال والخداع يكون ذئباً، ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون في مبدئه غصناً طرياً مترعرعاً، وفي آخره يابساً أسود ومن صفات السماء أنه محل الأسرار، والأنوار

مكوناته) خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم وأتم تسوية وتعديل، وجعل بنيته متضمنة أسرار جميع الموجودات علويها وسفليها، لطيفها وكثيفها، فصار لذلك روحانياً جسمانياً أرضياً سماوياً، ولذلك يقال له: العالم الأصغر. وهذا هو الذي يظهر لي في معنى جعله في العالم المتوسط بين عالم الملك وعالم الملكوت، وعالم الملك هو عالم الشهادة، وعالم الملكوت هو عالم الغيب، فلا جرم لما كان الإنسان بهذه المثابة من كونه نخبة جميع الموجودات الجسمانيات، والروحانيات كانت لأكوان كلها له، باعتبار إحاطتها وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذي يحفظ الشيء ويصونه، وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التي تحويها الصدفة والمقصود من هذا أن يعرف الإنسان جلالة قدره، وفخامة أمره فيعلو بهمته إلى المراتب السامية اللائقة به، وذلك بإخلاص العبودية لربه عزّ وجلّ، وقطع النظر عن كل ما سواه، وينظر في هذا المعنى إلى ما قاله الشاعر:

إذا كنت كرسياً وعرشاً وجنة ... وناراً وأفلاكاً تدور وأحراكا

وكنت من السر المصون سريرة ... وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا

ففيم التأني في الحضيض تثبطاً ... مقيماً مع الأسرى أما حان إسراكا

كان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: الأكوان كلها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة. وقد ورد في بعض الكتب المنزلة يا ابن آدم أنا بدك اللازم فالزم بدك. وفي بعض الآثار المروية عن الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له. وقال الواسطي رضي الله عنه في معنى قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ [الإسراء: ٧٠] قال: بأن سخرنا لهم الكون وما فيه لئلا يكونوا في تخير شيء، ويتفرغوا إلى عبادة ربهم. **(إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك)** إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك لوجود المناسبة والمجانسة، ووسعه لك باعتبار ما ذكرناه إنما هو باكتفائك به، وقضاء أوطارك منه ووقوف أملك في نيل حاجاتك عليه، ولا خاصية لك في هذا أيها الإنسان، لأن مرتبتك أجل من ذلك، وإنما لم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك لعدم المناسبة، فلا يسعك حينئذ، ولا يناسبك إلا التعلق بالمكون، وهذه هي خاصيتك التي فيها سموك وعلوك، ورفعة قدرك فلم تهملها وتنحط منها إلى أسفل سافلين. قال أبو عبد الله بن الجلاب رضي الله عنه: من علت همته عن الأكوان، وصل إلى مكونها، ومن وقف بهمته على شيء من الخلق فاته الحق، لأنه أعز من أن يرضى معه شريكاً، وسئل أحمد بن خضرويه

ومجمع الملائكة، ومن صفات الأرض أنه محل لثبات الأخلاق والطباع، ومنه اللين والخشن ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلي واللوح أنه خزانة العلوم، والقلم أنه ضابط لها، والجنة أنه إذا حسنت أخلاقه تنعم به جليسه، والنار أنه إذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه، وإنما جعلك كذلك **(ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته)** وأنها كلها مسخرة إليك ومخلوقة لأجل انتفاعك بها، فينبغي لك أن ترفع همتك عنها وتشتغل بمولاك. قال أبو العباس المرسي: الأكوان كلها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة، فهذا يتعلق بالتوسط الحسي على ما مر. وأشار إلى ما يتعلق بالتوسط المعنوي بقوله: **(وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوناته)** أي أصداف هي مكوناته أو مكوناته الشبيهة بالأصداف جمع صدفة، وهي ما فيه الجوهرة وانطواؤها عليه من حيث إن صفات جميعها فيه على ما مر، ولم يخلق على هذه الصفة إلا الإنسان، فلذا خلقه الله على صفاته، وجعله خليفة في تنفيذ أمره ونهيه، وجعل له وجهتين: وجهة إلى الحق، ووجهة إلى الخلق، وأما الملائكة ومن في معناهم من الروحانيين، فليس لهم إلا الوجهة الأولى، وهذا في جملة كل إنسان لكن لا يظهر له إلا بعد الرياضة والمجاهدة، ويسمى حينئذ الإنسان الكامل، وهذه أسرار لا تدرك إلا بالذوق، ولا تفشى لغير أربابها، ثم أشار إلى خاصة أخرى لذلك الإنسان بقوله: **(إنما وسعك الكون)** أي العالم السفلي وهو الأرض **(من حيث جسمانيتك)** بضم الجيم، أي جسمك لأن جسمك بعض الكون، ومحصور فيه ومصالحه غير خارجة عنه **(ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك)** أي روحك لأنها ليست من هذا العالم ولا مناسبة بينها وبينه، فلا تصلح أن تتعلق بشيء منه، بل لا تصلح أن تتعلق إلا بالمولى سبحانه. والحاصل أن الإنسان مجموع شيئين جسم وروح وبين الجسم والكون مناسبة ومجانسة، فهو متوقف على الكون، فإن تعاطى منه ما يقوم به بقي في هذا العالم، وإلا هلك حسبما جرت به العادة الإلهية، وليس بين الروح والكون مجانسة ولا مناسبة، فلا تصلح أن تكون متعلقة به، بل بالمكون وهو المولى جلت قدرته، وحينئذ فينبغي

رضي الله عنه أي الأعمال أفضل؟ فقال: رعاية السر عن الالتفات إلى شيء سوى الله. **(الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته)** فمن لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه، ولم تفتح له ميادين الغيوب الملكوتية، ولا خلص سره إلى فضاء مشاهدة الوحدانية، فهو مسجون بمحيطاته، ومحصور في هيكل ذاته، وهذه هي صفات أصحاب النار كما قال الله تعالى: ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ [الكهف: ٢٩] وليس في جهنم عذاب أعظم من السجن والحصر والضيق والقهر كما قال الله تعالى: ﴿وإذا أَلقُوا مِنها مَكاناً ضَيِّقاً مُقرنين دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ [الفرقان: ١٣] وما ذكرناه هو حال من يبقى مع نفسه، وعمل على نيل حظه كائناً ما كان، وفي بعض الآثار المروية عن الله عزّ وجلّ عبدي اجعلني مكان همك أكفك كل هم ما كنت بك، فأنت في محل البعد، وما كنت بي فأنت في محل القرب، فاختر لنفسك. **(أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون فإذا شهدته كانت الأكوان معك)** فرق بين كونك مع الأكوان، وكون الأكوان معك، فإن كونك مع الأكوان يقتضي تقييدك بها، وحاجتك إليها، فأنت بذلك عبد لها، ثم هي خاذلتك ومسلمتك أحوج ما تكون إليها، وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون، وكون الأكوان معك يقتضي ملكك لها، واستغناءك عنها، فأنت حينئذ حر عنها، وهي محتاجة إليك وخادمة لك، ومتبركة بك حتى الجمادات والحيوانات.

وقال الشبلي رضي الله عنه: ليس يخطر الكون ببال من عرف المكون انتهى. وهذه حالة نفيسة يقتضيها شهودك للمكون. قال بعض المشايخ رضي الله عنهم: أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إليّ، وأنا عن جميعها حر وعن المزين الكبير رضي الله عنه قال: كنت مع إبراهيم الخواص في بعض أسفاره، فإذا عقرب تسعى على فخذه، فقمت لأقتلها فمنعني وقال: دعها كل شيء مفتقر إلينا، ولسنا مفتقرين إلى شيء. وقال محمد بن المبارك الصوفي رحمه الله: كنت مع إبراهيم بن أدهم في طريق بيت المقدس، فنزلنا في وقت القائلة تحت شجرة رمان، فصلينا ركعتين، فسمعت صوتاً من أصل الرمان يا أبا إسحق أكرمنا بأن تأكل منا شيئاً، فطأطأ إبراهيم رأسه فقال ذلك ثلاث مرات ثم قال: يا محمد كن شفيعاً إليه ليتناول منا شيئاً. فقلت: يا أبا إسحق لقد سمعت، فقام فأخذ منها رمانتين، فأكل واحدة وناولني الأخرى فأكلتها، وفي غير هذه الحكاية أن الشجرة كانت قصيرة ورمانها حامض، وأنها تطعم في كل عام مرة فعلت وارتفعت وحلا رمانها، وصارت تطعم في كل عام مرتين، وكانت السباع تجيء إلى سهل بن عبد الله رضي الله عنه، فيدخلهم بيتاً عنده، ويضيفهم ويطعمهم اللحم. وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: كنت في البادية مرة، فسرت في وسط النهار، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء، فنزلت فإذا أنا بسبع عظيم قد أقبل فلما قرب مني إذا هو يعرج، فحمحم وبرك بين يدي ووضع يده في حجري، فنظرت فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم فأخذت خشبة وشققت الموضع الذي فيه القيح ومسحته، وشددت على يده خرقة فمضى، فإذا أنابه بعد ساعة، جاء ومعه شبلان يبصبصان لي وحمل إليّ رغيفاً.

وقال بعضهم: أشرفت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان يحفظه، وقد أخذه النوم وإذا حية في فيها طاقة نرجس تروحه بها، وحكى عن أبي إسحق الصعلوك رحمه الله تعالى قال: خرجت مرة إلى الحج، فبينما أنا في

السعي في تكميلها بالأذكار والرياضات حتى تزول عنها الكدروات البشرية، وتصلح لتعلقها بحضرة الرب الذي هو شأنها الأعظم، وأما الجسم فلا ينبغي الاهتمام بما يصلحه، فإن الله متكفل به ولا بد ولذا قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... وتطلب الربح مما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

(الكائن في الكون) أي الموجود في الدنيا **(ولم تفتح له ميادين الغيوب)** أي لم يفتح قلبه للعلوم والمعارف الشبيهة بالميادين **(مسجون بمحيطاته)** أي بشهواته ولذاته وعاداته المحيطة به من المآكل والملابس والمشارب **(ومحصور في هيكل ذاته)** أي هيكل هو ذاته النفسانية، والمراد شهواته ولذاته فهو مرادف لما قبله **(أنت مع الأكوان)** أي واقف معها ومستند إليها، وهي مستعبدة لك **(ما لم تشهد المكون)** فيها **(فإذا شهدته)** فيها **(كانت الأكوان معك)** أي كنت مستغنياً عنها ومالكاً لها، وهي محتاجة إليك وخادمة لك، فإذا طلبت منها شيئاً حصل، وإذا قلت للشيء كن كان بإذن الله تعالى، ولذا كان بعض الأولياء يقول للسماء أمطري فتمطر، وللريح هبي فتهب، وسبب ذلك غيبته عنها بشهود مكونها، ومعلوم أن حالة

البادية إذ تهت، فلما جن علي الليل، وكانت ليلة قمراء، فسمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة. قال: فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة منها ما عرفته، ومنها ما لم أعرفه فقلت من أين أنت؟ فقال من مدينة سميساط كنت من عز وثروة، فطالبتني نفسي بالعزلة فخرجت، وقد أشرفت على الموت، فسألت الله تعالى أن يفيض لي ولياً من أوليائه، فأرجو أنك هو قال: فقلت له: أما لك والدان؟ قال: نعم. وإخوة وأخوات قلت: هل اشتقت إليهم وإلى ذكرهم؟ فقال: لا، إلا اليوم أردت أشم ريحهم، فاحتوشتني السباع والبهائم وبكين معي، وحملن إلى هذه الرياحين قال: فبينا أنا في تلك الحالة يرق له قلبي إذا بحية أقبلت في فمها طاقة نرجس. فقالت: دع شركك عنه فإن الله تعالى يغار على أوليائه. قال: فغشي علي فما أفقت حتى خرجت نفسه رحمة الله تعالى عليه ورضوانه، ثم وقع على سبات فانتبهت، وأنا على الجادة قال: فدخلت مدينة سميساط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة، فما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتني قالت: يا أبا إسحاق كيف رأيت الشاب فإني أنتظرك منذ ثلاث، فذكرت لها القصة إلى أن قلت قال: أردت أن أشم ريحهم فصاحت. وقالت: آه بلغ الشم الشم، وخرجت نفسها، فخرجت أتراب لها عليهن المرقعات والفوط، فتكفلن أمرها وتولين شأنها رضي الله عنهم أجمعين، فهكذا حال من يكون عظيم الهمة شريف الإرادة والنية لا يساكن أحداً من المخلوقات، ولا يوطن نفسه على شيء من المصنوعات، فيتكفل الله تعالى بأمره، ويجعل الكون خادماً له بأسره رزقنا الله تعالى وإياكم ما رزقهم، ووفقنا كما وفقهم بجوده وكرمه.

(لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليست منه تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك فالنهار ليس منك وإليك ولكنه وارد عليك) ثبوت الخصوصية للعبد لا يلزم منه عدم وصف البشرية، لأن الوصف البشري أمر ذاتي لازم للعبد، والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها وانقلابها، وإنما اللازم من ذلك عدم غلبة أحكام ذلك الوصف على العبد فقط، لأجل الوارد الغالب، فإن قدر ذهاب هذا الوارد الغالب بقي وصف البشرية غالباً قاهراً، وكان العبد في يديه أسيراً. ومثال ذلك من المحسوسات إشراق شمس النهار على الآفاق المظلمة لتزيل آثار ظلمانيتها، فتستنير بذلك وتشرق، فإذا غابت الشمس رجعت إلى حالها من الظلمة، لأن النور ليس بذاتي لها، وهو معنى قوله وليست

الشهود يغيب فيها الولي عن حسه، وعن بشريته ولا يلزم من ذلك فناؤها. ولذا قال: **(لا يلزم من ثبوت الخصوصية)** أي ما يخصك الله به من القوة، والقدرة على التصرف في المكونات، والكشف عن أحوالها وغير ذلك **(عدم وصف البشرية)** كفقر وضعف وعجز وذل وجهل، لأن الوصف البشري أمر ذاتي لازم للعبد، والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها، ثم ضرب لذلك مثالاً من المحسوسات بقوله: **(إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار)** أي كشمس النهار المشرقة **(ظهرت في الأفق)** أي نواحي السماء **(وليست منه)** أي ليست من ذاتياته، وكما أن شمس النهار إذا ظهرت على الآفاق المظلمة استنارت، وإذا غربت رجعت إلى حالها من الظلمة، لأن النور ليس ذاتياً لها، بل هو عرض والأمور العرضية لا تزيل الذاتيات كما مر، كذا الأوصاف البشرية القائمة بذاتك كالفقر والعجز والضعف شبيهة بالليل، فإذا ظهر عليها شمس التجلي بأن تجلى الله عليك بصفة الغنى، والقدرة استنارت فاتك، أي حصل لها نور بالغنى والقدرة، وإذا قبض عنها ذلك رجعت إلى حالها، وإلى هذا أشار بقوله: **(تارة تشرق شموس أوصافه)** تعالى أي أوصافه الشبيهة بالشموس **(على ليل وجودك)** أي على أوصافك الذاتية الشبيهة بالليل فتظهر خصوصيتك، فتكون قادراً بالله قوياً به عالماً به، وهكذا فإذا تجلى عليك بصفة القدرة حدث فيك قوة غطت عجزك، أو بصفة العلم حدث فيك علم غطى جهلك وهكذا **(وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك)** من العجز والضعف والجهل وغير ذلك، فلا تظهر خصوصيتك ولذا كان عليه الصلاة والسلام تارة يظهر عليه وصف القوة والقدرة، فيطعم ألفاً من صاع، وتارة يظهر عليه وصف العجز فيشد الحجر على بطنه من الجوع، وكذا ورثته من الأولياء **(فالنهار)** وهو تلك الخصوصيات التي ظهرت عليك **(ليس منك وإليك)** أي ليس من أوصافك الذاتية **(ولكنه وارد عليك)** من حضرة الحق سبحانه، فإن شاء الله أبقاه، وإن شاء أزاله، ولذا ترى بعض الأولياء في بعض الأحيان عندهم قوة بطش، وفي بعضها يكونون عاجزين، ومع هذا شموس أنوار قلوبهم، وهي المعارف

منه، ومعنى الخصوصية المذكورة هو ما يخص الحق تعالى به أولياءه من ظهور أوصافه العلية، ونعوته القدسية عليهم ليغطي بذلك أوصاف نفوسهم الدنيئة الرديئة عنهم، لئلا تظهر آثار كدوراتها في صفاء أوقاتهم، كما تقدم من قوله إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته، فإذا أشرقت أنوار ذلك الوارد على ليل وجودهم ذهبت بظلمات نفوسهم، وبقوا في نهار الوصلة والقربة من غير حول منهم ولا قوة، وهو معنى قوله فالنهار ليس منك وإليك، وإن غابت عنهم تلك الأنوار المشرقة رجعوا إلى أصلهم ولزموا الوقوف على حدهم، وكانوا في ليل القطيعة والحجبة كما كانوا قبل ذلك. والغرض من هذا الرد على طوائف غلطت في هذا الأمر، وتغالت وزعمت أن القرب من الله تعالى، والوصول إليه إنما يكون بعدم أوصافه البشرية وزوالها بالكلية واتصافه بصفات الربوبية بدلاً منها وفسرت بهذا ما عبر به المشايخ من الفناء والبقاء، فوقعوا من ذلك في ضلال وتزندق نعوذ بالله من ذلك، والمعنى الصحيح من ذلك إنما هو ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ورضي عنه هاهنا. **(دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه وبثبوت أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ثم يردهم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره والسالكون على عكس هذا، فنهاية السالكين بداية المجذوبين وبداية السالكين نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحد فربما التقيا في الطريق هذا في ترقيه وهذا في تدليه)** عباد الله المخصوصون بالقرب منه والوصول إليه ينقسمون إلى قسمين: سالكين ومجذوبين، فشأن السالكين الاستدلال بالأشياء عليه، وهم الذين يقولون: ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله بعده، وشأن المجذوبين الاستدلال به على الأشياء، وهم الذين يقولون: ما رأينا شيئاً إلا رأينا الله قبله، ولا شك أن الدليل أبداً، أظهر من المدلول فأول ما ظهر للسالكين الآثار، وهي الأفعال، فاستدلوا بها على الأسماء، وبالأسماء على الصفات، وبالصفات على وجود الذات، فكان حالهم الترقي والصعود

والأسرار لا تغيب ولا تغرب كما مر، وإنما الذي يغيب هو الخصوصيات التي تظهر على ظواهرهم، وهي الشموس المرادة هنا، فلا تعارض ثم قال: **(دل بوجود آثاره)** أي مكوناته ومصنوعاته المتقنة المحكمة **(على وجود أسمائه)** إذ لا يصدر ذلك إلا من قادر مريد عالم **(وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه)** من القدرة الإرادة والعلم **(وبثبوت أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه)** وهذا حال السالكين، فإن أول ما يظهر لهم الآثار وهي الأفعال فيستدلون بها على الأسماء، وبالأسماء على الصفات، وبالصفات على وجود الذات، وهم الذين يقولون: ما رأينا شيئاً إلا رأينا الله بعده، وأما المجذوبون فبالعكس، كما أشار إلى ذلك بقوله: **(فأرباب الجذب يكشف لهم)** أولاً **(عن كمال ذاته)** أي عن ذاته الكاملة، فيدركونه عياناً إدراك ذوق **(ثم يردهم إلى شهود صفاته)** بأن يشاهدوا ارتباطها بالذات **(ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه)** بأن يشاهدوا تعلقها بالآثار **(ثم يردهم إلى شهود آثاره)** أي صدورها عن الأسماء، فأول ما ظهر لهم حقيقة الذات المقدسة، ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات، ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء، ثم أنزلوا إلى شهود الآثار، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئاً إلا رأينا الله قبله **(والسالكون على عكس هذا)** كما مر **(فنهاية السالكين)** وهي شهود الذات المقدسة والكشف عن كمالها **(بداية المجذوبين وبداية السالكين)** وهي التعلق بالآثار، وشهود استنادها إلى الله **(نهاية المجذوبين لكن لا بمعنى واحد)** أي ليسا متحدين من كل وجه، فإن نهاية السالكين، وإن كان فيها جذب، لكنه مصحوب بالتمكن، وعلم أحوال الطريق ومعرفة عقبات النفوس، فإنهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بعد معاناة وتعب ومشقة، بخلاف بداية المجذوبين، فإنها ليس معها تمكن، فلذا يحصل لهم الغيبة، وتصدر منهم أفعال لا يدرون ما هي، ويتركون الفرائض ويفعلون أفعالاً منكرة في الشرع، ولا يعاقبون على ذلك لتغطية عقولهم التي عليها مدار التكليف بالأنوار، وبداية السالكين ليس معها شهود لكمال الذات، ولا الأسماء والصفات بخلاف نهاية المجذوبين، فإنهم لم يحصل لهم حالة الصحو إلا بعد مشاهدة ذلك، فالسالكون عاملون في ترقيهم على طريق الفناء، والمحو والمجذوبون مسلوك بهم في تدليهم طريق البقاء والصحو، وإذا كان كذلك **(فربما التقيا في طريق هذا)** أي السالك **(في ترقيه)** من الخلق إلى الحق **(وهذا)** أي المجذوب **(في تدليه)** من الحق إلى الخلق، فربما اجتمعا في تجلي الأسماء أو الصفات، بأن يكون كل منهما مشاهداً لأسمائه تعالى مثلاً، لكن المجذوب إذا انتقل من ذلك ينتقل إلى الآثار، والسالك إلى الصفات والسالك أفضل من

من أسفل إلى أعلى، وأول ما ظهر للمجذوبين حقيقة كمال الذات المقدسة، ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات، ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء، ثم أنزلوا إلى شهود الآثار، فكان حالهم التدلي والتنزل من أعلى إلى أسفل، فما بدأ به السالكون من شهود الآثار إليه انتهاء المجذوبين، وما ابتدأ به المجذوبون من كشف حقيقة الذات إليه انتهاء السالكين، لكن لا بمعنى واحد، فإن مراد السالكين شهود الأشياء لله، ومراد المجذوبين شهود الأشياء بالله، فالسالكون عاملون على تحقيق الفناء والمحو، والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو، ولما كان شأن الفريقين النزول في تلك المنازل المذكورة لزم التقاؤهما في طريق سفرهما السالك مترق، والمجذوب متدل.

(لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك) أنوار القلوب والأسرار المشرقة عليها من سماء التوحيد والمعرفة، لا يعرف قدرها إلا في غيب الملكوت، وهو عالم الآخرة، وهنا يحصل تمام هذه الأنوار فمن آمن بالغيب كان له من ذلك الحظ الأوفر، كما أن أنوار السماء المشرقة على ظواهر الإجرام لا تظهر إلا في شهادة الملك، وهو عالم الدنيا وذلك لحصول المناسبة بين هذه الأشياء.

(وجدان ثمرات الطاعات عاجلاً بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً) ما يجده العاملون بطاعة الله تعالى في أعمالهم عاجلاً من مزيد الإيمان واليقين، وتنسم روح الأنس ولذيذ القرب، ولطيف الوصف بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها في الدار الآخرة، بأنها مقبولة عند الله تعالى، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول.

(كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك أَمْ كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك) العمل الذي يصح طلب العوض، والجزاء عليه هو ما عملته لينتفع به غيرك، ولم يحصل لك بذلك منفعة، ولم يندفع عنك بسببه مضرة، والأعمال الدينية المطلوبة منك ظاهراً وباطناً بخلاف هذا كله إذ هي مسلوبة عنك منسوبة

المجذوب للانتفاع به بخلاف المجذوب، فإذا أراد الله تكميل حاله أصحاه، وكل من علم السالك والمجذوب وهبي ذوقي، وإن كان مبدأ علم الأول استدلالياً كما يؤخذ من قوله بوجود آثاره الخ. فالمجذوب ما دام في جذبه لا يصلح للمشيخة لعدم مروره على المقامات، ومعرفته بغوائل النفوس، ولاشتغاله بحاله عن حال غيره. كما أن السالك إذا لم يصل إلى درجة المشاهدة والتجلي لا يصلح للمشيخة لنقصه، وإنما يصلح لها من جمع بينهما سواء تقدم سلوكه على جذبه أو بالعكس، وقد يمر المجذوب على المقامات بسرعة، ويعرف غوائل النفوس كذلك، فيصلح للمشيخة مع جذبه، لكن هذا في بعض المجاذيب كالسيد أحمد البدوي نفعنا الله به لا في كل مجذوب **(لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار)** أي السرائر أي الأنوار المشرقة عليها، وهي العلوم والمعارف اللدنية، وما هو مودع فيها من أنوار الحق **(إلا في غيب الملكوت)** أي الملكوت الغائب عنا، وهو عالم الآخرة فمن آمن بالغيب وسعى في تهذيب نفسه حتى حصلت عنده تلك الأنوار شاهد الحظ الأوفر هناك، وإن كان مهاناً في الدنيا غير معتنى به فيها **(كما لا تظهر أنوار السماء)** وهي أنوار الكواكب **(إلا في شهادة الملك)** أي الملك المشاهد، وهو عالم الدنيا لحصول المناسبة بين هذه الأشياء **(وجدان ثمرات الطاعات)** وهي الأنوار التي تحصل في قلوبهم وتشرق على ظواهرهم والتلذذ بها في حال فعلها **(عاجلاً)** أي في الدنيا **(بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً)** أي بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها في الدار الآخرة وأنها مقبولة عند الله، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول، ولما كان يفهم من هذا أن العمل قد يكون لقصد الجزاء، وأنه ممدوح دفع ذلك بقوله: **(كيف تطلب العوض)** أي الجزاء **(على عمل هو متصدق به عليك)** أي أن هذا غير لائق منك، لأن الإنسان لا يطلب الجزاء من الغير إلا إذا فعل معه فعلاً يعود نفعه على ذلك الغير، وذلك مفقود هنا لأن نفع تلك الأعمال عائد عليك لا على الرب سبحانه، لأنه غني عنك وعن أعمالك، وكما أن الجزاء يكون على العمل يكون أيضاً على الصدق، أي الإخلاص فيه وهو غير لائق أيضاً ولذا قال: **(أم كيف تطلب الجزاء على صدق)** أي إخلاص في العمل **(هو مهديه إليك)** وعبر بالتصدق والإهداء تنبيهاً على ما ذكر، وهو أن ذلك العمل والإخلاص فيه لم يكن إلا لمنفعتك، فطلب العوض والجزاء إذن على ذلك في غاية القبح، ولذا صدر الكلام بكيف المفيدة للاستفهام التعجبي تقبيحاً لذلك الوصف، واستعمل لفظ الصدقة في الأعمال الظاهرة والهدية في الصدق الذي هو من الأعمال الباطنة، وعليه مدار قبول الأعمال الظاهرة إشعاراً بتباينهما في الشرف كتباين الصدقة والهدية، فإن الأولى

إلى ربك خلقها، واختراعها عائد ثمرة ذلك ومنفعته عليك في ظاهرك وباطنك، وهو غني عنك وعنها، ولذلك عبر عنها بالتصدق والإهداء تنبيهاً على أن ذلك لم يكن إلا لمنفعتك، فطلب العوض والجزاء إذاً على عمل هذه صفته في غاية القبح، ولذلك صدر المؤلف رضي الله تعالى عنه كلامه بكيف، ليعجبك من ذلك الوصف. قال الواسطي رضي الله عنه: مطالبة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل، وسئل أبو العباس بن عطاء الله رضي الله عنه عن أقرب شيء إلى مقت الله تعالى فقال: رؤية النفس وأفعالها، وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها، واستعمال المؤلف رحمه الله تعالى لفظ الصدقة في الأعمال الظاهرة، ولفظ الهدية في الصدق وعليه مدار الأعمال الباطنة إشعار بتباينهما في الشرف كتباين الصدقة والهدية.

(قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم وقوم لا أذكار ولا أنوار نعوذ بالله من ذلك ذاكر ذكر ليستنير به قلبه فكان ذاكراً وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً والذي استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدي وبنوره يقتدي) سبقية الأذكار للأنوار هو حال المريدين السالكين، وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة، فهم يأتون بالأذكار في حال تكلف منهم، وتعمل ليحصل لهم بذلك زوائد الأنوار، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وسبقية الأنوار للأذكار هو حال المريدين المجذوبين، لأنهم مقامون في السهولة والخفة، فهم لما وجهوا بالأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمد. قال في لطائف المنن حاكياً عن شيخه أبي العباس المرسي وقال رضي الله تعالى عنه: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] قال: ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه، فسار يطوي مهامه نفسه، وبيداء طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ ومن الناس من فاجأته عناية الله تعالى من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٤] فالأول حال السالكين، والثاني حال المجذوبين فَمَنْ كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة، وَمَنْ كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة، ولا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله تعالى له، فسلكها مسرعاً إلى الله تعالى عاجلاً وكثيراً ما نسمع، عند مراجعة المنتسبين للطريق، أَنَّ السالك أتم من المجذوب، لأن السالك عرف طريقاً بها توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا، فإن المجذوب طويت الطريق له تُطْوَ عنه وَمنْ طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها والمجذوب كَمَنْ طويت له ولم الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا اهـ. ما ذكره في حال الجذب والسلوك وهو حسن قَلَّ أن يوجد لغيره فلذلك أوردته هاهنا بكماله.

(ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر) أعمال الظاهر تكون تبعاً لما يكون في الباطن وقد تقدم هذا

يقصد بها الفقراء، والثانية الأغنياء فتدل على شرف المهدى إليه **(قوم تسبق أنوارهم أذكارهم)** وهم المجذوبون المرادون، فلما واجهتهم الأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف، ولا تعمل بل بسهولة وخفة **(وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم)** وهم المريدون السالكون، وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة، فيأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمل ليحصل بها الأنوار، فالأولون وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٤] والآخرون وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ثم ذكر عبارة أخرى لبيان حال الفريقين بقوله: **(ذاكر ذكر ليستنير قلبه)** وهو السالك **(وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً)** وهو المجذوب، فالذكر له كالنفس الطبيعي، بل أسهل بخلاف الأول، وتقدم أن السالك أتم من المجذوب، لأن الأول عرف طريقاً توصل بها إلى الله، وناله فيها غاية التعب والمشقة، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وهو كذلك بالنسبة لأغلب المجاذيب، وإلا فبعضهم له طريق طوتها عناية الله تعالى له فسلكها مسرعاً إلى الله عاجلاً كما مر، فلم تفته الطريق، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها، ثم أشار إلى ما يتعلق بالمجذوب والسالك جميعاً بقوله: **(ما كان ظاهر ذكر)** أي ذكر ظاهر **(إلا عن باطن شهود وفكر)** أي إلا عن شهود للمولى باطناً،

المعنى عند قوله: ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر، فالذكر الظاهر لا محالة ثمرة باطن الشهود والفكر ثم بيّن هذا المعنى بقوله. **(أشهدك من قبل أن يستشهدك فنطقت بإلٰهيته الظواهر وتحققت بأحديته القلوب والسرائر)** كاشف الله تعالى القلوب والأسرار في غيب الغيب بحقائق وحدانيته وإحاطة قيوميته. فلما أشهدها ذلك اضمحلت وتدكدكت وتلاشت فتحققت بذلك الأحدية، فلما أظهرها في عالم الشهادة، ملتبسة بالأجسام والهياكل طلب منها الشهادة له بالإلٰهية فشهدت بلسان حالها ومقالها فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعاً لشهودها لما أشهدت فالعبد من حيث سره وقلبه بوصف الجمع ومن حيث ظاهره وجسمه بنعت الفرق ولا بد في هذا الطريق من وجود الجمع والفرق وقد قالوا: كل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل. وقال الجنيد رضي الله عنه في معنى الجمع والتفرقة:

فَتَحَقَّقْتُكَ في سِرِّ ي فَنَاجَاكَ لِسَاني فَاجْتَمَعْنَا لِمعَانٍ وَافْتَرَقْنا لمعَانِ
إنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التعظيمُ عَنْ لَحْظِ عياني فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الوَجْدُ مِنَ الأحْشاءِ دَاني

ذهب الجنيد رضي الله عنه، إلى أن قربه بالوجد جمع وغيبه في البشرية تفرقة. **(أكرمك بكرامات ثلاث جعلك ذاكراً له ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك وجعلك مذكوراً به إذ حقق نسبته لديك وجعلك مذكوراً عنده فتمم نعمته عليك)** أكرم الله تعالى عبده المؤمن بثلاث كرامات، جمع له فيها كل المفاخر والمحامد، أولها:

وفكر فيه، فكل من المجذوب والسالك لم يذكر ظاهراً إلا بعد مشاهدة الرب باطناً، وفكر فيه، وإن كان المجذوب يدرك ذلك، والسالك قد لا يدركه لغلظ بشريته، فلم يفقد النور السابق بالكلية، وإلا لما أمكن منه الذكر، وقد تقدم قوله لولا وارد ما كان ورد، ولولا التجلي لم يمكن التحلي، والمراد بالذكر هنا سائر الأعمال الظاهرة، وعبر به عنها لأنه روحها ولاشتماله عليه، فكل من الشهود والفكر يرجع للمجذوب والسالك، ويحتمل رجوع الأول للأول، والثاني للثاني ثم بين ذلك المعنى بقوله: **(أشهدك)** أي تجلى لقلبك فشهدته على حسب قدرك **(من قبل أن يستشهدك)** أي يطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك، فإن الذكر والعبادة منك بعظمة المعبود والمذكور واعتراف بوحدانيته **(فنطقت بإلٰهيته)** أي بما يدل على ألوهيته **(الظواهر)** أي الخوارج الظاهرة وهذا راجع للثاني، وهو الاستشهاد وقوله: **(وتحققت بأحديته القلوب والسرائر)** راجع للأول، وهو الإشهاد ويحتمل أن معنى ذلك أن الله تعالى كشف للأرواح في عالم الغيب عن ألوهية وأحدية ذاته، وإحاطة قيوميته، ثم لما أظهرها في عالم الشهادة بأن ركبها في الأجسام طلب منها على لسان الأنبياء الشهادة له بالألوهية، فشهدت بلسان حالها ومقالها، فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعاً لشهودها لما أشهدت فقوله أشهدك أي في عالم الأرواح وقوله من قبل أن يستشهدك، أي يطلب منك الشهادة بعد أن ركبها في الأجسام، فنطقت بألوهيته الظواهر، أي الجوارح الظاهرة نطقاً حقيقياً في اللسان، وحالياً في غيره وقوله فنطقت مفرع على محذوف، أي فلما طلب منها الشهادة على لسان الأنبياء نطقت، وتحققت بأحديته أي جزمت بكونه واحداً لا شريك له القلوب والسرائر جمع سريرة كما مر **(أكرمك)** أيها العبد الذي أشهدك مولاك ثم استشهدك فذكرته بلسانك وعبادتك ووجدته بقلبك وسرك **(بكرامات ثلاث)** جمع لك بها كل المفاخر والمحامد الأولى أنه **(جعلك ذاكراً له)** بلسانك وعباداتك الظاهرية والباطنية **(ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك)** لأنك مجبول على النقص والكسل والفتور، فحصول ذلك منة وفضل عليك، ومن أين أنت حتى تكون محلاً لذكره وموضعاً لطاعته والتعلق به **(و)** الثانية أنه **(جعلك مذكوراً به)** بأن يقول هذا ولي الله وصفيه ومختاره وذاكره **(إذ حقق)** أي أثبت **(نسبته)** أي خصوصيته **(لديك)** وهي ما أظهره عليك من أنوار الذكر التي استنار بها ظاهرك وباطنك، فتحقق الخصوصية لديك سبب في ذكرك به، أي انتسابك له ومن كانت له أدنى نسبة عند ملك من ملوك الدنيا تراه يصونها ويحفظها ويفرح بها ويجد في نفسه انبساطاً عند تذكرها، فكيف بهذه النسبة العظيمة التي صرت تذكر بها في الملأ الأعلى، وعند المؤمنين إلى آخر الدهر، فإن من مات من العلماء والصالحين الذين كثر ذكرهم لله تعالى يبقى الثناء عليهم، ولا ينقطع ذكره والدعاء له ومن مات من غيرهم مات ذكره معه، ويحتمل أن قوله إذ حقق في قوة التفريع على ما قبله، والمعنى جعلك مذكوراً به، فحقق نسبته لديك أي انتسابك له، فيكون ذكرك به تحقيقاً لنسبتك له **(و)** الثالثة أنه **(جعلك مذكوراً عنده)** لحديث من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه **(فتمم نعمته عليك)** بذكرك عنده قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥] قيل معناه ذكر الله عبده أكبر من

كونه ذاكراً له بأن أجرى ذكره على قلبه ولسانه ومن أين له ذلك وبأي وسيلة ناله لولا فضل الله تعالى وكرمه؟ وثانيها: كونه مذكوراً به فيقال: هذا عبد الله ووليه وصفيه ومختاره وذلك بما أكرمه الله به من تحقيق النسبة إليه وهي إثبات الخصوصية له وقد تقدم معنى الخصوصية. وثالثها: كونه مذكوراً عنده وهذه هي غاية الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام. قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] قيل معناه: ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله وفي حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القُرْآنَ» قال: قلت: يا رسول الله سماني لك ربك؟ قال: «نَعَمْ» فقرأ عليّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] وفي حديث أبي حية البدري رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ [يونس: ٥٨] إلى آخرها قال جبريل عليه السلام: إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيّاً فقال النبي ﷺ لأبيّ: «إنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ هٰذِهِ السُّورَةَ». فقال أبيّ: أوذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ». فبكى أبيّ.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

وعن أبي هريرة وأبي سعيد يشهدان به على النبي ﷺ أنه قال: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مُسْلِمُونَ مَجْلِساً يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إلاّ حَفَّتْهُمُ الملائكةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ وذكرهم الله فيمن عنده». قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: يا غفول يا جهول لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لمت طرباً. **(رُبَّ عُمْرٍ اتّسعَتْ آمادُهُ وقلّت أمداده ورُبَّ عُمْر قليلة آماده كثيرة أمداده)** الأمداد الإلهية التي يمد الحق تعالى بها عباده المؤمنين زيادة في إيمانهم وتقوية لإيقانهم لا أثر فيها لطول العمر ولا قصره فلا تنقص بذلك ولا تزيد به ولا تقلّ ولا تكثر وإنما ترد عليهم من خزائن الفضل والكرم بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم. ويختلف هذا باختلاف تراكيب خلقهم ومجبول فطرهم ولا مدخل للزمان في هذا إلا بالعرض وبهذا فضلت هذه الأمة على سائر الأمم على قصر أعمارهم وطول أعمار غيرهم. قال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: قلت لأبي سليمان الداراني رضي الله عنه: قد غبطت بني إسرائيل. قال: بأي شيء؟ قلت: بثمانمائة سنة حتى يصيروا كالشنان البالية وكالحنايا وكالأوتار. قال: ما ظننت إلا وقد جئت بشيء لا والله ما يريد الله لنا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما نال ذلك في عمره. **(مَنْ بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة)** البركة في العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية

ذكر العبد لله **(رب عمر اتسعت آماده)** أي غاياته وأزمنته **(وقلت أمداده)** بفتح الهمزة أي فوائده، وذلك كأعمال الغافلين عن الله المشتغلين بشهوات نفوسهم، فإنها وإن كانت طويلة في الحس فهي قصيرة في المعنى لقلة أمدادها **(ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده)** وذلك كأعمار الذاكرين، فإنها وإن كانت قصيرة حساً فهي طويلة معنى لكثرة أمدادها، وذلك هو معنى البركة في العمر كما يأتي للمصنف، ففوائد العمر لا يلزم أن تكون على قدر آماده أي أزمنته وبحسبها، بل قد يحصل لصاحب العمر القصير من الفوائد ما لا يحصل لمن هو أطول منه بأضعاف مضاعفة **(من بورك له)** أي من أراد الله أن ينزل البركة **(في عمره)** رزقه الإقبال على مولاه فـ **(أدرك في يسير من الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دوائر العبارة)** أي تحت العبارة الشبيهة بالدوائر بجامع الإحاطة بما يحويه **(ولا تلحقه الإشارة)** أي لا تصل إليه والمعنى إذا أراد الله تعالى أن يبارك في عمر ولي من أوليائه رزقه من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته، فيبادر إلى الأعمال الصالحة في جميع مساراته، فيدرك في يسير من الزمان مما يمتن به المولى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، أي ما لا تحيط به العبارة لكثرته وشرفه، فتعجز عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة، أي لا تصل إليه لدقته وغاية صفائه، فيرتفع له في شهر مثلاً ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر، بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها، خير من العمل في ألف شهر. قال بعضهم: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر، وكان أبو العباس المرسي قدّس الله سره يقول: أوقاتنا كلها ليلة قدر. وقيل: وهذا معنى ما روي البر يزيد في العمر.

ويستفرغ في ذلك مجهوده بالكلية وفي أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه ولا تنتهي الإشارة إليه، وكل ذلك في زمن يسير وعمر قصير فيرتفع له في شهر مثلاً، ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر بمنزلة ليلة القدر، العمل فيها لمن صادفها، خير من العمل في ألف شهر.

قال بعض العلماء: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. كان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: أوقاتنا، والحمد لله، كلها ليلة القدر فهذا هو البركة في العمر لا تطويله وزيادة مدته. وقيل هذا المعنى في تأويل ما روي في الخبر البر يزيد في العمر. **(الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه)** من الخذلان أن تصدك العوائق والشواغل عن التوجه إلى الله تعالى والرحيل إليه، بل الواجب عليك أن تبادر إلى ذلك وترمي بالعوائق والشواغل خلف ظهرك كما قيل: سيروا إلى الله عزّ وجلّ عرجاً ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة. قال الله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وقد تقدم هذا المعنى عند قوله أحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس فإن زالت شواغلك وقلّت عوائقك ثم قعدت عن التوجه والرحيل فهذا هو الخذلان كل الخذلان أعاذنا الله منه.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: فراغ القلب من الأشغال نعمةٌ عظيمة فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجر في قياد الشهوات شوَّشَ اللّهُ عليه نعمة قلبِهِ وسلبه ما كان يجد من صفاء لبه. **(الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار)** الفكرة التي ألزمها العبد وحضَّ عليها هي سير القلب في ميادين الأغيار فقط وهي مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته. وأما الفكرة في ذات الله تعالى فلا سبيل إليها يعتبر المتفكرون في آياته ولا يتفكرون ماهية ذاته.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أبصر قوماً فقال: «ماَ لَكُمْ»؟ فقالوا: نتفكر في الخالق. قال: «تفكَّروا في خَلْقِهِ وَلا تُفكروا في الخالقِ فَإنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ قَدْرَهُ». قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: التفكر نعت كل طالب وثمرته الوصول بشرط العلم فإذا سلم الفكر من الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زاهد فيها وفكر العابدين في جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبة فيه، وفكر العارفين في الآلاء والنعماء فيزدادون محبة للخالق سبحانه.

وقال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد. وفي بعض النسخ: الفكرة سير القلب في ميادين الاعتبار ومعناه ظاهر. **(الفكرة سراجُ القلبِ فإذا ذهبت فلا إضاءة له)** القلب

(الخذلان) هو عدم التوفيق والمعونة **(كل الخذلان)** أي الخذلان التام **(أن تتفرغ من الشواغل)** الدنيوية بأن يكون عندك ما يكفيك من الدنيا، ثم لا تتوجه إليه بالاشتغال بما يقرب من حضرته العلية **(وتقل عوائقك)** التي تمنعك من الاشتغال بما يقرب من مولاك بأن يكون عندك ما يكفيك من القوت ولو مع الضيق **(ثم لا ترحل إليه)** بالاشتغال بما يقرب منه، فهو بمعنى ما قبله، ومقتضاه أن من لم يكن عنده ما يكفيه من الدنيا، وكان يحتاج إلى التكسب فاشتغل به، ولم يتوجه إلى الله ولم يرحل إليه، فليس عنده كل الخذلان، بل بعضه وهو كذلك، لأن التوجه إلى الله، والرحلة إليه مطلوب من كافة الخلق وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، فالواجب على كل أحد أن يرمي بالعوائق والشواغل خلف ظهره، ويقبل على مولاه وقد قيل سيروا إلى الله عرجاً ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة، فإن انتظار الصحة بطالة. وقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١] **(الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار)** أي في الأغيار وهي مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته من السماء والأرض وغيرهما الشبيهة بالميادين، وفي نسخة ميادين الاعتبار أي جولان القلب في صنوف المخلوقات، وأنواع المكونات لاستخراج ما فيها من العلوم، وما انطوت عليه من العبر والآيات الموصلة إلى العلم بالله تعالى، وما له من صفات الكمال ونعوت الجمال وغير ذلك، فإذا تفكر في وجود المخلوقات هداه ذلك التفكر إلى وجود موجدهم. وهذا تفكر العامة وإذا تفكر في الحسنات وما يترتب عليها من الثواب، والقرب من المولى فعلها، وازداد رغبة فيها أو في السيئات وما يترتب عليها من أنواع العذاب، تركها ولم يقربها، وهذا تفكر العابدين، وإذا تفكر في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها، ازداد زهداً فيها وهذا تفكر الزاهدين، وإذا تفكر في الآلاء والنعماء، ازداد محبة في المنعم بها جل جلاله، وهذا تفكر العارفين، وخرج بالتفكر في مصنوعات الله التفكر في ذاته فإنه منهي عنه. قال ﷺ: «تَفَكَّرُوا في خَلْقِهِ ولا تُفَكِّروا في الخَالِقِ فَإنَّكُمْ لا تُقْدِرُونَ قَدْرَهُ» **(الفكرة سراج القلب)** أي كالسراج الحسي أي المصباح الذي يضيء فيه

الخالي من الفكرة خالٍ من النور مظلم بوجود الجهل والغرور وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها في ميادين فكرة. **(الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. فالأولى: لأرباب الاعتبار، والثانية: لأرباب الشهود والاستبصار)** تقدم الآن أن الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار وسيره على وجهين: صعود ونزول. فالصعود، لأرباب الاعتبار وهي فكرة ناشئة عن التصديق والإيمان وهذا للسالكين، وهو حال ترقيهم، وهو نعت المستدلين بالآثار على المؤثر. والنزول، لأرباب الشهود والاستبصار وفكرتهم فكرة ناشئة عن الشهود والعيان، وهذا للمجذوبين، وهو حال تدليهم، وهو وصف المستدلين بالمؤثر على الآثار. وقد تقدم هذا المعنى عند ذكر المجذوب والسالك. **(وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه)** هذا كتابٌ يتضمن ذكر حال السالك من أول ابتداء سيره إلى انتهائه وحصوله في مستقره وذكر آداب السلوك والوصول. وقد أتى رحمه الله تعالى في ذلك، بعباراتٍ صحيحة فصيحة واستعارات حسنة مليحة على طريقة وعظية إذا سمعها السامع طَرِبَ لها قلبه وهام فيها عقله ولبه وما ذاك إلا لما علق بها من أنوار قلب المتكلم. وقد قال فيما تقدم: كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز **(أما بعد، فإن البدايات مجلات النهايات)** المجلات محل التجلي والظهور فالسالك في ابتداء سلوكه يتجلى له أمر نهايته **(وأن مَنْ كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته)** هذا بيان ما ذكره ومعنى كون بدايته بالله أن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضته مصحوبة بالاستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه والانقطاع إليه، فبذلك يصح له وينفذ في توجهه وسلوكه كما تقدم عند قوله: ما توقف مطلب أنت طالبه بربك. ومعنى كون انتهائه إلى الله أن يكشف له انفراد الله تعالى بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن انكشافاً يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدكدكه واضمحلاله. قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] فإذا صحت للمريد تلك البداية بما ذكرناه وصل إلى هذه النهاية وقد تقدم هذا المعنى في قوله: من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله تعالى في البدايات **(والمشتغل به هو الذي أحببته وسارعت إليه والمشتغل عنه هو المؤثر عليه)**

فيستنير به، وبالنور تنجلي حقائق الأمور، فيظهر به الحق حقاً، والباطل باطلاً فيعرف به عظمته تعالى وجلاله، ويطلع على خفايا آفات النفس ومكايد العدو، وغرور الدنيا ويعرف وجوه الحيل في التحرز عنها إلى غير ذلك **(فإذا ذهبت فلا إضاءة له)** فالقلب الخالي عن الفكرة خال من النور كالبيت المظلم، ولا يكون في القلب المظلم إلا الجهل والغرور **(الفكرة)** وهي السير في ميادين الأغيار **(فكرتان فكرة تصديق وإيمان)** أي فكرة ناشئة عن أصل التصديق الذي هو الإيمان بأن يكون المتفكر عنده ذلك، وقصده بالفكرة الترقي وزيادة اليقين، ولذا تسمى فكرة الترقي، وتكون للسالكين **(وفكرة شهود وعيان)** أي فكرة ناشئة عن ذلك، وتسمى فكرة التدلي، وتكون للمجذوبين **(فالأولى لأرباب الاعتبار)** المستدلين بالآثار على المؤثر وهم السالكون في حال ترقيهم، فإن فكرتهم ناشئة عن التصديق والإيمان **(والثانية لأرباب الشهود والاستبصار)** أي المستدلين بالمؤثر على الآثار، وهم المجذوبون في حال تدليهم، فإن فكرتهم ناشئة عن الشهود والعيان، وهذا لمن أراد الله تكميل حاله منهم كما مر، وإلا فبعضهم يدوم جذبه وعدم صحوه، بل هو الأغلب فيهم، وقد تقدم هذا عند ذكر المجذوب، والسالك والنوعان المذكوران بالنسبة للمشتغلين بالله، أما غيرهم وهم العامة ففكرتهم لتحصيل التصديق والإيمان لا لزيادته **(وقال رضي الله عنه مما كتبه لبعض إخوانه)** وحاصل هذا الكتاب أنه يتضمن حال السالك في أول ابتداء سفره إلى انتهائه، وحصوله في مستقره وذكر آداب السلوك والوصول **(أما بعد فإن البدايات)** أي بدايات الأمور **(مجلات النهايات)** أي يظهر فيها حال النهايات والمجلات بفتح الميم والجيم، وتشديد اللام نجمع مجلة كذلك، أي محل التجلي والظهور كالمرآة والمجالي المظاهر التي تتجلى فيها الأمور، والمراد أن بداية المريد تعرف منها نهايته، فإذا كان عنده في بدايته قوة توجه واجتهاد في العبادات والرياضات كان دليلاً على أنه ينتهي إلى فتح عظيم، وأنه يصل إلى مقصوده في أقرب مدة ومن كان عنده ضعف في ذلك كان فتحه ووصوله على حسب حاله **(وأن من كانت بالله بدايته)** بأن تكون مجاهداته ومكابداته، وأنواع رياضته مصحوبة بالاستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه **(كانت إليه نهايته)** أي كانت نهايته إلى الوصول إلى الله تعالى، بأن ينكشف له انفراد الله بالقيومية وتوحده بالديمومية، وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن، انكشافاً يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه، وتدكدكه واضمحلاله. وقد تقدم هذا المعنى في قوله من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات **(والمشتغل به هو الذي أحببته)** أيها المريد الصادق **(وسارعت إليه)** وهو الأعمال

المشتغل به أيها المريد السالك إنما هو عملك على التقرب من ربك عزّ وجلّ والتوسل إليه بالطاعة والعبودية له وهو الذي أحببته وسارعت إلى إجابة دعوته فيحق عليك أن لا تستقل ذلك الشغل بل تكون به قرير عين والمشتغل عنه إنما هو متابعة حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة وهو الذي يستحق الإيثار عليه إذ هو فإن مضمحل لا حقيقة له فلتطب عنه نفساً ولا تعمل فيه عقلاً ولا حساً. وهذا الكلام تهييج للسالك وإنعاش لقوته وإنهاض لهمته. قال الشيخ أبو القاسم عبد الرحمٰن الصقلي رضي الله عنه: سمعت عبد الله بن إسحق الغافقي يقول: ما انتفعت إلا بدعاء رجل بمكة مررت إلى المسجد الحرام بالسحر فإذا رجل يسفّ التراب فقلت: مجهود أو مجنون. ثم قلت: يا هذا أتسف التراب؟ قال: فقال لي: أوتراب هُوَ؟ ثم ناولني قال: فما شككت أنه سويق أو قند أنا أشك أيهما قال: فقلت ولي لله وجثوت على ركبتي وقلت: ادع الله لي فقال لي: عرفك الله قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك **(وأن من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه ومن علم أن الأمور بيد الله انجمع بالتوكل عليه)** العبد مطلوب لربه عزّ وجلّ بإقامة وظائف العبودية له وذلك بما اختصه به عزّ وجلّ، من العقل والفهم وما رزقه من المعرفة والعلم وثمرة ذلك الطلب عائدة إلى العبد فلم لا يصدق العبد في طلبه واجتهاده إذا أيقن بذلك والأمور كلها بيد الله تعالى؟ ومن ذلك سعيه وكدحه فلم لا يتوكل عليه في ذلك فيجتمع همه ويتيسر أمره؟ إذا علم بذلك فالقسم الأول: قيام بمقتضى الشريعة. والقسم الثاني: وفاء بحق الحقيقة **(وأنه لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه)** ذكر هذا المعنى تسلية للعبد عما يفوته في حال سلوكه من حظوظه وشهواته لأنه إذا علم أن هذه الأشياء لا بد أن تزال عنه أو يزال عنها ولو بعد حين وكل ما هو آتٍ قريب لم يغتبط بما يكون مآل أمره إلى ذلك ويكون طيب النفس بتركه وتهديم الدعائم وسلب الكرائم من الاستعارات البديعة. **(فالعاقل مَنْ كَانَ بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى قد أشرق نوره وظهرت تباشيره)** فرح العبد بالأشياء الفانية هو موجب للزيادة في همه وغمه إذا فقدها.

الصالحة التي تقربك من مولاك وتوصلك إلى معرفته، أي فلا تحتقر ذلك الشغل، بل كن قرير العين به، فإنه لا ينبغي الاشتغال إلا به **(والمشتغل عنه)** أي الذي ينبغي الاشتغال عنه، وعدم التوجه إليه **(هو المؤثر عليه)** أي هو حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة التي تركتها وآثرت عليها غيرها، وهو إقبالك على مولاك واشتغالك بخدمته، فينبغي لك أن تطيب نفسك بمنه، ولا تندم على مفارقته، لأنه لا ينبغي الاشتغال به فهذا الكلام القصد منه تهييج السالك، وإنهاض همته بمدح ما أقبل عليه، وذم ما أعرض عنه.

(وأن من أيقن أن الله يطلبه) للقيام بخدمته والإقبال على وظائف عبوديته **(صدق الطلب)** أي صدق في الطلب **(إليه)** أي توجه إليه بصدق، واجتهد في الإقبال على ما يرضيه أتم اجتهاد، لأن ثمرة ذلك الطالب عائدة عليه لا على المولى سبحانه، فلم لا يصدق في طلبه واجتهاده، ويترك حظوظ نفسه ومراداته إن كان من أهل العقل والمعرفة **(ومن علم أن الأمور بيد الله)** ومنها ما يحاوله من القيام بخدمة المولى **(انجمع)** قلبه عليه **(بالتوكل عليه)** أي توكل عليه في تيسير أمره وتسهيل ما يقربه إلى حضرته، فإن ذلك لا يكون إلا منه سبحانه، لأن الأمور كلها بيده وليس للعبد مدخل فيها، فالقسم الأول وهو قوله صدق الطلب إليه، قيام بمقتضى الشريعة، والثاني وهو كون الأمور بيد الله. وأنه ينبغي التوكل عليه قيام بحق الحقيقة فقوله عليه تنازع فيه كل من الفعل والمصدر **(وإنه)** بكسر الهمزة عطفاً على أن البدايات، وفتحها عطفاً على أن الأمور الخ. **(لا بد لبناء هذا الوجود)** أي لمبنى هو هذا الوجود **(أن تنهدم دعائمه)** أي أركانه فشبه الوجود بقصر له أركان وهي تخييل **(وأن تسلب كرائمه)** أي نفائسه وما يعز منه، والقصد بهذا تسليته عما يفوته في حال سلوكه من حظوظه وشهواته، لأنه إذا علم أن الدنيا لا تدوم لأحد، بل لا بد أن تزال عنه أو يزال عنها، ولو بعد حين، وكل ما هو آت قريب لم يغتبط بما يكون مآل أمره إلى ذلك ويكون طيب النفس بتركه **(فالعاقل من كان بما هو أبقى)** وهو الدار الآخرة **(أفرح منه)** أي أشد فرحاً من نفسه **(بما هو يفنى)** وهو الدنيا فإذا كانت الدنيا فانية والآخرة هي الدائمة الباقية، فلا ينبغي الفرح بالأولى لفنائها، ومن فرح بالفاني فنى فرحه، ولا عبرة بفرح يفنى ويزول، ومن فرح بالباقي دام فرحه وذلك هو الفرح المعتبر. وحاصله أن العاقل هو الزاهد، وأما الراغب في الدنيا فليس بعاقل، بل هو جاهل. وفي قوله أفرح إشعار بأن المطلوب كون الفرح بهذا أشد، لا أن الفرح بالآخر ينتفي بالكلية، لأنه أمر طبيعي ثم أشار إلى ثمرة التحقق في مقام الزهد بقوله: **(قد أشرق نوره)** أي أشرق نور زهد ذلك العاقل في قلبه **(وظهرت تباشيره)** على وجهه فإن النور إذا أشرق في

قال سيدي سهل بن عبد الله رضي الله عنه: مَنْ فرح بغير مفروح به استجلب حزناً لا انقضاء له. وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: ليقلّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه. فالعاقل لا يفرح بذلك ولا يحبه بل يكرهه ويبغضه وإنما يكون فرحه بالأمور الباقية التي لا تفنى. قد أشرق نور ذلك في قلبه وظهرت تباشيره على وجهه وإشراق النور وظهور التباشير نتائج تحققه في مقام الزهد. **(فصرف عن هذه الدار مغضياً وأعرض عنها مولياً فلم يتخذها وطناً ولا جعلها سكناً)** فلما كان العبد على هذا الوصف صرف عن هذه الدار الدنيوية أي مال عنها مغضياً جفنه عن أقذائها من غير مبالاة بذلك معرضاً عنها بوجه قلبه قد ولّاها دبره من غير التفات إليها وهذا مبالغة في نبذها وإطراحها فلم يتوطنها بظاهره على سبيل التمتع بها والاستبشار، ولم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها والإيثار، بل نزلها منزلة السجن والمضيق، ووطن نفسه فيها على تحمل ما يطيق وما لا يطيق، وهذه علامات على تحققه بالزهد في الأمور الفانية التي هي بغيضة له، فلما وصل إلى ذلك، حصل له من طهارة قلبه وصفاء لبه ما حمله على التعلق بمولاه الباقي الدائم فجعل دنياه معبراً يعبره إليه كما سيقوله المؤلف الآن **(بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى وسار فيها مستعيناً به في القدوم عليه)** هذا ابتداء سفره بقلبه إلى الحضرة العلية وبدأ بإنهاض الهمة إلى ربه والاستعانة به في القدوم عليه وهو أساس أمره كما تقدم. قال الشاعر:

إذا لَـمْ يَـعِـنْـكَ الـلّـهُ فِـيـمَـا تُـرِيـدُهُ ... فَـلَـيْـسَ لِـمَـخْـلـوقٍ إِلَـيْـهِ سَـبِـيـلُ
وإنْ هُـوَ لَـمْ يُـرْشِـدْكَ فِـي مَـسْـلَـكٍ ... ضَـلَـلْـتَ وَلَـوْ أَنَّ الـسَّـمـاكَ دَلِـيـلُ

قال أبو محمد الجريري رضي الله عنه: من توهم أن عملاً من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضلّ عن طريقه لأن النبي ﷺ قال: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ» فما لا ينجي من المخوف كيف يوصل إلى المأمول ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذي يرجى له الوصول **(فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائماً تسيارها إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة فصارت**

القلب ظهر على الجوارح، وكان ذلك مبشراً له بالقبول **(فصرف)** أي فبسبب ذلك النور الذي أشرق في قلبه، وتبين له به ما هو حق صرف أي أعرض **(عن هذه الدار مغضياً)** أي غير ملتفت إليها بقلبه، وأتى بذلك لأن الإعراض قد يكون معه التفات وقوله: **(وأعرض عنها مولياً)** تفسير لما قبله **(فلم يتخذها وطناً)** أي لم يستوطنها بظاهره على جهة التمتع والتلذذ **(ولا جعلها سكناً)** أي لم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها، ويحتمل أن يجعل الوطن والسكن بمعنى واحد.

(بل أنهض الهمة فيها إلى الله) أي أسرع وحرك الهمة إلى الوصول إليه **(وسار فيها)** أي في الدنيا **(مستعيناً به)** أي بالله لا بأعماله المدخولة **(في القدوم عليه)** أي الإقبال عليه والوصول إلى حضرته. قال بعضهم: من توهم أن عملاً من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى، فقد ضل عن طريقه، لأن النبي ﷺ قال: لن ينجي أحداً منكم عمله، فما لا ينجي من المخوف كيف يوصل إلى المأمول؟ ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذي يرجى له الوصول اهـ. **(فما زالت مطية عزمه)** أي عزمه الشبيه بالمطية **(لا يقر قرارها)** لعدم ما يعوقها وهو التعلق بغير الله سبحانه من الدنيا، وكل ما يعوق السالك عن الوصول من الكرامات والمكاشفات والأحوال والمقامات، فإن ذلك يوقف مطيته عن السلوك والقرار موضع الاستقرار، ومعنى كون قرارها، لا يقر أنها إذا نزلت في موضع ترتحل عنه ولا تجعله وطناً، فلا يسكن قلبه إلى شيء من ذلك، كما هو مقتضى التحقق في مقام الزهد وقوله: **(دائماً تسيارها)** أي سيرها كالتفسير لما قبله **(إلى أن أناخت)** أي حصلت واستقرت **(بحضرة القدس)** أي التنزيه، وهي حضرة الرب سبحانه **(وبساط الأنس)** أي البساط الذي كل من جلس عليه حصل له الأنس، وهو تلك الحضرة فشبهها بحضرة ملك عظيم يستريح الوفود إذا وصلوا إليه، وجلسوا على بساطه ثم بين صفات تلك الحضرة بقوله: **(محل المفاتحة)** أي الفتح عن القلوب **(والمواجهة)** أي الإقبال من الله سبحانه **(والمجالسة)** بأن يصير الله سبحانه حاضراً معه **(والمحادثة)** بأن يكلمه في سره بالمعارف والأسرار **(والمشاهدة)** بأن يشاهده بباطنه بعد غيبته عن حسه **(والمطالعة)** أي بأن يتمكن من المشاهدة، ويطلع على علوم الغيب فإن الشخص إذا دخل إلى حضرة ملك عظيم من ملوك الدنيا يحصل له أولاً المفاتحة بأن يفاتح ذلك الملك بالسلام، ويفاتحه بالرد ثم المواجهة بأن يقبل عليه بوجهه، فقد يكون حال السلام معرضاً عنه ثم المجالسة بأن يجلسه بين يديه، ثم المحادثة أي التكلم معه، لأن ذلك ثمرة المجالسة ثم المشاهدة، وذلك أن الملك قد يكون صاحب جلال، فلا يلزم من الجلوس بين يديه والمحادثة معه مشاهدته، بل يطرق جليسه رأسه من هيبته، ثم المطالعة التي هي تمكن المشاهدة أو يراد بالمشاهدة مشاهدة الأحوال الظاهرة، وبالمطالعة

الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون) هذه استعارات مليحة استعملها في سفر القلب إلى حضرة الرب وقد تقدم معنى ذلك عند قوله: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين وحضرة القدس وبساط الأنس هما موضع محط الرحال وبلوغ الأوطار والآمال من قبل أن السالك تمحى عنه رسوم بشريته وتبطل أحكام أنيته وتنكشف له إذ ذاك أوصاف معروفة كرأي العين ويكون سره مع الله تعالى بلا أين فلما وصل إلى هذه الحضرة العلية ونال هذه المنقبة السنية قُوبِلَ بأنواعِ من الكرامات والألطاف وفنون من تحف السادات والأشراف وهي معاني هذه الألطاف الستة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، ولا تعرف إلا بالذوق وكذلك التفرقة بين معانيها فحينئذ ألقى السائرون عصا سيرهم وحمدوا عاقبة أمرهم وصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم في ذهابهم وإيابهم إلى ظلها يأوون إذا صلى غيرهم بنيران هواه وفي دار المقامة يسكنون حين يزعج سواهم عن متعة دنياه وهاهنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو وهذا هو انتهاء سفرهم بمعنى الصعود والترقي.

(فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ولا إلى الحظوظ بالشهوات والمتعة، بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله) هذا هو سفر التدلي والنزول وبه يتحققون بمقام البقاء والصحو. فإذا نزلوا من سدرة منتهاهم إلى سماء الحقوق، وهي حقوق الله عليهم مما أمرهم به أو نهاهم عنه ليقوموا بذلك فعلاً أو تركاً، أو إلى أرض الحظوظ، وهي حظوظ نفوسهم التي تلابسهم ويحصل لهم الارتفاق بها، فإنما يكون نزولهم إلى ذلك بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين. ومعنى ذلك: أن يدخلوا في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد أنفسهم ويجدون الإذن من الله تعالى لهم بما يشرق في قلوبهم من النور الذي يجعله الله علماً على ذلك وقد ذكره سيدي أبو الحسن في بعض كلامه قال رضي الله عنه: ومعنى الإذن للولي نور ينبسط على القلب يخلقه الله فيه وعليه فيمتد ذلك النور على الشيء الذي يريده فيدركه نور مع نور أو ظلمة

مشاهدة الأحوال الباطنة، فإنه لا يعرف حال الملك باطناً إلا بعد شدة التأمل، فهذا حال من وصل إلى حضرة ملك من ملوك الدنيا، وكذلك السالك إذا وصل إلى حضرة المولى سبحانه، فإنه يقابله بأنواع من الفتوحات والكرامات والتحف السنية، والعلوم والمعارف الربانية التي لا يعرف تفاصيلها إلا من وصل هناك، وذاق مذاق أهل القرب والتمكين جعلنا الله وإياكم منهم بمنه وكرمه آمين **(فصارت الحضرة)** أي حضرة الرب سبحانه **(معشش قلوبهم)** أي الموضع الذي تسكن فيه قلوبهم كعش الطير **(إليها يأوون)** وقوله: **(وفيها يسكنون)** كالتفسير لما قبله، أي فصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم في ذهابهم وإيابهم وها هنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو، وهذا مقام الجمع هذا هو انتهاء سفرهم وصعودهم، ثم بعد يتحققون بمقام ذلك الفرق، ويؤمرون بمخاطبة الخلق، وهو المراد بقولهم البقاء، وهو مقام.

(فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق) أي الحقوق الواجبة عليهم عند مخالطة الخلق الشبيهة بالسماء بجامع صعوبة الارتقاء إلى كل **(أو أرض الحظوظ)** أي حظوظ أنفسهم التي تلابسهم، ويحصل لهم الارتفاق بها الشبيهة بالأرض بجامع سهولة الاستقرار على كل **(فبالإذن والتمكين)** أي لا بشهوتهم ومرادهم، وإلا فلو خيروا بين مقامهم في تلك الحضرة، والخروج منها إلى مخالطة الخلق لم يختاروا إلا بقاءهم فيها، ولذا لما أمر الله أبا يزيد بالخروج إلى إرشاد الناس صاح صيحة عظيمة فقال الله تعالى لملائكته: «ردوا عليّ عبدي فإنه لا طاقة له على مفارقتي» قال بعضهم: وكان في ذلك الوقت لم يحصل له قوة ورسوخ في مقام الفرق، ثم بعد ذلك قواه وأخرجه. ولذا قال المصنف: فبالإذن والتمكين إذ لا يلزم من مجرد الإذن التمكين، أي التمكن في مقام البقاء بأن يحصل لهم القوة على مخالطة الخلق وتحمل أذاهم **(والرسوخ في اليقين)** أي وبعد رسوخهم في اليقين بالله ومعرفتهم به معرفة ذوقية **(فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة)** أي فلم يخالطوا الخلق إلا مع التأدب التام، لأنهم يرون الله فيهم ومع التيقظ وعدم الغفلة عن موجدهم، فإذا أذاهم شخص تحملوه لله الذي أوجده، ورأوا أن الذي سلطه عليهم هو مولاهم لذنب فعلوه لا يليق بمقامهم، وإذا أكرمهم شخص شكروه مع رؤيتهم أن الذي حرك قلبه للإكرام هو مولاهم، فهذه وشبهها هي الحقوق الواجبة عليهم عند النزول ومخالطة الخلق **(ولا إلى)** أي ولم ينزلوا إلى **(الحظوظ)** ويتعاطوها **(بالشهوة والمتعة)** بضم الميم، أي على سبيل شهوة نفوسهم لها وتمتعهم بها **(بل دخلوا في ذلك كله)** من الحقوق والحظوظ **(بالله)** أي مستعينين به **(ولله)** أي لا لحظ أنفسهم **(ومن الله)** أي من عنده لا من عند أنفسهم **(وإلى الله)** أي متوسلين إليه في نيل مرادهم، ثم السفر الأول وهو السير إلى حضرة المولى. يقال له سفر الترقي.

تحت ذلك النور ينبئك أن تأخذ إن شئت، أو تترك، أو تختار، أو تدبر، أو تعطي، أو تمنع، أو تقوم، أو تجلس، أو تسافر، أو تقيم. هذا باب المباح المأذون فيه بالتخير فإذا قرنه القول تأكد الفعل المباح بمراد الله تعالى فإن قارنته نية صحيحة لفعل زال عنه حكم المباح وصار مندوباً، وإن ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب فلا يخلو أن يلوح عليه لائح الغضب بانقباض القلب فاحذر ذلك وتجنبه فإنه المحظور أو يكاد ولا تقطع ذلك إلا ببينة من كتاب الله تعالى أو سنة أو إجماع أو خلاف لمقلد قلدته كمالك والشافعي أو غيرهما من العلماء الراسخين فاحكم إذاً على أصل صحيح وإن تكن الظلمة شبه غيم لا يتصدع معه القلب ولا يتفزع به الذهن فتباعد عنه فإنه يكاد أن يكون مكروهاً ولا تحكم بعقلك ورأيك فقد ضل من هاهنا خلق كثير ولا تفت أحداً، وإن استفتاك وأعْطِ الورع حقه ولا تقفُ ما ليس لك به علم فإن تأدبت هاهنا فعن قريب تأتيك البينة من ربك والشاهد يتلوها منه اهـ كلام سيدي أبي الحسن وهو مناسب لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، إلا أن ما فيه من التفصيل لم يتعرض له المؤلف بل بقي الأمر في ذلك مجملاً كما تراه، وتقديره: فإذا نزلوا إلى الحقوق واستعملوا فيها لم ينزلوا إليها بسوء أدب ولا غفلة وهو أن لا يشهدوا قيامهم بها من أنفسهم أو يطلبوا ثواباً عليها من ربهم وإن نزلوا إلى الحظوظ لم ينزلوا إليها بشهوة غالبة قاهرة لهم ولا منفعة يقصدون إلى نيلها في دنياهم بل دخلوا في ذلك بالله مستعينين ولله عابدين ومن الله آخذين وإلى الله متوسلين قد تولى الله تعالى إدخالهم في الأشياء وإخراجهم منها وأوجدهم ذلك وعزل عنهم ملكية نفوسهم لهم وصاروا أحراراً كراماً **(وقل ربِّ أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مخرج صدق ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني)** المدخل والمخرج الإدخال والإخراج وقد عبر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين. فالمدخل هو سفر الترقي لأنه دخول على الله عزّ وجلّ في حالة فنائه عن رؤية غيره، والمخرج، هو سفر التدلي لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتي الإرشاد والهداية في حال بقائه بربه. وتحققه في هذين المقامين، أعني مقام الفناء والبقاء، هو معنى صدقية مدخله ومخرجه وإنما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية نفسه في النسبة والوقوف مع الحظ ففي المدخل، يشاهد حول الله تعالى وقوته فينتفي عنه بذلك النسبة إلى نفسه، وفي المخرج يستسلم لربه وينقاد إليه فينتفي عنه بذلك مراعاة حظه **(واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ينصرني وينصر بي ولا ينصر عليّ ينصرني على شهود نفسي ويفنيني عن دائرة حسي)** طلب من الله تعالى النصرة له ليستقيم أمره وطلب منه النصرة به ليكمل حاله فالنصرة له هي ملاك أرباب البدايات من السالكين إذ بذلك يتيسر عليهم قطع عقبات النفس ومحو

والثاني وهو النزول منها إلى مخالطة الخلق. يقال له: سفر التدلي، وإلى ذلك أشار المصنف بقوله: **(وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق)** المدخل والمخرج في الأصل بمعنى الإدخال والإخراج، وقد عبر بهما هنا عن السفرين المذكورين، فالمدخل هو سفر الترقي، لأنه دخول على الله عزّ وجلّ في حالة فنائه عن رؤية غيره، والمخرج هو سفر التدلي، لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتي الإرشاد والهداية في حال بقائه بربه، وتحققه في هذين المقامين أعني مقام الفناء والبقاء، هو معنى صدقية مدخله ومخرجه، فالمدخل الصدق أن يشاهد حول الله وقوته في سفر الترقي، فتنتفي عنه بذلك نسبة الأعمال إلى نفسه. والمخرج الصدق أن يستسلم لربه وينقاد إليه في سفر التدلي فيرضى بما نقله إليه، ولا تتشوف نفسه إلى البقاء مع ما نقله عنه ولذا قال: **(ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني)** أي ليحصل ذهابي عن رؤية نفسي في النسبة والوقوف مع الحظ، ففي المدخل أشاهد حولك، وقوتك فتنتفي عني بذلك النسبة إلى نفسي، وفي المخرج أستسلم إليك، فينتفي عني بذلك مراعاة حظي **(واجعل لي من لدنك)** أي من عندك بلا واسطة ولا علة من نفسي **(سلطاناً)** أي حجة قاهرة **(نصيراً)** أي مقوياً ومعيناً وهو مدد إلٰهي يأتي من حضرة الحق سبحانه، فلا يصادمه شيء إلا دمغه وذهب به **(ينصرني)** على نفسي **(وينصرني)** أحبابي ومن تعلق بأذيالي من الإخوان والرفقاء **(ولا ينصر على)** نفسي ولا أحداً من أعدائي الباطنة، والظاهرة ثم فسر النصرة المطلوبة في حق نفسه بقوله: **(ينصرني على شهود نفسي)** بأن لا أشد لها فعلاً ولا حركة ولا سكوناً، بل أشاهد أن المحرك المسكن هو أنت **(ويفنيني عن دائرة حسي)** أي عما يدور به حسي ويدركه، وهو المكونات فلا أتعلق بها، ولا أشاهد منها نفعاً ولا ضراً، بل أشاهد أن النافع الضار هو أنت، وهؤلاء الذين نصرهم الله تعالى، ونصر بهم، ولم ينصر عليهم هم الضنائن الذين إذا أظهر واحد منهم في عصر حصل به النفع التام لأهله، وأمدهم الله بسببه وهم لا يشعرون.

دواعي الهوى والحس والنصرة به هي مقتضى حال أرباب النهايات من المجتهدين لأن بذلك يحصل لهم مرتبة الإمامة ومقام الإرشاد والهداية وكل واحد من القسمين نصرة على شهود النفس وفناء عن دائرة الحس وأخرج النصرة عليه من السؤال والطلب، لأن ذلك من الخذلان وعدم التوفيق وهو غلبة أحكام نفسه وبقاؤه مع دائرة حسه.

وقال رضي الله تعالى عنه مما كتب به لبعض إخوانه. **(إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد في منته فالشريعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته)** إذا أوصل الحق تعالى إليكَ نعمة على يد إنسان، سواء كانت دينية أو دنيوية، فعليك في ذلك وظيفتان: إحداهما: أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك فلا ترين النعمة إلاّ منه وحده وترى مَنْ سواه ممن أجراها على يديه مقهوراً مجبوراً على ذلك مسلطاً عليه الدواعي والبواعث حتى لم يجد انفكاكاً عنه وهذا هو حق التوحيد. والثانية: أن تشكر مَنْ وصلت إليك على يده بأن تدعو له وتثني عليه امتثالاً لأمر الله تعالى وعملاً بما جاءت به الشريعة. قال الله تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ [لقمان: ١٤] وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ». وفي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشْكَرُ النَّاسِ للهِ أَشْكَرُهُمْ للنَّاسِ» ولأن الله تعالى اختصه بأن أقامه في ذلك وأهله له ومن أسمائه تعالى الشكور فليتخلق العبد بذلك وهذا هو حق الشرع **(وأن الناس في ذلك على ثلاثة أقسام غافل منهمك في غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين إما اعتقاداً فشركه جلي وإما استناداً فشركه خفي)** هذا هو بيان أحوال الناس بالنسبة إلى مشاهدة التوحيد ورؤية الوسائط والعبيد فبدأ بذكر عامة الناس وهم الغافلون المنهمكون في غفلتهم أصحاب الظواهر والرسوم الذي قويت دائرة حسهم فقيدتهم ووقفوا معها وانطمست حضرة قدسهم فأبعدتهم ولم يحلوا بها فنظروا الإحسان من المخلوقين فتعبدوا لهم وطمعوا فيهم ولم يشهدوه من رب العالمين فكفروا نعمته واستوجبوا سخطه ونقمته ثم هم في ذلك على قسمين: أحدهما أن يعتقدوا ذلك بقلوبهم أنه منهم ومن قبلهم. وهذا هو الشرك الجلي الذي يخرج صاحبه عن دائرة الإسلام ويوقعه في الكفر والعياذ بالله، والثاني أن يحصل ذلك منهم استناداً أي اعتماداً على غير الله وسكوناً إلى سواه مع سلامة عقدهم وصدورهم وهذا هو الشرك الخفي الذي يخرج صاحبه من حقائق الإيمان ويدخله في أبواب النفاق ونعوذ بالله من الشرك جليّه وخفيّه **(وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب فهو عبد مواجَهٌ بالحقيقة ظاهرٌ عليه سناها سالكٌ**

ومما كتب به إلى بعض الإخوان أيضاً **(إن كانت عين القلب)** وهي البصيرة المشابهة للعين الباصرة **(تنظر إلى أن الله واحد في منته)** أي نعمته أي هو المعطي لها وحده **(فالشريعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته)** فإذا أوصل الحق إليك نعمة على يد إنسان سواء كانت دينية كالعلوم والمعارف، أو دنيوية، فعليك في ذلك مراعاة الحقيقة بأن ترى أن تلك النعمة من الله وحده، وأن من أجراها على يديه مقهور مجبور على إيصالها إليك، فتحمد الله سبحانه على ذلك، ومراعاة الشريعة بأن تشكر من وصلت إليك على يده فتدعو له، وتثني عليه امتثالاً لأمر الله، وعملاً بما جاءت به الشريعة، ففي الحديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله، ولأن الله اختصه بأن أقامه في ذلك وأهله له.

(وأن) أي وأخبرك أن **(الناس في ذلك)** أي في حال ورود النعمة عليهم على يد أحد **(على ثلاثة أقسام غافل)** عن الله **(منهمك في غفلته)** أي متناه فيها **(قويت دائرة حسه)** يعني أن ملحظه ومنظره المكونات فقط مع الغفلة عن الرب **(وانطمست حضرة قدسه)** أي حضرة التنزيه والمراد بها بصيرته التي هي منبع تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به **(فنظر الإحسان)** صادراً **(من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين أما اعتقاداً)** بأن يعتقد أن المؤثر والمعطي هو العبد حقيقة **(فشركه جلي)** يخرجه عن دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر **(وأما استناداً)** بأن يعتقد أن المعطي هو الله تعالى، ولكن أسند ذلك إلى المخلوقات على جهة كونها أسباباً مؤثرة، ولولاهم لم يحصل الإعطاء فإذا قيل له: من الذي أعطاك مثلاً؟ قال: الله. ولكن لولا فلان الذي جاء من قبله لم يحصل إعطاء إذ لولا الأسباب ما كانت المسببات **(فشركه خفي)** لأنه أشرك مع الله غيره، وهو المخلوق ولم يغب عن الله تعالى فهو مؤمن، لكن يخشى عليه الكفر والعياذ بالله تعالى **(وصاحب حقيقة غاب)** عن الخلق بشهود الملك **(الحق)** فلم يشعر بهم ولم يلتفت إليهم **(وفنى عن الأسباب)** وهم المخلوقات فلم ير لهم فعلاً **(بشهود مسبب الأسباب)** وهو الله تعالى **(فهو عبد مواجه بالحقيقة)** هي حضرة الرب سبحانه لشهوده لها **(ظاهر عليه سناها)**

للطريقة قد استولى على مداها غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكره على صحوه وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره) هذا هو حال الخاصة من أرباب الحقائق، وهم الذين غابوا عن الخلق بشهود الملك الحق فلم يقع لهم شعور بهم ولا التفات إليهم، وفنوا عن الأسباب برؤية مسبب الأسباب، فلم يروا لها فعلاً ولا جعلاً فهم مواجهون بحقيقة الحق ظاهر عليهم. سناها أي نورها وضياؤها. سالكون طريقة الحق قد استولوا على مداها: أي وصلوا إلى غايتها ومنتهاها إلا أنهم غرقوا في بحار أنوار التوحيد مطموس عليهم آثار الوسائط. والعبيد أي: مغلق عليهم رؤية ذلك والشعور به قد غلب سكرهم وهو عدم إحساسهم بالأغيار على صحوهم وهو وجود إحساسهم بها وجمعهم، وهو ثبوت وجود الحق فرداً على فرقهم وهو ثبوت وجود الخلق وفناؤهم. وهو استهلاكهم في شهود الحق على بقائهم وهو شعورهم بالخلق وغيبتهم وهو ذهاب أحوال الخلق عن نظرهم على حضورهم مع الخلق. ومعاني هذه الألفاظ كما تراه، متقاربة، وهي ألفاظ تداولها الصوفية المحققون بينهم وعبروا بها في كتبهم ووضعوها على معانٍ اختصوا بفهمها ليتعرف بعضهم من بعض ما يتخاطبون به ولهم ألفاظ كثيرة غيرها وكأن المؤلف رحمه الله تعالى، أراد أن لا يخلو كتابه عن ذكر شيء منها **(وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً وغاب فازداد حضوراً فلا جمعه يحجبه عن فرقة ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه يعطي كل ذي قسطٍ قسطه ويوفي كل ذي حق حقه)** هذا هو حال خاصة الخاصة الذين حازوا رتب الأكملية وهم قوم شربوا كؤوس التوحيد فازداد صحوهم وغابوا عن الأغيار فازداد حضورهم وقد ملكوا الأحوال وتمكنوا في مقامات الرجال فلم يغلبهم محو عن طي ولم يحجبهم شيء عن شيء بل وفوا حقوق جميع المراتب وأعطوها ما لها من قسط واجب وذلك لاتساع نظرهم ونفوذ بصرهم وهذه هي صفة الصدّيق رضي الله تعالى عنه، في القصة التي يذكرها الآن. **(وقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه لعائشة رضي الله عنها، لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ: «يا عائشة اشكري رسول الله ﷺ». فقالت: والله لا أشكر إلا الله. دلها أبو بكر رضي الله تعالى عنه علي المقام الأكمل مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار وقد قال الله تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ وقال ﷺ: «لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرِ النَّاسَ» وكانت هي في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا**

أي نورها وضياؤها **(سالك للطريقة)** أي طريقة القوم وسلوكه لها باعتبار الأصل، وإلا فمواجهته بالحقيقة لا تكون إلا بعد سلوكه لها ولذا قال: **(قد استولى على مداها)** أي غايتها ونهايتها، ثم هذا المستغرق في الحقيقة على الوجه المذكور، وإن كان كاملاً بالنسبة لأهل الغفلة، فهو ناقص بالنسبة لأكمل منه من أهل المعرفة ولذا قال: **(غير أنه غريق الأنوار)** أي غريق في بحار التوحيد **(مطموس الآثار)** أي مطموسة بصيرته عن رؤية الآثار والوسائط والعبيد، أي غائب عن رؤية ذلك والشعور به **(قد غلب سكره)** وهو عدم إحساسه بالآثار **(على صحوه)** وهو وجود إحساسه بها **(وجمعه)** وهو رؤية الحق وحده **(على فرقه)** وهو رؤية الخلق مع الحق، فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق **(وفناؤه)** وهو استهلاكه في وجود الحق **(على بقائه)** وهو شعوره بالخلق فهو في مقام الفناء الذي هو مقام الجمع لا البقاء الذي هو مقام الفرق وقوله: **(وغيبته على حضوره)** كالتفسير لما قبله **(وأكمل منه عبد)** جمع بين الأمرين كالنبي ﷺ وكامل ورثته، وسبب ذلك أنه **(شرب)** من المدد الإلهي ومن كؤوس التوحيد **(فازداد صحواً)** بعد سكره **(وغاب)** عن رؤية الأغيار.

(فازداد حضوراً فلا جمعه) وهو رؤية الحق **(يحجبه عن فرقه)** وهو رؤية الخلق **(ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه يعطي كل ذي قسط قسطه)** فيشكر الحق والخلق، ولا يغيب عن الرب في حال مخالطة الخلق وقوله: **(ويوفي كل ذي حق حقه)** بمعنى ما قبله، وهؤلاء هم خاصة الخلق الذين حازوا رتبة الأكملية، وتمكنوا في المقامات، وملكوا أحوالهم، ومنهم أبو بكر رضي الله عنه ولذا قال المصنف: **(وقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك)** أي الكذب **(على لسان رسول الله ﷺ)** أي في القرآن العظيم **(يا عائشة اشكري رسول الله ﷺ)** لأن براءتك سببها رسول الله ﷺ، ولم تحصل إلا ببركته فيستحق الشكر منك **(فقالت والله لا أشكر إلا الله)** لأنها في ذلك الوقت غائبة عن إحساسها منغمسة في الأنوار لم تر غير الله **(دلها أبو بكر رضي الله عنه على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار)** أي النظر للخلق، ومن جملتهم رسول الله ﷺ ومقتضى النظر إليهم شكرهم، ثم استدل على أنه ينبغي شكرهم بقوله: وقد قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقال ﷺ: «لا يشكر الله» بالنصب وفاعل الشكر هو العبد والرفع، أي لا يثيب الله **(من لا يشكر الناس)** ولا يرضى له

الواحد القهار) هذا مثال هذين القسمين وقد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى، الكلام فيه. والمعنى في ذلك بيّن لا حاجة بنا إلى مزيد تنبيه إلا قوله: وكانت هي في ذلك الوقت مصطلمة أي: منقطعة عن شاهدها وهو حكم بشريتها مستوفاة عن إحساسها بالكلية. والاصطلام: نعت الحيرة ومحل القهر وصفة الدهشة. وفي قوله: وكانت هي في ذلك الوقت إشعار بأن ذلك لم يكن حالاً لازماً لها في جميع أوقاتها بل كان ذلك في وقت مخصوص وواقعة مخصوصة وذلك صحيح إذ حالها رضي الله عنها، هو حال الكمال في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته كنحو حال أبيها رضي الله عنهما، وذلك معلوم ومن أخبارها وسيرها رضي الله تعالى عنها.

وقال رضي الله عنه لما سئل عن قوله صلوات الله عليه وسلامه: وجعلت قرة عيني في الصلاة هل ذلك خاص به أم لغيره منه شرب ونصيب فأجاب. (**إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود فالرسول صلوات الله عليه وسلامه، ليس معرفة غيره كمعرفته فليس قرة عين كقرته وإنما قلنا إن قرة عينه في صلاته بشهوده جلالٌ مشهوده لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة ولم يقل بالصلاة إذ هو صلوات الله عليه وسلامه، لا تقر عينه بغير ربه وكيف وهو يدل على هذا المقام ويأمر به من سواه بقوله صلوات الله عليه وسلامه: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ». ومُحَالٌ أن يراه ويشهد معه سواه. فإن قال قائل قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فَضْلٌ من الله وبارزة من عين منة الله فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾** [يونس: ٥٨] فاعلم أن الآية قد أومأت إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب إذ قال فبذلك فليفرحوا وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم فليفرحوا بالإحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال في الآية الأخرى ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ في

ذلك، فينبغي شكر الله، لأنه الذي حرك قلب العبد وشكر العبد لأنه واسطة، والضار هو الوقوف معه والغيبة عن الرب **(وكانت هي)** أي عائشة **(في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها)** أي مأخوذة عن إحساسها غائبة عن حكم بشريتها والاصطلام حالة تعتري العبد من تجلي الله عليه بصفة القهر، فتغيبه عن إحساسه **(غائبة عن الآثار)** وهم المخلوقات **(فلم تشهد إلا الواحد القهار)** وفي قوله: وكانت في ذلك الوقت إشارة إلى أن ذلك ليس حالاً لازماً لها في جميع أوقاتها، بل ترقت عنه إلى مقام الفرق، وهو رؤية الحق مع الخلق وقال رضي الله عنه لما سُئِلَ عن قوله ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ» قرة العين كناية عن غاية الفرح والسرور واللذة، فكأنه يقول وجعلت غاية فرحي وسروري ولذتي في الصلاة لمشاهدة الرب فيها، هل ذاك خاص به أم لغيره من أمته؟ منه شرب بكسر الشين. وقوله ونصيب تفسير له فأجاب **(إن)** بكسر الهمزة إن كانت من كلام المصنف وفتحها إن كانت من كلام غيره **(قرة العين)** أي غاية الفرح والسرور **(بالشهود)** أي شهود جلال الحق سبحانه وجماله **(على قدر المعرفة بالمشهود)** وهو الحق سبحانه **(فالرسول ﷺ ليس معرفة أحد)** هناك **(كمعرفته فليس قرة عين كقرته)** وحاصل الجواب أن قرة العين ليست خاصة به ﷺ، بل كما تكون لغيره لكن قرة عينه أعظم من قرة عين غيره، ومعلوم أن قرة العين لا تحصل إلا لمن ذهبت عنه الوساوس النفسانية والشيطانية، أما من كان مغموراً فيها، فقليل أن تحصل له قرة عين أو حضور قلب بين يدي الحق سبحانه وتعالى **(وإنما قلنا أن قرة عينه)** ﷺ **(في صلاته بشهوده جلال مشهوده)** وهو الحق **(لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة ولم يقل بالصلاة إذ هو صلى الله عليه وسلم لا تقر عينه بغير ربه)** ومن الغير الصلاة **(وكيف)** تقر عينه بغير ربه **(وهو)** أي والحال أنه **(يدل على هذا المقام)** وهي المرتبة الأولى من مراتب الإحسان **(ويأمر من سواه بقوله ﷺ اعبد الله كأنك تراه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه)** ومن السوى صلاة، فيغيب عن نفسه وحسه وعن أفعاله، ولا يراها صادرة منه، بل يرى الفاعل لها هو الله تعالى **(فإن قال قائل قد يكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين منة الله تعالى)** أي لا لعلة وجعلها بارزة من نفس المنة مبالغة، وإلا فهي بارزة من الله بمنته لا لعلة **(فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال الله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)** ففي ذلك إشارة إلى أنه لا مانع أن يفرح الإنسان بالصلاة، ويكون قرة عينه بها، فما المانع من كون فرحه ﷺ بها **(فاعلم)** مرتب على ما تقدم وهو قوله فإن قال قائل، وفي بعض النسخ حذف قوله فإن قال قائل، فيحتاج إلى تقديرها وترتب الجواب عليها كأنه قال: إن قيل ذلك فاعلم **(أن الآية قد أومأت)** أي أشارت إشارة خفية **(إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب)** وهو المعنى الذي يخفى على كثير من الناس إذ قال الله تعالى: ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ أي الأمة **(وما قال فبذلك فافرح يا محمد فليفرحوا بالإحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل)** وهو الله تعالى **(كما قال الله تعالى في الآية الأخرى قل الله)** معناه المطابقي قل الله أنزله، أي القرآن ومعناه الإشاري المرادي هنا قل

خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] الصلاة هي أجل ما يتحف الله تعالى به عباده ويهديه إليهم. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أُوتِيَ عَبْدٌ فِي الدُّنْيَا خَيْراً مِنْ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فِي رَكْعَتَيْنِ يُصَلِّيهِمَا». ففيها يحصل لهم الخلوة معه والانفراد بالمجالسة له والانقطاع إليه وفيها يرتفع عن قلوبهم الحجب والأستار ويتجلى فيها حقائق الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار وفيها تكون المناجاة والمصافات كما تقدم، وهي صلة بين العبد وبين ربه عزّ وجلّ.

قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله: الصلاة عماد الدين وأول شيء فرضه الله على المسلمين. وفي الصلاة إقبال الله على العبيد ليقبلوا إليه في صورة العبيد تذللاً وتسليماً وتبذلاً وتخضعاً وتخشعاً وترغيباً وتملقاً فالوقوف تذلل والتكبير تسليم والثناء والتلاوة تبذّل والركوع تخضّع والسجود تخشّع والجلوس ترغب والتشهد تملق فأقبل العبيد إلى الله بهذه الصورة ليقبل الله عليهم بالترحم والتعطف والتقبل والتكرم والتقرب فليس شيء من أمر الدين أعظم من هذه ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الصَّلاَةُ عِمَادُ الدِّينِ». وقال في حديث آخر: «الصَّلاَةُ نُورٌ». وقال: «لاَ يَزَالُ اللَّهُ مُقْبِلاً عَلَى العَبْدِ بِوَجْهِهِ مَا دَامَ فِي صَلاَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَيَنْصَبُ إلى أَحَدِكُمْ وَجْهَهُ مَا دَام مُقْبِلاً عَلَيْه» اهـ. ولأجل هذه الفوائد كانت الصلاة مفزع ذوي الفاقات والضرورات من أرباب القلوب فيغنيهم وجودها عن كل مرغوب ويتسلون بها عن كل محبوب. قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ الآية [طه: ١٣٢] فواجب إذاً أن تكون قرة أعين عباد الله فيها وبها وقرة العين عبارة عن الروح والراحة وكمال النعيم واللذة التي تحصل من غاية الموافقة والملاءمة إلا أنها تختلف باختلاف أحوال الناس في مراتبهم ومقاماتهم. فمن عظمت منزلته وعلت مرتبته كانت ملاءمته وموافقته في شهود التوحيد وكمال التجريد المشار إليه في قوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ». إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه كما قال المؤلف رحمه الله تعالى. وفيما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله لعروة بن الزبير رضي الله عنهما: إنا كنا نتراءى الله بين أعيننا وكان هذا لما خطب إليه عروة بن الزبير ابنته وهو في الطواف فلم يكلمه ابن عمر ولم يرجع إليه بشيء ثم اعتذر له بعد ذلك بهذا الكلام فصاحب هذه الحال تكون قرة عينه في الصلاة لا بها لما تضمنه من التجلي التام والشهود الحقيقي ومَنْ كانت منزلته دون ذلك كانت ملاءمته وموافقته في شهود النعم ووجود الفضل والكرم وكانت قرة عينه بها لا فيها لأنها فضل من الله وبارزة من منة الله كما قال المؤلف رحمه الله تعالى، فلا شك أن معنى قرة العين في الوجه الأول أحق وبه أنسب وأليق لأن صاحبه فانٍ عن نفسه باقٍ بربه ومَنْ كان على هذا الوصف فهو من المخلصين الذين لا سلطنة عليهم للعدو اللعين. ومن زالت سلطنته عنه في صلاته، لم يحتج إلى مدافعته ومراجعته وكانت صلاته ملزومة بالحضور والخضوع والدوام والخشوع. وعند فقدان العبد لحديث نفسه ووسوسة عدوه يحصل له غاية النعيم واللذة ويتحقق في حقه معنى قرة العين بخلاف الوجه الآخر فإن صاحبه لم يفن عن نفسه فضلاً عن أنْ يرتقي إلى درجة البقاء بربه فلم ينقطع عنه حديث النفس ولا وسواس العدو فيحتاج لا محالة، إلى مجاهدة ومدافعة، فيتشوش نعيمه وتتكدر لذته فيضعف معنى قرة العين في حقه.

قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: وقرة العين لا تكون لمجاهد ولا لمن يدفع الشيطان عنه بل هي لمن استراح من المجاهدة والدفع. ولما كانت منزلة نبينا محمد ﷺ عند ربه عزّ وجلّ أشرف المنازل، ومرتبته في المعرفة به أرفع الرتب بحيث لا يتصور أن يشاركه في ذلك غيره أو يحل به سواه، كانت قرة عينه في صلاته على حسب ذلك فمن قال إن ذلك خاص به لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقوله صحيح وعليه يدل ظاهر قوله ﷺ: «وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيني في الصَّلاةِ». بعد قوله: «إنَّما حُبِّبَ إليَّ مِنَ الدُّنْيَا الطِّيبُ والنِّسَاءُ». ولا شك أن حبه لهذين الأمرين ليس على قياس حب غيره لهما وإنما ذلك لوجود الخاصية التي اقتضت منه ذلك. ألا ترى أنه أبيح له ما لم يبح لغيره من عدد الحرائر وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب

الله، أي افرح به لا بغيره **(ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)** وهو فرحهم بغير الله سبحانه، ويؤخذ من ذلك أن قرة العين، قد تكون بنفس الصلاة للعلة السابقة، لكن ذلك لغيره ﷺ لا له فإن قرة عينه إنما تكون بمشاهدة محبوبه، وغيره يشاركه في ذلك على حسب مقامه كما مر.

اجتماع الضرائر؟ واستعماله ﷺ الطيب، وحبه له، إنما هو للقائه الملائكة التي تناجيه، وإلا فهو في ذاته غني عن الطيب واستعماله. كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما مست حريراً ولا خزاً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، فإذا كان حاله في هذين الأمرين على ما ذكرناه، مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ الحب وهما من لذات الدنيا فكيف يكون حاله في الأمر الثالث، مع أنه عبر فيه بقرّة العين وهي غاية المحبة وهو من أعمال الآخرة. وقيل: معنى قوله: من الدنيا أي في الدنيا. ومن قال إن لغيره منه شرباً ونصيباً على المعنى الذي يليق بهذا الغير فلقوله وجه وجواب المؤلف رحمه الله تعالى، محتمل لهذين الوجهين والله أعلم بما أراد منهما أو من غيرهما.

وقال المؤلف رضي الله عنه فيما كتب به لبعض إخوانه: (**الناس في ورود المنن على ثلاثة أقسام: فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾** [الأنعام: ٤٤] وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، وفرح بالله ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] تضمن هذا الفصل بيان ما يُحْمَد من أحوال الناس وما يُذَم عند ورود النعم عليهم وحصول الفرح إذ ذاك لهم وينبني عليه ما يكون من ذلك شكراً لها وما لا يكون وقد قسمهم المؤلف ثلاثة أقسام وجعلهم طرفين وواسطة قسم في غاية الدناءة والخسة وهم الذين فرحوا بالنعم من حيث إن فيها قضاء أوطار نفوسهم ونيل أغراضهم والتمتع بشهواتهم ولذاتهم فأحوال هؤلاء مذمومة جداً أشبه شيء بهم الأنعام والبهائم وهذه أحوال أهل الطّرد والبعد والاستدراج والمكر حسبما أشار إليه في الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله في هذا القسم. وهذه الأحوال بعيدة من الشكر منافية له وقسم في غاية الشرف والجلالة وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط ولم يلتفتوا إلى ظواهر النعم لأجل أن فيها متعتهم ولذتهم ولا إلى بواطنها من كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث منَّ بها عليهم فأحوال هؤلاء محمودة جداً لأنهم غابوا عن الأغيار العدمية وتحققوا بحقائق الوحدانية كما أشار إليه في الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله في هذا القسم، وحال هؤلاء هي الشكر الحقيقي الخالص الخالي من المزج والشوب لأن المشاهد للمنعم فان عن حظوظ نفسه فهو يرى الأشياء كلها نعماً فلا تفرقة عنده بين وجود ولا عدم ولا عطاء ولا منع ولا يخاف عليه من التغير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب ما يخاف على غيره لبقاء حظه.

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه (**الناس في**) حال (**ورود المنن**) أي النعم عليهم من الله تعالى (**على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها**) وهو الله (**ولكن**) فرحه (**بوجود متعته فيها**) أي بسبب تمتعه وقضاء وطره ونيل غرضه بها فهذا من الغافلين) شبيه بالبهائم الذين يأكلون ويشربون غافلين عن مولاهم يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا فَرِحُوا بما أَتَوْا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] يعنى أنه ربما كان توادر النعم استدراجاً من الله تعالى، كلما أعطى نعمة ازداد غفلة ولم يشكر المولى عليها حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر (**وفرح بالمنن**) أي النعم (**من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها**) وهو الله تعالى فيشكره سبحانه عليها، ولم يغب عنه لكن حاله ناقص من حيث إنه ملتفت إلى النعمة، وعنده فرح بها. وإن كان ذلك من حيث بروزها عن الحق (**يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾** [يونس: ٥٨] **وفرح بالله**) عزّ وجلّ (**ما شغله**) عنه (**من المنن ظاهر متعتها**) أي التمتع بها (**ولا باطن منتها**) أي لم يلتفتوا إلى ظاهر النعم من أجل أن فيها لذتهم، ولا إلى باطنها من حيث كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث من بها عليم كما هو حال القسمين الأولين، فإن القسم الأول التفت إلى ظاهر النعمة من أجل أن فيها لذتهم، وغابوا عن المنعم بها. والقسم الثاني التفت إلى باطنها من حيث بروزها عن الله عزّ وجلّ، وأن في حصولها لهم اعتناء منه تعالى بهم (**بل شغله النظر إلى الله تعالى**) (**عما سواه والجمع عليه**) أي جمعية قلبه عليه (**فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾** [الأنعام: ٩١] (**وقد**

قال أبو محمد الجريري رضي الله عنه: مَنْ رأى النعم ولم يرَ المنعم فقد حجب عن الشكر ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكر. وقال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: كل مَنْ لم يشاهد المنعم في النعمة كانت النعمة في حقه استدراجاً لأنه يؤديه إلى أن يسكن إليها. فإذا نزعت منه لزمه أن يتغير عليها. ومنهم من حصل له نصيب من الشرف والجلالة وحظ من الدناءة والرذالة وهم الذين فرحوا بالنعم لكونها منة من الله تعالى عليهم فمن حيث شهودهم للمنة من ربهم شرفوا وجلت أقدارهم وكانت أحوالهم محمودة وهي شكر منهم لائق بهم ومن حيث نظرهم لأنفسهم وبقاؤهم مع حظوظهم كان لهم نصيب من الدناءة والخسة فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الأعلين وارتقوا بالوصف الأول عن أحوال الأدنين فخوطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين وأوساطهم في الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله في هذا القسم. وقد ضرب الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه، في كتاب **(الشكر)** لهذه الأقسام الثلاثة مثلاً فقال: الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه: أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به، وإنه مركوب يوافق غرضه، وإنه جواد نفيس، وهذا فرح من لا حظ له في الملك بل غرضه في الفرس فقط ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه به مثل هذا الفرح. الوجه الثاني: أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من جهة ما يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه له غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائه عن الفرس أصلاً ولاستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك. الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه فيخرج به في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته مرتبة القرب منه ويرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك محل من يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء؟ من ماله على أحد إلا بواسطته ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة نفسها، بل مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خُيِّرَ بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب. فهذه ثلاث درجات فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أَصلاً لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي وهذه حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر. والثاني: داخل في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل وهذه حال الصالحين الذين يعبدون الله تعالى ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه وإنما الشكر التام في الفرح. الثالث: وهو أن يكون فرح العبد بنعم الله عزّ وجلّ، من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذه هي المرتبة العليا وأماراته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة، كما لم يرد صاحب الفرس، لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه. ولذلك قال الشبلي رضي الله عنه: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. ولذلك قال الخواص رضي الله عنه: شكر العامة على المطعم والملبس وشكر الخاصة على واردات القلوب. وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة، إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرّة كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلالا

فإذن هو شرط الفرح بنعمة الله عزّ وجلّ فإن لم تكن له إبل فمعز، وإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية. أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكم فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله عزّ وجلّ لينعم عليه وبين من يريد نعم الله تعالى ليصل بها إليه اهـ. كلام الإمام أبي حامد الغزالي وهو في غاية البيان والوضوح وهو كالتفسير لما ذكره المؤلف رحمه الله، ولذلك أوردته هاهنا بكماله.

(وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قُلْ للصديقين بي فليفرحوا وبذكري فليتنعموا) بهذا

أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قل للصديقين) أي كثيري الصدق في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم

تحققت صديقتهم وعلا ارتفاع رتبتهم على من دونهم. قيل: إن عتبة الغلام دخل في بعض الأيام على رابعة العدوية رضي الله عنها، وعليه قميصٌ جديد وهو يتبختر في مشيته بخلاف ما سبق من عادته فقالت له: يا عتبة ما هذا التيه والعجبَ الذي لم أره في شمائلك قبلَ اليوم؟ فقال: يا رابعة ومَنْ أولى بهذا التيه مني وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً؟ وقال بعضهم: كنت مسافراً إلى مكة فبينما أنا أمشي إذ رأيت شيخاً بيده مصحف وهو ينظر فيه ويرقص فتقدمت إليه فقلت: يا شيخ ما هذا الرقص؟ قال: دعني عنك. قلت في نفسي: عبد من أنا وكلام من أتلو وبيت من أنا قاصد فاستغرقني الوجد فرقصت وأنشد في هذا المعنى:

قَـوْمٌ تَـخَـلَّـلَـهُـمْ زَهْـوٌ بِـسَـيِّـدِهِـمْ   وَالعَبْدُ يَزْهُـو عَلَـى مِقْدَارِ مَوْلَاهُ
تَـاهُـوا بِـرُؤْيَـتِـهِ عَـمَّـا سِـوَاهُ لَـهُ   يَا حُسْنَ رؤْيَتِهِمْ في حُسْنِ مَا تَاهُوا

ويجوز أن يكون المراد بقوله وبذكري فليتنعموا، أي بذكري إياهم في الأزل، حيث لا وجود لهم وإلا، فإن الذكر المنسوب إليهم محل الآفات والعلل وهم أجلُّ رتبةً من أن يكون نعيمهم بشيء ملتبس بهم. **(والله تعالى يجعل فرحنا وإياكم به وبالرضا منه وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه وأن لا يجعلنا من الغافلين وأن يسلك بنا مسالك المتقين بمنّه وكرمه)** هذا دعاء حسن موافق لمعنى ما تقدم وهو بيِّنٌ لا يحتاج إلى تبيين ولا تنبيه عليه فالله تعالى يحقق لنا ذلك، بفضله وإحسانه، أنه أرحم الراحمين. وقال رضي الله عنه: **(إلٰهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري إلٰهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي)** العبد موصوف بصفاتِ النقص وهي ذاتية له والكمال العارض له والمنسوب إليه نقصان على التحقيق، ومَنْ ثم كان ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، من كونه فقيراً في غناه وجاهلاً في علمه صحيحاً مستقيماً. وكأنه قصد رضي الله عنه، بهذا الاعتراف بدوام الاضطرار، ولزوم الفاقة والافتقار، وأنه لا استغناء له عن مولاه عزّ وجلّ، ولا ينفك من الاحتياج إليه، والتعلق به، والسؤال والطلب منه في كل حالٍ من أحواله، كما قال بعضهم:

إنّـي إلَـيْـكَ مَـدى الأَنْـفَـاسِ مُـحْـتَـاجٌ   لَوْ كَانَ في مَفْرَقي الإكْليلُ وَالتَّاجُ

(بي فليفرحوا) أي فليفرحوا بي لا بغيري حيث كنت رباً، وكانوا لي عبيداً خالصين من حكم بشريتهم، ولذا قيل: إن عتبة الغلام دخل يوماً على رابعة العدوية، وعليه قميص جديد، وهو يتبختر في مشيته على خلاف عادته. فقالت له: يا عتبة ما هذا التيه والعجب الذي لم أره في شمائلك قبل هذا اليوم. فقال: يا رابعة ومن أولى بهذا التيه مني، وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً ﴿وبذكري فليتنعموا﴾ أي لا يتنعمون إلا بذكري لا بلذات الدنيا وشهواتها، فإن المشتغل بذكر الله يحصل عنده من اللذة والأنس بالله ما لا يوازيه لذة من لذات الدنيا **(والله تعالى يجعل فرحنا إياكم)** أيها الأحباب الناظرون في هذا الكتاب **(به)** تعالى **(وبالرضا منه)** أي الأنعام بدوام المشاهدة **(وأن لا يجعلنا من أهل الفهم عنه)** وهم الذين يفهمون عن الله مراده منهم، وهو إقبالهم عليه واشتغالهم بخدمته، ويفهمون عنه أنه حاضر معهم فيراقبونه في حركاتهم وسكناتهم، ويفهمون عنه أنه قائم بالأشياء، وأنها عدم محض فلا يلتفتون إليها في جلب نفع ولا دفع ضرر، ويفهمون عنه أنه معهم بذاته لا بعلمه كما يفهمه المحجوبون أهل الدليل، والبرهان إلى غير ذلك مما هو مقرر عند أهل الشهود والعيان **(وأن يجعلنا من الغافلين)** الذين اشتغلوا بالأكوان عن المكون، ولم يفهموا مراد الله منهم، فلم يقبلوا على طاعته، وإن أقبلوا عليها فبظاهرهم دون قلوبهم **(وأن يسلك بنا مسلك المتقين)** الذين يتقون ما سواه سبحانه، فلا يلتفتون إلى غيره في جلب ولا دفع، ولا يغيبون عنه طرفة عين، وهذه أعلى مراتب التقوى، ودون ذلك اتقاء معاصي الجوارح، وشهوات النفوس، ودون ذلك اتقاء الشرك **(بمنه وكرمه)** أي لا بعلة تحمله على ذلك كأعمالنا المدخولة.

وقال رضي الله عنه وفي بعض النسخ ومن مناجاته **(إلٰهي أنا الفقير في)** حال **(غناي فكيف لا أكون فقيراً في)** حال **(فقري)** يعني أن صفتي الذاتية هي الفقر والاحتياج، والغنى أمر عارض، والعارض بصدد الزوال **(إلٰهي أنا الجاهل في)** حال **(علمي)** لأن ما عندي من العلم قليل، فهو في حكم العدم وأيضاً فهو عارض عليها، والعارض بصدد الزوال كما مر **(فكيف لا أكون جهولاً)** أي كثير الجهل **(في)** حال **(جهلي)** وأتى بصيغة المبالغة لما في ذلك من ضم جهل إلى جهل وحاصله أن العبد صفته الذاتية هي النقص والكمال عارض له، والعارض نقصان في التحقيق وتقديمه هذا التضرع، والافتقار بين يدي دعائه ليكون ذلك أرجى للإجابة. قال سهل بن عبد الله: ما أظهر عبد فقره إلى الله في وقت الدعاء في

وهذا منه دليل على تحققه في مقام العبودية التي اقتضتها عظمة الربوبية، وتقديمه لهذه المعاني بين يدي دعائه ومناجاته في غاية الحسن.

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: ما طلبت من الله شيئاً إلا وقدمت إساءتي أمامي. يريد رضي الله عنه، لا يطلب من الله شيئاً بوصف يستحق به العطاء بل لا يكون طلبه وجود فضله إلا بفضله. وقال أبو عثمان رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] التضرع في الدعاء: أن لا تقدم إليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقيامك وقراءتك ثم تدعو على أثره، إنما التضرع: أن تقدم إليه افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلة حيلتك ثم تدعو بلا علاقة ولا سبب فيرفع دعاؤك.

قال الواسطي رضي الله عنه: تضرعاً بذل العبودية وخلع الاستطالة. وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى في وقت الدعاء في شيء يحل به إلا قال لملائكته لولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك. **(إلٰهي إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء)** تلوين الأحكام على العباد يقتضي أن لا يساكنوا حالاً سارّة يكونون عليها ولا ييأسوا في حال صارة تنزل بهم من وجود الراحة والفرح وهذا محض تعلق بالله عزّ وجلّ وهو نعت العارفين. **(إلٰهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك)** لؤم العبد الذي رُكِّبَ عليه يقتضي منه مبارزة مولاه بالعظائم والكبائر وكرم المولى الذي هو متصف به يقتضي منه التجاوز والعفو عن عبده وقبول عذره وهذا الكلام من ألطف وجوه السؤال والرغبة وهو من آداب الدعاء.

يحكى أن رجلاً قال لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: قل له كم أخالفه وأعصيه وهو لا يعاقبني. فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبي: قُلْ لِفُلانٍ لِتَعْلَمْ أَنِّي أَنَا وَأَنْتَ أَنْتَ. **(إلٰهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي)** اللطف والرأفة وصفان لله عزّ وجلّ اتصف بهما في الأزل، قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته، وهما مقتضيان لوجود آثارهما فيما لا يزال بعد وجود ذات العبد وصفاته وهي إسباغ نعمه عليه وإيصال أفضاله إليه فكيف يتصور إذ ذاك منعه إياهما. **(إلٰهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة عليّ وإن ظهرَتْ المساوىء فبعدلك ولك الحجة عليّ)** ظهور المحاسن على العبد، وهي أنواع الطاعات والحسنات

شيء يحل به إلا قال لملائكته لولا أن لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك اهـ. **(إلٰهي إن اختلاف تدبيرك)** فقد يكون العبد فقيراً فيدبر الله له الغنى، وبالعكس ويكون مريضاً فيدبر الله له الصحة. وبالعكس فالمراد بالتدبير المدبر، أي المقدر ولذا عطف عليه للتفسير قوله: **(وسرعة حلول مقاديرك)** أي المقدرة على العبد **(منعا عبادك العارفين بك عن السكون)** منك **(إلى عطاء)** أي عن سكونهم إلى عطاء يصدر منك فإذا أفيضت عليهم العطايا الدنيوية كالأموال أو الدينية كالمعارف والأسرار والمكاشفات، لا يلتفتون إليها، لأنها بصدد الزوال يمكن زوالها، وإتيان ضدها كما وقع لكثير في غابر الزمان، بل لا يلتفتون إلا إلى المولى، ولا يغيبون عنه، ويكون بقاء ذلك وزواله عندهم على حد سواء **(واليأس منك في بلاء)** فإذا قام بهم بلية بدنية كمرض أو فقر أو دينية كمعصية، لا ييأسون من زوالها بإتيان ضدها كما وقع لغيرهم **(إلٰهي مني)** أن يصدر مني **(ما يليق بلؤمي)** الذي ركبت عليه، وهو مبارزتي إياك بالمعاصي التي تليق بي، فإن شأن الإنسان عدم الوفاء بحقوق الرب **(ومنك)** أي ويصدر منك **(ما يليق بكرمك وهو التجاوز والعفو عني وقبول أعذاري)** والتفضل والإحسان ودفع الآلام **(إلٰهي وصفت نفسك باللطف والرأفة)** أي شدة الرحمة **(بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منهما)** أي من قيام أثرهما بي وحصوله لدي **(بعد وجود ضعفي)** فاللطف والرأفة صفتان لله عزّ وجل اتصف بهما في الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته، وهما مقتضيان لوجود أثرهما فيما لا يزال بعد وجود ذات العبد وصفاته، وهو إسباغ نعمه عليه، وإيصال أفضاله إليه، فكيف يتصور إذ ذاك منعه إياهما واللطف يرجع للعلم والرأفة للإرادة.

(إلٰهي إن ظهرت المحاسن مني) وهي أنواع الطاعات والصفات المحمودة **(فبفضلك)** لا بحولي ولا قوتي **(ولك المنة)** أي الامتنان **(علي)** لعدم استحقاقي لذلك، والامتنان مذموم إلا من الله أو الرسول أو الوالد أو الشيخ **(وإن ظهرت المساوي مني)** وهي ضروب المعاصي والصفات المذمومة **(فبعدلك)** لا بطريق الظلم، لأن المالك يفعل في ملكه ما يشاء **(ولك الحجة علي)** بأن تقول لي لم فعلت ذلك يا عبدي وليس لي حجة أقيمها عليك، كأن أقول لك إن ذلك بتقديرك وحكمك، لأن ذلك شأن الجاهل بك، أما العالم فيقول المالك يفعل في ملكه ما يشاء، ولا يسأل عما

والصفات المحمودات، فضلٌ من الله تعالى والمنة له عليه لعدم استحقاقه لذلك وظهور المساوي منه، وهي ضروب المعاصي والسيئات والأوصاف المذمومات، عدلٌ من الله تعالى إذ له أن يفعل بعبده ما يشاء والحجة له عليه لأنه رب وهو عبد ومناجاة العبد لمولاه بهذا الكلام من أحسن المناجاة وهي مقتضية لوجود إسعافه له وموالاة ألطافه عليه لما فيها من الثناء على الله تعالى على بساط قربه وذكر صفاته العلية والتعلق بها والاعتراف له بالنعم الظاهرة والباطنة ولما فيها أيضاً، من رؤية ضعف النفس والإقرار عليها بالنقص والقصور وإنزالها منزلتها من الذلة والمهانة وقد قال بعضهم: تعلق شاب بأستار الكعبة وقال: إلٰهي لا لك شريك فيؤتى، ولا وزير لك فيرشى، إن أطعتك فبفضلك ولك المنة عليّ، وإن عصيتك فبعدلك ولك الحجة عليّ فبإثبات حجتك عليَّ وانقطاع حجتي لديك إلا ما غفرت لي فسمع هاتفاً يقول: الفتى عتيق من النار. **(إلٰهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي وكيف أضام وأنت الناصر لي أم كيف أخيب وأنت الحفي بي)** الوكيل والناصر والحفي أسماء لله عزّ وجلّ وهي مقتضية لوجود آثارها من وجود الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته، كما تقدم في اللطف والرأفة. والضيم في اللغة معناه: انتقاص الحق، والحفي: هو اللطيف، ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه وخفيات مآربه وإيصال ذلك إليه برفق. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩] **(ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك)** التوسل: التقرب، والوسيلة: ما يُتَقَرَّب به. وأعظم وسائل العبد إلى مولاه هو تحققه بما توجبه عبوديته وهو فقره إليه في كل حال من أحواله فلا يرى لنفسه حسنة يقتضي بها ثواباً ولا يدلي بحجة يستدفع بها عن نفسه عقاباً.

قال أبو يزيد رضي الله عنه: نوديت في سري فقيل لي: خزائننا مملوءة من الخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار. وسئل أبو حفص رضي الله عنه: بماذا يقدم الفقير على ربه؟ فقال: وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره. **(وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك)** بين المتوسل به والمتوسل إليه نسبة تامة ووصلة حقيقية وهي التي اقتضت له وجود التوسل ولا نسبة ولا وصلة بين الفقر الذي هو نعت العبد وبين الرب الذي له الغنى الأكبر وأيضاً توسل العبد بفقره يقتضي شهوده له وامتداده به واعتماده عليه ورؤية العبد لأحواله وسكونه إليها علة فيها، والأحوال المعلولة لا تليق بالحضرة الإلٰهية ولا تصل إلى الله تعالى بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها فالفقر لا يصح التوسل به من هذا الوجه أيضاً. وإلى هذا المعنى يشير ما يحكى عن سيدي أبي الحسن الشاذلي حين دخل على شيخه أبي محمد عبد السلام رضي الله عنهما، فقال له: يا أبا الحسن بماذا تلقى الله تعالى؟ قال له: بفقري.

يفعل **(إلٰهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي)** ومن كنت وكيله لا تحوجه إلى غيرك **(وكيف أضام)** أي يحصل لي ضيم وذل **(وأنت الناصر لي أم كيف أخيب)** بعدم الظفر بآمالي **(وأنت الحفي به)** أي اللطيف ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه، وخفيات مآربه، وإيصال ذلك إليه برفق فالوكيل والناصر والحفي من أسماء الله تعالى، وهي مقتضية لوجود آثارها من الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية، فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم في اللطف والرأفة؟ **(ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك)** أي اجعل فقري إليك وسيلة أتشفع به عندك في القبول، لا بأعمالي المدخولة وأحوالي المعلولة ولذا سئل أبو حفص بماذا يقدم الفقير على ربه فقال: وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره. وقال أبو يزيد: نوديت في سري حزائننا مملوءة من الخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار.

ثم رجع عن جعل الفقر وسيلة يتشفع بها إلى المولى فقال: **(وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك)** وهو الفقر المذكور، فكأنه يقول: إن كان الفقر يتوسل به إليك، فأنا أتوسل به، لكنه لا يتوسل به إليك، لأن المتوسل به يكون بينه وبين المتوسل إليه علقة، ومناسبة كالوزير والسلطان، ولا مناسبة بين الفقر الذي هو نعت العبد وبين الرب الذي له الغنى الأكبر، وأيضاً توسل العبد بفقره يقتضي شهوده له واعتماده عليه، فيكون حينئذ من الأحوال المعلولة، وهي لا تصل إلى الله بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها، ولذا قيل: إن أبا الحسن الشاذلي قدّس سره لما دخل على شيخه عبد السلام قال له: يا أبا الحسن بماذا تلقي الله؟ قال: بفقري. فقال له: والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الأعظم، ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر وإلا كنت غنياً بفقرك اهـ. فإذن لا وسيلة إلى الله بسواه.

قال له الشيخ: والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الأعظم. ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر وإلا كنت غنياً بفقرك اهـ. فإذن لا وسيلة إلى الله بسواه. **(أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك)** شكوى الحال لا تصح إلا لمن هي غائبة عنه وهو غير عالمٌ بها والله تعالى لا يخفى عليه شيء. وقد قال إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

(أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك) الترجمة بالمقال هي التعبير باللسان عما في الضمير ليقع التفهيم بذلك للمترجم له والله تعالى هو الذي أنطق اللسان وأطلقه بذلك فالترجمة من الله تعالى برزت وإليه مآل أمرها والعبد لا مدخل له في ذلك فكيف ينسب إليه الترجمة ونسبة ذلك إلى الله تعالى دليل على إحاطة علمه بأحوال العبد فكيف يصح في حقه معنى الترجمة. **(أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك)** الآمال الوافدة إلى الله تعالى لا يخيبها من قبل أنها فارة إليه ومتعلقة به ومنقطعة عما سواه والله تعالى كريم جواد متفضل منعم فليثق العبد بذلك وليكن على يقين منه وإن لم يسأل ولم يطلب. **(أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك)** من تحقق بالمعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه وهذه كلها أنواع من التعجب عجب بها المؤلف رحمه الله نفسه من نفسه فيما هو بصدده من سؤاله وطلبه بسبب ترقيه في المعرفة التي أوجبت له رؤية نفسه وقصوره في أحواله الأولى. **(إلٰهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي وما أرحمك بي مع قبيح فعلي)** شهود العبد لهذا المعنى مزيد عظيم يوجب له الحياء والانكسار فيستحسن منه حينئذ الاعتراف بالنعم فقط. **(إلٰهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك)** شهود المؤلف رحمه الله تعالى، شدة قرب الله تعالى منه لما رأى من بعد الأغيار عنه ودفعها له إليه كما سيأتي في قوله: قد دفعتني العوالم إليك، وشهوده لبعده من الله عزّ وجلّ من حيث أقيم في الطلب له والطلب للشيء دليل على فقد الطالب له وبعده عنه. فالمشاهدة الأولى، أوجبت له ملازمة باب مولاه وانقطاع طمعه عن كل ما سواه. والمشاهدة الثانية، أوجبت له التلطف في سؤاله التقريب والاستغناء عن طلب القرب.

ومن دعاء سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه: يا قريب أنت القريب وأنا البعيد قربك آيسني من غيرك وبعدي منك ردني للطلب لك فكن لي بفضلك حتى تمحو طلبي بطلبك يا قوي يا عزيز. **(إلٰهي ما أرأفك بي فما**

(أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك) وشكوى الحال لا تصح إلا لمن لا يعلمها، والله تعالى لا يخفى عليه شيء. ولذا قال الخليل عليه السلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي وقولهم: لا شكوى إلا لله شأن الغافلين المحجوبين **(أم كيف أترجم لك بمقالي)** أي أعبر عما في ضميري بأن أقول: أعطني كذا، والترجمة في الأصل التعبير باللسان عما في الضمير لتفهيم المخاطب **(وهو منك برز إليك)** أي أنت الذي أنطقت اللسان وأطلقته بذلك، فالترجمة برزت منك وترجع إليك لأنك المسؤول، والعبد لا مدخل له في ذلك، فكيف تنسب إليه الترجمة، وأيضاً فهو تعالى عالم بأحوال العبد، والترجمة لا تكون إلا لمن لا يفهم حال المترجم، والمراد بالترجمة هنا مطلق السؤال **(أم كيف تخيب آمالي)** أي ما أؤمله وأرجوه **(وهي قد وفدت إليك)** أي توجهت بالسير إليك كما يتوجه الوافدون بالسير إلى الكرام، وفي بعض النسخ عليك، ولا شك أنه تعالى كريم جواد متفضل لا يخيب من قصده، فليكن العبد على يقين بحصول مطلوبه، وإن لم يسأل ولم يطلب ولما كانت هذه التعجبات تقتضي نسبة النقص إلى نفسه، وذلك غير لائق بالعارفين المحققين لما فيه من رؤية النفس، وملاحظة حالها، والبقاء معها، والمحقق لا يرى غير الله والأحوال كلها حسنة من حيث نسبتها إليه أتى بقوله: **(أم كيف لا تحسن أحوالي)** الباطنية والظاهرية وهي الأعمال الصالحة **(وبك قامت وإليك)** أي صدرت منك ورجعت إليك لأنك المقصود بها فمن تحقق في مقام المعرفة رأى أحواله كلها حسنة، لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه **(إلٰهي ما ألطفك)** أي أكثر لطفك أي رفقك **(بي مع عظيم جهلي)** بعواقب الأمور، فقد يكون في نزول الأمراض والبلايا بي أنواع من اللطف، وأنا جاهل بعاقبة ذلك فلذا أطلب الصحة والعافية **(وما أرحمك بي)** أي أكثر إحسانك لي **(مع قبيح فعلي)** أي مع أفعالي القبيحة المقتضية عدم الإحسان، فهذا أمر يتعجب منه **(إلٰهي ما أقربك مني)** بذاتك كما يقوله أهل المعرفة والشهود. أو بعلمك كما يقوله غيرهم من أهل الجحود. **(وما أبعدني عنك)** بصفاتي التي اقتضت عدم شهودي إياك وهذا تواضع منه قدّس الله سره ثم ترقى فقال: **(إلٰهي ما أرأفك)** أي أشد رأفتك أي رحمتك **(بي فما الذي يحجبني**

الذي يحجبني عنك) الرأفة أشد من الرحمة ولما شاهد رأفة ربه به غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفتها فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه. **(إلٰهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إليّ في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء)** كأن المؤلف رحمه الله يقول: اختلاف الآثار عليّ وتنقلات الأطوار بي من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والقبض والبسط والطاعة والعصيان والفقد والوجد، وغير ذلك من مختلفات أحوالي التي هي من شؤونك التي تنزلها بي، علمت منه أن إرادتك بي أن تتعرف إليّ في كل شيء تعرفاً خاصاً في حالة خاصة حتى أشاهد وحدانيتك وعظمتك وجمالك وكمالك وجلالك بحيث لا يتصور مني جهل بما أنافيه قابل لمعرفته من جميع ذلك. ولو كان الأمر على خلاف هذا، وألزمتني حالة واحدة أرتضيها لنفسي وأختارها، لكانت معرفتي ناقصة ومشاهدتي قاصرة، فأنا الآن أتقلب في جنة معجلةٍ أتبوأ منها حيث أشاء فقد استغرقني ما أنا فيه من عظيم النوال وشغلني ذلك عن الدّعاء والسؤال وطلب الكون على ما أرتضيه من الأحوال فلك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة والخفية والجلية.

قال بعضهم: في الدنيا جنة معجلة من دخلها لم يَشْتَقْ إلى جنة الآخرة ولا إلى شيء ولم يستوحش من شيء قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله تعالى. وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب الأشياء قيل: وما هو؟ قال: المعرفة ثم قال:

إنَّ عِـرْفَـانَ ذي الـجَـلالِ لَـعِـزٌّ ... وَضِـيَـاءٌ وَبَـهْـجَـةٌ وَسُـرورُ

وَعَـلـى الـعَـارِفِـيـنَ أَيْـضـاً بَـهـاءٌ ... وَعَـلَـيْـهِـمْ مِـنَ الـمَـحَـبَّـةِ نُـورُ

فَـهَـنـيـئـاً لِـمَـنْ عَـرَفَـكَ إلـٰهـي ... هُـوَ وَالـلّـهِ دَهْـرُهُ مَـسْـرُورُ

وقد روي أنه رئي صورة حكيمين من الحكماء المتعبدين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها مكتوب: إذا أَحْسَنْتَ كلَّ شَيءٍ فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله عزّ وجلّ، وفي يد الآخر: كنت قبل أن أعرف الله عزّ وجلّ أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

قال في **(التنوير)** بعد كلام ذكره: وإنما قلنا إن الحالة زائلة عنك لا محالة فإن مراده أن ينقلك في الأطوار ويخالف عليك الآثار ليتعرف إليك في كل حالة خاصة بتعرف خاص فإذا أردت أن يديمك على حالة واحدة فقد أردت أن يسلك بك غير الكمال فكأنه يقول لك: لا تطلب مني أن أقيمك في حالة واحدة لأني لا أفعل ذلك معك أتريد أن تبقى ربوبيتي معطلة الآثار ولكن سلني أن أشعرك لطفي حيثما أردتك وحيثما أقمتك حتى تكون بي ولي. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ [الرحمٰن: ٢٩] كل يوم هو في شأن أي يمنع ويعطي ويضع ويعلي ويقبض ويبسط ويعز ويذل إلى غير ذلك من مختلفات آثاره فكأنه سبحانه وتعالى يقول لك: يا عبدي لا تأس على شيء ما دمت لك ولا تفرح بشيء وأنا لست لك فأنا المعوِّضُ لك عما سواي، وما سواي لا يغنيك عني ولا تكن ممن يعبدني بالعلل فتكون من عبيد الحروف بل اعبدني لي فأنا بكمال الغنى موصوف وبدوام الإفضال

عنك) فإن من شاهد رأفة ربه غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفاتها، فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه **(إلٰهي قد علمت باختلاف الآثار)** وقوله: **(وتنقلات الأطوار)** مرادف لما قبله، أي قد علمت باختلاف الآثار عليّ، وهي تنقلات أطواري من الصحة والمرض والغنى والفقر، والعز والذل والبسط والقبض والوجد والفقد، وغير ذلك من شؤونك التي تنزلها بي **(أن مرادك مني)** بذلك **(أن تتعرف إليّ)** أي أن أعرفك **(في كل شيء)** معرفة خاصة **(حتى لا أجهلك في شيء)** ولو كان الأمر على خلاف هذا وألزمتني حالة واحدة أرتضيها لنفسي وأختارها، لكانت معرفتي ناقصة ومشاهدتي قاصرة بيان ذلك أن الله تعالى إذا أنزل بي مرضاً، أو فاقة عرفت في ذلك الوقت، أنه لا يقدر على دفعه إلا هو، وأنه الذي أمرضني وأفقرني فأصبر على ذلك، وإذا أنزل بي صحة أو غنى، عرفت أنه المنعم عليّ والمعطي لي فأشكره، وهكذا. ولو فرض أنه أدام لي حالة واحدة، كالصحة والغنى لم أعرف المولى في حالة المرض أو الفقر، فكنت جاهلاً به من حيث المرض أو الفقر، أي لم أعرف بطريق الذوق أنه لا يقدر على كشف الكربة إلا هو، فتكون معرفتي ناقصة، فينبغي للعبد أن لا يغفل عن مولاه في عطاء ولا منع ولا عز ولا ذل ولا غنى ولا فقر ولا قبض ولا بسط ولا فقد ولا وجد إلى غير

معروف. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] لأن الذي طلبه عزلناه عنه فما دام له وهو ما طلبنا حتى نكون له ومن عبده لما سواه فهو عبد ما سواه ومن عبده لأجل جوده ونعمائه فهو عبد جوده ونعمائه لأنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً فهو عبد ما أحبه. قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وإذا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ». فكن عبد الله في كل شيء عطاءً ومنعاً وعزاً وذلاً وغنًى وفقراً وقبضاً وبسطاً وفقداً ووجداً وشدةً ورخاءً وفناءً وبقاءً إلى غير ذلك من مختلفات الآثار وتنقلات الأغيار. انتهى كلامه رحمه الله، وقد أحسن فيه غاية الإحسان كله فجزاه الله تعالى خيراً. **(إلٰهي كلما أخرسني لؤمي، أنطقني كرمك وكلما آيستني أوصافي أطمعتني منتك)** لؤم العبد ومخالفته وعصيانه يُخرِسُ لسانه عن السؤال والطلب وكرم المولى وفضله وإحسانه ينطقه بذلك وأوصاف العبد الذميمة، التي اقتضتها طبيعته وجبلته، تؤيسه من حصول الاستقامة على طريق الحق ومنن الله تعالى التي شملت البر والفاجر تُطمِعُه في ذلك. **(إلٰهي مَنْ كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي ومَنْ كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي)** هذا مثال ما تقدم من أن الكمال المنسوب إلى العبد نقصان على التحقيق فما ظنُّك بنقصانه. **(إلٰهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقالٍ مقالاً ولا لذي حالٍ حالاً)** شهود هذا المعنى يوجب للعبد مقام الخوف والتحقق فيه. فإن كان ذا قول سديد وحال حميد لم يقطع ببقاء ذلك ولم يغتر بما هنالك لنفوذ حكم الحق تعالى وقهر مشيئته. **(إلٰهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك)** الطاعة صفة ظاهر العبد والحالة صفة باطنه وبناؤه للطاعة هو إقامتها على الوجه المأمور به من الوفاء

ذلك **(إلٰهي كلما أخرسني لؤمي)** أي مخالفتي وعصياني، فإن ذلك يقتضي عدم انطلاق لساني بالطلب منك، لأن الطلب لا يكون إلا بعد التودد، والتودد إلى المولى بطاعته، وذلك مفقود عندي لكن كلما خرست **(أنطقني كرمك)** فإني إذا لاحظت أنك كريم، والكريم لا يتوقف إعطاؤه على التودد إليه انطلق لساني بالطلب منك **(وكلما آيستني)** أي أوقعتني في اليأس من الاستقامة **(أوصافي)** الذميمة التي اقتضتها الطبيعة والجبلة، فإنها تقتضي اليأس من الاستقامة على طريق الحق، ومن القيام بحقوق الربوبية **(أطمعتني)** أي جعلتني طامعاً في ذلك **(منتك)** أي امتنانك وإحسانك الذي شمل البار والفاجر **(إلٰهي من كانت محاسنه)** أي أعماله الصالحة **(مساوي)** لعدم خلوها من دقائق العجب والرياء، فهي محاسن بحسب الظاهر، وعند الناس ومساوي في الواقع وعند الله **(فكيف لا تكون مساويه)** أي عيوبه وأعماله السيئة **(مساوي)** أي عيوباً تامة عظيمة، فقد اختلف الخبر والمبتدأ بهذا الاعتبار، ويحتمل أن المعنى فكيف لا تكون مساويه في الواقع ونفس الأمر مساوي عنده، فهو لا يعتقد الكمال من نفسه، ولا ينظر إلى عيوبه بعين الاحتقار، فلا يعدها عيوباً كما هو حال الغافلين **(ومن كانت حقائقه)** أي علومه ومعارفه التي يعرفها الناس مني **(دعاوي)** عندي وفي اعتقادي **(فكيف لا تكون دعاويه دعاوي)** فيه ما تقدم، وكأنه يقول: أنا في جميع الأحوال معتقد للتقصير من نفسي، ومترج العفو من الله، وليس لي حالة أعتقد بها الكمال، وهذا مثل ما تقدم من أن الكمال المنسوب إلى العبد نقصان على التحقيق، فما ظنك بنقصانه **(إلٰهي حكمك)** أي قضاؤك **(النافذ)** وقوله: **(ومشيئتك القاهرة)** تفسير لما قبله ووصف المشيئة بذلك، لأنها إن تعلقت بحصول نقمة وبلية كانت قاهرة أو بحصول نعمة، وعطية كانت غير قاهرة **(لم يتركا لذي مقال مقالاً)** فإذا كان ذا قول سديد بأن كان ينطق بالحقائق، ويتكلم في العلوم العرفانية، لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره كبلعام بن باعوراء **(ولا لذي حال حالاً)** فإذا كان ذا حال حميد بأن كان يحصل له كشف عن أمور تحصل في الكون أو تطيعه بعض الجمادات. والعناصر لم يغتر بذلك فقد حكم الله، ونفذت مشيئته بسلب غيره كما هو مشاهد كثيراً، فهذا المعنى يوجب للعبد التحقق في مقام الخوف وعدم الاغترار بشيء من أقواله وأحواله لنفوذ حكم الله تعالى وقهر مشيئته **(إلٰهي كم من طاعة)** ظاهرية **(بنيتها)** أي أقمتها على الوجه المأمور به في الظاهر، بأن وفيت بجميع شروطها وأركانها وآدابها **(وحالة شيدتها)** أي زينتها وصنتها عما يكدر صفاءها، بأن أخلصت فيها إخلاصاً تاماً، والحالة هي الطاعة فعطفها عليها من عطف المرادف، أي ولما فعلت هذين الأمرين من البناء والتشييد رأيت أني تحصنت بحصن حصين، وأويت إلى ركن متين ولكن **(هدم اعتمادي عليها)** في النجاة من العذاب ودخول الجنة دار الثواب **(عدلك)** أي النظر إلى عدلك، فإن مقتضاه أنك تفعل ما تشاء، ولا تبالي بأعمال العاملين، فمن الجائز أنك تعاقبني على تلك الطاعة **(بل أقالني منها)** أي من الاعتماد عليها والتعلق بها **(فضلك)** أي النظر

بجميع أركانها وشرائطها وما يتعلق بها من حقوق وآداب، وتشييده للحالة، هو تزيينها وتطهيرها وصيانتها عما يكدر صفاءها ويكسف ضياءها وكأنه لما فعل هذين الأمرين، رأى أنه تحصن بحصن حصين وأوى إلى ركن متين لكن لما شاهد عدل الله تعالى هدم عليه ذلك لأن مقتضاه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يبالي بأعمال العاملين. فلما شاهد فضله وكرمه أقاله من ذلك بأن جعل له من التعلق به والاعتماد عليه بدلاً منه وعوضاً عنه ونِعْمَ البدل والعوض فسبحان المتفضل المنان. (**إلٰهي أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً فقد دامت محبةً وعزماً**) جعل عزمه على الطاعة ومحبته لها وإن لم يدم عليها فعلاً إحدى وسائله وذلك صحيح وكم من شخص قد طرد وأبعد لم يكن عنده عزم ولا فعل جزم. (**إلٰهي كيف أعزم وأنت القاهر وكيف لا أعزم وأنت الآمر**) استبعد من نفسه وقوع العزم منه وجعل مستند ذلك شهود القهر لأن من شهد قهره بطل عزمه لأنه الغالب واستبعد أيضاً عدم العزم وجعل مستند ذلك شهود الأمر لأن من شهد أمره بادر إلى امتثاله وتحرز من إغفاله وإهماله. (**إلٰهي ترددي في الآثار يوجب بُعْدَ المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك**) شكا إلى مولاه عزّ وجلّ طول تردده في الآثار وهي الأكوان وأخبر أنه يوجب له بُعْدَ المزار، وهو البعد عن شهود التوحيد وكمال المعرفة. وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: لا ترحل من كونٍ إلى كون. ثم سأله وطلب منه أن يختصر له طريق سلوكه ويقر به عليه ويجمعه من مفترقات الآثار بخدمة تظهر فيها عبوديته ويصل بها إلى مولاه من غير تردد ولا طول. (**إلٰهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك**) هذا تقبيح لأحوال المستدلين على ربهم وهم أصحاب النظر والاستدلال بالنسبة إلى أهل المقام الآخر وهم أرباب الشهود والعيان.

قال أبو بكر محمد بن علي السكتاني رضي الله عنه: وجود العطاء من الحق شهود الحق بالحق لأن الحق دليل على كل شيء ولا يكون شيء دونه دليلاً عليه.

قال في (**لطائف المنن**): وأرباب الدليل والبرهان عوام عند أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن

إلى فضلك وكرمك وإحسانك، فصرت معتمداً عليه ومتعلقاً به لا بطاعتي فصار التعلق والاعتماد على الإحسان والفضل، لا على الطاعة ونعم البدل والعوض (**إلٰهي أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً**) أي أن عدم دوامها فعلاً مجزوم به لعجزي عن ذلك، ومقتضى العبودية أن أداوم عليها فأنا مقصر (**فقد دامت محبة وعزماً**) أي أنا مداوم عليها من حيث محبتي لها وعزمي عليها، وأنت تعلم بذلك فلا تؤاخذني بتقصيري، بل مداومتي على هذا الوجه فضل عظيم، وإلا فكم من شخص محروم ليس عنده فعل ولا محبة ولا عزم، فالواو الداخلة على أداة الشرط زائدة، ومتعلق العلم هو جواب الشرط كما تقرر، ثم تردد في وقوع العزم منه بقوله: (**إلٰهي كيف أعزم**) أي يقع مني عزم على فعل الطاعات وترك المنهيات (**وأنت القاهر**) فيمكن أن يقع مني عزم على ذلك ثم يصدني عنه قهرك، فيكون العزم لا فائدة فيه لا يعتد به (**وكيف لا أعزم وأنت الآمر**) لي بالعزم على ذلك ومقتضى الأمر المبادرة إلى العزم فأنا متحير وعاجز عن تدبير أمري ولا يسعني إلا التسليم إليك والاعتماد عليك، ولذا كان العارفون لا يجزمون بشيء من الأشياء، بل يفوضون الأمر إلى الله تعالى فقد قالوا: العارف لا قلب له (**إلٰهي ترددي في الآثار**) أي المكونات على سبيل التعلق بها، والاستناد إليها أو على سبيل الاستدلال بها على الله تعالى (**يوجب بعد المزار**) أي الوصول إليك ومشاهدتك (**فاجمعني عليك**) أي أوقفني بين يديك (**بخدمة**) أي طاعة من أذكار ورياضات ومجاهدات (**توصلني إليك**) وتقطع التعلق بالآثار عن قلبي فلا أتعلق بمكاشفات ولا أحوال ومقامات، كما تقدم في قوله لا ترحل من كون إلى كون الخ. ولا أستدل بها على موجدها كما قال: (**إلٰهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده**) أي ثبوته وتحققه خارجاً (**مفتقر إليك**) وهو المكونات فإنها في ذاتها عدم محض كما مر (**أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك**) فإن الدليل يكون أظهر من المدلول حتى يستدل به عليه، فأصحاب النظر والاستدلال حالهم قبيح بالنسبة إلى أصحاب الشهود والعيان. ويقال لهم: عوام بالنسبة لهم كما تقدم عند قوله شتان بين من يستدل به، ومن يستدل عليه.

ثم ترقى في نفي الاستدلال بقوله: (**متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار**) أي المكونات (**هي التي توصل إليك**) أي إلى معرفتك ولذا قال مريد لشيخه يا أستاذ أين الله فقال: ويحك وهل يطلب مع

يحتاج إلى دليل عليه وكيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل وكيف يكون معرفاً به وهو المعرف له. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كيف يعرف بالمعارف مَنْ به عرفت المعارف أم كيف يعرف بشيء مَنْ سبق وجوده وجود كل شيء؟ وقال مريد لشيخه: يا أستاذ أين الله؟ فقال له: ويحك أيطلب مع العين أين؟ وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: شتان بين مَنْ يستدل به ويستدل عليه. **(إلهي عميت عين لا تراك عليها رقيباً)** الرقيبُ الحفيظ فمن رأى الله تعالى رقيباً عليه، يعلم جميع أحواله ولا يخفى عليه منها شيء استحيا منه وهابه أن يراه على ما يكرهه منه، وقد قيل: إذا عصيت مولاك فاعصه بموضع لا يراك. ومَنْ لم يكن على هذا الوصف وغفل عن نظر الله تعالى إليه عميت عين بصيرته فبارز الله تعالى بأنواع القبائح والفضائح من غير اكتراث ولا مبالاة. وقد سئل بعضهم: بِمَ يستعين الرجل على حفظ بصره من المحظورات؟ قال: بعلمه بأن رؤية الحق سبحانه له تسبق نظره إلى تلك المحظورات. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاّ كُنّا عَلَيْكُم شُهُوداً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: خوفهم بما عرفهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم ورؤيته لما يسلفونه من فنون أعمالهم والعلم بأنه يراهم يوجب استحياءهم منه وهذا هو حال المراقبة. فالعبد إذا علم بأن مولاه يراه، استحيا منه وترك متابعة هواه ولا يحوم حول ما نهاه عنه. وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ إيمانِ المَرْءِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ». **(وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيباً)** حب الله تعالى لعبده هو رحمته له وثناؤه عليه وإحسانه إليه، وحب العبد لربه عزّ وجلّ طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته، والحب المضاف إلى الكاف في قوله: من حبك، يحتمل أن يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول، والظاهر كونه مضافاً إلى الفاعل لأنه أبلغ وأمدح ولأن محبة الله تعالى لعبده أصل محبة العبد له. قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فمن أعطاه الله تعالى من الحب المذكور نصيباً فقد حاز ربح الدارين وفاز بقرّة العين، ومن حرمه ذلك، فقد خسرت صفقته وبان عيبه وخيبته.

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: يا عبدي أنا لك محبٌّ فبحقي عليك كُنْ لي محباً. حكي عن بعضهم أنه قال: اشتريت جارية فسمعتها في شطر الليل وهي تقول: إلهي بحبك إياي إلا ما غفرت لي. فقلت لها: لا تقولي هكذا ولكن قولي: بحبي إياك. فقالت: يا سيدي بمحبته إياي مَنَّ عليَّ بالإسلام وأيقظني لعبادته وكثير من عباده نيام. قال زيد بن أسلم: إن الله عزّ وجلّ ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له اصنع ما شئت فقد غفرت لك. **(إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على**

العين أين **(إلهي عميت عين)** المراد بها عين البصيرة وهذا يحتمل أن يكون أخباراً، وأن يكون دعاء بدوام العمى، لأن أصله حاصل **(لا تراك عليها رقيباً)** أي حفيظاً مراقباً لها، فمن رأى الله رقيباً عليه يعلم جميع أحواله لا يخفى عليه منها شيء استحيا منه وهابه أن يراه على ما يكرهه منه، ومن لم يكن على هذا الوصف عميت عين بصيرته، فبارز مولاه بأنواع القبائح من غير اكتراث ولا مبالاة، ولذا ورد في الحديث أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان.

(وخسرت صفقة) أي تجارة **(عبد لم يجعل له من حبك نصيباً)** أي حبك له أو حبه لك، والأول هو الأصل في الثاني. قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وحب الله لعبده وإحسانه إليه وثناؤه عليه وحب العبد لله طاعته، وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته، وانجذابه بقلبه إليه فمن أعطاه الله من ذلك الحب نصيباً فقد فاز، ومن حرمه منه وشغله بالدنيا فقد خسر تجارته، وهي تلك الأمور الدنيوية التي يتقلب فيها، أي خسر في تجارته وكانت تجارته خاسرة لا عبرة بها **(إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار)** أي المكونات من الأموال والعيال وغيرهم، أي ملابستها ومخالطتها بعد غيبتي عنها بالوصول إليك ومشاهدتك، فإن المريد إذا وصل إلى المولى غاب عن الأكوان، ثم إذا خالطها بمقتضى الأمر ربما شغلته عن مولاه، واحتجب بها عنه فلذا قال: **(فارجعني إليها)** مسكواً **(بكسوة الأنوار)** أي بكسوة هي الأنوار الإلهية التي تمنع من تعلقي بها، واحتجابي بها عنك **(وهداية الاستبصار)** أي هداية ناشئة عن الاستبصار، أي الشهود بعين البصيرة **(حتى أرجع إليك منها)** أي أشاهدك فيها، وفي بعض النسخ فيها وهي بمعنى ما قبلها **(كما دخلت إليك منها)** بالاستدلال بها عليك والاعتبار بها، فإن المريد حينئذ محجوب عن مولاه، فينتقل في الآثار حتى يصل إليه، والضمير في الموضعين للآثار لا بالمعنى المتقدم، بل

كل شيء قدير) الآثار التي أمر العبد بالرجوع إليها، بعد وصوله إلى صريح المعرفة وخالص التوحيد، هي المكونات التي يلزمه إذا تلبس بها حق أو يكون له فيها منفعة وحظ. فسأل الله تعالى أن يرجعه إليها على حالة شريفة مضادة للحالة التي كان عليها قبل السلوك وهو كونه مكسواً بكسوة الأنوار، وهي أنوار اليقين، ومؤيداً بهداية الاستبصار، وهي العلم الراسخ المتين. فإذا رجع العبد إلى الآثار على هذا الأسلوب والمعيار، لم تؤثر فيه ولم تأخذ منه لكمال حريته عنها، وكان رجوعه إلى مولاه في مآل أمره في مثل دخوله فيها عليه في ابتداء أمر سلوكه مصون السِّر عن النظر إليها بعين الاستحسان مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها في نوال أو إحسان، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ إلى آخره. وقال رضي الله عنه: **(إلهي هذا ذلي ظاهرٌ بين يديك وهذا حالي لا يخفى عليك)** هذا تطارُحٌ منه على مولاه ومبالغة في بث شكواه وتلطف في سؤال رحماه وبمثل هذا يرجى إجابة الدعاء واستحقاق جزيل العطاء وقد قالوا: أبواب الملوك لا تقرع بالأيدي بل بنفس المحتاج. وقال بعضهم: قلت للنهرجوري: أجد في قلبي قسوة وقد شاورت فلاناً فأشار عليَّ بالصوم فلم تزل وشاورت آخر فأشار عليَّ بالسهر فلم تزل فقال النهرجوري رضي الله عنه: خلطا بك أحضر الملتزم إذا نام الناس وتضرَّع وقل: تحيرت في أمري فخذ بيدي ففعل فزالت القسوة. وقال الشاعر:

وَما رُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْه حَتّى ... حَلَلْتُ مَحَلَّةَ العَبْدِ الذَّلِيلِ
وَأَغْضَيْتُ الجُفُونَ عَلَى قَذَاها ... وَصُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ
وذُلُّ العَبْدِ لِلْمَوْلى غِنَاهُ ... وَغَايَتُهُ إِلَى العِزِّ الطَّوِيلِ

فذل العبد لمولاه غاية العز والفخر. وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: ما أعز الله عبداً بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه. **(منك أطلب الوصول إليك)** هذه صفة العارفين المحققين لا يسبق نظرهم إلا إلى الله ولا يطلبون إلا منه ولا يكون مطلبهم إلا الوصول إليه لا غير. **(وبك أستدل عليك)** أي، لا بغيرك، لأنك الظاهر قبل وجود كل شيء ظاهر بل بظهورك خفيت المظاهر. وقيل لبعض العارفين: بمَ عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي. وقال أبو القاسم النصراباذي رضي الله عنه: الأشياء أدلة منه ولا دليل عليه سواه. وقال أحمد بن ابي الحواري رضي الله عنه: دليل على الله سواه وإنما العلم يطلب لآداب الخدمة. **(فاهدني بنورك إليك)** وهو نور الإيمان واليقين. **(وأقمني بصدق العبودية بين يديك)** حتى أكون ممتثلاً لأمرك مستسلماً لقهرك. **(إلهي علمني مِنْ علمك المخزون)** إضافة العلم إلى

بمعنى الموجودات من السماء والأرض وما بينهما، ولو حذف ذلك هنا لكان أولى **(مصون السر عن النظر إليها)** أي التعلق بها في اعتقاد نفع أو دفع ضرر. وقوله: **(ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها)** بمعنى ما قبله ويحتمل أن صون السر عن النظر إليها هو عدم استحسان شيء منها في نظره، ورفع الهمة في الاعتماد هو عدم التعلق بها فيما ذكر.

والحاصل أنه سأل المولى أنه إذا أرجعه إلى الأكوان والتلبس بها يرجعه إليها على حالة شريفة مضادة للحالة التي كان عليها قبل السلوك، وهي كونه مكسواً بكسوة الأنوار، وهداية الاستبصار، فإنه رجع إليها على هذه الحالة لم تؤثر فيه، ولم تحجبه عن مولاه، وهذا المعنى غير ما تقدم في قوله فإذا نزل إلى سماء الحقوق الخ. كما هو ظاهر بما قررناه سابقاً **(إنك على كل شيء قدير)** ومنه تحصيل تلك المطالب السنية **(إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك)** وهو في الحقيقة عين العز والفخر. قال ذو النون المصري: ما أعز الله عبداً بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه، وما أذل الله عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه على ذل نفسه اهـ. وقوله: **(وهذا حالي لا يخفى عليك)** بمعنى ما قبله، والقصد بذلك طلب حصول مطالبه من مولاه **(منك أطلب الوصول إليك)** أي أطلب منك لا من غيرك الوصول إليك، لا غيره من المطالب الدنيوية والأخروية، وهذا مطلب العارفين كما مر **(وبك أستدل عليك)** أي من استدل عليك وأعرفك بك لا بغيرك من الدليل، والبرهان قيل لبعض العارفين بم عرفت ربك قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي. وقال بعضهم: لا دليل على الله سواه وإنما العلم يطلب لآداب الخدمة **(فاهدني بنورك)** أي بنور تقذفه في قلبي اهتدى به **(إليك)** أي إلى معرفتك معرفة خاصة **(وأقمني بصدق العبودية بين يديك)** أي أقمني بين يديك بأن تجعلني حاضر القلب معك حال كوني مصاحباً لصدق العبودية، أي للعبودية الصادقة بأن لا يظهر على شيء من أوصاف الربوبية، بل أكون متصفاً بغاية العجز والذل والضعف والقهر، ولا يظهر على شيء من قوة أو عز أو قدرة أو غنى **(إلهي علمني من علمك المخزون)** إضافة ذلك العلم

الله هاهنا إضافة تشريف. والعلم المخزون هو العلم اللدني الذي اختزنه عنده فلم يؤته إلا للمخصوصين من الأولياء كما قال الله تعالى في شأن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: ٦٥] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إلاّ العُلَماء باللّهِ تَعَالى فَإذا نَطَقُوا بِهِ لا يُنْكِرُهُ إلاّ أَهْلُ الغِرَّة باللّهِ». قال بعضهم: هي أسرار الله تعالى يبديها الله إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة، وهي من الأسرار التي لم يطّلع عليها أحد إلا الخواص.

وقال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر فعرفهم ما عرفهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة، فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النظر فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة. **(وَصُنِّي بِسِرِّ اسْمِكَ المصون)** الصون المطلوب هو صيانته عن رؤية الأغيار بما يتجلى لقلبه من سر الأسرار. **(إلٰهي حَقِّقني بحقائق أهل القرب)** حقائق أهل القرب هي الفناء في التوحيد والتحقق بالتجريد فتبطل في حقهم رؤية الأسباب ويزول عن مطمح نظرهم كل ستر وحجاب كما قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير: وأقرب مني بقدرتك قرباً تمحق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك على نار عدوه وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء مَنْ غَيَّبْتُه عن منفعة الأحباء كلاّ إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا ببعده عني إنَّك على كل شيء قدير. **(واسلك بي مسالك أهل الجذب)** أهل الجذب هم المحبوبون ومسالكهم في غاية السهولة لا تعب عليهم فيها ولا مشقة، بل يجدون اللذة والحلاوة في أعمالهم، وذلك من قبل أنه أخرجهم من أسر نفوسهم وتولاهم بكلاءته ورعايته من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة. **(إلٰهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري وباختيارك لي عن اختياري وأوقفني على مراكز اضطراري)** المنفرد بالتدبير والاختيار والمشيئة والأقدار هو الله عزّ وجلّ. فمن كان له دعوى في شيء من ذلك فقد نازع الله تعالى في ربوبيته وخلع عن عنقه ربقة عبوديته فلذلك سأله وطلب منه أن يغنيه عن تدبيره واختياره وأن يوقفه على مراكز اضطراره ليكون متحققاً بصفاته ومتعلقاً بصفات مولاه، وقد تقدم هذا المعنى غير مرة والمراكز مواضع الاستقرار والثبوت وهي استعارة حسنة. **(إلٰهي أخرجني من ذل نفسي)** ذلّ النفسِ الذي طلب

إليه إضافة تشريف والعلم المخزون، هو العلم اللدني الذي اختزنه عنده، فلم يؤته إلا للمخصوصين من أوليائه. قال تعالى في شأن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: ٦٥] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إلاّ العُلَماءُ باللهِ فإذا نَطَقُوا بِهِ لا يُنْكِرُهُ إلاّ أَهْلُ الغِرَّةِ باللّهِ». وقال بعضهم: هو أسرار الله يبديها إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة اهـ. **(وصني)** أي احفظني عن رؤية الأغيار أو عن إباحتي بتلك العلوم والأسرار **(بِسِرِّ اسمك المصون)** أي أسمائك المصونة أي المحفوظة عن الابتذال والإهانة فإنه لا يجوز أن يدخل بها في بيت الخلاء مثلاً أو عن أن يسمى بها غيره سبحانه، وسرها أنوار وتجليات تحصل لمن يذكرها **(إلٰهي حققني بحقائق أهل للقرب)** أي أعطني مقامات أهل القرب منك الذين تحققوا في مقام الفناء، فبطل في حقهم رؤية الأسباب، وزال عنهم كل حجاب، فلم يروا غيرك واكتفوا بتدبيرك عن تدبير أنفسهم، وبعلمك عن الشكوى لغيرك **(واسلك بي مسالك أهل الجذب)** وهم المحبوبون المرادون، فكأنه يقول: اجذبني إليك حتى يسهل علي سلوك الطريق، وأصل إليك في أقرب مدة، وأجد لذة وحلاوة، وفي الأعمال كما هو حال أهل الجذب الذين أخرجتهم عن حكم أنفسهم وتوليتهم بحفظك ورعايتك من غير مجاهدة ولا مكابدة **(إلٰهي أغنني بتدبيرك)** لي **(عن تدبيري وباختيارك لي عن اختياري)** فإن تدبيري أحوال نفسي واختياري شيئاً من الأشياء بمقتضى شهوتي وميلي منازعة لك في ربوبيتك لأنك المنفرد بالتدبير والاختيار **(وأوقفني على مراكز اضطراري)** المراكز جمع مركز، وهو موضع الاستقرار والثبوت، أي مواضع اضطراري كالذل والعجز والفقر، شبهت بالمواضع التي يستقر فيها، فهي مواضع اعتبارية، ينبغي للعبد أن لا يفارقها، بل يلازمها كما يلازم الشخص مكانه الذي يستقر فيه، ومعي وقوفه عليها ملاحظتها وعدم غيبته عنها، أي اجعلني ملاحظاً لفقري وعجزي وذلي التي هي مواضع اضطراري أو ملازمتها وتحققه بها، أي اجعلني ملازماً لها ومتحققاً بها وإضافتها لاضطراري باعتبار كونها يحصل عندها اضطرار العبد للمولى، واحتياجه له **(إلٰهي أخرجني من ذل نفسي)** من إضافة المصدر للمفعول أي من

الإخراج منه هو ذلها لغير الله تعالى بالطمع، والحرص، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: ما بسقت أغصان ذل الأعلى بذر طمع. **(وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي)** الشك والشرك هما سبب وجود الطمع والحرص الموجِبَيْن لوقوع الذل والهوان. وهذه الأوصاف كلها مجانبة لحقائق الإيمان والتوحيد عافانا الله منها. والشك: ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها. فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن وطهارته منه إنما تكون بوجود ضده وهو اليقين فبه يتّسع الصدر وينشرح ويزول عنه الحرج والضيق، وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه. وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى وبفضله. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ اللّهَ تَعَالى بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ في الرِّضَا وَاليَقِينِ وَجَعَلَ الهَمَّ وَالحُزْنَ في الشَّكِّ والسُّخْط». والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانه له تعلق الصيد بالشرك، ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب فيحاوله حينئذ الهوى فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التي يتوصل بها إلى بغيته إذ لا يرى غيرها فيرتبك من أجل ذلك في حبائل الشرك وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذي يقذفه الحق تعالى في قلبه فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشره والطيش الذي أصابها. وكلما قوي نور التوحيد في قلبه، كان خلاصه من الشرك أكثر فتمحى عنه الأسباب ويثبت فيه خالص التوحيد، فإذا تطهر العبد من الشك والشرك، تولاه الله تعالى بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد. وفي أخبار داود، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أنَّ الله أوحى إليه: يا داود هل تدري متى أتولاهم؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك ونزعوا من قلوبهم الشك. **(بك أستنصر فانصرني وعليك أتوكل فلا تكلني وإياك أسألُ فلا تخيبْني وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ولجنابك أنتسب فلا تبعدني وببابك أقف فلا تطردني)** تعلق بالله تعالى في كل مطلب من هذه المطالب واضرب عن الوسائط والأسباب وذلك من تحققه بالتوحيد الذي سأل من مولاه أن يحققه به بتطهيره من أضداده. ومعاني هذه الكلمات قريب بعضها من بعض. قال أبو الحسن علي بن هند الفارسي رضي الله عنه: اجتهد في أن لا تفارق باب سيدك بحالٍ، فإنه ملجأ الكل. فمن فارق تلك السدة لا يرى بعدها لقدميه قراراً ولا مقاماً. **(إلٰهي تقدس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة مني)** رضا الله تعالى صفة من صفاته وصفاته قديمة. ولذلك امتنع عليها سبقية العلل والقديم لا يكون مسبوقاً بشيء. وإذا كانت صفاته العلية منزهة على أن يكون لها علة منه فكيف يكون لها علة من غيره، فرضا الله تعالى لا علة له ولا سبب بل رضاه وسخطه هما سبب أعمال العاملين حسنها وسيئها رضي عن قوم فاستعملهم باستعمال أهل الرضا وسخط على قوم فاستعملهم باستعمال أهل السخط.

كوني أذل نفسي لغيرك بالطمع والحرص أو للفاعل، أي من كون نفسي تذلني وتوقعني فيما لا يليق **(وطهرني من شكي وشركي)** الشك ضيق الصدر عند إحساسه بأمر مكروه، فإذا ضاق أظلم القلب وأصابه الهم والحزن، وطهارته منه بوجود ضده، وهو اليقين إذ به يتسع الصدر وينشرح، فيستنير القلب ويجد الروح والفرح بالله تعالى، وبقدر ما يصيبه من نور اليقين يكون انشراحه واتساعه، والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانه له، ومبدأ ذلك هيجان الشهوة عن استيلاء ظلمة الشك على القلب، فيفزع حينئذ إلى الأسباب التي يتوصل بها إلى بغيته إذ لا يرى غيرها، وطهارته منه بضده، وهو نور التوحيد الذي يقذفه الحق في قلبه، فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشر والطيش الذي أصابها، وكلما قوي نور التوحيد في قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر **(قبل حلول رمسي)** أي قبري إذ ليس بعده تطهير إلا بالنار **(بك أستنصر)** أي أطلب النصرة على نفسي وشيطاني وهواي **(فانصرني)** عليها **(وعليك أتوكل)** في تحصيل مطالبي **(فلا تكلني)** إلى غيرك، وإن كنت لست صادقاً في توكلي **(وإياك أسأل فلا تخيبني)** وإن كنت أهلاً للخيبة **(وفي فضلك أرغب فلا تحرمني)** وإن كنت أهلاً للحرمان، أي أرغب في فضلك لا في فضل غيرك وقولنا إن كنت الخ جواب عمال. يقال إن من توكل على الله وحده كفاه، فلا حاجة لقوله فلا تكلني ومن سأله وحده لم يخيبه، ومن رغب في فضله وحده لم يحرمه، فلا حاجة لقوله: فلا تخيبني ولا تحرمني.

(ولجنابك) أي ذاتك والإضافة للبيان **(أنتسب)** لا لغيرك **(فلا تبعدني)** عن بابك **(وببابك أقف)** بالسؤال وفيه تشبيه المولى بملك عظيم يقف الطالبون ببابه **(فلا تطردني)** عنه **(إلٰهي تقدس)** أي تنزه **(رضاك)** وهو الإحسان أو إرادته **(عن أن تكون له علة)** ناشئة **(منك)** وإلا لكنت محتاجاً إلى تلك العلة لتتكمل بها **(فكيف تكون له علة مني)** كأعمالي وأحوالي

قال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه: الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جريا في الأزل يظهر أن الرسمين على المقبولين والمطرودين فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلامها عليهم، فأنى تنفع من ذلك الألوان المصفرّة والأكمام المقصرة والأقدام المتنفخة. **(أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني)** الكلام في الغنى كالكلام في الرضا وكأن المؤلف رحمه الله، قصد في مناجاته بهذه الكلمات الاسترضاء والاستعطاف فطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة وذلك من أحسن المقاصد للداعي. **(إلٰهي إن القضاء والقدر غلبني وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني فكن أنت النصير لي حتى تنصرني وتنصر بي وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي)** هذا اعتذارٌ واعترافٌ والله تعالى أكرم من أن يرد عذر من اعتذر إليه أو يخيب أمل من اعترف بذنبه وأقر به لديه يقال: إن العبد يبتهل إلى الله تعالى في الاعتذار والحق سبحانه وتعالى يقول له: عبدي لو لم أقبل عذرك لما وقفتك للاعتذار. وقال السكتاني رضي الله عنه: لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة إلا لفتح باب المغفرة فلا جرم لما وثق بذلك وقوي رجاؤه فيه طلب منه النصرة له على أعدائه ولم يقتصر على ذلك بل أضاف إليه طلب النصرة به لتكون تلك النصرة بسببه وعلى يديه كما قال أبو الحسن رضي الله عنه: واجعلنا سبب الغنى لأوليائك وبرزخاً بينهم وبين أعدائك. ثم لم يقنع بذلك حتى طلب منه أن يغنيه بما يستغني به عن الطلب منه وهو ما يؤتيه من فضله العظيم وكرمه الجسيم. وهذه هي غاية السعادة كما قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: والسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك. **(أنتَ الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم)** سبب إيحاش العوالم لهم ما هي عليه من الفاقة والافتقار والحاجة والاضطرار فكل واحد منها جالب لنفسه طالبٌ لحظه من كمال نقصه ووفاء بخسه والله تعالى غني حميد عزيز مجيد وهو مع ذلك، لطيف بعباده عطوف عليهم متودد إليهم رؤوف بهم. فلما شاهدوا هذا كله مشاهدة يقين ومعاينة بإشهاده إياهم، لم يتمالكوا أن أحبوه وآووا إليه، وقصروا هممهم عليه، وجعلوه معتمداً أنسهم، واستغنوا به عن أبناء جنسهم، فحصلوا إذ ذاك على غاية النعيم وفازوا بالحظ العظيم.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: بينما أنا أسير في بعض البوادي، إذا لقيتني امرأة فقالت لي: مَنْ أنت؟ فقلت: رجل غريب. فقالت: وهل توجد مع الله أحزان الغربة؟

وكتب مطرف بن عبد الله بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما وليكن أنسك بالله وانقطاعك

فرضاً المولى لا يتوقف على سبب ولا علة، بل رضاه وسخطه، هما سبب لأعمال العاملين حسنها وسيئها رضي عن قوم، فاستعملهم في خدمته وسخط على قوم فشغلهم بما يبعد عن حضرته **(أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني)** هذا كالتعليل لما قبله، وقصد المصنف بهذه المناجاة الاسترضاء، والاستعطاف وطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة **(إلٰهي إن القضاء)** وهو إرادة الله مع التعلق **(والقدر)** وهو إيجاد الله الأشياء على قدر معلوم ومقدار معين **(غلبني)** فكلما أعزم على طاعة أو ترك معصية لا يتيسر لي ذلك **(وإن الهوى)** أي ميل النفس إلى مرادها ومشتهياتها **(بوثائق الشهوة)** أي بالشهوة الشبيهة بالوثائق أي القيود **(أسرني)** أي قيدني **(فكن أنت النصير لي حتى تنصرني)** على أعدائي أي النفس وجنودها **(وتنصر بي)** أي تنصر أحبابي وأصحابي على أعدائهم بسببي. قال الشاذلي قدّس الله سره: واجعلنا سبب الغنى لأوليائك وبرزخاً بينهم وبين أعدائك **(وأغنني بفضلك)** أي شهودك **(حتى أستغني بك)** أي بشهودك **(عن طلبي)** منك، لأن من كان مشاهداً للحق حاضراً معه يستحي أن يطلب منه شيئاً لرؤيته أنه مطلع على حاله لا يخفى عليه شيء منها، ومن كان كذلك لا معنى للطلب منه. قال الشاذلي قدّس الله سره: والسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك **(أنت الذي أشرقت الأنوار)** أي المعارف والأسرار **(في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذي أزلت الأغيار)** أي المكونات والتعلق بها **(من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤوا إلى غيرك)** وهم أولياؤك وهذا من عطف السبب على المسبب، لأن زوال الأغيار سبب في شروق الأنوار **(أنت المؤنس لهم)** أي المدخل للسرور على قلوبهم بتجليك **(حيث أوحشتهم العوالم)** التي كانوا يألفونها وتتعلق قلوبهم بها من أصحاب وأولاد وأموال وغير ذلك، فإن من حصل له أدنى شيء من شهود الحق وتودده لم يستوحش لشيء من ذلك، بل يغيب عنه ولم يستأنس بشيء

إليه، فإن لله عباداً استأنسوا بالله فكانوا في وحدتهم أشد استئناساً من الناس في كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون. **(وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم)** لما تولى الله تعالى هدايتهم إلى طريق التوحيد والمعرفة أبان لهم عزمات ذلك ودلائله. فعند نظرهم في تلك العلامات والأدلة انشرحت صدورهم بأنوار الإيمان واليقين فلم يتداخلهم شك ولم يخالجهم ريب. والعالم جمع معلم كأنه رحمه الله تعالى، عرض في هذه الكلمات بالمطلب الذي بحصوله له يستغني عن الطلب وهو إشراق الأنوار في قلبه وإزالة الأغيار عن سره وإيناسه له وهدايته إياه وهذه الأربعة مطالب متضمنة لأسنى الرغائب. **(ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك)** قد تقدم غير ما مرة أن ما سوى الله تعالى عدم وظلمة وأن الوجود الحق والنور المتحقق إنما هو الله عزّ وجلّ، فإذا كان الأمر على هذا صح ما قاله المؤلف رحمه الله تعالى هاهنا، وكان حقاً لا مرية فيه. قال أبو علي الروذباري رضي الله عنه: سألني أبو بكر الدقاق رضي الله عنه فقال لي: يا أبا علي لم ترك الفقراء أخذ البلغة في وقت الحاجة؟ فقلت: لأنهم يستغنون بالمعطي عن العطاء. فقال: نعم. ولكن وقع لي شيء آخر فقلت: هات أفدني ما وقع لك. فقال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود إذ الله فاقتهم ولا يضرهم الفاقة إذ الله وجودهم.

وكان أبو حمزة البغدادي رضي الله عنه يقول في مناجاته: اللهم إنك تعلم أني من أفقر خلقك إليك، فإن كنت تعلم أن فقري إليك بمعنى هو غيرك فلا تسُدَّ فقري. **(لقد خاب من رضي دونك بدلاً ولقد خسر من بغي عنكَ متحولاً)** هذا بيّن وهو مبني على ما تقدم الآن من الكلام رُئي الشبلي رضي الله عنه في المنام بعد وفاته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال لم يطالبني بالبراهين على الدعاوى إلا على شيء واحد قلت: يوماً إلا خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار. فقال: وأي خسارة أعظم من خسران لقائي. وفي معناه أنشدوا:

سَهَرُ العُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلٌ وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

وقال بعضهم: كان عندنا رجل مكث عندنا ثلاث عشرة سنة يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فإذا صلى العصر احتبى واستقبل القبلة ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً بل عجبت للخليقة كيف استأنست بسواك ثم يسكت إلى المغرب. **(إلهي كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان)** هذا تعجيب ممن كان على هذا الوصف وهو أعجب من كل عجيب والمعنى في ذلك بيّن. **(يا مَنْ أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين)** التملق هو التلطف في التودد وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين. **(ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين)** استعزازهم بعزته هو رفع هممهم عن

منه بل ينفر عنه بقلبه **(وأنت الذي هديتهم)** بنور منك **(حتى استبانت)** أي ظهرت **(لهم المعالم)** أي طرق الحق التي سلكوها، فإن ظهور ذلك لا يكون إلا بهداية منك **(ماذا وجد من فقدك)** أي فقد شهودك، ولم يشهد إلا ذوات المكونات، وهذا كناية عن كونه لم يجد إلا شيئاً حقيراً **(وما الذي فقد من وجدك)** أي لم يفقد شيئاً، بل حصل على غاية المقصود حيث كنت سمعه وبصره وجميع قواه **(لقد خاب من رضي دونك بدلاً)** كالشهوات واللذات الدنيوية والأخروية، فقد رُئي الشبلي في المنام بعد وفاته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: لم يطالبني بالبراهين على الدعاوى إلا على شيء واحد، قلت يوماً لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار، فقال: وأي خسارة أعظم من خسران لقائي **(ولقد خسر من بغى عنك متحولاً)** أي طلب التحول عن حضرتك إلى التعلق بغيرك كالكرامات والمكاشفات، فقد تقدم أن هذا شبيه بمن طلب منه الملك أن يكون جليسه، فلم يرض إلا بسياسة الدواب **(إلهي كيف يرجى سواك)** أي يتعلق القلب بالطلب منه **(وأنت ما قطعت الإحسان)** بل إحسانك دائم مستمر **(وكيف يطلب من غيرك)** أي يتوجه إليه بالطلب **(وأنت ما بدلت عادة الامتنان)** أي عادة هي الامتنان، أي الإحسان **(يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته)** المؤانسة سرور القلب بشهود جمال المحبوب شبه بشيء له حلاوة، وهي تخييل والإذاقة ترشيح **(فقاموا بين يديه متملقين)** التملق هو التلطف في التودد كأن يقول الإنسان حفظك الله سترك الله، وهو هنا كناية على الطلب من المولى بذلة وانكسار، وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين **(ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته)** أي ملابس هي هيبته أو هيبته الشبيهة بالملابس الحسية، والمراد بالهيبة الجلالة والعظمة التي كساها الله لأوليائه، فكل من رآهم حصل له رعب منهم كأنهم أسود **(فقاموا بعزته مستعزين)** أي قاموا بين يديه مستعزين بعزته بأن رفعوا هممهم عن تعلقها بالأغيار تيهاً وتكبراً عليها وثقة منهم به، وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته

تعليقها بغير الله تعالى تيهاً وتكبراً عليها وثقةً منهم به وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم إلى سواه ولذلك قالوا: المعرفة حقر الأقدار سوى قدره ومحو الأذكار سوى ذكره. قال بعض المشايخ: إذ عظم الرب في القلب صغر الخلق في العين. وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] قال: بأن يكون لك بك معك بين يديك. **(أنت الذاكر من قبل الذاكرين وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين. وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين)** الحق تعالى له الأولية فيما ذكر كما ذكر. قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت في ابتداء أمري في أربعة: أشياء توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري ومعرفته تقدمت معرفتي ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أول حتى طلبته، فإذا كانت له الأولية في ذلك لم يبق للعبد وسيلة يتوسل بها سوى فضله وكرمه. ومما يوافق ما ذكره المؤلف ما حكي عن الجنيد رضي الله عنه، أنه كان يقول في مناجاته: يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ويا بادئ العارفين بما به عرفوه، ويا موفق العابدين لصالح ما عملوه من ذا الذي يشفع عندك إلا بإذنك من ذا الذي يذكرك إلا بفضلك واستقراض الرب من عبده ما وهبه له غاية في ترفيعه لقدره وإبانته لشرفه ووعده مع ذلك جزيل الثواب عليه نهاية في إكرامه له وتفضله عليه.

قال بعضهم: ملكك ثم اشترى منك ما ملكك ليثبت لك معه نسبة ثم استقرض منك ما اشتراه ثم وعدك عليه من العوض أضعافاً بيَّن فيه أن نعمه وعطاياه بعيدتان أن يكونا مشوبتين بالعلل. **(إلٰهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك)** لا سبيل للعبد إلى وصوله إلى الله تعالى إلا برحمته فلذلك طلب منه أن يطلبه بها ولا يتأتى له الإقبال عليه إلا بمنَّته فلذلك طلب منه أن يجذبه إليه بها وذلك لتحقق الأولية، التي ذكرناها من قبل. **(إلٰهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك)** الخوف والرجاء حالان يتعاقبان على قلب العبد واعتدالهما واستواؤهما هو المطلوب سواء كان العبد في طاعة أو في معصية، وقد مثلوا ذلك بكفتي الميزان وجناحي الطائر، وهذا من أعلى مشاهدة العارفين والأولياء وذلك لأن منشأهما عندهم إنما هو شهود الصفات المخوفة والمرجوة. وصفات الله تعالى لا تفاوت فيها، فكذلك مشاهدتها لا تفاوت فيها فإن وقع فيها تفاوتٌ، كانت مشاهدة ناقصة وأحوالاً معلولة، فلذلك يتصور وجود كمال الخوف مع عمل العبد بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكابه للمعصية كما وصف به المؤلف نفسه.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحررها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله: من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل.

حتى لم يهابوا معه غيره، ولم تتأله قلوبهم إلى سواه **(أنت الذاكر من قبل الذاكرين)** أي أنت الذي ذكرتهم بالإحسان إليهم في الأزل بأن تعلقت إرادتك بوجودهم فيما لا يزال، فهذا ذكره لعباده قبل ذكرهم له، ويحتمل أن يراد بذكره لهم توفيقه لهم لذكره إذ لا لولاه ما ذكروه وقوله: **(وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين)** يرجع لما قبله وكذا قوله: **(وأنت الجواد)** أي المحسن بالعطاء **(من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب)** أي كثير الهبة أي الإعطاء للعطايا كالأعمال الصالحة والأحوال السنية **(ثم أنت لما وهبتنا)** أي الشيء الذي وهبته لنا **(من المستقرضين)** كأنك قلت: أقرضوني هنا أعطكم بدله في الدار الآخرة. قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١] واستقراضه تعالى من عبده ما وهبه له غاية في تلطفه به، وإعلائه لقدره وفيه إشارة إلى أن إحسانه تعالى وإعطاءه ليس مشوباً بالعلل **(إلٰهي اطلبني)** إلى القرب منك **(برحمتك)** أي إحسانك **(حتى أصل إليك)** فإنه لا سبيل إلى الوصول إليك إلا برحمتك لا بأعمالي المدخولة، والطلب إن كان من الأعلى كالسلطان لم يحصل في الوصول مشقة، بخلاف ما إذا كان من الأدنى **(واجذبني بمنتك)** أي إحسانك فلا يصير لي قدرة على الامتناع **(حتى أقبل عليك)** وهو بمعنى ما قبله **(إلٰهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك)** لمعرفتي أنك المبدئ بالإحسان، ومن هو كذلك يرجى خيره ولو مع المعصية **(كما أن خوفي لا يزايلني)** أي لا يفارقني **(وإن أطعتك)** لعلمي بأنك الفعال لما تريد، فالطاعة لا تقتضي رفع سخطك وزوال عقابك

ومن دعاء سيدي أبي العباس رضي الله عنه: إلٰهي معصيتك نادتني بالطاعة وطاعتك نادتني بالمعصية ففي أيهما أخافك وفي أيهما أرجوك، إنْ قلت بالمعصية قابلتني بفضلك فلم تدع لي خوفاً، وإن قلت بالطاعة، قابلتني بعدلك فلم تدع لي رجاء. فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك؟ ومن كلامه أيضاً رضي الله عنه: العامة: إذا خوفوا خافوا وإذا رجوا رجوا والخاصة: متى خوفوا رجوا ومتى رجوا خافوا. قال في **(لطائف المنن)**: ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر فمتى خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله وأهل الله إذا خوفوا رجوا عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من منته فاحتالوا على أوصاف كرمه علماً منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك إليه وإذا رجوا يخافون غيب مشيئته الذي هو من وراء رجائهم وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن في مشيئته؟ فلذلك أثار الرجاء خوفهم. **(إلٰهي قد دفعتني العوالم إليك)** إنما دفعته العوالم إليه لما تضمنته من السمات الموحشة كما تقدم، ولقد أحسن من قال: لا وحشة مع الله ولا راحة مع غير الله وفي هذا المعنى أنشدوا:

يَا قُرَّةَ العَيْنِ سَلْ عَيْنِي هَلِ اكْتَحَلَتْ ... بِمَنْظَرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عَنْ عَيْنِي

(وقد أوقفني علمي بكرمك عليك) إذ الكريم لا تتخطاه آمال المؤملين ولا يتوجه نحو سواه طلب الطالبين. **(إلٰهي كيف أخيب وأنت أملي أم كيف أهان وعليك متكلي)** لما تعلق بالله تعالى وتوكل عليه استبعد أن يخيب أمله أو يناله هوان يؤده تحمله. **(إلٰهي كيف أستعزُّ وأنت في الذلة أركزتني أم كيف لا أستعز وإليك نسبتني أمْ كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني)** تلونه في هذه الأوصاف المتضادة لما يغلب عليه من مشاهدة ما يوجبها والذلة المثبتة هنا هي ذلة الخليقة والعبودية والنسبة التي أشار إليها هي سر الخصوصية والافتقار بمعنى الذلة والاستغناء بمعنى العزة. قال بعضهم: رأيت ذل كل، ذي ذل فزاد ذلي على ذلهم ونظرت في عز عز كل ذي عز فزاد عزي على عزهم. وقال الشبلي رضي الله عنه: لقد ذللت حتى عز في ذلي كل ذي ذل وعززت حتى ما تعزز أحد إلا بي وبمن به تعززت. **(أنت الذي لا إلٰه غيرك تعرفت لكل شيء فما جهلك**

خصوصاً، وهي مدخولة معلولة ومنشأ اعتدال الخوف، والرجاء عند العارفين شهود الصفات المخوفة والمرجوة، فكما أن صفاته تعالى لا تفاوت فيها، كذلك شهودها لا تفاوت فيه، فإن وقع فيه تفاوت كان شهوداً ناقصاً، فلذا يتصور عندهم كمال الخوف مع العمل بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكاب المعصية كما وصف به المصنف نفسه **(إلٰهي قد دفعتني العوالم إليك)** وذلك أني إذا توجهت إلى أحد ليعطيني أو ينصرني يقول لي: لا معطي إلا الله ولا ناصر إلا هو، ويحتمل أن يراد بالعوالم جميع ما عدا الله، فإذا ظهرت لي كرامة وكشف لي عن شيء من الكون، وأردت أن أقف عنده تقول لي حقيقته لا تعلق بي، بل تعلق بمولاك وكذا إن خاطبتني الجمادات، وأردت أن أقف عند ذلك تقول لي حقيقتها لا تتعلق بي، بل تعلق بمولاك، فكل شيء يدفعني إليك **(وقد أوقفني علمي بكرمك عليك)** أي على بابك، فالحامل على وقوفي ببابك علمي بكرمك، والكريم لا تتخطاه آمال المؤملين، ولا يتوجه نحو سواه طلب الطالبين **(إلٰهي كيف أخيب)** أي يحصل لي خيبة وعدم ظفر بالطلوب **(وأنت أملي)** أي الذي أملت العطاء منه لأن عادتك الإحسان **(أم كيف أهان)** أي يحصل لي هوان وذل **(وعليك متكلي)** أي اتكالي واعتمادي **(إلٰهي كيف أستعز)** أي يحصل لي عز في نفسي **(وأنت في الذلة أركزتني)** أي أقمتني في الذلة وجعلتها مركزاً ومكاناً لي لا أفارقها **(أم كيف لا أستعز)** أي يحصل لي عز بك **(وإليك نسبتني)** أي وقد نسبتني إليك نسبة خاصة بإفاضة الأنوار على ظاهري وباطني حتى صار كل من رآني يقول: هذا ولي الله فأنا ذليل من وجه عزيز من آخر **(أم كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني)** فهو صفة لازمة لي، ومن لازمه الذلة فيرجع لما قبله **(أم كيف أفتقر وأنت الذي بوجودك)** أي بشهودك وفي بعض النسخ بجودك، أي إحسانك إلي بالشهود فيرجع لما قبله **(أغنيتني)** حتى حصل لي عز بك، فالافتقار يرجع للذلة والاستغناء للعزة، وتلونه في هذه الأوصاف المتضادة بحسب الظاهر لما يغلب عليه من مشاهدة ما يوجبها، والذلة المثبتة هنا هي ذلة الخليقة والعبودية، والنسبة التي أشار إليها هي سر الخصوصية كما تقرر **(أنت الذي لا إلٰه غيرك)** يعبد أو يستند إليه في شيء **(تعرفت لكل شيء)** أي جعلت نفسك معروفاً لكل شيء بما أودعته فيه من النور الذي عرفك به **(فما جهلك شيء)** بل صار كل شيء يعرفك **(وأنت الذي تعرفت إلي في**

شيء وأنت الذي تعرفت إليَّ في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء فأنت الظاهر لكل شيء) هذا كله قد تقدم معناه ولفظه في كلام المؤلف على غاية الكمال والتمام والحاصل منه أن الظهور التام لله تعالى بكل اعتبار ثم أنه عبر هنا عن ذلك بعبارة لم يذكرها فيما تقدم وهو قوله: **(يا من استوى برحمانيته على عَرْشه فصار العرش غيباً في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه)** كأنه أشار بهذا إلى معنى قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وغيرها. الرحمٰن ورحمانية الله تعالى كونه رحماناً، والرحمٰن اسم لله تعالى يقتضي وجود كل موجود وهو مشتق من الرحمة. والرحمة هاهنا هي الرحمة العامة التي وسعت كل شيء كما وسع علمه كل شيء في قوله تعالى مخبراً عن حملة العرش ﴿إِذْ قالُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧] ولذلك دخلت تحت مقتضى اسمه الرحمٰن جميع أسمائه تعالى الإيجادية ويفهم من معنى الاستواء القهر والغلبة ومقتضاهما في حق الله تعالى أن لا يكون لغيره وجود مع وجوده ولا ظهور مع ظهوره، فلا جرم لما كان الحق تعالى مستوياً برحمانيته على عرشه الذي العوالم كلها في طيه كان العرش غيباً في الرحمانية. والعوالم غيب في العرش لأنها في طيه فلا ظهور إذاً للعرش ولا للعوالم، وإنما الظهور التام لله عزّ وجلّ. **(محقت الآثار بالآثار)** كما بين العوالم والعرش. **(ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار)** كما بين العرش والرحمانية ومحيطات أفلاك الأنوار هي أسماء الله الحسنى والله تعالى أعلم. **(يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار)**. عزة الله تعالى اقتضت كون كل ما سواه محجوباً عن رؤيته لله عزّ وجلّ فإن العزيز معناه المنيع الذي لا يوصل إليه يقال: حصن عزيز إذا تعذر الوصول إليه. وقيل: العزيز الذي لا يرتقى إليه وَهْمٌ طمعاً في تقديره ولا يسمو إلى صمديته فهم قصداً إلى تصويره. وقيل: العزيز مَنْ ضَلَّتِ العقول في بحار تعظيمه وحارت الألباب دون إدراك نعته وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله ووصف جماله. قال رسول الله ﷺ: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». وذكر السرادقات مضافة إلى عزه واحتجابه فيها مجاز حسن. **(يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار)** كمال بهائه محاسن صفاته وأسمائه فبظهور ذلك وتجليه بها تحققت عظمته أسرار العارفين. **(كيف تخفى وأنت الظاهر أَمْ كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر والله الموفق وبه نستعين)** هذا كله بيّن لا إشكال فيه والحمد لله وقد تقدم معناه غير ما مرة من كلام المؤلف رحمه الله.

كل شيء) بأن أودعت في نوراً **(فرأيتك ظاهراً في كل شيء)** بسبب ذلك النور **(فأنت الظاهر لكل شيء)** مفرع على ما قبله **(يا من استوى)** أي استولى **(برحمانيته)** أي برحمته **(على عرشه)** فصار العرش تحت حكمه وقهره كاستيلاء السلطان بجنوده على أهل بلد، فشبه المولى بسلطان ورحمته بالجنود وعرشه بأهل القرية **(فصار العرش غيباً)** أي غائباً ليس له وجود **(في رحمانيته)** أي بالنسبة لرحمته **(كما صارت العوالم)** أي السموات والأرضون وما فيهما **(غيباً)** أي غائبة **(في عرشه)** أي ليس لها وجود بالنسبة له، ثم بين ذلك بقوله: **(محقت)** يا الله **(الآثار)** وهي السموات والأرضون وما فيهن **(بالآثار)** وهو العرش لأنه أثر الرحمة والعوالم بالنسبة له كلا شيء **(ومحوت الأغيار)** وهو العرش **(بمحيطات أفلاك الأنوار)** أي بالأنوار الشبيهة بالأفلاك المحيطة بالعرش، وهي تلك الرحمة.

والحاصل أن رحمته تعالى أي إحسانه هو الذي اقتضى وجود العوالم كلها من عرشها لفرشها، ولولا إحسانه لها بالوجود ما وجدت، فالمراد بالرحمة الرحمة العامة التي وسعت كل شيء **(يا من احتجب)** أي امتنع **(في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار)** أي في عزه الشبيه بالسرادقات جمع سرادق بمعنى الخيمة التي تنصب على صحن الدار، فالسرادقات الخيام وهو من إضافة المشبه به للمشبه، فكما أن الخيمة تمنع من رؤية ما بعدها كذلك عز الله أي قوته العظيمة يمنع عن رؤيته بالأبصار، ثم إن أريد رؤية الإحاطة فهي ممتنعة في الدنيا والآخرة. وإن أريد مطلقاً فهي ممتنعة في الدنيا واقعة في الآخرة للمؤمنين، فعزه تعالى اقتضى حجب ما سواه عن رؤيته، فإن العزيز معناه المنيع الذي لا يوصل إليه يقال: حصن عزيز إذا تعذر الوصول إليه، وقيل: العزيز الذي لا يرتقي إليه. وقيل: العزيز الذي ضلت العقول في عظمته وحارت الألباب عن إدراك نعته وكلت الألسن عن استيفاء مدحته **(يا من تجلى)** على قلوب العارفين **(بكمال بهائه)** أي بمحاسن صفاته أي بصفة جلاله وجماله **(فتحققت عظمته)** أي كونه عظيماً عظماً لا نهاية له **(الأسرار)** أي بواطن القلوب **(كيف تخفى وأنت الظاهر)** بذاتك أي في جميع الأشياء كما يقوله أهل الشهود، أو بظهور أفعالك وتصرفاتك في العالم كما يقول

قال مؤلف هذا الكتاب: وقد نجز بحمد الله ما أردناه، وبلغنا الغرض الذي قصدناه، ولا حول لنا في ذلك ولا قوة إلا بالله، وبذلك تبين ما عندي من مسائل الكتاب، والله تعالى الهادي إلى الصواب. وقد تقدم في أول هذا التنبيه أني لم أقصد فيه إلا هذا المعنى، ولم نلتزم كون ما ذكرناه فيه صحيح المبنى حتى نحتاج إلى نصب الأدلة والبراهين على ما ادعيناه فيه وإنما سقنا ذلك على سبيل حكاية مذهب من المذاهب وللمحكى له ذلك أن يصححه أو يبطله، إن أحب، وما وقع فيه من توخى استدلال على مطلب من المطالب فأنا في ذلك متبرع، فإن صح ذلك الدليل، فهو المطلوب، وإن بطل، لم يلزم من بطلانه بطلان المدلول وبقي المذهب قابلاً للتصحيح أو الإبطال من غير أن تتوجه على مطالبة بذلك. والذي حملني على سلوك هذا السبيل، ما فيه من وجدان السلامة لي من الخطر الذي يتعرض له كل مَنْ يتكلم على طريق التصوف ممن لا تحقق له فيه ويدّعي صحة ما ينظره بعقله وفهمه وينسب ذلك إلى القوم، ولعل شيئاً من ذلك لا يصح عنهم، فيكون بذلك مفترياً كذاباً عليهم، ثم فيه من سوء الأدب معهم والتقدم بين أيديهم ما لا يقوم له شيء. وعند ذلك يكون الخَرَسُ والبُكْمُ وذهاب الحس والحركة أولى به وأحمد عاقبة له لتخلصه بذلك من شر لسانه وبنانه. ثم إن ما قصدناه من ذلك لا يمنع من حصول الفائدة لمن أراده الله تعالى بها ووفقه لها، فعلى العبد أن يعمل على خلاص نفسه ولا يلزمه اتباع مرضاة غيره. فقد قيل: رضا الناس غاية لا تُدرك، ونحن نرغب إلى من وقع بين يديه هذا التأليف وظهر له فيه خطأ أو تحريف، أن يصلح منه ما ألفاه مختلاً، وأن ينتهج من الاعتذار عنه الطريقة المثلى. وإن ظهر له أن يضع في ذلك تأليفاً يتضمن تنبيهاً وتعريفاً، فذلك من المذهب الذي يُرْتَضَى، ومما لم يزل من شأن من قد مضى، ونحن نستغفر الله تعالى مما يعلمه منّا من التّعدي والجراءة فيما تعرضنا له من بيان كلام الأولياء والراسخين من العلماء وتقرير عباراتهم وإشاراتهم من غير اطلاع منا على كنهها ولا بصيرة فيها، ونستغفره أيضاً مما أقدمنا عليه من إظهار ما ستروه وإعلان ما أسروه، ونستغفره أيضاً مما وقع منا فيه من ذكر أحوال الأولياء رضي الله عنهم، ومقاماتهم وتحريضنا على سلوك طريقهم المستقيم مع إفلاسنا من جميع ذلك وعدم احتظائنا به ونسأله مع ذلك، أن لا يؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائرنا وأكنته سرائرنا من أنواع القبائح والمعايب التي يعلمها منا ولا نعلمها أو نعلمها ولا تسمح نفوسنا بالتنقي منها والتنزه عنها اغتراراً منا بحلمه واستهانة بنظره وعلمه ونرغب إليه جَلَّ وعلا، أن يَمُنَّ علينا بتوبة تمحو عنا كل حَوْبةٍ حتى تنقلب أعداؤنا عنا خائبين خاسئين داخرين صاغرين لم ينالوا من تحقق إرادتهم فينا مطلبا، ولم يبلغوا من عدم إسعافه إيانا بما طلبناه منه مأرباً، وأن يشمل في ذلك معنا كل من أمن على هذا الدعاء ممن سمعه وممن دعا لنا بمثله من إخواننا المسلمين، ونتوسل إليه في بلوغ الأمل والوصول إلى المبتغى الأجل بما انصرفنا به عن كل جحود وكفور، وأخرجنا على يديه من الظلمات إلى النور سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وحبيب رب العالمين، وصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه البررة الأكرمين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين.

غيرهم **(أم كيف تغيب وأنت الرقيب)** أي المراقب لنا في حركاتنا وسكناتنا **(الحاضر)** الذي ليس بغائب، لأنه لا يلزم من المراقبة الحضور، إذ قد تحصل الإحاطة بأفعال الغير وأحواله بالمكاتبة والمراسلة، وهذا آخر ما تيسر رقمه على هذا الكتاب المبارك على وجه لطيف جعله الله خالصاً لوجهه الكريم بمنه وكرمه آمين.

تم ذلك الشرح يوم السبت المبارك لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوال من شهور سنة أربع بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد أفقر العباد إلى الله عبد الله الشرقاوي الخلوتي وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس

الجزء الثاني

من

شرح الحكم

الفهرس